

المناهل



المناهل

تصدرها

وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية
الرباط - المغرب

ربيع الأول 1398
مارس 1978

العدد الحادي عشر
السنة الخامسة

تَهْنِئَةُ "الْمَنَاهِلِ" بعيد العرش السعيد

يُشْرَفُ لَوْ سِرَّةُ "الْمَنَاهِلِ" وَسَعْدُهَا لَوْ تَرَفَّعَ بِمَنَاسِبِهِ
حَيْدُ الْعَرْشِ السَّعِيدِ لَسَمِيَ آيَاتُ التَّحَانِي وَالْتِبْرِيكِ
إِلَى رَأْسِ نَحْضَةِ الْبُلَادِ، وَرَأْسِ الْأُوبِ وَالْأُوبَاءِ،
وَمُخْرَجَةِ الْعِلْمِ وَالْعُرْفَانِ وَالْبَيَانِ، حَضْرَةِ صَاحِبِ الْجَلَالَةِ
الْمَلَكِ الْعَظِيمِ الْحَسَنِ الثَّانِي نَصْرَهُ اللَّهُ صَانِعِ الْمَغْرِبِ الْفَجِيرِ
و"الْمَنَاهِلِ" لَوْ تَرَفَّعَ حَوْلَ طِفْهِ الْبَيْكَةِ الْآخِرَةِ بِالْمُجِدِّ
إِلَى سَقَامِ حَضْرَةِ صَاحِبِ الْجَلَالَةِ مَقْرُونَةً بِوَلَدَتِهَا دُخْلُهَا
تَضَرَّجَ إِلَى لَهْفَةِ الْعِلَى الْقَدِيرِ، لَوْ يَسْعَى بِهَذَا الْعَيْدِ
وَالْمُجْمُوعِ، هُوَ الْأُسْرَةُ الصَّغِيرَةُ وَالْكَبِيرَةُ، وَأَنْ يَقْرَحَ حَيْنَهُ
وَالْزَيْجَةَ بُوَيْحَةَ سَيِّدِي مُحَمَّدٍ وَبِصْنِهِ مَوْلَايَ الْوَرَشِيدِ،
وَالْأَمِيرَيْنِ الْعَزِيزَيْنِ الْمُحِبِّينِ، وَبِأَهْلِيهَا الْأَمِيرَاتِ
وَالْمُحَلِّلَاتِ، فَمَا تَضَرَّجَ إِلَيْهِ سَجَانَهُ لَوْ يَجْتَمِعُ جَزْءُ
وَالْعَافِيَةِ وَالسَّعَاوَةِ لَوْ يَحْقُقُ حَقِّي يَدِهِ الْفَرَحُ مَا يَطْمَحُ
إِلَيْهِ شَعْبُهُ مِنْ تَقَرُّمِ وَرَفَاهِيَةِ وَارْزُقَارِ.

الفهرس

صفحة

	تهنئة « المناهل » بعيد العرش السعيد
	فيلوبوليس (شعر)
9	عبد الله كنون
	الشفق والحناء وريش الطاووس
12.....	محمد العربي الخطابي
	معجم مصطلحات الملحون الفنية
16	د. عباس الجراري
	ادريس الاكبر فاتح المغرب
105	د. عبد الهادي التازي
	الفكر العلمى ومنهجية البحث عند علماء المغرب
121	عبد العزيز بنعبد الله
	مسكنة (قصة)
160	عبد المجيد ابن جلون
	قضية روديسيا ، تطورها التاريخى
167	د. شوقى عطا الله الجمل

	الاسلام والتطور في ضوء فلسفة محمد اقبال
217	محمد الكتاني
	قبلة للمغرب المسلم الحبيب (شعر)
235	عمر بهاء الدين الاميري
	المغرب في كتاب صبح الاعشى (4)
237	محمد ابن تاويت
	مأساة الحسين في الادب الاندلسي
261	د. عبد السلام الهراس
	لا تنبش القبور (قصة)
275	احمد عبد السلام البقالي
	صفحات من تاريخ الصويرة
303	الصديق بن العربي
	الوضع المالي لولاية مصر من 1517 الى 1798 م
325	د. فؤاد محمد الماوي
	حول رباط عبد الله بن يسن
354	عصمت فندش
	المرابطون بالاندلس من خلال ديوان الاعمى التيطلي
366	حسن الطريبقي
	الاعلام الثقافي
390	المناهل

فيلو. بوليس

عبدالله كنون

زرت هذه المدينة الاثرية الرومانية سنة 1947 فاوحت الي بالقصيدة التالية :

قف على أطلالها واعتبر كيف دالت دولة المستمعر
وسل الآثار عما أثرت تنبك الآثار عن مستأثر
وقس الشاهد بالغائب من نزوات الظالم المستهتر
واحتكم فيه على الدهر بما شاهدت عينك من معتبر (1)
لا تقل طال عليه أمد انما الأمر بوفق القدر
فكأن قد عصف الدهر به وطواه ثم لما ينشر
هو سطر رقمت أحرفه بنضار في جميع الزبر :

(1) مصدر ميمي بمعنى عبرة

انه ما دام طغيان ولا كانت العقبي لباغ مجتري

**

ايه روما ، والليالى غدر هل بصرت الحق أم لم تبصر
كان ما شيدته عن ثقة بدوام الفتح أم عن بطر
هذه القوس لنصر رفعت ولذكرى قنصل أو قيصر (2)
فغدت ذكرى لدحر ساحق ولتمجيد رجال غير
وغدا المسرح (3) عرضا دائما لمصير الدخلاء الخثر
هى ذى أشباحهم ماثلة بين أيدي حجر أو مدر
اننى أسمعها تصرخ من خلل الصمت العميق المزدري
وكلاب من نحاس مثلت قد عوت فى اثرهم من سعر (4)
وخراب ودمار كوننا بيئة مجبولة من كدر
تلك نار حسبوها جنة فرمتهم برجوم الشرر

**

أيها الواغل فينا اننا لم نطأ طيء رأسنا فى عصر

- (2) اشارة الى القاب حكام الرومان والمراد بها قوس النصر التى ما تزال قائمة وسط المدينة .
(3) المسرح الرومانى من آثار فيلوبوليس .
(4) من الآثار التى وجدت فى فيلوبوليس ، تمثال كلب من نحاس .

ان هذي مثلث قد خلّت فاحترز من مثلث آخر
لا يغرّنك ضعف ما ، بنا ضعفنا البركان لم ينفجر
هل يثور الشعب الا من ونى أو يمد البحر ان لم يجزر

**

ايه يا نشء البلاد المرتجى يا رجالات الغد المنتظر (*)
من لهذا الشعب فى نكبته من لهذا الوطن المحتضر
من له ينشله من هوة زل فيها قدم المستبصر
أدركوه يا بنيه وبه رمق قبل وقوع الخطر
أسرعوا لا تخلفوا الظن بكم بملافاة انتشار الضرر
طالما استصرخكم مستنهضا عزمات لم تلتن من خور
انكم عدته يوم اللقا فادفعوا عنه جيوش الغير
طنجة عبد الله كنون

(*) أنهى الشاعر القصيدة بهذه الايات التي املتها عليه غيرته الوطنية
فى تلك الظروف العصيبة أيام الحماية . وفيها ذكرى وموعظة .
(المناهل)

الشفق وإحشاء وريش الطاووس

محمد العربي الخطايب

مراكش الحمراء ،
مدينة مبسوطة في حقول الريحان ،
منازلها وأسوارها وأبوابها مضمخة بالحناء مشمولة بأردية
الشمس .
الشفق فيها يعبق برائحة الزيتون ، والنخيل العتيق يتحدث
الى السماء بلغة الالهة ، وأشجار البرتقال تزهر في أربعة مواسم .
ثراها ظل الاصيل ، والورد في بساتينها عطر أحمر وبه سميت
حمراء .

والعصافير — آلاف العصافير — تشقشق في أفنائها ، تسمعها
ولا تراها ، وأنت لا تدري أهي وسنانة أم أنها تتأهب للمرح قبل
أن تنام كي تحلم بمسك الليل وبقطرات الطل تتلألأ في غصون
الغسق وبحبات الخرطال تتناثر فوق العشب الندي .



مدينة يطالعك ، وأنت داخل إليها ، رداء « ابن يوسف » يلف
« الكتبية » الفرهاء الجلييلة فلا تحس بابن تاشفين «ودار الحجر»
الا حينما تطويك أسوار المدينة وتظلك في دروبها عرائش الكروم
والياسمين .

و « أبو العباس » أحد رجالها السبعة — يخاطبك حينما تتطلق
أصوات المؤذنين من فوق الصوامع فيحدثك عن السبحة الخضراء ..
عن « عياض » .. وأزهار رياضه .. عن «العود الملقى في البحر على
بطنه » .. فتتيه في مفاوز الزمن وفي عينيك لؤلؤتان باردتان .



وحينما تدغدغ همسات النسيم أذنيك تشعر وكأنك في مضارب
« المرابطين » تلتقي برجالهم ملثمين في الازقة والدروب يحملون
الشموع في أيديهم اليمنى والكتب في اليسرى ، وسرعان ما تذكر
خلوة « أغمات » وهي على مرمى الظل منك ، وتذكر « الخير الدا »
ومياه النهر الكبير تخطر في أعطاف « اشبيلية » هادئة خفيفة

خضراء .. وتذكر « البديع » وغرائد الشعر معلقة في أبهائه
وبراديه وقبابه .

ويشغلك المساء فتجد نفسك في زقاق طويل منعرج والناس
في دكاكينهم قاءدون وكأنهم لم يبرحوها منذ الزمن السحيق ...
حركات الايدي قديمة وتعابير الوجوه ثابتة لاتريم ، والسواعد
تتحدى الايام والليالى ...

**

وبغته تمر عليك سمراء معطرة بماء الزهر وبخور النسد ،
سمراء في لون الشهدة مفتونة بصباها .. عينها خلاصة العيون ،
وشفتها رحيق الزبيب والبلح .. تراها وتتنهد غلا يفيدك التنهد،
وتهم بالسير وراءها غيمنعك الوقار .. وقارها .

وتطل عليك أخرى من كوة في الحائط فيمتلىء بك المكان
وتتناقل خطاك ، دهشة ، ويخيل اليك أنك تلامس شعرها الممزوج
بخصلات الظلال فتبتسم أنت ، وتبتسم هي .. وينتهى الحوار في
الهواء ليبدأ الهمس في الجوارح .

**

وفي بستان « المسرة » ، بعد لأي ، تنسى العيون والقدود
والشفاه ، وتغيب نظراتك في مياه الصهريج فتختلط بأشباح النخيل

وأطياف السماء وعيون النيلوفر ، وكل شيء يبدو في لون خضرة غامقة متموجة دافئة .

وتسمع الطبول والدفوف والمزامير — أو يخيل اليك أنك تسمعها — غيبداً الرقص والسمر ، ويمتزج المرح بالوحشة ، والقرب بالهجران ، وبنات الاطلس ، في أرديتهن البيضاء ومجاديلهن الملونة ، يملأن المكان ترنيما وحركة وبهجة .



في مراكش .. يتعانق النخيل والبرتقال والزيتون في الليل .. وينتهى العناق مع الفجر احتفالاً ببهاء الشمس . ويبدو كل شيء في لون الضوء شفافاً نافذاً مشوباً بسمرة الحنطة .

حتى الوجوه والقباب والجدران ومشارف المدينة تتشرب هذا الضوء الطروب فتتضمخ به وتنتهر .

مراكش الحمراء .. حقولها موشاة بريش الطاووس ، وحواشيتها منمنمة بأوراق الكروم وأزهار المشمش والجلنار .

الزلال في مائها زلال ، والنسيم في أكنافها شفاء ، والعطر في رياضها عشق وصباة . نهارها رجاء ، وليلها دعاء ، وفجرها صلاة واستجابة .

محمد العربي الخطابي

الرباط

المعجم

مصطلحات الملحن الفنية

د. عباس بجري

تعتبر قصيدة الزجل التي اشتهرت بقصيدة الملحن ، اهم الوان الادب الشعبي المغربي ، لغزارة مضامينها وتنوع اشكالها وتعدد ظواهرها الفنية ، فضلا عن وضوح كثير من ملامح مسيرتها التاريخية واقبال الشعراء عليها وكذلك الجمهور .

ومن ثم اتسمت بخصب في مجال الابداع ، تبلورت مظاهره في محتوى غنى واطار متجدد ، نتج عنهما غنى وتجدد في اللغة التي توصل بها الشعراء في التعبير ، سواء ما كان منه يمس الاغراض المختلفة التي تناولوا ، او ما كان ينصب على المصطلح الفني والنقدي الذي حددوا به مقاييس النظم وميزوا معايير الانشاد ، في ابداع حر تارة ، واقتباس من تارة اخرى من اللغة المعربة الفني ادبها نقدا وعروضا وبيانا وبديعا .

وقد لفت انتباهي هذا الجانب الاخير اثناء انجازي للاطروحة التي قدمت عن الملحن (1) ، وظل يشدني اليه ويغري بضرورة ابرازه ليفيد

(1) طبعت بعنوان : الزجل في المغرب - القصيدة (الرباط - مارس 1970)

منه الادباء النقاد والباحثون اللغويون والمهتمون بادب الشعب وفنه وتراثه عامة ، وليطرح في نطاق عربي مختص على بساط الرصد والتنسيق والتوحيد . وهو هدف لا شك في أن العرب يسعون جميعا الى تحقيقه في شتى مجالات المصطلح ، ومنذ امد غير يسير ، وان كانوا دون ذلك يصادفون مشاكل ومصاعب وتعثرات .

واعتقد ان مؤتمرا عربيا للموسيقى يلتقى فيه الباحثون لدراسة الاغنية الشعبية ، جدير بأن يهتم بالمصطلحات المتعلقة بهذه الاغنية ، بل هو مدعو الى تناول موضوع تلك المصطلحات للتعرف اليها ورصدها في كل اشكال الاغنية الشعبية للنظر في امكان التنسيق بينها والتوحيد .

وانى اذ اقدم (2) مجموعة من مصطلحات الملحون الفنية في شكل معجم يضم ازيد من ثلاثمائة مصطلح ، أرجو أن يكون هذا العمل منى خير تحية للمؤتمر الخامس للمجمع العربى للموسيقى ، وهو ينعقد في المغرب الفنى بما ابدع ابناءؤه من انتاج ، وما قدموا من عطاء رفدوا به التراث العربى الاسلامى الزاخر ، ولا يزالون .

فلعلنى ان اكون فتحت الباب لموضوع في غاية الاهمية والالاحاح ، وعسى المؤتمر ان يوليه ما يستحق من عناية .

(2) قدم الكاتب هذا المعجم للمؤتمر الخامس للمجمع العربى للموسيقى الذى عقد بالرباط فى الفترة ما بين 18 و 27 أكتوبر 1977 .

تنبيه

الفت نظر القاريء الكريم الى هذه الملاحظات :

- 1 — انى كتبت المصطلحات وغيرها من الكلمات الملحونة كما ينطق بها.
- 2 — انى كتبت القاف التى تنطق جيما مغلقة كافا بثلاث نقط : كـ
- 3 — انى بدأت بحرف الف كل الكلمات التى يستهل نطقها بسكون .
- 4 — انى سايرت النطق العامى فى اعتبار بعض الحروف المعجمة مهملة ، كالذال مثلا فانه لا يلفظ الا دالا . ومن ثم ادخلت تحت بابه حتى الكلمات التى تبدأ فى اللغة المعربة بالذال .
- 5 — انى اثناء شرح مصطلح ما قد اتوسل بمصطلح آخر اتبعه بكلمة (انظره) ، اعنى بذلك انى احيل القاريء اليه .

* **السودبا :**

الشعراء ، وهو تحريف ادباء .

* **الادريسيات :**

قصائد مدح المولى ادريس ، كهانه التى يقول الفقيه العميري فى حربتها :

عز ربى الماجد الصفا ولوفا الدريسي مولاي ادريس بن الوافي

* **الاصبهان :**

نوبة موسيقية (انظر : نوبة)

* **اهل :**

يقال : هل لقوا فى — اهل النظام — اهل اللغا — اهل السجية — هل لمعانى ، يتصد بهم الشعراء .

* **الايبوية :**

قصائد تحكى قصص الانبياء والاولياء وتحاول ابراز ما فيها من خوارق وكرامات ، كما تحكى جوانب من السيرة النبوية المتصلة بحروبه عليه السلام مع الكفار ، ويطلق عليها كذلك : الغزوات . ولعل المغراوي كان أكثر الشعراء نظما فى هذا الموضوع ، وقد اشتهرت من قصائده فيه : الموعودة والشدايدة وجريز بن جريز . ومن الذين عالجوه كذلك الجيلالى امتيرد فى قصيدته : النباش ، والكبير بن عطية فى العيواجية ، وغانم القصري فى الكهنية ، وأحمد الغرابلى فى النمرودية ، والمكى ابن القرشى فى البغدادية .

*** بدل :**

نوع النغمات في القصيدة الواحدة (انظر : فجع) : مثال ذلك
قصيدة المزيان للعلمي ، وحريتها :

حن واشفق واعطف برضاك بالمزيان

لا اسحبا ميعاد الله يالهاجر

فان بعض المنشدين البارعين يبدأونها على ميزان الاستهلال ،
ثم ينتقلون الى رمل الماية فالحجاز فالصيغة . ويطلق على هذا التنويع :
لبدال .

*** البرص :**

1 — استعمال الاعراب والكلمات العربية في الملحون

2 — اتخاذ حرف الهمزة قافية ، وهو نادر ومن هيوب القافية
في الملحون .

*** لبساط :**

ادوار تمثيلية كانت تستعمل فيها قصائد المحاورات (انظره) .

*** البستان :**

عنوان لبعض قصائد وصف الطبيعة، كهاته التي يقول ابن على
المسنيوي في حريتها :

يا مس بالعشير ريت افلبستان شلا انعيد لك بلسان بين لفصان
مرجا وانراجا وقعت للكلان وام لحسن

* البسيط :

ميزان موسيقى (انظر : ميزان)

* البطايحي :

ميزان موسيقى (انظر : ميزان) .

* بالغ :

يقال كلام بالغ بمعنى بليغ .

* البوغاز :

عنوان لبعض قصائد الهجاء كهاته التي يقول أحمد الغرابلي في
حريتها :

هكذا قل للداعي ايدير بوغاز امزبرج

كل من حك اعلى منهاجو

مالو منجا

* المبيت :

بحر تقوم الوحدة فيه على البيت حيث تتكون القصيدة من اقسام
في كل قسم عدد من الابيات ، وفي كل بيت عدد معين من الاشطار .
وهو الغالب في استعمال الشعراء ، وربما كان اقرب من غيره الى

بحوز الشعر المعرب . ويتفرع الى اربعة اشكال من حيث عدد
الاشطار التى تكون البيت ، وهى :

- 1 - المثنى
 - 2 - الثلاثى
 - 3 - الرباعى او المربوع
 - 4 - الخماسى او خامس لشار .
- (انظر هذه المصطلحات) .

* ابيض :

يقال : كلام ابيض اي بسيط واضح المعانى لا غموض فيه :

— ت —

* التراجم :

قصائد ترجمها الخيال اي انشاها وحبكها دون أن يكون لها
حدوث فى الواقع، مثل : الحجام والنصادة والحراز والتقاضى والضيف
والخلخال والدمليج والخاتم (انظرها) .

* التنوية :

عنوان لبعض قصائد الوعظ والزهد والحكمة كهاته التى يقول
محمد بن سليمان فى حربتها :

يا راسى لا تشقى
التاعب لا بد من لفراق
لا تأن فالدنيا
إناسها غرأرا

* التوزيع :

تدخل في نطاق موضوع التوسل ، ولكنه توسل جماعى يشترك في انشائه اكثر من شاعر . وهو عبارة عن مساجلة يقصد منها الى طلب شفاء صديق مريض او انتقام من طاغية ، يتطرح الشعراء فيها عروبيات (انظره) او اقساما من شائنها ان تكون قصيدة في النهاية. ويطلق عليه كذلك : الراحة والشفاء (انظره) . ومن أشهر ما قيل في التوزيعة المساجلة التي اشترك فيها أشياخ مراكش محمد بن الكبير ومحمد بن عمر المالحونى ومحمد بوسنة ، داعين لاحد اصدقائهم بالشفاء من مرض ، وقد اداروها حول قولهم :

وادرک هاد لمريض باللفظ الخافي

— ث —

* الثلاثى :

وزن المبيت (انظره) الذي يتكون فيه من ثلاثة اشطار . وله عدة قياسات (انظره) منها ما تكون اشطاره متساوية كقصيدة عبلة لبوعمرى ، وحريتها :

ايلا تعذبت اعذابى امن انواجلى ويلايانا اهنيث واسعدنى فالى

اسبابى افلها اغزالى عبلا

ومنها ما تجيء متفاوتة كقصيدة زينب لابن على ، وحريتها :

يا بدر ما غطاك احجاب فى ادجايا شمس النهار السعيد يا زنوبا

فاين العهد يا زينب

ويلاحظ أن الشطر الثانى أطول من الاول والثالث . وكتصيدة
الباكى للمدغري ، وحربتها :

شهدوا بين ايلافنيت وامضيت امن الوجنا وخالها واخدود الجلار
والشاما والخال والشفر لهوا خدوج ولغزال السعديا

ويلاحظ أن الشطر الاول جد طويل . ويسير نظام القافية في هذا
الوزن على اشكال حيث تأتى أحيانا موحدة في كل اشطار البيت وان
بحركات مختلفة ، وتأتى أحيانا أخرى غير موحدة .

* المثنى :

وزن المبيت (انظره) الذي يتكون البيت فيه من شطرين : أحدهما
يسمى الفراش والثانى الغطا (انظرهما) . وله قياسات (انظره)
متعددة لا سبيل الى حصرها أساسها النسب الإيقاعية في موسيقى
البيت . منها ما يكون شطراه متساويين ، وأنماطه كثيرة أبسطها ما
جاءت عليه قصيدة الحجة للحاج عمارة ، وحربتها :

يا لحضرا تولوا بالسر ولجهار الصلا والسلام على النبى المختار

ويسمى قياس لمشركى (انظره) . ومنها ما يجىء فرائشه
أطول من الغطاء كتصيدة الديجور للمدغري ، وحربتها :

شف الشكايا شى اشكا ابهجرو شى بالتيهان شى ابمشقو واغرامو
شى بالفركا شى جايب لهديا يرحل ويكيم

ومنها ما يقسم فيه الفراش والغطاء حتى يبدو وكأنه رباعى
كتصيدة انعيد اصيامى للجيلالى امتيرد ، وحربتها :

انعيد اصيامى وانكلع كفارت لسوزر
عنقت اغزالى ، فالدجا حتى بان الحال

ويخضع نظام القافية فى هذا الوزن لاشكال مختلفة ، فهى قد
تكون واحدة فى الفراش والغطا سواء بحركات موحدة او مختلفة ، وقد
تكون مختلفة فيهما ، وقد تسير كل ابيات القصيدة على حرف واحد .
بل اننا نجد مثلا فى بعض قصائد قياس لمشركى (انظره) تنويعا
فى القافية يجعل ابيات القسم تبنى على قافيتين وتكون قافية الحربة
(انظره) على حرف الابيات الاخيرة فى القسم ، ومثلها قافية الدخول
(انظره) .

* المثنوية :

وصف يطلق على الحريات التى لا تتفق فى عدد الاشطار مع
بقية ابيات القصيدة (انظر الحربة) مثال ذلك قصيدة المعراج لعبد
القادر الجرارى ، فانه يقول فى اول بيت من القسم الاول :

بعد تمجيد الماجد انوضح لخبر اعلى المعراج اصاح افليلة السرا
ويأتى بالحربة ثلاثية الاشطار فيقول :

الصلاة اعلى الهادي راكب البراق سيدنا محمد لمشرف الصديق
من اسرا من محرم الحرم افلفسيق

وقد يضيف الشاعر اكثر من شطر الى الحربة على حد ما فعل
ابن على فى قصيدة الذرة ، وهى مبيتة من قياس المشركى ، فانه
يقول فى اول الدخول :

سبح المولى تسبيح اللسان والقلب
وقدس المولى تقديس النجاء لقرباب

يا ساهى من نومك فق سبح الرب لتما وانت تايه افلرور لواب
الصلا والسلام اعلى اخيار لنسب سيدنا محمد طه اشفيح لعراب

— ج —

* لمجرد :

رقصة يختم بها انشاد قصائد الذكر (انظره) عند بعض الطوائف
كعيساوة واحمادشة .

* الجفريات :

قصائد يتأمل فيها الشاعر أحوال المجتمع والناس ويستعرض
المنابر والعيوب ، متوسلا بأسلوب الرمز والاشارة والتلميح ،
وغالبا ما يلجأ في ذلك الى الحيوانات فيمثل بالذئاب والضفادع واليوم
للسفلة الذين غدوا سادة ، وبالسباع والنسور لكبار القوم الشرفاء
الذين اذلهم الدهر . وفيها يستوحى الشاعر واقع الناس والحياة
ليتنبأ بها سيقع من احداث . ومن اشهرها قصيدة لحسن اعلى التى
يقول في اولها :

بسم الله الرحيم الجليل المعين مفتاح البادين بسم الله أعوان

* الجافى :

عنوان لمجموعة من قصائد التنزل (انظره) ، منها قصيدة احمد
الكندوز التى حريتها :

معداك اجافى اذا اجفيت رسمى ما زال يالجانى مركاحك لوليف
واتذوق امن امحين لجفا واتقول لاواه كنت حتى نا جافى

* الجمعة :

مناسبة يوم الجمعة اتاحت للشعراء فرصة الغزل ووصف جمال الطبيعة ، على غرار ما نجد عند الشيخ العربي الفاسى فى قصيدته التى حربتها :

خرجوا لبكار
يوم الجمعة لسواحل لبحر
بالالا وانفايم لوتر
جافوا للز خار
شف امدينة سلوان زاهرا

* الجمهور :

أو جمهور الاولياء ، مصطلح يطلق على بعض القصائد التى تمدح مجموعة من الاولياء والصالحين ، كمطولة عبد القادر العلمى التى اولها :

يا من يشفى اضرارا عبدو بعد السقم
ويفرح من اقوات فالصدر احزانو

* جنب :

يقال للمنشد الذى لا يستطيع ان يلون الميزان وينوع النغم فى القصيدة الواحدة انه يغنى على جنب واحد ، وهو دليل على قصر الباع فى الاداء

* الجناح :

انظر مكسور الجناح .

* الجنس :

التجنيس (انظره)

* التجنيس :

هو عند شعراء الملحون كالجناس المعروف في علم البديع ، الا انه لا يكون عندهم الا تاما . ومن الامثلة عليه قول الكندوز في قصيدة غاسق لنجال ، وهو اكثر الشعراء براعة فيه :

بجفك عمدا لى عدت انحيل

ما شفك تعذابي اولا امحاني

سيف لجفا امحاني

لعباد لا محاني

فامحاني الاولى جمع محنة ، والثانية فعل محا فاعله السيف
والثالثة فعل لمح بمعنى راي فاعله العباد .

* الجيالات :

القصائد التي قيلت في المولى عبد القادر الجيلالي كهاته التي يقول الطالب لحسن في حريتها :

غثنى يا مولى بغداد

ادخيل لجواد

بك شجنى محسوب اعليك بك عانى

*** المحبوب :**

عنوان لمجموعة من قصائد التغزل (انظره) منها قصيدة
محمد بوزيان التي حريتها :

محبوب خاطري من فكد وعمدالى عمدا لى لحبيب ما نعم ابلوصال

*** الحبر :**

يتال حبر النظام ابي الشاعر الكبير ، واصل معناه العالم او
المالاح .

*** الحجاز الكبير :**

نوبة موسيقية (انظر نوبة)

*** الحجاز المشرقى :**

نوبة موسيقية (انظر نوبة)

*** الحجام .**

يطلق على بعض قصائد التراجم (انظره) يصف فيها الشعاعر
محبوبته ويصف حفلات الوشم الذي يزين جسمها بالوان من الصور
والرسوم تمثل حيوانات واسلحة وابطالا وبساتين وخياما وهوادج
وغيرها مما يوحى بالتعبير عما يكن من عواطف الحب وما يحس من
آلام الفراق وما يتمنى من سعادة اللقاء وكأنه يرمز بوشم هذه الاشياء
الى مختلف حالات الحب والمحبوب، فالغزلان للهجر والنفور ، والخيول

والاسلحة لمدى القوة والمقاومة ، والاغراس والورود للحظات
الوصال . منها قصيدة ابن سليمان التي حريتها :

دير احجام عاري في صدرها بوجات ووشمو بالمهل
اعلى الصدر كن اظريف ونيل
نوشام ابجيد الخنار فاطما

* الحربة :

اللازمة ، ومكانها من القصيدة بعد الدخول (انظره) ، ثم تكرر
في نهاية كل قسم ، وبها ترد المجموعة على المنشد . والمفروض أن تكون
الحربة من نفس قياس (انظره) القصيدة .

وتجدر الإشارة الى أنه في مكسور الجناح (انظره) يختم القسم
ببيت يكون على وزن الحرية وقافيتها ، وكذلك في بحر السوسى
(انظره) فان القسم يختم ببيتين او ثلاثة على وزن الحربة وقافيتها .
ومثل هذا يقال بالنسبة لبحر المشتب (انظره) . ومع ذلك فانه توجد
حربات لا تتفق مع أبيات القصيدة في عدد الاشطار ، ويطلق عليها
الحربات المثنية (انظره) .

* الحراز :

قصائد يبدو فيها الشاعر المحب متذكرا في هيآت مختلفة ليصل
الى محبوبته حيث يدخل في حوار مع محرزها أي محصنها ، وهو في
العادة زوجها الذي يرده ويطرده في كل مرة ياتيه متذكرا في صفة من
الصفات الى ان يتمكن من خدعه فيدخل بيته ويتصل بمحبوبته في غفلة
منه . وغالبا ما ينجح المحب حين يتنكر في هيئة فقيه . ويعتبر الحراز من
أهم قصائد التراجم (انظره) ومن اشهرها حراز مولاى على البغدادي
وحريته :

مال حراز الدامى ما يتق بيا هيهات
حارس فى كل اوقات
اعلى الدوام ايجنب اولا بروم لى قطميا

* الحرف :

القافية

* احرامية :

وصف يطلق على السراية التى لا يعرف اسم مؤلفها ، فيقال :
سراية احرامية واسرارب احراميين (انظر : سراية) .

* حسس :

يقال ان فلانا تحسس على المعنى اذا كان يحاول فهمه
وتوضيح غموضه ، ولا سيما فى قصائد الرمز (انظر : الدسيس
د المعنى)

* الحسناءية :

وصف يطلق على النوع السماوي من السرارب ، فيقال :
اسرارب حسناءية او اسرارب حسناويين (انظر سماوي) . ولعمل
الاصل فى التسمية النسبة الى ابنى احسن .

* الحضرا :

غناء او انشاد قصائد الذكر من طرف النساء اللاتى يطلق عليهن
الحضرات (انظره) .

* الحضرات :

النساء اللاتى ينشدن الذكرات على أسلوب الحضرة .

* الحفاري :

السراية التي تنشد في استرسال سريع .

* الحفاظ :

المنشد الحافظ للقائد .

* الحمام :

1 — عنوان لمجموعة من قصائد التغزل (انظره) يبدأ الشاعر فيها متوجها الى الحمام يثله شكواه مما يقاسى من جفاء المحبوبة وهجرها ، في مقابلة بين حاله وما يعاني الحمام من انشائه ، على حد ما فعل ابن سليمان في قصيدته التي حريتها :

حالى من حالك يا حمام الفايح نوحيت ما كنا
اننت من فركة لحاما ونا شيفيدنى ابطير لعدا يا راف

2 — عنوان لبعض قصائد الشوق لزيارة البقاع المقدسة حيث يرسل الشاعر طائرا يحمل رسالة الحب والشوق للرسول الكريم .
منها قصيدة الحاج ادريس بن على التي حريتها :

هاك اكتاب يا حمام للمدينا من ارض فاس سر اتزور المدانى

3 — عنوان لبعض قصائد المرحول (انظره) التي يحملها الشاعر سلامه الى أحبائه من مدينة الى أخرى على حد ما فعل التهامي المدغري في قصيدته التي حريتها :

عول اولد احامى للحباب تدي علوانى
وصل فى حفظ لمان شور فاس امدغرا

* المحمل :

عنوان لبعض القصائد التى تصف ركب الحجاج ومراحل الحج
كماته التى يقول الحاج عمر المراكشى فى حريتها :

يا ربى بك لك كمل بالخير اعليا مكا ننظرها ايزول كرى

* المحاورات :

هى قصائد الخصام ، والحوار فيها قد يدور :

1 — بين أناس كما بين الحضرية والبدوية ، والخدام والحره ،
والزمنية والعصرية ، والشابة والعجوز ، والسمراء والبيضاء ،
والطويلة والقصيرة ، والسمينة والنحيفة .

2 — بين نباتات كالورود والزهور .

3 — بين طيور .

4 — بين جمادات كالقطة والغراف

5 — بين مظاهر كونية كالليل والنهار .

6 — بين أشياء معنوية أو وهمية ، يشخصها الشاعر
كالتيه والضنا والشغف والهيام .

وتد كانت تتخذ بعض هذه القصائد
وغيرها مما يعتمد الحوار كالحرار لاداء ادوار تمثيلية أو ما كان يطلق
عليه لبساط (انظره) .

* لحويط :

يقال لحويط لقصير للتعبير عن قياس المشركى (انظره)

* حياح :

يقال حياح الحاء بمعنى ولوع بها محرك لها . وهو وصف كان يطلق على التهامى المدغري لكثرة نظمه على هذا الحرف . ويقال انه سئل عن شغفه بالحاء فرد بأنها تجسم كل احوال الانسان وانها قاسم مشترك بين المتعة والالام لان الانسان اذا ارتاح او التذ قال : اح ، واذا تألم او تعذب قال : اح .

- خ -

* الخاتم :

1 - اسلوب يجعل الشاعر يلتزم بدء أبيات القسم او انتهاءها بكلمات معينة يكررها . فمن النوع الاول قول بوعمرؤى قصيدة زهرة بادئا كل بيت باسم حبيبته :

زهرا زهوا للذات	مصباح الخودات
زهرا غسل لبينات	حازت لبها واثباتا
زهرا شمس انبات	بالحسن انجلات
زهرا من عدات	زين عبلا واخنائنا

ومن النوع الثانى قول محمد بن لحسن فى قصيدة هنية حيث ختم كل بيت من أبيات القسم الاخير منها باسم هنية :

خذ اراوى روض لغنان فمدبح للا بوتيتيين اهنيا
بها زال الهول واهوان صعبى واشهدت باللحظين اهنيا

2 - عنوان لبعض قصائد التراجم (انظره) يستعمل الشاعر فيها خاتم حبيبته بدلا من الدمليج او الخلخال (انظرهما) . منها قصيدة الحاج محمد العوفير التى حريتها :

خاتم ولننى تاج لبها اتوضر وامشى لى
كيف المعمول ايلآ اتسال عنو درت لجمال

* لخصام :

يطلق على قصائد المحاوراة (انظره) .

* الخلخال :

عنوان لمجموعة من قصائد التراجم (انظره) يصف الشاعر فيها
كيف أنه بعد أن يتم له الوصال تتقدم له المحبوبة تذكارا لتخليد لحظاته،
يكون فى الغالب بعض حليها دمليجا أو خلخالا أو خاتما ، إلا أنه لا يلبث
أن يضيع له فيأخذ فى البحث عنه الى أن يجده . منها قصيدة عبيد
السلام الزفري القصري ، وحربتها :

خلخال يامنا تفكيرا خلالتو امشى لى
عجبنى افيوم توفى واتقول اراه ما نقول
(انظر : الدمليج والخاتم) .

* الخلق :

عنوان القصائد التى تناولت مولد الرسول عليه السلام ، كهاته
التي يقول الغالى الدمناتى فى حربتها :

ابديت باسم المولى نعم الفنى الستار
باسمو نستفتح يا صاح فى اشعارى

* الخمرية :

قصيدة الخمر .

* الخسارة :

عنوان لبعض الخمریات كهاته التی یقول المدغری فی حربتها :

كنت امهنی اسلیم ما نعرف یا خناری
كاس اولاً طاساً اولاً خمر
ولا ندري اشروطها فحضرت الخماراً

* خامس لشطار :

انظر الخماسی .

* الخماسی :

أو خامس لشطار هو وزن البيت الذي يتكون البيت فيه من
خمسة أشطار . ومن قياساته ما جاءت عليه قصيدة أسادتى اولاد
طه للحاج ادريس بن على ، وحربتها :

أسادتى اولاد طه برضاكم عالجوا الحال

یا ناس الجود ولفضال

انا فی عار للافطما الزهرا الطاهرا

ويسير نظام القافية فی هذا الوزن على شكلین أحدهما يلتزم
قافية واحدة فی كل أشطار البيت مع اختلاف فی الحركات ، والثانى
لا يلتزم .

* أخوات :

(انظر ثكارتو)

* اخطا :

سرقة الشاعر لمعانى غيره . ومن أقوالهم : « اخطا مزيانا احسن من اسجيا امديرا » ، يتصدون أن ربطا متقنا لمعانى الغير خير من سجية غير ناضجة ، (انظر : امديرة) .

* الخياط :

الشاعر الذي يسرق معانى غيره فيخطها ، ويربط ما بينها . ويعرف كذلك بالسلاخ (انظره) .

— د —

* امديرا :

يقال اسجيا امديرا أي شاعرية غير ناضجة ولا مكتملة ، وعند اصحاب الفن ان « اخطا مزيانا احسن من اسجيا امديرا » (انظر اخطا) .

* الدخول :

1 — التمويل التي يقدم بها لقصائد مكسور الجناح والسوسى ، باستثناء الحراز ، مثل :

قال يانا سيدى
او : وهو يا سيدى .

2 — الشطر الذي يستهل به القسم في بحر مكسور الجناح (انظره) .

3 — الابيات الاولى للسراية (انظره)

4 — مطلع القصيدة ، تجيء بعده الحربة ثم الاقسام ، وهو

غير محدود فيها . والغالب أن يستهل بالبسلة أو الخطاب يوجهه الشاعر لنفسه أو غيره

* **التدريسة :**

المرتعة ، وتطلق على تنويع القافية ، وتعرف كذلك بالمرشوش والعزرودة (انظرهما) .

* **الدرج :**

ميزان موسيقى (انظر ميزان) .

* **الدريكة :**

متطوع تختم به بعض القصائد ، ويتضمن في الغالب ما اعتاد الشاعر تضمينه في القسم الأخير كاسمه والتصلية والدعاء للأشباح والعلماء والمنشدين وهجو الخصوم وتاريخ النظم . وقد تطول فتصل إلى سبعة وعشرين بيتا كما عند الشاوي في نهاية تصليته .

ومن حيث القافية فإنها تأتي موحدة في جميع أبيات الدريكة، كما تأتي غير موحدة . ثم إنها قد تكون متفقة مع قافية القصيدة وقد لا تكون . وأحيانا تجيء على حرف واحد مع السويرحات (انظره) .

* **الدرع :**

يطلق على الذكر (انظره) عند أمادشة ، وقد برز فيه أحمد الكندوز . ويقال في تسميته أن هذا الشاعر لم يكن يعتقد في الطائفة الحمدوشية ولا في غيرها من الطرق الصوفية ، وكان له ولد ينتمي لتلك الطائفة ، ورآه ذات يوم يسير في استعراض الطوائف في حالة حماس وجذب فأخرجه من الصف وحاول منعه من الاستمرار في هذا

الاستعراض ولكن الولد أفلت من أبيه وعاد الى ما كان فيه . أما
أبوه فأصيب للحين في ذراعه التي ظلت مريضة منفتحة نتنة من القيح
الى درجة أنه اضطر — لشدة الرائحة الكريحة التي كانت تصدر منها
— الى أن يعتزل الناس في غرفة بعيدة . وذات ليلة صعد اليه في
الغرفة مؤذن جامع الحى — وكان حمدوشيا — وضربه على ذراعه
فشفى على الفور ، ومنذ ذلك الوقت تراجع الكندوز عن رأيه في هذه
الطائفة وبدأ ينظم القصائد للحمدوشيين .

✽ الدسيس :

يقال « الدسيس دالمعنى » ويقصد به دس المعنى حتى لا يبقى
السامع « تيحسس اعليه » (أنظر هذا المصطلح) . ويقصد به فك
الرمز والتصريح بالفكرة والمغزى في القصائد التى تتوسل بالاسلوب
الرمزي كالجزريات والمحاورات . ومن الامثلة عليه ما ورد في قصيدة
جفريه لعبد الله اعلى حيث قال رامزا الى ان الاحوال تغيرت وان
الدنيا صفت للسفلة فغدوا سادة :

فرعنت اليوم اعلى البيزان اتولت
بينت انيا بهما ودركت الصولا

والسبع اخشى امن الضبع بعد الزهرات
لزم التحدير خاف من ولد الغولا

واستمر على هذا النحو في رمزه بالحيوانات ثم كشف في الآخر
هما قصد اليه من نقد لواقع الناس والزمان فقال :

لمساجد كتعود افلنعات	ترجع لقوام عن القبلا مشغولا
يقوا لبنى عند التجار لطغات	ويكثر المال ولثياب المشكولا

* الدعوى :

الذي يدعى ما ليس فيه ، ويطلق عنوانا لبعض قصائد الهجاء ،
كهااته التى يقول محمد بن على ولد ارزين فى حربتها :

لا يشكى عاشق صورتي لعدايا ويحب زورتي ما دالى من ساحتو اجفيل
ما ينظر وجهى اولا يراه لو صرف المال والعمر
ما تقبل طالب الوصول ابحسناتسو

* الدق :

الضرب ، ويتصد به الهجاء ، ويطلق عليه كذلك الشحط ولهجو
(انظرهما) .

* الذكر :

ويجمع على دكرات، وهى القصائد التى تنشئ عند الطوائف، ولا
سيما احمادشة (انظر الدراع) وعيساوة ودرقاوة . ومنه قصيدة محمد
ابن العربى الرباطى الدلائى ، واولها :
نور لحبيب ادانى بضياه الدانى الحضرة الفردانى يابابا

* الدالية :

اي الكرم ، وتطلق على بعض الخمریات كهاته التى يقول
التهامى المدغري فى حربتها :
قلت اصاحى هات لى الكاس اغفل وارجع لى اجحا ونخلنى يا حضار
طاح اعلى القمصال ابلبتر سلك راسو وسار هربان اجهارا
وتعرف هذه القصيدة كذلك بـ : الساتى

* الدمغى :

السماح ، يقال أن هذا الشيخ يحفظ القصائد بالدمغى أى سماعا ،
والنسبة للدماغ .

* الدمليج :

عنوان لمجموعة من قصائد التراجم (انظره) كتصيدة محمد
العيساوى الفلوس ، وحريتها :
دمليج ازهيرو سابغ الشفر فى جيبى ياهل لهوا درتو وامشى ليا
باش انجاوب ايلا اتسال عنو تاج الغزلان

(انظر الخلخال والخاتم)

* الدندنة :

تفعيلة قائمة على « دان دانى » يقاس بها ايقاع الوزن . ومن
الامثلة على تطبيقها قولهم بالنسبة لحربة قصيدة المزبان للعلمى .

حن واشفق واعطف برضاك يالمزبان لا اسماحا ميعاد الله يالهاجر
دان دانى يا دانى دان دان يا دان دان دانى يا دانى دان دان دانى

* الذهبية :

عنوان لقصائد تمزج بين الحديث عن الخمر ووصف الطبيعة
عند غروب الشمس ، وهى فى لونها الذهبى . منها قصيدة الحاج
ادريس بن على الحنش ، وحريتها :
اساقى عكب النهار فز ابوقفت السرور واستقنا بين ادواح
شف الذهبيا الراحا لبست توب لغروب والليل اغشاها

* الدهمة

الشعراء الكبار .

* دور :

أنشد القصيدة وروجها بانشاده ، وكأنه بذلك جعلها تدور .

* دوز :

انظر صلى

* المدونة :

تطلق على قصيدة الوصاية عند أشيخ مراكش (انظر الوصاية) .

* الديب :

عنوان لبعض قصائد الهجاء كهاته التى يقول محمد بن على فى حربتها :

شف طيري جاب لى ديب افعوض اغزال
آمن ايسال

لولا ازهاكتى ربيتو فرخ دياب ما يتربى قالوا الناس ونا ربيتو

* التديجور :

أي الليل ، ويطلق عنوانا لقصائد تتحدث عن الليل باعتباره مظهر يوحي للشاعر بالامتزاج مع الكون والطبيعة فى تجاوب بينه وبين حالة الشاعر النفسية والعاطفية . أشهرها قصيدة التهامى المدغرى التى حربتها :

شف الشكايا شى اشكا ابهجرو وشى بالتيهان شى ابعشتو واغرامو
شى بالفركا شى جايب لهديا الليل ايكيم

* **دير :**

وضع التدييره (انظرها وانظر كذلك : ديل وردم)

* **التدييرة :**

هى الردمة والتديلة (انظرهما) وتعنى الشطر الذي ينتهى
به العروبي (انظره) .

* **ديل :**

وضع التديلة (انظرها وانظر ردم ودير) ، واصلها ذيل .

* **أتدييلة :**

اي الذيل ، وهى الردمة والتدييرة (انظرهما) . وتعنى الشطر
الذي يختم به العروبي (انظره) .

— ر —

* **ارباب :**

يقال : 1 ارباب الموهوب .

2 — ارباب المواهب

3 — ارباب الضمار .

يقصد بهم الشعراء .

* الربعا :

يقال «أشياخ الربعا» ، أي الذين لا قيمة لهم

* الرباعى :

او المربوع ، وهو وزن المبيت الذي يتكون البيت فيه من اربعة اشطار ، قد تكون متساوية كتصيدة طامو للعلمى ، وحربتها :

طامو يا بهيج الخدادا الحر المساررا يا غاية لجيد
ديري اللعاشق امرادو ينكى بك كل احسود

وقد تكون متفاوتة كان يكون الشطر الاول والثالث أطول من الثانى والرابع ، ومن أمثلتها قصيدة التصلية لابن احساين ، وحربتها :

صلى الله امع ملايكو عل لحبيب الساري وامر هل ليمان اغلبشمر
بصلاة الهادي امع اسلامو بايات اسوارو صلى الله اعليه واغرا

او كان يكون الشطر الاول والرابع أطول من الثانى والثالث كما فى قصيدة فارحة للتهامى المدغري ، وحربتها :

دسنى تحت لخلال بين ادرومك للملاح واللبا والدواح
انهيدانك تفاحا انا خايف امن عيونك يجرحونى يا فارحا

ويسير نظام القافية فى هذا البحر على نمط يلتزم فيه حرف واحد فى كل اشطار البيت ، كما انه قد يسير على نمط تختلف فيه القافية .

* المربوع :

انظر الرباعي .

* الربيعية :

يطلق هذا المصطلح :

1. — عنوانا لبعض قصائد وصف الربيع والطبيعة عامة ،
ومن أبرزها قصيدة الحمري التي حريتها :

الورد والزهر واغصانها واشجار باسقا واطيار
ايسبحو النعم الغنى والمالما انقلب كل اغدير

2 — عنوانا لبعض قصائد المديح النبوى ، كهاته التي يتول
التهامى المدغري في حريتها :

لله الحمد جاد من هو فتاح فاتح البيان ابمفتاح
مفتاح الخير والرضا والرحمما الفتاحا

* ربى :

روى القصيدة وانشدها وجعلها متداولة ، وهو يقابل : اولد
(انظره) . وفي امثالهم : « السجاي تيولد والحفاظ تيربى »

* الترتيحة :

عبارة يضبط بها الايقاع ، ويطلق عليها كذلك : التشحيرة
(انظره) .

* المرحول :

1 — عنوان لبعض القصائد التي تصف الرحلة الى الديار المقدسة كهاته التي يقول عبد القادر بوخريص في حربتها :

ارواح اراسى اتشوف هذا الركب السابر
خلا ناس الذوق شايقتا لمقام المختار

2 — عنوان لقصائد تصف الرحلة التي تشد لزيارة بعض الصالحين كهاته التي يقول الحاج ادريس بن على الحنش في حربتها .

الفادي للرباط هاك اسلامى لسيادي
اولاد الولى بن لمهيدي

3 — عنوان لقصائد تصف الرحلة من مدينة الى اخرى ، وتحمل السلام ، كهذا المرحول الذي جعله الجيلالي اميرد من مراكنش لفاس والذي يقول في حربته :

كل لمدينة فاس يا حماى بكتابى للحباب فى حفظ الفانى
بميات اسلام اعلى امقامهم يعبق طبيب اشده
(انظر كذلك : الحمام والورشان).

* اردم :

ختم السرابة او العروبي بالردمة (انظره) .

* الـردم :

يقال هذا شيخ « طاح اعليه الردم » اى وقعت عليه الانقاض بمعنى انه لم يعد قادرا على النظم او الحفظ وان قريحته جفت .

* المردمة :

1 — الشطر الذي تختم به السرابة وتكون كالفاصل بينها وبين القصيدة (انظر السرابة)

2 — الشطر الذي ينتهى به العروبي

* المرسول :

1 — عنوان لمجموعة من قصائد التغزل (انظره) يلجأ الشاعر المحب فيها الى ارسال مبعوث لاختبار المحبوبة بحاله ورجائها ان تزوره . منها قصيدة احمد الفرابلى التى حربتها :

خبرنى يا مرسل عن اسراج اعيانى وشمس انهار نظفر بوصالو
عراض الزين الله نصرو مولاي المزيان

2 — عنوان لبعض قصائد الشوق لزيارة الديار المقدسة وقبر الرسول عليه السلام حيث يمهث الشاعر رسولا معه كتاب للنبي الكريم يحمله حبه وشوقه، منها قصيدة الحاج محمد بن على المسفيوي وحربتها :

امن الغرب اتسير ابلكتاب بالمرسل
وصلو لحمد طه خاتم الرسالا

* المرسوم :

عنوان لمجموعة من قصائد التغزل (انظره) تجعل الشاعر يستلهم المرسوم — اي الدار — بعد أن أصبح خاليا ، ليعبر عن حاله وما يعانى من فراق الحبيبة . منها قصيدة محمد بن على التى حربتها

انا والمرسم يا حمام وثالثنا فالزهوانت
المرسم يبيكى اعلى الشمعا وانت تبكى اعلى النثا وناعل لغزال

* الرثس :

مصاحبة الانشاد بالتصفيق او ما يسمى بـ : التكفاف .

* الرثاش :

المصفق الذي يصاحب الانشاد بضرب الكفين .

* المرثوش :

ترنفل ابيض مخلوط بالوان اخرى ، ويطلق على تنويع القائمة،
ومن اسمائه كذلك : العزودة والدبلة (انظرهما) .

* الرصد :

نوبة موسيقية (انظر نوبة).

* رصد الذيل :

نوبة موسيقية (انظر نوبة)

* رصع :

قال شعرا منمقا (انظر : امرصع) .

* امرصع :

يقال : كلام امرصع بمعنى منمق جميل .

* الرقيق :

يقال : العلم الرقيق للتعبير عن الشعر الملحون .

* ركب :

تسلم المنشد الغناء من منشد سابق عليه بقصيدة أخرى
يؤديها على نفس الميزان الاول .

* الركاز :

يجمع على الركازة، وهم الذين يشتغلون بتبليط السطوح وتركيزها
وكانوا يحفظون الكثير من القصائد ويتوسلون بترديدها محافظين
على ايقاعها بضربات المراكز . ويطلق عليهم كذلك : الكصاصمة.
وهي حرفة آخذة في الاندثار ان لم تكن قد اندثرت بالفعل . ومن
الاعمال التي كانت تصاحب بانشاد الملحون : الدرازة والخرازة
والدبابة وكذلك البحرية القائمة على قيادة المراكب الصغيرة التي
تساعد حركة مجاذيفها على ضبط ايقاع انشاد القصائد .

* التركيك :

كسر الميزان :

* رمل الماية :

نوبة موسيقية (انظر : نوبة) .

* الرامى :

عنوان لبعض قصائد الهجاء كهاته التي يقول محمد بن ريسون
في حربتها :

هكذا قتل المن ابغا بالرميا يتفرج
شارتو يسقطها فبراجو
حاضى مرجا

* راح :

انظر الرواح .

* الراحة :

يطلق مصطلح « الراحة والشفاء » على التويذة (انظره) .

* السراواح :

- 1 — الخروج من القافية الاصلية والعودة اليها حين يستعمل مع مصطلح السراح حيث يقال : السراح والرواح (انظر السراح)
- 2 — نهاية القصيدة او نهاية القسم .

* اروي :

أخذ عن الاشياخ .

* الراوي :

الحافظ الذي يروي القصائد .

— ز —

* الزجل :

يطلق في الاصل على الشعر العامى الذي نشأ مع الموشحات في الاندلس . وعندنا أنه كل شعر يتوسل باللغات واللهجات العامية .

* الزرب :

القسم الاخير من القصيدة اذا اشتمل على الهجاء ، تشبيها له
بالسياج الذي يحيط بالحدائق والبساتين ويحميها ، فكأن هذا الزرب
يحمي القصيدة ويرد عن صاحبها الخصوم .

* الزردا :

ومعناها الوليمة ، وتطلق عنوانا لبعض قصائد الفكاهة كهاته
التي يتول الحاج محمد بن عمر الملحونى فى حربتها :

ولمضيغ افراسا
ملا ايليهِ ضرسات
كىملوچ فمضيغو عاد تيسرطو

* المزلوك :

معناه فى الاصل الخيط الرقيق ، ويطلق على :

- 1 — السرابة التي تنشد رقيقة حادة .
- 2 — بحر السوسى (انظره) عند بعض الاشياخ

* الزهو :

1 — عنوان لبعض القصائد التي تصف لذات الحياة ومتعها كهاته
التي يقول المدغري فى حربتها :

الزهو فبنات اشبان ولمنازه والخيلى امابت لوتر والغانى
ولقماش روض كيسان

2 — عنوان لبعض القصائد الدينية التى ترى — فى شبه
معارضة للأولى — ان اللذة فى العبادة والعلم والجهاد كهاته يقول
المدنى التركمانى فى حربتها :

الزهو افلكتوب وما قال الله وصلاة المختار والفجر فى وقتو والصوم
والحج الجهاد فالنصارى يوم المعلوم

* الزين :

عنوان لبعض قصائد العشق (انظره) كتصيدة المولى عبد
الحفيظ التى حربتها :

آش را من لا شاف الزين فى افراش الصالا
من افراق احبيبو ولهان

* المزيان :

عنوان لمجموعة من قصائد العشق (انظره) كتصيدة عبد القادر
العلمى التى حربتها :

قال المزيان اتصيف لى زينى
امدح امحاسنى كيف ايمدحو ناس لغرام ابدور لحسان

— س —

* السبب :

يقال : « السبب والمعنى » لدوافع القول وحوافزه عند الشاعر

* السجاي :

صاحب السجية (انظره) الذي يبدع شعراً فيه عواطف ومعانى وافكار ، وهو غير الوهبي (انظره) .

* السجية :

- 1 — الشعر الملحون .
- 2 — مستويات الابداع الشعري ، وهى ثلاثة :

- أ — المنقول .
- ب — الهیض .
- ج — الغیظ

(انظر هذه المصطلحات) .

* الساسى :

عنوان لبعض الخمریات كهاته التى يتول المدغري فى حريتها :
فق اساح علم لفجر طار اغراب الداج طاببت الخمر اكب السراح
بوجود العدرا المالحا ما كيف الراح بين لملاح امراحا

* امسدي :

منسوج ، وهو وصف للشعر حيث يقال : انظام امسدي .

* السرابلة :

قطعة شعرية قصيرة يقدم بها فى انشاد القصيدة ، وتكون على نفس البحر ، والغالب أن تتكون من هذه الاجزاء :

- 1 — أبيات تمهيدية يطلق عليها : الدخول (انظره) .
- 2 — ناعورة وهى أبيات قصيرة نادرا ما تكون أقل من ثلاثة (انظر ناعورة) .
- 3 — بقية الابيات .
- 4 — الردمة وهى عبارة عن شطر يتم تخته به السرابة ويكون فاصلا بينها وبين القصيدة (انظر الردمة) .

وعند الاشياخ أن الذي لا ينظم السرابة لقصيدته لا يستطيع ضبط ميزانها بل لا يعتبر شيئا ، وقالوا فى ذلك : « من لا يوزن بسرارب ميزانو يبقى غايب » وهى قولة تصدق على المنشد كذلك .

ومع ان السرابة تتفق والقصيدة فى الوزن والموضوع فانها تختلف عنها فى الانشاد . ومن ثم فان السرابة تقسم الى أربعة أنواع (تنظر فى امكانها) ، هى :

- 1 — المزلوك .
- 2 — الكبباجى .
- 3 — الحضاري .
- 4 — السماوي .

ويلاحظ اليوم نتيجة ضعف مستوى النظم والرواية أن الشعراء لم يعودوا يقدمون لتصائدهم بالسرارب ، وأن المنشدين لا يمهّدون بها كذلك ، وأن فعلوا فانهم يخلطون حيث ينشدون سرابة هذه القصيدة لتلك حتى ولو لم تكن منسجمة معها فى الموضوع . فكان أن تعطلت هذه المقطوعات وضاع اكثرها . وما بقى منها ينسب فى الغالب لغير أصحابه او لا يعرف قائله . ويطلق على السرارب التى يجبل اسم منشئها : « اسرارب احراميين » وكان بعد هذا أن بدات السرابة تنفصل عن القصيدة وغدت تعتبر عند البعض نوعا

مستقلا من الزجل . وكنموذج نقدم السراية التى مهد بها محمد بن
على لقصيدته « دامى لجدار » :

1 - الدخول :

اقلبى كن عن امصابك صبار الصبر مفتاح اللكنوز والذخير
محبوبك لا تماتبـ ولو جار وارتجا وطلو بعد السوايع لعير
لو طال الهجر لاغنى من لمزار يا للى ما جيت لهل لغرام سير
انشوف اجمالى واقفا انحيرا

2 - الناءورة :

يا عمهوج لجدار ما هو عمهوج الراتع لتقارا
يا شنيار الصفار يا بدر اتجلى فكمال دارا
با كوكب السحار يا من حبو فى ساكنى اتوارا

3 - بقية الابيات :

يا سالب مهجتى ولا جاب اخبار لا تشوق بصري فى ذاتك لنير
لامان اطلبت امن الخال والشفار جرحو اذا تى جرح الايلو اجبير
ازدبت الكى عن اجراحي بالنار آش يطفى ناري واغصايمى اكثير
واهوايا ما هو سستار لهوا طالب يفدى الثار
هذا عشقى اولا وجدت ما نختار عشقى باسميتى تفتار
اللا وقت اتجور اعلى القليب نارو يشتد القليب امن اكدارو

4 - البردية :

توجدنى كانتول يا ستار

وتجدر الملاحظة أن هذه السرابة جاءت موحدة القافية ، وهى ظاهرة غير مطردة .

* اسرح :

انظر السراح .

* السراح :

يطلق « السراح والرواح » على الانتقال فى الأبيات والاقسام من القافية الأصلية الى قافية أخرى ، ثم العودة إليها . واشتقوا من هذا المصطلح فعلى : اسرح وراح .

* السويزحة :

تجمع على سويزحات ، وهى أبيات تستهل بها أقسام بعض القصائد ، ويطلق عليها كذلك ناعزرة ج نواعر (انظره) .

* اسرد :

أدى القصيدة بالسراة (انظره) .

* السراة :

اداء القصيدة سردا دون غناء ، ولا يكون الا بالنسبة لبعض القصائد الطويلة كهول القيامة للمفراوي والجمهور للعلمى . والغالب

ان تتم السعادة فى زاوية او مسجد او مسجد ، وفى مناسبات دينية
وخاصة ذكرى مولد الرسول عليه السلام .

* السريع :

طبقة فى الميزان الموسيقى .

* الساقى :

عنوان لبعض الخمرات كهاته التى يقول الجيلالى امتيرد فى
حريتها :

الساقى وكض لريام رد بالك للنوبا لا تغيب عن مولاها
كب واسق ما زال الليل

* السلاخ :

الشاعر الذى يسطو على شعر غيره فيحتفظ بالمعانى ويبدل
الالفاظ ، ويطلق عليه كذلك : الخياط ، وهو غير المساخ (انظره) .

* امسلس :

يقال « كلام امسلس » بمعنى انه سلس مستقيم لا كسر فى
ميزانه .

* اسلك الطرقتان :

يقال للشاعر الذى تعرف — عن طريق تلمذه على الاشياخ —
الى مختلف جوانب الفن ومشاكله واكتسب تجارب من شأنها ان
تصل شاعريته (انظر : اشياخا) .

* السماوي :

السرابة التي يستهل انشادها ببطء كالموال ثم يأخذ صوت المنشد في العلو والارتفاع كأنه يصعد بها الى السماء . والغالب أنها كانت تنشد في الهواء الطلق وبمناسبة حفلات التنزه . ويطلق على هذا النوع كذلك « السرابة الحسناوية » (انظر حسناوية) .

* السوسى :

بحر تكون الوحدة فيه قسما مركبا من ثلاثة أجزاء :

1 — بيت من شطرين يستهل به القسم وتكون قائمته موحدة مع الابيات التي تبدأ بها الاقسام الاخرى .

2 — مجموعة من الاشطار المرسلة تخضع لتسلسل الانشاد دون تقييد في العدد والوزن والقافية .

3 — بيتان او ثلاثة أبيات موزونة متفافة تهجد للحربة التي تكون على نفس الوزن والقافية ، وتكون موحدة القافية في كل الاقسام .

ومن الامثلة على هذا البحر قصيدة الزمنية والعصرية لحسن اليعقوبى ، واول أقسامها :

1 — بيت من شطرين :

يا لحضرا سمعوا ما صار بين زوج ابناات افلكارا

2 — الاشطار المرسلة :

شابا عصريا بكرا
والاخرا زمنيا عذرا

نرجونى بين الحضرا
وكنت حاضرا
نصفى لخصامهم
نسمع العصريا
اتقول للزمنيا
يا جارتى اهنيا
سمعى منى اخبار
من يوم اسكنت احداي جارا
وانتيا فاشغار
يا حسبي لله سالبا بخصامك جمع افكار
عمرك ما شفت اتقول شى مدرسا
ولا احضرت مجالسا
ولا اهواتك الدراسا
ايلا اهواتك
بك اعوار الناس
جارحا بلسانك فات لقياس
مشغولا بيبا
ولا العنت شيطانك الشرير
خذينى نصفاك تتشتمى نيا
جهرا ايلا اخفيا
فالستا ساءت لعشيا
عند اغروب النهار
قالوا للشتاما النار
بلسانك قلت اعلى الشكارا

3 — بيتان :

1 — مصحوبا ديما امعايا مملوا ابلكتوب عل لفتخار
سابقا للمعيار
كابرا اميا فالسب الفتب والزورا

ب — لا لك المدرسيا فايقا عل لبكار

يا تسمى لخبار
يالزمنيا غشنيها اموخرا للورا

4 — الحربة :

آش را من لارا لبنات يوم قاموا لكحار
زوج هيفات اصغار
شابا عصريا وامع الحاجبا فالجورا

وتجدر الملاحظة ان بحر السوسى يكثر فى قصائد المحاورات
والحرار .

* السؤلان :

السؤل ، وهو عنوان بعض قصائد الخصومة والهجاء ، يحاول
الشاعر فيها تعجيز خصمه وتحديه بمعربات والغاز . ومن ابرزها
قصيدة المدنى التركمانى التى حربتها :
اصغ او جل واتأمل يا انسان جاوب اسؤالى كان انت البيب فاطن

— ش —

* المشتب :

بحر تكون الوحدة فيه قسما مركبا من بيت يفصل فيه بين أول اشطاره
وبقيتها بمجموعة من الاشطار الحرة القصيرة تسمى « لمطيلعات »
(انظره) فكان داخل البيت محشو بهذه الاشطار الزائدة التى لا تتقيد
بوزن او بقافية ، وهذا هو الاصل فى التسمية اذ المشتب ما تملأ به
الفرش واللحوف والمضربات . ومن الامثلة عليه قصيدة التوبة لمحمد
ابن سليمان ، وفى أول أقسامها يقول :

1 - أول البيت :

ما فيها ما يبقى

2 - لطيفات :

غير نعم الباقي
يا غفيل ما لك شأقي
لا ين تاتزيد حماقي
وين من غرتهم بالمال والنصر
ما فازوا غير ابلقبر
ما نفعمهم فيها تدبير
آسعدت من دار الخير
نال سلوان
واعليه ما صعب هان

3 - بقية البيت :

وانت ارمثنى لهلاكى في ذا الاسواق
فلحقها مخلصا
اولا وجدت اعمارا

4 - الحرية :

يا راسى لا تشقى
التاعب لا بد من لفراق
لا تامن فالدنيا
ابناسها غرارا

ويلاحظ التطابق بين البيت والحرية وزنا وقافية .

* شجرة :

كان الشيخ عبد العزيز المغراوي يلقب بـ « شجرة لكلام »
اعترافا بشاعريته الخصبة .

* شحر :

استعمل التشحيرة (انظره)

* التشحيرة :

عبارة يضبط بها الايقاع ويكمل عند الاداء مثل :

1 — يا سيدنا

2 — أسيدنا سيدنا

3 — يا لالا يا لالا

4 — دادامى اللا هيا لالا

وغالبا ما يؤديها المرددون أو من يطلق عليهم الشدادا (انظره)
ويقال في هذه الحالة ان الميزان يشد ويقبض (انظرهما) .

* الشحط :

الهجاء ، ويطلق عليه كذلك : الدق ولهجو (انظرهما) .

* شد :

يقال ان الميزان يشد اذا كان يضبط بعبارات التشحيرة أو
الترتيحة من طرف المرددین أو الشدادا (انظر تشحيرة وترتيحة) .

* الشدادا :

المرددون الذين يشدون الميزان أي يضبطونه بالتشحيحة والترتيحة (انظرهما) .

* لمشركى :

يعتبر قياس المشركى أبسط أوزان بحر المثنى (انظره) ، ويطلق عليه كذلك لحويط لقصير (انظره) ، وهى عبارة تقترب فى مدلولها من قول العروضيين عن بحر الرجز بأنه حمار الشعراء أو حمار الطلبة . وأقدم نماذجه قصيدة الحجة للحاج عمارة وحريتها :

يا لحضرا قولوا بالسر ولجهار الصلا والسلام أعلى النبى المختار

وهى قصيدة تحدث فيها عن أدائه لفريضة الحج ، ويبدو أنه نظمها فى البقاع المقدسة ، ومن هنا جاءت تسمية وزنها بـ :
لمشركى نسبة الى المشرق .

* شعبانة :

مناسبة أتاحت للشعراء فرصة استعراض جمال الطبيعة والفائنات فى قصائد تحمل اسمها ، ومن أشهرها قصيدة أمتيرد التى حريتها :

آش را من لارا لريام يوم داروا شعبانا
كهرايس نكيها بارزا فحضرت كسرا

* الشعر :

المحمون :

* الشاعر :

صاحب الشاعرية ، وجميع كما في العرب على الشعرا
* الشمالة :

القوائد التي من شأنها أن تحرك السامعين وتهزهم
وتؤثر فيهم ، وهو وصف كان يطلق على قصائد الشيخ الجبالى
امتيرد .

* الشفا :

يطلق مصطلح : « الراحة والشفا » على التوزيع (انظره).

* شكاره :

يقال عن الشيخ ان : « شكارته اخوات » بمعنى خوى ونماضه
ونفذ زاده اذا جفت قريحته الشعرية

* الشمعة :

عنوان لمجموعة من قصائد الغزل (انظره) يجري الشاعر فيها
حوارا مع الشمعة حول ما يعانى كل منهما من آلام . من اشهرها
قصيدة محمد بن على ولد ارزين التى حريتها :
لله يا شمعما سلتك ردي لى اسؤالى
واشبيك فالليلالى تبكى مادالك اشعيللا

* المشموم :

عنوان لبعض قصائد وصف الطبيعة ، كهاته التى يقول محمد
ابن على المسفيوي فى حريتها :

يالعاشق قطف النوار بين لريام
كل وحدا ركم لها افنوع مشهوم

* شيخ .

اصبح شيخا

* الشيخ :

الشاعر والمنشد ، ويضاف اليه فيقال :

- 1 — شيخ السجية بمعنى الشاعر
- 2 — شيخ لشيخ ، اى شاعر الشعراء وأميرهم
- 3 — شيخ لكريحة بمعنى المنشد
- 4 — شيخ النشاد ويقصد به المنشد
- 5 — شيخ النظام بمعنى الشاعر .

* اشياخا :

التلمذ على الاشياخ اى المشيخة . ويقال فى امثالهم « شيخ ابلا
اشياخا باطل شاخ » .

— ص —

* الصبوحى :

عنوان لقصائد تمزج بين الحديث عن الخمر ووصف الطبيعة
فى الصباح الباكر ، منها قصيدة التهامى المدغري التى حربتها :
غنم الصبوحى يا نديم واسطاب ارضيع الكاس ولطيار امغناها
لا ترتى للبرنيس كب — ورا ربي غفار

* الصرف :

تفعيلات الشعر الملحون ، وهى نوعان :

1 — الدندنة

2 — مالى مالى .

(انظر هذين المصطلحين) .

* التصريف :

نوع من الجناس يجعل الشاعر يتصرف فى كلمة باستعراض
عدد من اشتقاقاتها ، والغالب أن يكون ذلك باسم الحبيبة فى القصائد
الفزلية ، كقول ابن على فى قصيدة كنزة :

ما كيف اوصالك كنز

وافضل من مال اللى كنزوا

عالجنى يا شمس لهاسن يا كنزا

* الصفرا :

عنوان لبعض الخمریات كهاته التى يقول محمد بن الوليد العلوي
فى حربتها :

صولى صولى ببهاك يا بديع الحسن المكمول

فرحت لخلا عابك يا الصفرا وبلغت امنها

يا درت لسرار

وانت كن قمرأ شرقت بضياها وبلا غرارا

* صفى :

غريل واجاز ، يقال ان هذا الشيخ صفى قصيدة شيخ آخر
اذا اجازها وذيلها . ويقال كذلك : دوز (انظره) . والغالب ان يتم
ذلك بين الاستاذ وتلميذه .

* التصلية :

عنوان لقصائد صلى فيها الشاعر على الرسول صلى الله عليه
وسلم محاولا ان يبلغ بصلواته أكبر عدد يمكن تصويره أو تخيله ،
مستعرضا انواع الكائنات والمخلوقات المختلفة عساه يبلغ أعلى
درجات العد والحساب . ومن اقدم نصوصها تصلية محمد بن عبد
الله ابن احساين التى يقول فى حريتها :

صلى الله امع ملايكو عل لحبيب الساري
وامر هل ليما ان اطلبشـ
بصلاة الهادي امع اسلامو بايات اسوارو
صلى الله اعليه وانـ

* امصور :

يقال ان هذا المنشد يؤدي الميزان « امصور » اي غير متقن
لا تنسجم نغماته مع طبقة صوته ومع كلمات القصيدة ، ولا يتجاوب
معه الجمهور والعازفون .

* صيادية :

وصف للتوافى اذا كانت غير مستهدة من موضوع القصيدة
ولا منسجمة معه ، اذ جرت العادة ان تكون القافية مأخوذة منه ،
فقصائد المحبوبات مثلا تكون مقفاة بآخر حرف من اسمائهن (قصيدة
كنزة على قافية الزاي وزهرة على الرائ وسعاد على على الدال .
وهكذا) .

وتغلب هذه الظاهرة في الخمریات كذلك حيث نجد ان قصائد الكاس تأتي على قافية السین والساقی على حرف القاف . ومن الامثلة على القصائد التي جاءت قوافيها صيادية قصيدة مینا للحسن بن شقرون مانها حائية وكان الاولى ان تكون على حرف النون ، تقول حربتها :

مینا باثت لملاح مینا روح ادخالی وراحت واصلاح
من اجفاهها جمري لملاح طعنتنی دون اصلاح

— قی —

* التضمین :

التلزیم (انظره) .

* الضیف :

او ضیف الله عنوان لمجموعة من قصائد التراجم (انظره) ، يظهر الشاعر فيها لكی يصل الى محبوبته متنكرا في صفة شخص يطلب الضیافة . منها قصيدة احمد بن الحاج التي حربتها :

اضیف الله امرحبا زد اهلا بمجيك للرسام فتح الغنبور واللثام
حینی بالسلام نستامن یا من قبط الزکیم

— ط —

* اطبع :

ذیل ، يقال ان شاعرا « طبع » قصيدة شاعر آخر اذا ذیلها وغالبا ما يصدر ذلك عن استاذ كدلیل اعتراف لتلميذه بالشاعرية واجازته له .

* الطبايع :

ويجمع على : طباعا ، هو الشيخ الذي يطبع أي ينزل قصيدة
تلميذه ويجيزها .

* الطبايع :

عنوان لبعض قصائد الوعظ والزهد والحكمة ، كهاته التي
يقول محمد الصغير في حربتها :

سبحان الله في أطبايع الناس ما بقى من لا هاج أغرامو
والناس أحوال كل واحد في حالو

* الطجين :

عنوان لبعض قصائد الفكاهة ، وهى شبيهة بالزردة (انظره).

* لمطارش :

الكلمات أو الاشطار المكررة في أسلوب النثب (انظره) ،
وتطلق لمطارش حتى على الكلمات التى تكرر في غير هذا الاسلوب
كقول بنميسى الدراز في حربة قصيدته زهرة :

بمزاري بمزاري

جدلى بوصالك ثبرا

يا مولاتسى زهرا

ولعل أصل الكلمة من الطرش بمعنى القذف ، كان الشاعر
يقذف بها من شطر لآخر .

* الطرشون ؟

اسم لنوع من الطيور ، وقد اتخذها الشاعر عنوانا لمجموعة من قصائد التغزل (انظره) حيث يتخيل محبوبه الهاجر له طائرا نافرا على حد ما فعل محمد بن على المسفيوي في قصيدته التى حريتها :

طرشونى غاب يا هلى واغدرنى واجفانى
وافراقو رشانى
نسعى لكريم يجمع شملى وامنايا

* لمطلعات :

1 — الاشطار الحرة التى تلى الدخول فى بحر مكسور الجناح (انظره) وتسمى كذلك : لكراسا .

2 — الاشطار التى تفصل فى بحر المشتب (انظره) بين اول اشطار البيت ويعيقتها .

* طيب :

يقال طيب الميزان اذا سواه وعدله .

* طاح :

انظر : الردم .

— ع —

* معرب :

يقال « لا معرب على وهبى » اى لا جدوى من مناقشته فى المعانى والافكار (انظر : وهبى) .

✽ المروبي :

ابيات يقدم بها الشاعر لاقسام قصيدته ، وقد تكون مكونة من بيتين كل واحد منهما بشطرين يضاف اليهما شطر خامس على حد ما نجد عند الجلالى امتيرد فى قصيدة فاطمة حيث يقول : .

انا يا فاطما احسانك ما ننساه وانت لحسان من تليتو من ناسو
اكشفتى سرنا ولو حتى بقطاه عيار الحب طابعك كشف الخاسو
حتى بنيان ما علا دون الساسو .

وقد يرتفع هذا العدد حتى يصل الى ثلاثة عشر بيتا والردمة كما عند العلمى فى قصيدة الجمهور حيث يقول فى عروبي أحد الاقسام
الاخيرة :

اللهم ارضى اعلى الخلايف عز الدين
قد انجوم السما قد احماس الديجان
قد اعداد لشجار واعشوب البرين
وما فالبحر امن اعجايب عل للوان
تم اعداد لرمال فاقفسار الارضين
وما من هايما اتسبح اعلى لوططان
اللهم ارضى اعلى ملوك الحرمين
اعداد ما فكل تربا من بستان
واعداد انسيم زهرها بعد الفجرين
وانغام اطيافها اتزبرج اعلى لفنان
قد اما سبحو السمارس وامتنين
والحرمل والسرند والطير لحسان

ما غنى اليتروك وارقص بالجنحين
مهما شاف لهزار لحسن بالترنان

وما بات لحمام اعلى البرج اينين
بصوات امرخا اتبكى بالتحنان

واعداد النحل والنمل وادواب آخريين
وانوار اعلى لصناف بارزا من لقصان

اللهم ارضى اعلى اهل السر المبين
رضوان الا ينتهى عن طول ازمان

ما حملت امن اخلايق اجواف الثقلين
بملايك طايعا اوحنس وانس وجان

اللهم ارضى اعلى كوكب هل ليقين
ابا بكر الزكى وعمر وعثمان

وابن ابى طالب الافضل قوم الشجعان
ابن عم المجتبى الشائع فالعصيان

وانصر يا ذا الجلال لبام السلطان

وعلى الرغم من ان لكل عروبى ردمته فان بعض الشعراء
التزموا نفس الردمة فى كل عروبيات القصيدة كما فعل الحاج
ادريس الحنش ، فانه التزم اثر كل عروبى فى قصيدته التطوانية
قوله :

الله ايجود بالنصر لعلام الدين

وتجدر الاشارة الى ان القافية قد تكون موحدة فى العروبى
الواحد ، ولكنها حين لا تكون فان الردمة تأتى على حرف الاشطار
الثانية او الاعجاز (لفطوات). ابا من عروبى لآخر داخل القصيدة
الواحدة فان القافية لا تكون موحدة .

* الممراج :

عنوان القصائد التى تحكى قصة الاسراء والمعراج ، كتصيدة
عبد القادر الجراي التى حريتها :

الصلاة اعلى الهادي راكب البراق سيدنا محمد لمشرف الصديق
من اسرى من حرم الحرم افلغسيق

* التمريجة :

لكوال (انظره)

* العرصة :

البستان والحديقة ، ويطلق :

1 — عنوانا لبعض قصائد وصف الطبيعة ، ومن اشهرها
قصيدة المدغري التى حريتها :

يا لعرصا فرحى صولى ابطيب لطياب
ساكنك سيدي ولد الساكنين طيبا

2 — وصفا لاحد الاشياخ اذا برز وتفوق ، وتعبيرا عن صيغة
شيخ الاشياخ او امير الشعراء حيث يقال : عرصة لشياخ ، وقد
اشتهر بهذا اللقب الشيخ الجيلالى امتيرد .

* المراض :

المعارضة ، وهو عنوان لبعض قصائد الهجاء القائم على اختلاف
الرأي فى قضية او مسألة تطرح للجدل والنقاش . ومن أشهر قصائد

هذا الفن ما دار بين الغرابلى والتركمائى حول الايمان والعمل ،
حيث قال الاول قصيدة حريتها :

يالداعى بالعرف اصغ الهل العلم افما قالوا
الشهادا من غير اعمال ليس تكفى مولاها

وقال الثانى قصيدة حريتها :

آلداعى شهد والشهادا بالله ابالرسول تكفى واكفات واخير
مالدنيا ولاخرا اكثر والمومن نيتو افضل من اعمالو

* عراقى المجم :

نوبة موسيقية (انظر نوبة) .

* المزودة :

دودة سوداء مخططة بالاصفر ، وتطلق على تنويع 'القافية' ،
وهو اسلوب فى التقفية يعرف كذلك بـ : الدريلة والمرشوش
(انظرهما) .

* المزو :

او لعزا وهو الرثاء . ومن اقدم نصوصه قصيدة عبد العزيز
المغراوي فى رثاء المنصور السعدي وحريتها :

عام شايب مات الذهبى اخيار لقراب
ما بقى للسعدى باش ايرجحو

* عاشورا :

مناسبة اتاحت للشعراء فرصة استعراض جمال الطبيعة
والفائنات في قصائد كهاته التي يقول الحاج محمد النجار في حربتها :
اجى اتشوف يا من لا شاف الهايجات يسدرو
كيف شفت عين حسن يوم عاشور

* العشيق :

الشعر الذي يصف الجمال ، ومعظم قصائده تحمل اسم
المحبيات ، وفي طليعتها زينب وفاطمة وزهرة وخديجة ، ويقابله
التغزل (انظره) .

* العشيق :

1 — عنوان لمجموعة من قصائد التغزل (انظره) كقصيدة احمد
الركوم التي حربتها :
مال العشيق يا هل الهوى صابر لدعات ما بغى يسخا بالمعشوق
2 — لقب أطلق على الشاعر محمد بوعمرو لسبقه الى
موضوع العشيق .

* العشاق :

نوبة موسيقية (انظر : نوبة) .

* المعشوق :

عنوان لمجموعة من قصائد التغزل (انظره) كقصيدة الرجراجى
التي حربتها :
يا علاج القلب المحروق بالمعشوق
لا تهون بميسورك من الكيد طلقتو

* العلم :

يقال :

- 1 — العلم الرقيق .
- 2 — العلم الموهوب أو علم الموهوب .

يقصد بهما الشعر الملحون

* لمعلم :

الشيخ الكبير ، وكان هذا اللقب يطلق على محمد بن على
العمرائى المعروف بولد ازرين .

* المعنى :

يقال :

- 1 — «السبب والمعنى» لدواعي القول وحوافزه عند الشاعر .
- 2 — «حسس اعلى المعنى» اي بحث عنه .
- 3 — «الدسيس د المعنى» اي توضيحه .

(انظر هذه المصطلحات) .

* عايب :

وصف يطلق على الميزان اذا كان غير سليم ، وبصفة خاصة
على ميزان القصيدة الذي لا يقوم على السرابية ، حيث ورد في قولهم :
« من لا يوزن بسرارب ميزانو يبقى عايب » (انظر : السرابية) .

— غ —

* غريبة الحسين :

نوبة موسيقية (انظر : نوبة) .

* لغزال :

عنوان لبعض قصائد العشق (انظره) كقصيدة بنعيسى الدراز
التي حريتها :

اعطف برضاك يا غزالي يا مشموم لبها النايح
يا من حسنك اسلب عقلى بكمال اوضحو

* التفزل :

شعر العواطف والمعاناة من الحب ، وتعرف قصائده بالمحبوب
واللائم والجافى والعاشق والمرسول وما اليها ، ويقابله العشق
(انظره) .

* اغزىل :

عنوان لبعض قصائد العشق (انظره) . وقد يكون فى الغزل
بالمذكر كقصيدة التهامى المدغري التى حريتها :

دام الله اجمال صورتك يا شادي انت اعنايتى وامرادي
اغزىل يسلب من جا يصيدو زنجار فى عيد حاسدو

سبدي محمد

* الفزوات :

القوائد الايوبية (انظره) .

* لفصان :

اقسام القصيدة ، وهى تسمية تذكر بمصطلح الاغصان المستعمل فى الموشحات .

* لفظا :

اي الغطاء ، وهو ثانى شطري البيت فى وزن المثنى (انظره)
وهو شبيه بالمعجز فى الشعر المعرب .

* الفطاس :

الفواصة ، ويطلق عنوانا لبعض قصائد الهجاء ، كهاته التى يقول احمد الغرابلى فى حربتها :

هكذا من ينشى غطاس تحت لمواج ايج
كل من صادفوا قلبوا اصناجو
وابتقى كرجا

* الفاقل :

عنوان لبعض قصائد الوعظ والزهد والحكمة ، كهاته التى يقول محمد الشاوي فى هريتها :

لعن الشيطان
ياغافل اكما لعنو الله مولانا
مهما يدور بك اخزه ولعنو

* الفيوان :

الفناء .

* الفيظ :

أحد مستويات الإبداع الشعري (انظر : السجية) ويتجلى في نقل الشاعر لآحاسيس نفسه وأنفعالاتها كما في القصائد التي تعبر عن العاطفة ، سواء كانت عاطفة حب أو دين .

— ف —

* الفار :

عنوان لبعض قصائد الفكاهة إلا أنها ضاعت في أغلبها بسبب ما كانت تثيره بين الأسيخ من شغب وشتان ، الشيء الذي جعل المنشدين يتحاشونها وكذلك الجمهور . من ذلك ما يحكى من أن الناس كانوا يطلبون من المنشد قصيدة الفار فيقولون له :

تيجى اطلو امك (انظر كذلك : الكلب) .

* فجج :

استعرض نغمات وطبوعا مختلفة في قصيدة واحدة ويقال كذلك : بدل (انظره وانظر : التنجاج والتبدال) .

* التفجاج :

تنويع النغمات في القصيدة الواحدة ، وهو التبدال ، وفعله : فجج (انظره) .

* لمفرد :

ميزان قديم لعل قصائد الملحون كانت تنشد عليه في القديم .

* فرشى :

استعمل التفريشة (انظره) .

* لفراش :

اول شطري البيت في وزن المثنى (انظره) ، وهو شبيه بالصدر في الشعر العرب .

* التفريشة :

التشحيحة (انظره) .

* الفراق .

عنوان لمجموعة من قصائد التفريل (انظره) تحكى هجر المحبوبة وما يعانى المحب من ذلك . منها قصيدة التهامى المدغري التى حريتها :

لا يعيد افراق المعشوق يالعشاق
بعدها عنقنى تعناق لام مرشوق

* افصيح :

يقال « افصيح لشيخ » بمعنى أفصحهم وأقواهم تعبيرا وقدره عليه .

* لفصادا ؟

الفصد ، وهو يطلق على القصائد التى تصور الحفلات التى كانت تقام بهذه المناسبة ، كقصيدة فضول المرنيسى التى حريتها :
اواه يا منين اتجمعوا لريام فزمان التوار وانواوا لفصادا
(انظر : الحجام) .

* فصل ؟

قسم القصيدة .

* لفصالا ؟

تقسيم القصيدة .

* فاكية ؟

يقال « فاكية لشيخ » بمعنى ثمرتهم وشيخهم ، وهو لقب كان يطلق على الشيخ الجلالى امتيرد .

— ق —

* اقبض :

بمعنى قبض ، يقال أن المرددين قبضوا الميزان اذا اشدوه
(انظره)

* القدام ؟

ميزان موسيقى (انظر : ميزان)

* القرصان :

السفينة الحربية ، ويطلق عنوانا لبعض قصائد الهجاء
كهاته التي يقول محمد بن سليمان في حريتها :

هكذا قل للداعى ايدى قرصان ويخرج
كيف من سافر بين امواج
واغنم وانجا

* القريض :

الشعر الملحون .

* القسم :

المقطع ، وقد يكثر عدد الاقسام في القصيدة او يقل ،
كما ان عدد الابيات داخل القسم الواحد قد يكثر او يقل. والغالب ان
يتراوح عدد الاقسام من اربعة الى عشرة ، وكذلك يكون عدد
الابيات داخل القسم الواحد ومع ذلك فان بعض القصائد تاق عدد
اقسامها المعتاد ، ومن الامثلة عليها :

1 — قصيدة هول القيامة للمغراوي تضمنت ستة وعشرين
قسما .

2 — القصيدة الفياشمية للشرفى اشتملت على تسعة وعشرين
قسما .

3 — قصيدة الجمهور للعلمى بلغ عدد اقسامها اثنين واربعين.

4 — قصيدة الحسين للفلوس وصلت الى خمسة واربعين
قسما .

أما بالنسبة لعدد الأبيات في القسم الواحد فإنه قلما يزيد على عشرة ، وقد بلغ في قصيدة الشمعة لمولاي التايك ستة عشر بيتا في القسم الأول واحد عشر في الثاني وثلاثة عشر في الثالث وأربعة عشر في الرابع والآخر . ومثل هذا الاختلاف بين الأقسام شاذ ولكن الأشيخ يطلونه بـ « السبب والمعنى » (انظرهما) .

ومن براعة الشاعر أن يقدم لأقسام قصيدته بأبيات قليلة ، منها ما يسمى : لعروبي (انظره) ، ومنها ما يطلق عليه اسم النواعر (انظره) .

وإذا كانت أقسام القصيدة الواحدة تتساوى في عدد الأبيات فإن القسم الأخير منها قد يطول ، وغالبا ما يتضمن اسم الشاعر وتاريخ النظم واهداء السلام والتصلية والدعاء وهجاء الخصوم . ويطلق على نهاية القصيدة أو نهاية القسم الأخير منها اسم : الرواح (انظره) . وتجدر الإشارة إلى أنه يطلق على الأقسام كذلك اسم : لفصان (انظره) .

* لقصيد :

قصيدة الشعر الملحون

* لقصيدا :

القصيدة الزجلية التي هي قصيدة الشعر الملحون .

* لقصير :

يقال « لحويط لقصير » للتعبير عن قياس لمشركي (انظره)

* القاضى :

عنوان قصائد يلجأ الشاعر المحب فيها الى ممثل القضاء عساه
يتصفه من جور المحبوبة ، وهى من نوع التراجم (انظره) . منها
قصيدة امتيرد التى حريتها :

القاضى لك ادعيت لغزال خناري
اعلاش دون سبا هجرت لوكار
جفلت من رسمى تامت لقنا بودواح ازهور
زينت لاسم زهرا

* القطعة :

قصيدة الشعر الملحون .

* القافية :

هى القافية المعروفة فى الشعر العرب ، وتسمى كذلك الحرف
ويطلق على الشعراء : « هل لقوافى » (انظر : اهل)

* القاموس :

يطلق على بعض قصائد الوصايا والحكم كقصيدة محمد بن
على التى حريتها :

ما لبس اجدىد اللى ما قرا احساب البالى
اولا يلى بطعام اللى ايكون ناوي بالغدر

* اقوامسى :

بمعنى الدواهى ، يقال :

- 1 — اقوامس الملحون ، اي الشعراء الكبار
2 — اقوامس الموهوب او العلم الموهوب ، ويقصد بهم
الشعراء الكبار كذلك .

* القاييم ونصف :

ميزان موسيقى (انظر : ميزان)

* اقياس :

يجمع على قياسات ، وهى انواع الميزان داخل البحر الواحد.
وتنطق بالصاد : « قياس » .

— ك —

* الكاس :

عنوان لبعض الخمرات كهاته التى يقول المدغري فى حربتها .
فق اصاح هات افناجلك اغنم نشوة راحى يا صاحى
رادف واخلف شين ضاع لك جمع الري انصاحا واشكر بوجود المليح

* اكحل :

يقال « كلام اكحل » بمعنى معتد وصعب .

* لكراسا :

تطلق على :

- 1 — لمطيلعات (انظره) .
2 — السويرحات او النواعر (انظرهما) .

* مكسور الجناح :

بحر تكون الوحدة فيه قسما مركبا من اربعة اجزاء :

1 — الدخول وهو عبارة عن شطر في استهلال القسم لا غطاء له يبدو كالمطائر الذي كسر أحد جناحيه . وتكون اشطار دخول اقسام القصيدة موحدة القافية

2 — مجموعة من اشطار قصيرة غير مبيتة ولا غطاء لها تسمى : لمطيلعات او لكراسا (انظرهما) ولا تسير على قافية موحدة سواء فيها بينها او من قسم لآخر .

3 — بيت على وزن الحربة وقافيتها كأنه تهيد لها .

4 — الحربة اي اللازمة

ومن الامثلة على هذا البحر قصيدة المزيان لابن علي ، وهذا اول اقسامها :

1 — الدخول

ته بجمالك على لقمار

2 — لمطيلعات :

الشمس اتغير ايلا تشوف زينك
لبدر امن اجبينك والبان غار منك
اسبغ امن الظليم الوفرا
واضوا من لكواكب غرا
والحاجبين فوق الطرا

نحسابهم فونين
وامعرقين باثنين
واشغار فوق وجناتك ناموا

3 - البيت :

اصوارمو استلوا من لجنان
واجفانك غلبوا يا فهم شف اجفانى
ولخدود اسبغهم الجالر
عل لبياض احمرار

4 - الحربة :

ليا قال المزيان
وصف هذا الحسن ياللى تهوانى
قلت يا دابل لشفار
توصافك لا يحصار

ونجدد الاشارة الى انه اذا كان لا يشترط فى لمطيلعات أن
تكون موحدة القافية او على نفس قافية البيت والحرية فان بعض
الشعراء التزموا وحدة القافية فى كل القسم على حد ما نعل الحاج
ادريس بن على فى قصيدة غيثه ، وحريتها :

قولوا للا غيثا مولاتى رف بوصالك عل لعشيق يام الغيث

* الكلب :

عنوان لبعض قصائد الفكاهة ، وقد عرف الغالى الدهناتى
بنظمها ، وكان الناس يطلبون الاستماع اليها بمحضره بمثل قولهم :
« قولوا لنا الكلب د الغالى » وكأنهم يشتمونه ، فتضايق من ذلك

واحرق كل انتاجه فى الموضوع وحرّم على حفاظ شعره ان ينشدوه
(انظر كذلك : الفار)

* كلام :

الشعر الملحون . والقصد من التسمية بصيغة التعريف
المطلق أن هذا الشعر هو الكلام الحق الصادق .

* كان حتى كان :

نوع الشعر الذي نشأت عنه قصيدة الملحون ، وكان يعتمد
على القص والحكاية فى خلو من الوزن والقافية . وقد ورد هذا
الاسم فى اول قصيدة موزونة وقفنا عليها ، وهى لابن احساين ،
يقول فيها :

نبدا باسم الله انظامي يا لى ابغا لوزان
لوزان خير لى انايا من قول كان حتى كان

— ك —

* الكباحى :

السرابة التى يصاحب اداءها ضرب قوي ومتواصل بالكف
(انظر : السرابة) .

* كرج .

انشد الملحون (انظر لكريحة) .

* التعريجة :

من أسماء الشعر الملقون ، وسمى كذلك لصدوره عن التعريجة ولأنه يكرج به ، أي ينشد ويغنى .

* الكوال :

أهم آلة يضبط بها منشد الملقون الايقاع ، ويطلق عليه كذلك : « التعريجة » (انظره) .
ولعل أصل التسمية : الجوال أو القوال ، وهما افتراضان يدلان على أهمية الدور الذي تؤديه هذه الآلة في مصاحبة انشاد قصائد الملقون.

— ل —

* ملاحم :

قصائد طويلة :

* الملقون :

الاسم الذي شاع إطلاقه على الزجل في المغرب ، وهو من اللحن بمعنى عدم الاعراب وليس من اللحن بمعنى الغناء .

* التلزييم :

ويطلق عليه كذلك التضمين ، وهو أن يضمن الشاعر قافيتيه أكثر من حرف ويلتزم ذلك في كل القصيدة أو في بعض أقسامها . وهو ما يسمى في الأدب المغربي بلزوم ما لا يلزم . وقد برع فيه الحاج أحمد الغرابلي ، ومن خير الأمثلة على تضمينه قصيدة ملكة النسي يقول في أول أقسامها ملتزماً حرفي اللام والكاف :

يا من اطلوع اهلك
 يفجى اظلام لحلاك
 نحكى اشموس لفلاك
 لله جد لى بوصالك
 ننكى ابزورتى عدالك
 لنى اغلام حسن اجمالك
 قبل الصيام يا مولاتى ونا غلام مملوك
 ومن لفراق مهلوك
 ويلا تزورنى تتعافى ذاتى الهالك
 لو تجفى قلبى ايواصلك
 ويلا دزتنى ابقى العار اعليك

* الفا :

من اسماء الشعر الملحون .

* الاليم :

عنوان لمجموعة من قصائد التغزل (انظره) يعبر الشاعر فيها
 عما يقاسى من لائميه فى الحب وهم ممن لم يذوقوا طعمه . منها
 قصيدة علال الصدراتى وحريتها :
 دعنى كف لومك يا لايم لا تلوم دمع العين اسجيم
 حالتى لا حالا حالى انحيل اسقيم

— م —

* مالى مالى :

تفعيلة لضبط الايقاع فى قصيدة الملحون ، يقاس بها بعد ان
 تضاف لها كلمات مثل : الرادا العادا — سيدنا . للا مولاتى للا
 او ما اليها مما يشد به الميزان (انظر : شد)

والغالب في استعمال هذه التفعيلة أن يبدأ بتلك الكلمات ثم
تختم بـ : مالى مالى . ومن الأمثلة على ذلك قولهم في هذا البيت من
قصيدة الوردة لابن سليمان :

لا تلومونى في ذا الحال جيت نشهد وانودي
يا عدولى فالموت اسبابى خد الورد
للا يا مولاتى للا ويا مالى مالى
للا يا مولاتى للا ويا مالى مالى
ويقال ان الذي دعا الى اتخاذ هذه التفعيلة هو الشاعر
المصمودي (انظر : الدندنة) .

* الماية :

نوبة موسيقية (انظر : نوبة) .

* مخ :

يقال ان القافية « اعلى مخا » اذا جاءت في القصيدة كلها
بحرف واحد .

* الممدح :

1 — المديح النبوي ، ويطلق عليه كذلك : المدايح . ومن أبرز
قصائده هاته التي يقول النجار في حريتها :

نور الحق السامى صلى اعليه ربي واعلى آلو لكرام
نحسن به اختامى محمد لفضل طه خير الانام

2 — مدح الاولياء والصالحين . ومن الذين قال الشعراء فيهم قصائد كثيرة: المولى ادريس (انظر : الادريسيات)، وعبد القادر الجيلالي (انظر : الجيلاليات) ، وعبد السلام ابن ميثش ، وسبعة رجال . ومن الامثلة على هذا المدح قصيدة الفقيه العميري في ابن ميثش ، وحربتها :

انا يا ابن ميثش غارا بالرافا كن لى اعوين
يا بدر انبا اولا توارى يضوي ما طالت السنين
يخفى الهلال ولمنارا والصيرا الباقيين

3 — مدح الملوك والامراء والحكام ، على غرار قصيدة الحاج محمد العوفير في جلالة الملك الحسن الثانى ، وحربتها :

دام الله ايام صولتك يا نعم السلطان
يا كعب التمجيد والسعادة نور اعيانى
يا تاج المغرب سيدنا مولاي الحسن

* مداح :

كان الشيخ الحاج محمد النجار يلقب بـ : «مداح النبى » لكثرة ما نظم من قصائد في مديحه عليه السلام .

* المداحى :

المديح النبوى .

* لمرمات :

جمع مرمة ، ومعناها المنوال وهو الآلة الخشبية التى يستعمل النساج والدراز . ويتصد بالمرمات بحور الشعر المالحون ، وهى أربعة :

1 - المبيت

2 - مكسور الجناح .

3 - المشتب

4 - السوسى

(انظر هذه المصطلحات) .

* المساخ :

الذي يسرق شعر غيره ويمسحه بقلب معانيه والفاظه ، وهو
غير السلاخ (انظره) .

* المليح :

عنوان لبعض قصائد العشق (انظره) كقصيدة الرجراجى التى
حريتها :

انا عبد لمليح طايح مال فكسبت ارجيع

* الماهر :

الشاعر المتقن الماهر .

* الموال :

مقدمة قصيرة يستهل بها الانشاد على ميزان خاص ، وهى
تتكون فى الغالب من بيتين يكونان فى معظم الاحيان معربين . وقد
يكون الموال مستقلا فى حد ذاته .

والموال المغربي شبيه بالموال المشرقى من حيث الشكل لا
يختلف عنه الا فى اللحن والاداء . ومن خصائصه انه يستهل بـ :
آنانانا . ومن الامثلة على الموال العرب هذان البيتان المنسوبان
للصفاى :

ومن عجب انى أحن اليهم وأسأل شوقا عنهم وهم معى
وتشتاقهم عىنى وهم فى سوادها ويطلبهم قلبى وهم بين أضلعى

ومن الامثلة على الموال الملحون :

تأحبك ونهواك وفى امسبتك اكرهونى
ما راحتى حتى نلقاك واعليك يتحلو اعيونى

*** مول :**

استعمل الموال او التمويلة (انظرهما) .

*** التمويلة :**

كلمات يمهدها بحفظ الميزان وأدائه فى بداية انشاد القصائد . ويقال
ان لكل قصيدة تمويلة تكون على قالبها وميزانها . فمثلا تمويلة قصيدة
التوبة لابن سليمان تنشد على ميزان عراق العجم وتكون كالآتى :

أمالى يا مالى

أسيدي يا سيدي

للا يا مولاتى للا

أمالى مصبرنى

اغرايبى لامونى

* النحلة :

عنوان لبعض قصائد وصف الطبيعة ، ومن أشهرها قصيدة
التهامى المدغري التى حريقها :

صولى يا شاما الظريفا وازهاي اغنى اودندنى قطنى من لزهار
اترياق اعلاج كل ضر ابنت الملك ملك هما واتمارا

* النشب :

وهو ثلاثة انواع :

1 — نشب كلمة ، وهو ان يستهل الشطر بكلمة من الشطر
الذي قبله ، والبيت بكلمة من البيت السابق عليه ، وغالبا ما تكون
آخر كلمة فى الشطر او البيت ، وكان القصيدة سلسلة مرتبطة
الحلقات ، ويطلق على الاجزاء المنشوية : لمطارش (انظره) . ومن
امثله قول محمد بوزيان فى قصيدة المحبوب ، وكان بارعا فى
استعماله :

محبوب خاطري من فككو عمدالى	عمدا لى والنوم ضج من لنجال
لنجال اعلى الخد ادمعها سلسالى	سلسالى يهوا اكها لمطر هطال
هطال امن افراق اللى زاد اهبالى	اهبالى من فكك امن اهويت اغزال
اغزال اغلبها غيرو ما يحلالسى	يحلالى وصلو ايلنا نعم ابلوصال

2 — نشب كلمتين على ما نجد عند الحاج احمد الغرابلى فى
قصيدة عين الرحمة حيث يقول :

اعين الرحما الراحما يا قرت لنيام
يا قرت لنيام جدلى يا بحر التعظيم

يا بحر التعظيم ولفضل يا عين الرحما

3 - نشب شطر ، وقد برع فيه التهامى المدغري ، وخاصة
في قصيدته فارحا التى نقتطف من بعض أقسامها قوله :

سلكك ببهاك يالرايح مالك سكران دون راح
ونا عقلى امعك راح بايت من ليعت لجرايح
ساهر والناس رايا

بايت من ليعت لجرايح عقلى بهواك ما ارتاح
وانبرد ابفير اح اح بين التنهاد والجوايح
كاوي بجمار لافحا

بين التنهاد والجوايح بالشوق اتكمد لجراح
اللى من دكت اللماح والغالب ما ابقى يسامح
ولا يدري امسامحا

* النشاد :

المنشد ويجمع على : نشادا .

* الناشفة :

قصيدة تكون كل كلماتها مهملة الحروف . ومن الامثلة عليها
قصيدة الكبير بن عطية ، وفي حريتها يقول :

روم حرم الهادي واسع اكارم احماه
لمرام اموصل والود ولمكارم
ما مسى محروم الساعى لو راد احماه

ويعتبر ذلك من براعة الشاعر وقدرته على التعبير .

* النظم :

الشعر المالحون .

* النظام :

الشعر المالحون .

* النظام :

الشاعر .

* ناعورة :

وتجمع على « انواع » ، هي :

1 — أبيات قصيرة تأتي بعد الدخول في السراية (انظره)
والغالب انها لا تتعدى ثلاثة أبيات .

2 — ابيات تستهل بها أقسام بعض القصائد، ويطلق عليها كذلك :
لكراسا والسويرحات (انظرهما) . والغالب ان تكون مكونة من
ثلاثة ابيات ، وقد يصل هذا العدد الى خمسة ، كما أن البيت فيها
يكون من شطرين ، وقد يصل الى اربعة .

فمن الامثلة على الناعورة المكونة من ثلاثة أبيات بشطرين ما
قدم به الشاوي لاول اقسام قصيدة له في التصلية حيث قال :

واجدو من هو حى واحد	قبل لوجود واظهر للخلق اوجدادو
جعلو محبوب احبيب ماجد	كرموا وفضلوا واهدى به اعبادو
ويح من اعصاه وكان جاحد	جهنم اجزاه فيها مقعادو

ومن نماذج الناعورة ذات الخمسة أبيات قول المصمودي
مقدما لأول أقسام قصيدة الجار :

ما يشبهنى عائق الجار بالحب سرت ديوانى واخلاكى اصفر
نار الحب اقوى امن النار منها اعذاب قلبى يا صاح ينزير
من قوتها سارت اجمار بين لحشا اوسط المهجا وامع الصدر
نار اتحدى فيه بشرار واعيت ما نلاهى وانكابد فالصبر
جيت انزور احمامة الدار لا حى لا مونس لا غاشى لا خبر

وفيهما يخص القافية فان النواع قد تكون موحدتها في كل
القصيدة ، وقد تأتى كل منها على حرف . كما أنها قد تلتزم نفس
قافية القصيدة وقد تخالفها .

* الناقص :

عنوان لبعض قصائد التغزل (انظره) . منها قصيدة عبد القادر
العلمى التى حريتها :

ايلا اهداك اعلى ربي فاش جاك اكلام الحساد
يا سراج اعيانى رف يا غايت كل احبيب

* انفق ؟

يقال عن الميزان انه « انفق » اذا ادى في انسجام .

* المنقول ؟

أحد مستويات الابداع الشعري (انظر : السجية) ، ويتجلى
في رواية الشاعر لما في الكتب ونقله ونظمه كما في قصائد مولد
الرسول عليه السلام ووفاته ، وهى تحكى ما ورد في السيرة
النبوية .

* المنهاج :

اسلوب النظم وطريقته .

* نوبة :

جمعها نوبات ، وهى أقسام الموسيقى الاندلسية ، وعددها احدى عشرة ، هى :

- 1 - رمل الماية
- 2 - الاصبهان
- 3 - الماية
- 4 - رصد الذيل
- 5 - الاستهلال ، وهو من اضافات المغاربة
- 6 - الرصد
- 7 - غريبة الحسين
- 8 - الحجاز الكبير
- 9 - الحجاز المشرقى
- 10 - عراق العجم
- 11 - البعثاق

وعلى هذه النوبات يقوم انشاد قصائد الملحن .

— ه —

* لهجو .

الهجاء ، ويطلق عليه كذلك : الشحط والدق . (انظرهما)

* التهدير :

عزف قوي وسريع يقوم على الآلات الإيقاعية الصدمية ، وخاصة لـكـوـال والطبيلة والندير ، مع مصاحبة التصفيق . وهو غالبا ما يسبق انشاد بعض القصائد أو ينهيه وقد يتخلله عند سكوت المنشد وتوقف الآلات الأخرى . ويطلق على هذا العزف كذلك اليد

* الهرتال :

المتسلط على الشعر بنظم فارغ لا عاطفة فيه ولا معنى ، ويجمع على : هرتالا .

* المهرارز :

المدفع ، ويطلق عنوانا لبعض قصائد الهجاء ، كهاته النسي يقول محمد بن ريسون في حربتها :

هكذا قل للداعى ايدير مهرارز اخرج
كور مزد من سور ابراجو
يفرع من جا

* مهزوز :

طبقة في الميزان الموسيقى .

* الاسقهلال :

نوبة موسيقية (انظر : نوبة)

* الهيفض :

أحد مستويات الابداع الشعريّ (انظر : السجية) ، ويتجلى في وصف الشاعر للواقع ونقل الحقيقة كما في بعض قصائد المحاورات .

— و —

* واحد :

انظر « جنب » .

* الورشان :

طائر ، وهو :

1 — عنوان لبعض قصائد الشوق لزيارة البقاع المقدسة ، حيث يرسل الشاعر هذا الطائر يحمل رسالة الحب والشوق للرسول الكريم ، على حد ما نعل الحاج عمر المراكشي في قصيدته التي حريتها :

أولد لحمام ادي لى عنوانى للصادق لمصدق رسول الله

2 — عنوان لبعض القصائد التي يحملها الشاعر سلامه من مدينة الى أخرى (انظر مرحول) كهاته التي يقول الحاج ادريس الحنش في حريتها :

عاول نرسلك من مكناس في احمى ربي يا ورشاني
بمسلم اعلى لفقرا في فـاس

* لوزان :

الاوزان ، وهى من أسماء الشعر المالحون (انظر : كان حتى كان) .

* الميزان :

جمعها اميزان ، وهى فروع خمسة تتجزأ اليها كل نوبة من نوبات الموسيقى الاندلسية التى يقوم عليها انشاد المالحون (انظر : نوبة) ، وهى :

- 1 — البسيط
- 2 — القايم ونصف
- 3 — الببطايحي
- 4 — القدام
- 5 — الدرج ، وهو من اضافات المغاربة

* موسوع :

طبقة فى الميزان الموسيقى .

* التوسل :

عنوان للقصائد التى عبر فيها الشاعر عن حاله المقل بالذنوب والاوزار ، ورجائه الملح فى الله أن ينقذه ويعفو عنه ، متخذاً وسيلته اليه او الى رسوله الكريم وساطات مختلفة .
ومن أشهر هذه القصائد توسل العلمى الذى حربته :

يا من ابلانى عافينى ارحمك النال
خف ثقلى يتسرح يرتخا اعكالى

* الوصال :

عنوان لمجموعة من القصائد يصف فيها الشاعر المحب
وصوله الى حبيبته او زيارتها له كتصيدة محمد بن على التى حريتها:

زار الزين امقامى واعم امجيه جاني سلوانى والمرام
واجعلتو فزمانى هو مالكى ونا للباهى اغلام

* الوصاية :

عنوان لبعض قصائد الوعظ والزهد والحكمة ، كهاته التى
يقول العباس الحرار فى حريتها :

سبحان من خلقنا واتهرنا بالموت
ويطلق بعض اشياع مراکش على هذه القصائد اسم «المدونة»
(انظره) .

* الوفاة :

عنوان لبعض القصائد التى تناولت وفاة الرسول عليه السلام ،
كهاته التى يقول احمد الغرابلى فى حريتها :

معظم يوم اتوفى بدر التمام سلطان لنبيا بلقاسم

* الولد :

انشأ وابدع ، ومن امثالهم « السجاي تيولد والحفاظ تيربى »
(انظر : السجاي والحفاظ) .

* الوهبي :

الشاعر الذي له قدرة على النظم في سهولة ويسر دون أن تكون له عواطف وأفكار . ومن هنا قالوا « لا معرب على وهبي » (انظر معرب) اي لا جدوى من مناقشته في المعانى . وهو غير السجاي (انظره) . ومن الشعراء الوهبيين محمد الجابري واحمد المرياق الذي نقتطف قوله في تصيدة لا مضمون لها ، من باب « السماء فوقنا والارض تحتنا » :

شف اولاد اليوم من كثرة لحرام اعموا
ما قبطو فيمانهم غير الله يداوي
ويلا غاب الصبح لا طبيب ايداوي بدوا
واش المركب دون رايس وقومانو يرساوا
واش لغنم ابدون سارح ترعى لخطاوى

* الموهوب :

الملحون ، وفي التسمية احياء بانه هبة من الله مصدره الالهام

— ي —

* السيد :

التهديرة (انظره)

د. عباس الجراري

الرباط

إدريس الأكبر، فاتح المغرب وثيقة تاريخية عن دعوته لمرتضى، ولم تعرف لدى الذين كتبوا عنه من المعارضة

تقديم وعرض : د. عبد الحارث السازي

نشرت تحت هذا العنوان كل من مجلة (التضامن)
و (الوثائق) دراسة للاستاذ علال الفاسي وعد القراء في
نهايتها بالحديث عن تحركات الامام ادريس بن عبد الله خارج
الساحة المغربية من أجل استرجاع الخلافة للعلويين وقد شاءت
الاقدار أن تستأثر بروح الفقيه الجليل قبل أن يتمكن من
تزويدنا بما به وعد ، فله ما أعطى و له ما أخذ .

ومعلوم ان الاستاذ علال كان في دراسته كشف عن وثيقة
تتعلق بالامام ادريس الذي كان يدعو في بداية مقامه بطنجة
الى اخيه الامام يحيى والذي لم يلبث - بعد أن بلغته الاخبار عن
تصفية اخيه من طرف هرون الرشيد - أن اخذ يدعو لنفسه
متصلا بمختلف الجهات بما فيها وليي التي استقبلته في النهاية
وبايعته على اساس ما جاء في الوثيقة .

لقد كان الوعد الذي قطعه الاستاذ الراحل على نفسه
محور حديث جرى بينه وبينى أثناء زيارته الاخيرة لبغداد أوائل

1972 وصادف أننى كنت حديث الحصول على وثيقة تتعلق برسالة بعث بها الامام ادريس بن عبد الله الى أهل مصر يدعوهم فيها الى الالتفاف حول آل البيت رضوان الله عليهم... حصلت عليها ضمن مخطوطة بميلانو (مكتبة أمبروزيانا) بمساعدة السفارة الإيطالية فى العاصمة العراقية .

وقد أعرب لى رحمه الله عن رغبته فى الحصول على صورة للورقات التى يتضمنها المخطوط الذى لم يكن غير الجزء الثانى من سيرة الامام المؤيد بالله محمد بن القاسم (من أئمة اليمن) ذكرا أنه بحاجة اليها فى البحث الذى يعده - رغم شأغله وحالته الصحية - حول المولى ادريس غير أنه - وقد علم اننى أحرر آنذاك القسم الخاص بالعلاقات الخارجية للدولة الادريسية من (تاريخ المغرب الدبلوماسى) سمح لى بتأجيل استعارتها ايّاه .

وعند عودتى للمغرب أطلعتنى على الوثيقة التى كان يعتزم نشرها ، مجددا رغبته فى الحصول على نص ما كان رآه ببغداد، وهكذا أعرتها له يوم 27 - 3 - 74 الى أن كانت ليلة سفره الاخير الذى استشهد فيه حيث اعاد ما كنت أعترته مؤكدا انه قام بتصويرها وانه سيتحدث عنها فى مقال لاحق .

وما أشك أنها كانت فى طريقها للنشر من جانبه ، وأنها كانت ضمن ما وعد به ولهذا فانى أقدمها اليوم للقراء محاولا أن أرضى نفسه الطويل - رحمه الله - فى البحث العلمى ورغبة فى اطلاع جمهور القراء عليها .

وسوف لا أتحدث هنا عن الصلات التي استطاع الامام ادريس أن يربطها سواء مع الامارات المجاورة لمملكته ، أو بالعبيديين بافريقية والامويين بالاندلس ، ولكنى سأكتفى بما يتعلق بعلاقاته مع العباسيين ببغداد وبطموحه رضى الله عنه الى كسب أهل مصر وخطابه اليهم في هاتيك العصور من غير أن يقيم وزنا للخطر الذي كان يهدده من العباسيين في بغداد وبالرغم أيضا من الاخبار التي وصلت عن انتقام أولئك من أخيه الامام يحيى بن عبد الله بعد أن كانوا زودوه بتأمين يتضمن عدم العدوان عليه على ما ذكر ...

وقد ورد الخطاب المشار اليه ضمن رسالة مطولة وجهها المؤيد بالله محمد بن القاسم (ت. 1054 = 1644) (1) امام اليمن الى المغرب الاقصى عندما احتدت الازمة الداخلية ببلاد المغرب في أعقاب وفاة المنصور السعدي وتفرق بنييه وظهور بعض الزعامات وبخاصة عندما اشتدت أطماع أتراك الجزائر في الاستيلاء على المغرب عبر الخلافات الناشبة بين القادة الظاهريين الذين كان فيهم من ينتمى بدوره الى العثرة النبوية مما كان يهدد بخروج الحكم من يد آل البيت الشريف أيام السلطان محمد الشيخ الاصغر ، واسط ذي القعدة 1048 = مارس 1639 .

(1) هو محمد بن القاسم بن محمد بن عالى كان عظيم السلطان في بلاد اليمن وقد قام بعد وفاة أبيه سنة 1029 وانتقلت له الديار اليمانية كان عالما متقنا وفي أيامه وبمساعدة أخيه المولى الحسن اضطر الترك للخروج من اليمن كله عام 1045 = 1035 وقد توفي عام 1054 = 1644 . القاضي الشماحي : تاريخ اليمن ص144

ففى هذه الظروف وصل ((السيد الجليل العالم النبيل الطاهر بن عبد الله الادريسي)) وكان العلامة هاشم بن حازم ابن أبى نعى (2) وجده (زبيد) سائحا وعليه أسمال فى هيئة السؤال ، وعرفه وعرف علمه ومنصبه الشريف فرفع قدره وطالع فيه مولانا الحسن أخا المؤيد بالله محمد بن القاسم فاستدعى ذلك وصول مولاي الطاهر الى مقامه وعرف ما عنده من فنون العلم وأنه من أهل بيت ملك ، وأخبره أنه خرج خائفا من ابن عمه ملك البلاد ، فقربه كثيرا وأقام عنده أياما وأعطاه ما يجلب ويعظم من الخيل والخلع النفيسة والنقود الكثيرة على أنواعها وأرسله مع بعض خواصه الى الامام المؤيد ، وقد أخبر المرافقون للزائر المغربى أنهم رأوا فيه أثناء الطريق ما يدل على أنه من الامراء وأكابرهم ، ومن أهل الهمم العلية .. وقد مكنه الاجتماع بالامام من التعرف بالحالة فى المغرب وأعطاه الامام عطاء جزلا وكتب معه دعوة الى المغرب الاقصى ، وأخبر بعض أصحاب مولانا الحسن أنه سمع الزائر المغربى يخوض معه فى الدعوة لنفسه فى المغرب كما سمع مثل هذا الكلام عن عدد من الناس ويذكر المصدر الذى نقل هذا الكلام أنه لا يدري بعدما حصل : وهل ان الامر تم للامير المغربى المذكور أم لا ..؟

وبعد هذا يأتى المخطوط بنص الدعوة والرسالة التى وجهها الامام المؤيد محمد بن القاسم الى المسمى الطاهر بن

(2) أسرة ابن نعي مشهورة وقد حكم عدد منها الحرميين على ما هو معلوم ولم اعثر على ترجمة خاصة لهاشم هذا حفيد ابن أبي نعي ..

عبد الله الادريسي باعتباره أحد أبناء الرسول المستحقين دون
غيرهم لتولى الحكم ..

وفي أثناء هذه — الرسالة الدعوة — يستطرد الامام المؤيد
بالله بالاثيان بالنص الكامل للرسالة التي كان الامام ادريس
الأكبر بعث بها الى أهل مصر ، وهذا بيت القصيد ، وأريد قبل أن
أستعرض نص الرسالة المشار اليها أن أبادر الى القول بأنها هي
عينها مضمون القسم الثاني من مقال الاستاذ علال الذي يبحث
عنه الاستاذ عبد الوهاب بن منصور ، وأنها هي نفسها الوثيقة
التي تحمل رقم 5 في العدد الاول من مجلة (الوثائق) الغراء ...



ان الذين ينتبعون تنقل الامام ادريس من المشرق في
أعقاب وقعة فخ ، ويتتبعون الى جانب ذلك كيف أن هذا الرجل
استطاع أن يؤسس في المغرب الأقصى نواة لأول دولة مستقلة
ليدركون مدى التخوف الذي كان يساور العباسيين من أمر
أفلاته أولا ثم من أمر نجاحه في التغاف الناس حوله ..

خمس سنوات فقط بعد وقعة فخ استطاع فيها هذا
الرجل السياسي أن ينجح ، بمساعدة السكان ، في انشاء
خلافة مستقلة عن المشرق تأخذ طريقها في اتجاد مصر !

لقد فقدت الخلافة بالامس ولاية الاندلس عندما استطاع عبد الرحمن بن معاوية بن هشام أن يفلت من تعقب العباسيين ويلتجئ الى هذا المغرب الاقصى سنة 136 = 753 ثم يعبر منه المتوسط (3) ليكون له في شبه الجزيرة الاندلسية دولة مستقلة؛ لكن ذلك تم في ظروف قلقة كان فيها العباسيون في حالة سطو على كيان بنى أمية ، وأما افلات ادريس فقد تم في عز الدولة واستقرارها ! أما ادريس فهو من آل الامام على ، ولا بد أن كسبه سيفوق كل تصور ...

ولا شك أن الذي زاد في قلق الخليفة هرون الرشيد وتخوفه ما بلغه عن طريق رجال أخباره من أصداء الرسالة التي بعث بها الامام ادريس ، مع وفادة سرية ، الى أهل مصر يذكرهم فيها بفضائل أهل البيت ويصف فيها التضحيات العالية التي بذلوها في سبيل حقهم الشرعى ويطالبهم بتأييده ومساندته .. لقد اقتنع الخليفة الرشيد بأن الادارسة لا يفكرون فقط في فصل المغرب عن دار الخلافة الاسلامية والاكتفاء بزعامته ، وانما كانوا يخططون لتوحيد الخلافة كلها تحت قيادتهم !

(3) التجأ عبد الرحمن الذى لقب بالداخل ، الى المغرب الاقصى واقام حينا بقبيلة مغلة مختفيا عند شيخ من شيوخ البربر يدعى وانسوس ، ثم نزل عند قوم من زناتة على شاطئ البحر المتوسط ولحق ببليزية وغيرها وفي اواخر 136 = 753 بعث رسوله (بدر) الى الاندلس للاتصال بانصار بنى أمية . . . وقد نجح (بدر) في مهمته وعاد يدمل البشرى لعبد الرحمن الذى عبر البحر في ربيع الآخر 138=755 ومن ساحل غساسة الى البيرة **Alvira** حيث مسمى سجد الاندلس . . . البيان المغرب ج 2 ، 45 —
نفس الطيب 64/2 .

[illegible]

اللوحه 72 حرف (ب) من المخطوطه اليمنيّه التي حصل عليها الايطاليون أثناء انصالحهم
باليمن والتي زودني بها في بغداد السيّد اريستو بيرلارديني **Birnardini**

لقد كان الامام بعث ادريس فعلا الى مصر (4) رسالة يقول فيها داعيا الى الالتفاف حول أهل البيت ما نصه :

((بسم الله الرحمن الرحيم أما بعد فالحمد لله رب العالمين لا شريك له الحى القيوم ، والسلام على جميع المرسلين وعلى من اتبعهم وآمن بهم أجمعين ، أيها الناس ان الله بعث نبيه محمدًا صلى الله عليه وآله وسلم بالنبوة ، وخصه بالرسالة وحباه بالوحي ، فصدع بأمر الله وأثبت محبته وأظهر دعوته وان الله جل ثناؤه خصنا بولايته وجعل فينا ميراثه ووعدنا وعدا سعى له به ، فقبضه اليه محمودا لا حجة لاحد على الله ولا على رسوله صلى الله عليه وآله وسلم فله الحجة البالغة ، فلو شاء لهداكم أجمعين فخلفه الله جل ثناؤه بأحسن الخلافة ، وغذانا بنعمته صغارا وأكرمنا بطاعته كبارا وجعلنا الداءة الى العدل ، القائمين بالقسط ، المجانبين للظلم ، ولم نمل ، اذ وقع الجور ، طرفة عين عن نصحنأ أمتنا والدعاء الى سبيل ربنا جل ثناؤه ، فكان مما خلفته أمته فينا أن سفكوا دماءنا وانتهكوا حرمتنا وأيتموا صغيرنا وقتلوا كبيرنا واثكلوا نساءنا حملونا على الخشب وتهادوا رؤسنا على الاطباق فلم نكل ولم نضعف بل نرى

(4) يظهر ان الرسالة بعثت عند معبره الى تلمسان سنة 174=790، للشخصية التى كان الامم تعرف عليها وهو فى طريقه من الشرق الى بلاد المغرب . ولعلها السيد المصرى الذى تعرف على ادرس وراشد واضافهما عنده ورافقهما الى برقة ، ولا يبعد ايضا أن تكون موجهة الى علي بن سليمان الهاشمي الذى كان تستر على الامام ادريس ومولاه راشد ورفيقهما ، ابن ابي زرع : روض القرطاس .

ذلك تحفة من ربنا جل ثناؤه وكرامة أكرمنا بها ، فمضت بذلك
الدهور ، واستملت عليه الامور وبى منا عليه الصغير وهرم عليه
الكبير ... » (5) .

رسالة ادريس وهارون الرشيد ..

وقبل أن نعرض للرسالة اليمنية الى أهل المغرب نشير

اشارة خاطفة للأثار التي خلفتها الاخبار التي وصلت الى بلاط
بغداد عن هذه الرسالة ..

لقد تحدث المؤرخون عن هلع الرشيد من بيعة أهل
تلمسان للامام ادريس مرددين القولة المأثورة التي ترددت في
بلاط بغداد « أن من دخل الباب لأبد أن يصل الى ما وراء الباب »
ولكنهم أي المؤرخين غفلوا عما تقتضيه الرسالة الادريسية من
وصول ادريس فعلا الى مصر التي لا تبعد عن بغداد !

واعتقد أن الوشاية التي وصلت بادريس من مصر هي
التي عجلت بتنفيذ ذلك الهاجس الاسود الذي خطر على ببال

(5) الجزء الثاني من سيرة الامام المؤد بالله محمد بن القاسم ، المشار
اليه في صلب المقال - دكتور أحمد مختار العبادي : المغرب
والوحدة الإسلامية : المحاضرة الاولى في حفل افتتاح السنة
الاكاديمية لجامعة محمد الخامس الربط يوم 20 أكتوبر 1961 -
مجلة التربية الوطنية ، الرباط ، مجلة تطوان . وقد ذكر الدكتور
المبادي أنه عثر على الوثيقة بفضل افادة الاستاذ محمد ابراهيم
الكتاني رئيس قسم المخطوطات بالخزانة العامة .

جعفر البرمكى والمتلخص فى انفاذ جرير بن سليمان الشماخ
الزبيدي لاغتيال الامام ادريس على نحو ما تم بالنسبة لآخيه
يحيى بن عبد الله بالمشرق ...

ان الرسالة العباسية فى بغداد لم تستفد من الخطأ الذي
وقعت فيه الخلافة الاموية فى دمشق عندما كان ولائها على
المغرب يعاملون السكان على نحو من القهر والقمع والكبرياء
الامر الذي ادى الى اعلان التمرد على حكام دمشق وانشاء
دولة مغربية تقوم على مذهب جديد .

كان على بغداد أن تدرك أسباب ذلك التمرد بل وتدرك معه
الفرق بين ذلك الانفصال الخطير الذي ذهب الى حد اضطهاد
العروبة وبين هذا الاستقلال الذي كان يهدف لحماية العروبة
ويعمل على صهر المغرب فى مجتمع اسلامى سليم .

اننا نعتقد انه لولا ذلك « الهاجس الاسود » لكتب الناس
التاريخ الاسلامى بطريق غير التى كتبوها به على ذلك العهد ،
ومع ذلك فقد أبى القدر الا أن يفسد خطط الرشيد بميلاد ادريس
الثانى الذي أرسى قواعد الدولة بما قام به طيلة حياته من أعمال
ومنجزات بالرغم من أن بنيته من بعده اختلفوا على أمرهم ،
ويكفى أن نردد هنا عاصمته فاس : المدينة التى يقتزن اسمها
باسمه ، ويكفى أيضا أن نعلم حديث بعض المؤرخين عن سفارة
من فاس تصل الى شارلمان لمزاحمة سفارة بغداد لديه ...

المصنف والفرع بها حكم وكل من بلغه من الامة جعل رتبتها من الالهة
 في الدين عاصمه ولم ير له على السبل في سلبها النكاح واذا نكحته الله بها
 عليكم وان كان قد سلك في الخلد ولم يصب لاهله الله بها كذا في جميع
 هذه القصة الى ان اتصل بالسيد المجدل الا وجد السبل واسطة
 بينه وبين الله واما في النصف الثاني من هذه القصة
 فاهلها منكم باسمهم اياكم انما شاء الحق من قام به عنها وشرقي
 حله بها انما حكم الله شره اليه وكرم الابن وانتم كذا ما نون
 ونقروا ان شاء الله تعالى سلككم من اهل بيت النبوة وفي اهل بيتكم
 بذلك واما فيهم الذين ساءوا فيهم وانتم وعضوا في امر الله سلكوا
 فيهم واولئك في امرهم ولا يكون على كل واحد منكم من الله ما فيهم
 انهم في امرهم في قوله وكان من بني قتلهم رسول الله في امرهم
 لاهلهم في سبل الله وما صنعوا وما سلكوا والافان حتى كذا
 فيهم في الحسن الحسن في السبل وراي القومين وان سبل الله
 واجل ما لا يهر الاطراف من سبل الله الحسن الذين لما نظر اليهم
 جعل الصادق وجها فيهم الى المدينة جعلت فيهم من جهة دموعه
 على حسنه ثم كذا لانهم الحسن بن زيد بن علي عليهم السلام واما كذا
 فيهم من بعد هذا اقول اما في ساءه الدنيا ورضه اصحاب
ابن زيد بن علي الذين فيهم من سبل الله الحسن الحسن
ابن زيد بن علي من سبل الله الحسن الحسن ابن زيد بن علي من سبل الله الحسن الحسن
 الله وجميعهم من اهل بيتهم الذين اسرارهم كذا فيهم الامم
 ابن زيد بن علي من سبل الله الحسن الحسن ابن زيد بن علي من سبل الله الحسن الحسن
 الله الحسن الحسن الحسن اما فيهم من سبل الله الحسن الحسن
 الى الله والسلام على جميع المرسلين وجميعهم من اهل بيتهم

الرسالة اليمنية

لابد ونحن نعيد الى الذاكرة أن خطاب الامام ادريس ورد ضمن الدعوة التي وجهها المؤيد بالله الى أهل المغرب أن نتساءل عن محتوى الرسالة اليمنية ؟

ان الرسالة بعد أن تذكر الجهة التي أرسلتها تذكر ان « كتابنا هذا الى اخواننا وبنى أبينا صفوة العترة وخير الاسرة واخوانهم وبنى عمهم من آل الامام الاعظم ادريس بن عبد الله .. ومن يتصل بهم من المسلمين .. قمنا لله داعين وبأمره في عباده معلنين .. ولم نزل نعمل النظر في تبليغها اليكم واقامة حجة الله بها عليكم .. الى ان اتصل بنا السيد الجليل الاوجد النبيل واسطة عقد السادة ودرة تاج الشرف والمجادلة الطاهر بن عبد الله رعاه الله تعالى فأخبرنا عنكم وانكم ان شاء الله أحق من قام لله بحقها والتمسك فيما تأتون وتذرون بسلفكم من أهل بيت النبوة ، ومن أحق منكم بذلك وأباؤكم الذين ساروا للجهاد بنيته ومضوا في أمر الله ليبلغوا حجته فما ونوا في أمر الله بل كانوا كمن ضرب الله لهم مثلا من آبائهم النبيئين والمرسلين في قوله : فكأي من نبيء قتل معه ربيون كثير فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا ، والا غاين جدكم عبد الله الكامل بن الحسن الرضى شيخ المسلمين ورائد المؤمنين وابن سيد النبيئين واخوته الاطاهر الاطايب وأبن أبنائوه سادة الدنيا وزينة الاحياء ؟ أين محمد بن عبد الله النفس الزكية ، أين ابراهيم بن عبد الله النفس الرضية ، ابن يحيى بن عبد الله النفس النقية ، أين ادريس بن عبد الله البضعة التقية وغيرهم

من أهل بنيتهم الذين أشار إليهم جدكم الامام الاعظم ادريس بن عبد الله سلام الله عليه في رسالته الى أهل مصر اذ يقول : بسم الله الرحمن الرحيم الى آخر الرسالة التي أوردنا نصها ... وبعد هذا تورد الرسالة اليمنية أيضا نص رسالة أخرى من ابن أخيه التقى النقي الطاهر الحسن بن ابراهيم موجهة الى جماعة المسلمين يشير فيها أيضا لمكان أهل البيت ويتخلص المؤيد بالله من نص الرسالتين ، الادريسية والحسنية الى قوله : « نعم فكتبنا اليكم دعوتنا هذه داعية الى مثل ما دعا الله سلفنا وسلفكم وآباؤنا وآباؤكم من كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ... والدخول مع جماعة اخوانكم من أهل البيت واتباعهم من المؤمنين فيما دخلوا فيه من الاجابة وأمرنا السيد الجليل الطاهر بن عبد الله ان يبلغها ان شاء الله اليكم ويأخذ عهد الله فيها عليكم ويقوم فيكم ان شاء الله بأحكامها ويستعين بعد الله بكم على نشر أعلامها بما يطابق كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم .

وتختم الرسالة بالآية الشريفة : « قل هذه سبيلي ادعو الى الله على بصيرة أنا ومن اتبعنى وسبحان الله وما أنا من المشركين » وتزيد تدقيقا فتذكر التاريخ والمكان الذي حررت فيه على النحو التالي : « بتاريخ العشر الوسطى من ذي القعدة عام ثمانى وأربعين وألف بدرج الامير من وادي أقر من بطنة جحور وأعمال محروس شهارة (6) .

(6) (شهارة) مكان دعوة القاسم بن محمد حرث وقعت معركة شهيرة بين الأتراك واليمن : اليمن عبر التاريخ ص 246 — 265 .

تأملات في هذه الوثيقة

نلاحظ بادئ ذي بدء أن الوقت الذي اختير لهذا اللقاء بين شخصية تنتمي لآل البيت في المغرب وأخرى تنتمي لنفس البيت في المشرق كان يتفق مع تطلعات أترك الجزائر لضرب وحدة المغرب سواء بطريق التآمر والغدر أو طريق عقد الاحلاف مع العناصر الانفصالية التي كانت لا تتردد في مد يدها الى اسبانيا أو انجلترا أو هولاندا على ما هو معروف في تاريخ المغرب السياسي على هذه الفترة التي أمسى فيها المغرب ستة مغارب.. وإن اشراف اليمن الذين خبروا الاتراك وتمكنوا أخيرا من اجلائهم عن البلاد عام 1045 = 1635 كانوا أكثر ادراكا من غيرهم لتخوفات المغرب من أن يفلت الحكم فيه الى من هو غير مؤهل في نظرهم على الاقل ، وقد اعجزني البحث عن هوية الزائر المغربي لبلاد اليمن على ذلك العهد : الطاهر بن عبد الله وهل له صلة بأميرفاس عبد الله بن محمد الشيخ الذي له آثار بصحن جامع القرويين بالرغم من أن السعديين ليسوا ادارسة ؟

إن المعروف في التاريخ أن المغرب كان يعيش في هذه الفترة حقبة جد صعبة ، فقد كانت البلاد موزعة في شبه ملوك الطوائف : محمد الشيخ الاصغر بن زيدان يحكم طرفا من البلاد والشيخ العياشي يستأثر بطرف آخر منها والموريسكيون ينحازون تارة الى أترك الجزائر وأخرى الى الاسبان لتفشييل حركة الجهاد والمقاومة وذلك من أجل السيطرة على الحكم، وبين هذا وذاك ظهرت زعامات أخرى من أجل المساومة ...

لكننى على ظن من أن ذلك التحذير وصل الى بلاد المغرب،
وانه كان من أسباب تدارك الامر من قبل سيدي محمد بن
الشريف (محمد الاول) أول ملوك الدولة العلوية الشريفة الذي
ظهر في نفس التاريخ الذي حملت فيه الرسالة الى الديار
المغربية .

ونتساءل هذا بهذا الصدد عن السر الذي يختفى وراء تذكر
الملوك العلويين باستمرار لأشراف اليمن بالصلات السنوية
التي كانت تنفذ اليهم كل سنة عن طريق ركب الحاج فان الامر
لا يتعلق فقط بمواساة تقتضيها الاصول الاسلامية سيما مع
وجود مواطنين مغاربة من أصل يمنى على هذا العهد ولكن أيضا
بتعاطف سياسى يستهدف ابعاد المتسلطين على الحكم ...

ولابد من الاشارة هنا الى ما حملة تقرير سري رفعه الى
الباب العالي أحد السفراء العثمانيين : اسماعيل أفندي يقول فيه:
ان العلويين لا ينظرون بعين الرضا لحكم الترك وأن لهم قلوبا
تهفوا اليهم في الجزيرة العربية وعبر أقطار الشمال الافريقى
قاطبة ولذلك فان ما يتدفع به العلويون من مطالبتهم المستمرة
برفع القيد التركى عن الجزائر انما يقصدون به الى اقصائنا
والاحتفاظ بتلك الايالات عربية القلب واللسان .

وبعد فاذا كانت الوثيقة التي كشف عنها الاستاذ علال
قد أعطت الدليل على ما كان يهدف اليه الامام ادريس من اعادة

الامر الى نصابها في ذلك العصر المبكر ، فان هذه الوثيقة تؤيد
هي الاخرى أن القضية ظلت مشغلة آل البيت الى العصور
المتأخرة لا فرق في ذلك بين من تواجد منهم في أقصى المشرق أو
أقصى المغرب .

ان التاريخ الدولي للمغرب ملئ وحافل حتى ليعتبر في
نظرنا أكثر الدول أصالة وأقواها صلة بالاحداث العالمية في
سائر مراحل تاريخه وان صلابة عوده في النضال وتحدي التسلط
ظلت ملحمة مشرقة لدى أصحاب الرواية والدراية .

الرباط

د. عبد الهادي التازي

الفكر العلمي ومنهجية البحث عند علماء المغرب

عبد العزيز بن عبد الله

ان البحث العلمى يشمل كل مجالات الفكر الذي ينطلق من جماع مقومات الحضارة ، فالمجتمع المتوازن هو الذي تساوت عناصره وتكاملت معطياته فتحرر فيه النظر في مساندته للواقع وانطلقت التجربة غير مقيدة في مسارها الطبيعى المنبثق من ملايسات فعلية يعضد فيها الفكر العمل كما يساند العمل الفكر ولذلك تبلور التوازن بين المقومين في المجتمع العربى فى اروع مظاهره فكانت سمة المشاركة تطبع الثقافة فى اطار تكوين عام لا يترك مندوحة لللبس أو الغموض فى التفكير العلمى لو العمل الفكرى لدى الباحث العربى .

فهذا الباحث قد امتاز اذن بروحه الواقعية فلم يانف من الاقتباس من النص القديم بعد تحصيله على ضوء المعطيات الجديدة التى تتواكب كلها فى المجتمع الواحد وهذا هو سر عبقرية الفكر العربى فى العصور الاولى للنهضة العربية اى ما يسمى بالقرون الوسطى التى كانت فترة ذهبية فى حياة الانسانية لان الفكر ظل فطريا فى ابعاده المخبرية يلتزم بواقع الحياة ويعطى لكل الظروف حقها من التمهيص ليضع الخاص فى

إطاره العام دون أن ينساق في التيارات السطحية التي تحدو الفكر الساذج الى التعميم السريع انطلاقا من نظرات جزئية .

فالمجتمع العربى مهما تكن أبعاده ومقاساته — من القرية الى المدينة الوسطى الى الحاضرة — كان يرتكز — منذ الانطلاقة الاولى — على دعائم توفر له ظروف الحياة التي لا يعوقها خصاص ولا يحجزها عائق وقد كان من المقرر — بدائيا — فى حضارات العرب أنه « لا تستوطن الا بلدة فيها سلطان قاهر وطبيب ماهر ونهر جار وفاض عدل وسوق قائم » * ، ومنذ ذلك أصبحت المدينة الاسلامية الفاضلة هى التي تساق فيها المحيط الطبيعى الخصب والعدل الاجتماعى الموفور والاقتصاد الاكتفائى السابغ والمنطلق الحر الذي يكنل للفكر المسار الانسانى فى غير قيد ولا شرط عدا الاقيسة المنطقية الرصينة ؟

ولذلك كانت التجربة أساس الابتكار والابداع عند العرب فتفوقوا فى العلوم التجريبية خاصة وقد اكد كودار فى (تاريخ المغرب) ص 449 انه اذا كان العرب قد تفوقوا تفوقا بارزا على (اللاتين) فى عهد من العهود فان ذلك لا يمكن ان يكون الا فى الحساب والطب والجغرافية والعلوم الطبيعية والصيدلة والكيمياء والفيزياء (البصريات) اذ جابر بن حيان الكيمائى وابن الهيثم الفيزيائى فى طليعة من اقام هذين العلمين على قاعدة تجريبية راسخة ، وقد بنى العرب تجاربهم على اجهزة مخبرية فسبقوا الاوربيين الى وضع الاوانسى الزجاجية الكبرى التى تحتوى على السوائل الملونة للفرز والتمييز بدقة وضبط وهى اليوم أساس تحليلات وتمحيصات المختبرات العصرية فى مختلف العلوم (2) ، وقد شعر العرب منذ القرن الثانى الهجري بأهمية علم الصيدلة فى التجارب الطبية كما اقتنعوا بأن معرفة الكيمياء أساسية فى البحوث الصيدلية والطب .

وكان ابن جلجل الاندلسى اعظم طبيب طبائعى فى عصره حيث عرب مفردات ديسقوريدس وزاد عليها الادوية المعروفة عند العرب والتى

(*) (زهرة الاس) ص 24
(1) (كتاب الطب والاطباء بالمغرب — عبد العزيز بن عبد الله ص 5) .

جهلها (ديستوريدس) فأكمل بذلك هذا الكتاب انطلاقاً من أنواع الاعشاب المتوافرة في الوطن العربي وخاصة في المغرب والاندلس ، وانها برز ابو بكر محمد بن زكرياء الرازي فكان أباً للطب العربي بفضل ما حققه من تجارب ، فله ما يناهز مائتى كتاب ترجمت جميعها الى اللاتينية منها كتاب « تجارب المارستان » وقد وصف فيها — اثر تحليلات ميدانية — الجذري والحصبة وأدخل الى الطب اجهزة ووسائل عيادية جديدة فكان أول من استعمل الفتائل في العمليات الجراحية وكذلك الانابيب التى يمر منها الصديد والقريح والانرازات السامة ، كما برز كطبيب اخصائى بفضل تجاربه في حقل بكر هو « طب الاطفال » الذي قام فيه بدراسات وابحاث ضمنها كتابا خاصا .

وقد اكد (رينو) (2) أن تاريخ الاندلس امتزج بتاريخ المغرب تحت راية المرابطين منذ أواخر القرن الحادي عشر وخاصة الثاني عشر الميلادي وهما أبرز عصور اسبانيا المسلمة ثم قال : « فكيف اذن يمكن أن نفصل بين دراسة الطب بالمغرب ودراسة حياة العلماء الذين أنجبهم الاندلس أو الذين تكونوا في مدارسها ثم ساروا في أعقاب ملوك المغرب في أثبيلية أو قرطبة أو فاس ومراكش أو أغمات فللمغرب الحق اذن في أن يتبنى ابن باجة وابن طفيل وابن رشد الخ ...

واذا قارنا بين شقى العروبة وجدنا أن الروح التجريبية عند علماء المغرب والاندلس جعلتهم يبدون أحيانا سلفهم من المشاركة فهذا ابن رشد قد صنف شرحا لرجز ابن سينا في الطب المعروف عند الاوربيين بـ (كانتيكوم) فامتاز الفرع على الاصل حيث اكد ابن زهر الاوسط افضليته على كتاب (القانون) الذي هو أعظم مصنفات ابن سينا لانه جامع لمبادئ العلم .

فالفكر التوليفى Synthétique هذا هو الذي يعتبر من عوامل النجاح في التجربة العلمية المغربية ، وقد حكم المجتمع الطبى عام 1500 م

(2) الطب القديم بالمغرب — نشرة معهد الدروس المغربية عدد 1 ص 72) .

— 906 هـ بالسبق لابن سينا في خمس محاضرات من أصل عشر
ولجالينوس في أربع ولابقراط في واحدة (كازيط المستشفيات — عدد مارس
1932 — محاضرة الاستاذ فوسك) .

كل ذلك راجع لروح الاصاله التي بدرت في تجارب ابن سينا .

واكبر طبيب تجريبى ظهر في الاندلس في القرن الرابع الهجري هو
ابو القاسم خلف بن عباس الزهراوي Avempace صاحب كتاب
(التعريف لمن عجز عن التأليف «) الذى قال فيه احد الجراحين القريبين :
« لا شك أن الزهراوي اعظم طبيب في الجراحة العربية وقد اعتمده
واستند الى بحوثه جميع مؤلفي الجراحة في القرون الوسطى وكتابه هو
اللبنة الاولى في هذا الفن وهو اول من ربط الشرايين ووصف عملية تفتيت
حصاة المثانة واستخرجها بعملية جراحية وعالج الشلل واول من استعمل
خيوط الحرير في العمليات الجراحية والظاهرة الطريفة التي امتاز بها
(كتاب التعريف) هي احتواؤه بازاء النصوص على آلات دقيقة ووضعها لمبدأ
اساسى منذ البداية يتلخص في أن علم التشريح اساس للجراحة (3)
فكتابه هو اول تعبير للجراحة كعلم (ص 456) .

وتوجد في (خع 1427 د) (4) بعد المقالة الثامنة من كتاب التعريف
مقالة تحتوي على 28 صورة لحدائد الكلى وآلات العمل وهذه المكاوي
الدقيقة الصنع تختلف حسب العضو المريض من الرأس الى الاذن والفك
والعين داخلا وباطنا والاضراس والمعدة والمقعدة والكبد والطحال والقدم
والساق والتاليل والمثانة الخ ؟

ومن جملة الاطباء الذين انطلقوا من التجربة الوزير أبو المطرف عبد
الرحمن بن شهيد الذي عرف الادوية المفردة ورتب قواها ودرجاتها في
المختبر وقارن بين العشب الاصلى والدواء المستحضر فقرر عدم استعمال
الادوية ما أمكن العلاج بالاغذية او ما يقترب منها حتى اذا اضطر الى

(3) (لوكليز — الطب عند العرب ج 1 ص 455) .

(4) هي المكتبة العامة بالرباط .

الأدوية فضل المفردة على المركبة واختصر التركيب في هذه فوصل الى نتائج غريبة في الإبراء من الأمراض الصعبة والعلل المخوفة بإيسر علاج وإتربه (5) .

وكان منطلق التجربة العربية المصلحة الجماهيرية فقد كان من مهام المحتسب تحليف الأطباء أن لا يعطوا أحدا دواء مرا ولا يركبوا له سما ولا يصنعوا السمائم عند أحد من العامة ولا يذكروا للنساء الدواء الذي يستقط الاجنة ولا للرجال الدواء الذي يقطع النسل والفض عن المحارم وعدم افشاء الاسرار (أو السر المهني) والتوفر على جميع الآلات (6) .

وقد ادت التجربة بأفراد الشعب في المجتمع البربري منذ عهود سحيقة الى حقن جراثيم الجدري التي كانوا يستعملونها لتحصين المصاب (7) .

وقد لاحظ لوكير (8) أن المغرب هو أشد أقطار الاسلام عمقا من الناحية العلمية ، كما أكد أن علما تجريبيا هو الطب ازدهر في المغرب الاقصى منذ القرن العاشر الميلادي أي الرابع الهجري (9) ، ونقل الكائونى (في شهيرات المغرب) عن كتاب « فن الاسنان بالمغرب الاقصى » انه كان بفاس في القرن الرابع مدرسة طبية .

ولم يسبق للفكر العلمى أن تحرر في المغرب كما وقع في القرنين الخامس والسادس الهجريين في عهد الموحدين وذلك بفضل العناية التي أولاها الخلفاء للبحث العلمى ولتجارب العلماء يشهد بذلك نبوغ امثال ابن طفيل وابن رشد وبنى زهر في الطب وابن العوام النباتى والادريسى في فنون الهيئة والجغرافية والفلك والفلسفة ، وقد اصبحت مصنفاتهم مرجعا لرجال القرن السابع وما بعده امثال ابن البيطار (المتوفى عام 646 هـ)

(5) (النسخ ج 2 ص 874) .

(6) (كتاب نهاية الرتبة في طلب الحسبة لعبد الرحمن الشعراوى) - مخطوط - .

(7) (كودار - وصف المغرب وتاريخه ج 1 ص 239) .

(8) الطب عند العرب ج 1 ص (40) .

(9) الطب والأطباء بالمغرب ص 14 - عبد العزيز بن عبد الله .

واستأذه أبى العباس النبطى مما مكن الاندلس والمغرب حمل راية الفلسفة والعلوم فى العالم الاسلامى (10) .

وقد خلف أبو عبيد البكري صاحب المسالك كتابا حول اعشاب الاندلس واشجارها فوصف ظواهر غريبة فى تاريخ علم الطبيعة كالأعشاب المسهلة وشجر (أركان) الذي وجدته فى طريق أغمات الى فاس .

وهكذا ففى العهد الذي كانت الاندلس خاضعة لسكان مراکش تكونت — كما يقول لوكليز (ج 2 ص 240) جماعة من الاطباء التفتت حول ملوك المرابطين والموحدين وسار معظمهم فى ركاب هؤلاء الملوك الى المغرب حيث قضوا بقية حياتهم فى البحث والتصنيف وتدريس الطب والفلسفة والعلوم فاناد المغرب كثيرا من نكبة الاندلس .

ورغم ما أظهره المنصور فى موقفه ضد الفلاسفة فان هدفه الاساسى كان هو ضمان التوازن بين المعقول والمنقول باعتبار أن هذا التوازن هو أساس نجاح كل تجربة علمية لان النظر الذي لا يعززه الواقع لا يمكن أن تدعمه قاعدة راسخة ، فلذلك ساند علوم الطبيعة فى نفس الوقت الذي عمد الى تدوين الاحاديث النبوية وترتيب الجرايات لحفظها وبالرغم عن اعتقال المنصور لابن رشد وأبى جعفر الذهبى فانه ما لبث أن أعاد الخطوة لهذا الاخير عندها أناط به مهمة السهر على مصالح الاطباء وطلبة الطب فى سبيل تنظيم البحث العلمى طبقا لمنهجية التوازن بين كفتى الفكر والعمل . ويظهر أن أبا العلاء زهر بن زهر هو أول طبيب اندلسى ورد على المغرب بعد استيلاء المرابطين على الاندلس ، وقد كان طبيبا خاصا ليوסף بن تاشفين بعد أن كان طبيب المعتمد بن عباد الذي استدعاه لمعالجة (الرميكية) عندما كان أسيرا فى أغمات ووالد أبى العلاء أبو مروان عبد الملك بن أبى بكر محمد بن مروان بن زهر هو الذي تولى رئاسة الطب ببغداد ثم بمصر ثم بالقىروان (11) . وكانت له آراء شاذة

(10) (لوكليز ج 2 ص 72) .

(11) (نفع الطيب ج 1 ص 445) .

امتاز بها في تجاربه منها منعه من الحمام اعتقادا منه بأنه يعفن الاجسام ويفسد تركيب الامزجة (12) ، وقد تمخضت تجارب ابي العلاء في المغرب عن تأليفه لكتاب (التذكرة) الذي ترجمه (كولان) وطبعه عام 1911 م. بباريس ، وهو مجموعة من الملاحظات سجلها لولده ابن زهر لتعريفه بالادواء الغالبة في مراكش والادوية المناسبة .

وبعدما توفي ابو العلاء امر على بن يوسف بجمع ملاحظات اخرى اسفرت عنها تجارب زهر بن زهر في المختبر حيث سجلها في تقارير سماها (المجربات) (13) وقد جمعت بمراكش عام 526 هـ. وقد ترجم « جان دوكابو » « التذكرة » من العبرانية الى اللاتينية (نسخة في مكتبة كلية الطب بباريس) ثم توالى التراجم عام 1280 م. والمطبوعات (عشر مرات بين 1490 و 1554 م.) وتوجد الآن نسخة في مكتبة مدرسة اللغات الشرقية بباريس يرجع تاريخ طبعتها الى 1531 م. وهي تحتوي على كليات ابن رشد .

وهناك رسالة في امراض الكلى كتبها ابو العلاء لعلى بن يوسف لا توجد سوى ترجمتها باللاتينية المنشورة عام 1497 م. كما يوجد مخطوط له حول الخواص بمكتبة باريس ومنه استقى ابن البيطار خواص لحوم الحيوانات .

ولابى العلاء مقالة في شرح رسالة يعقوب بن اسحاق الكندي حول تركيب الادوية ، وتوجد نسخة من (جامع اسرار الطب) لابى العلاء في المكتبة الوطنية بالرباط (تحتوي على 185 ورقة).

وقد خالف اطباء عصره عندما ادى بحثه المخبري الى الوصية باستعمال بطيخ فلسطين (اي الدلاح او الدلاع بالمغرب) في امراض الكبد والمعالجة بجس النبض والنظر الى قوارير البول وهو كشف ماهر كان بادرة جريئة لعلماء العصر الحديث .

(12) عيون الانباء في طبقات الاطباء لابن ابي اصيبعة ج 2 ص 64)

(13) يوجد مخطوط منها في الإسكوريال (رقم 844) .

وأبو مروان عبد الملك بن زهر هو ولد أبى العلاء ، وقد ألف كتاب (الاقتصاد) (14) عام 515 هـ. لابراهيم بن يوسف أخى على المرابطى لخص فيه التجارب الطبية وأوضح الفروق بكيفية عملية بين الجذام والبهق كما شرح أبعاد العدوى انطلاقاً من تجارب ميدانية ، وقد أفرد لهذه المسألة رسالة لم تصلنا .

وعلى كل فان روحه العملية وفكره العلمى الجلى جعلاً منه طبياً ممتازاً فاق (ابن سينا) ولا يعادله فى الشرق عدا (الرازي) .

ومن خواص منهجية الوضوح والضبط تحليل الحالات الجزئية للتدرج من الخاص الى العام مع استعراض نماذج من القضايا تلقى الاضواء على جوانب دقيقة يغفلها الباحثون الذين يكتفون بالنظرات العامة والتعميمات السطحية المرتجلة ، وقد خالف ابن زهر هذا زملاءه من أطباء عصره الذين كان يبادر بعضهم فيصف لمن استشاره من المرضى دواء دون تحييص للحالة القائمة فى جميع خواصها وقد حكى قصة واقعية تمت فصولها فى بيت أمير مرابطى استدعى ثلة من الاطباء للاستشارة فتحدث كل واحد عن تجربته فى خصوص الداء الذى يشكو منه الامير مبادراً بوصف الدواء ، وقد أكد ابن زهر — تعليقا على ذلك — أن كل هؤلاء الاطباء لم يوفق سوى واحد منهم عجز مع ذلك عن استكناه اصل الداء فهذه السطحية او السمة الجزئية فى منهجية البحث هى التى أدت الى اختلاف النظر والحياد عن الوجهة الصحيحة فى تحديد العلاج الناجع وقد كان ابن زهر هذا جريئاً فى تجاربه معتمداً بما يصل اليه من نتائج ينطلق منها فى جراحة لا يعاباً بتقليديات عصره ليدعو مثلاً الى استعمال الفصد للشيوخ من سبعين سنة فاقبل وللأطفال كذلك حيث فصد ابنه من ثلاث سنوات فادهش معاصريه ، وكانت هذه التقاليد قد أصبحت مسلمات دون أن تسندها فى البداية تجربة علمية صحيحة .

(14) (مخطوط بباريس عدد 2959 ونسخة فى الاسكوريال هسب — رينو — محررة بالعربية ومكتوبة بحروف عبرانية) .

وقد صنف أبو مروان عبد الملك بن زهر كتابه (التيسير) بطلب من ابن رشد كتزليل لكتابه الكليات (15) . وقد نهج ابن زهر في كتاب (التيسير) أسلوبا جديدا في الحكمة القياسية مستخدما التحييص العقلي للوصول الى أحسن النتائج فكان طبيب التحييص العلمي يحضر الادوية بنفسه غير مستعمل الخمر في تركيبها على سنن والده ابي العلاء حتى ولو أوصى بذلك (جالينوس) على خلاف (الرازي) وكان منهجه العملي يقضى باسناد الاعمال اليدوية الى اعوانه مثل الفصد والكي وفتح الشرايين في حين كان هو يشرف بنفسه على التحليلات الهادفة الى تقرير نظام الاكل عند المريض ووصف الادوية وقد توصل بفضل قياساته الطبية وتجربته الشخصية الى الكشف عن أمراض جديدة لم تدرس قبله فاهتم بالامراض الرئوية وأجرى عملية القصبة المؤدية الى الرئة وتمكن من تشريحها في مرض الذبحة ، وقام بتجارب في أمراض الجهاز الهضمي واستعمل أنبوبة مجوفة من القصدير لتغذية المصابين بعسر البلع كما استعمل الحقن المغذية واكتشف طفيلية الجرب وسماها (صؤابة الجرب) كما بسط طرق العلاج القديمة وأوضح أن الطبيعة — اذا اعتبرناها قوة داخلية تدبر شأن الجهاز البشري — تكفى وحدها في الغالب لعلاج الادواء (16) وسر العبقرية في هذا المنهج هو ان الطبيب ابا مروان كان ينسى نفسه ويستهلك في مريضه فاذا عرضت عليه حالة شائكة حاول ان يعيشها واستمد من ذكرياته وتجاربته ومنطقه ولهذا كان نسيج وحده فانكب أطباء العصور الوسطى على دراسة كتابه (التيسير) الذي ترجم أولا عن العبرانية من طرف شخص مجهول (17) ، وهكذا استعاض أبو مروان بالمنهج التجريبي والطريقة العقلية عن التقليد في ممارسة فن الطب وأدت تجاربه العملية — علاوة على ذلك — الى تطوير ثلاث شعب حاول توحيدها وهى الصيدلة والجراحة والطب العام .

ومن أغرب مجالى الابتكار ما قام به أبو مروان عبد الملك بن زهر حيث أنبت كرمة عنب سقاها من ماء مسهل واستخرج منها ما سماه

(15) توجد نسخة منه في المكتبة الوطنية ببائيس عدد 2960 تحتوى على كتابي الاغذية والتيسير لابن زهر والتذكرة لابي العلاء .

(16) (حضارة العرب — كوستاف لوبون — ص 530 من الطبعة الفرنسية) .

(17) (مخطوط بمكتبة ليد) ثم الى الايطالية عام 1260 م .

(الترياق السبعيني) فصار يعطى منه لعبد المومن بن على الموحيدي لكراهيته شرب المسهلات (18) . أما الحفيد أبو بكر بن أبي مروان الطبيب الشاعر (المتوفى عام 596 هـ) بمراكش فقد ألف (الترياق الخمسيني) ليعقوب المنصور وكانت أمه وأختها عالمتين بالطب لا سيما في امراض النساء تمارسان علاجها بمراكش (ابن أبي أصيبعة ص 167) ، وقد برهن هذا عن حظ وأمر من التوازن الفكري والتواكب بين المعقول والمنقول والتجربة والعقلانية مما حداه الى حفظ صحيح الامام البخاري (19) ولم يكن في زمانه أعلم منه باللغة حيث كان يحفظ شعر ذي الرمة وهو ثلث لغة العرب (المطرب لابن دحية) ؛

وقد أصبحت التجربة العلمية منطلق الكشف في شتى الميادين حتى كان الاطباء والباحثون يبرزون هذه الظاهرة كبادرة جوهريّة في دعم اتجاهاتهم فسمى أبو الحسن سفيان الاندلسي (المتوفى عام 537 هـ) طبيب على بن يوسف المرابطي — كتابه في الطب — (كتاب التجربتين) ، وأضاف الى تقاريره محاضر شيخه أبي بكر محمد بن يحيى ابن الصائغ المعروف بابن باجة (المتوفى بفاس عام 533 هـ) . واشتراك عالّمين في تصنيف كتاب واحد أو القيام بتجربة مشتركة كان نتيجة للروح الواقعية عند علماء العصر الموحيدي فهذا أبو الوليد ابن رشد قصد بكتابه الكليات ابن زهر ليلحق به دراسة عن الجزئيات لتكون جملة الكتابين ككتاب كامل في صناعة الطب .

وقد توصل ابن رشد في مخبره الى نتائج مذهشة جعلته يقترح في شرحه لابن سينا ما يصفه الاطباء اليوم وهو تبديل الهواء في الامراض الرئوية وقد أشار الى جزيرة العرب وبلاد النوبة كمراكز شتوية ، وابن رشد أول من أشار الى الدورة الدموية الكبرى وحللها في كتابه (الكليات) الذي استمد منه (ويليام هارفي) William Harvey معظم نظرياته في

(18) (ابن أبي أصيبعة ج 2 ص 66) .

(19) (الابنيتي المطرب ج 2 ص 180) .

حين اكتشف ابن النفيس المصري الدورة الدموية الرئوية الصغرى قبل الغربيين بثلاثة قرون (20) .

ويعتبر محمد بن احمد بن خليل السكونى (646 هـ) نموذجا لرجل مشارك اتقن عدة علوم فصنف في الطب والبيطرة وصنعة ركوب الخيل وتدبير الحروب وتعليم الثقاف والرمى وسمات الخيل ودلائل العتاقة كما جمع بين كتابى ابى مروان بن زهر وابنه ابى بكر في الاغذية و اضاف اليهما فصل الخواص والكليات الواقعة فى (تيسير) ابن زهر وهو اشبلى اقام بمراكش متلبسا بعقد الشروط كعدل موثق (21) . ومن المختبرات مستشفى مراكش الذي وسهه عبد الواحد المراكشى (فى المعجم ص 177) بروعة البناء والتخطيط ووفرة السرر والفرش وخزائن الادوية وتحضيرات الصيادلة للادهان والاكحال والاشربة والالبسة الخاصة للمرضى مما جعل المؤرخ (ميليسى) يعترف (22) بأن مصحات أوربا تخجل منه بل كذلك مستشفيات القرن العشرين .

وهكذا شجع الموحدون اقامة المضابر العلمية فى شكل مستشفيات مجهزة بمختلف الآلات والاجهزة والادوية والاختصاصيين والمساعدین الفنيين .

وبعض العلوم التجريبية قد اعتبرت اشبه بالعلوم الدينية لان فيها خدمة للفكر الدينى كالفلك والتوقيت والحساب او خدمة للانسان كالطب وقد قال الشافعى : « لا أعلم علما بعد الحلال والحرام انبل من الطب (23) فالضلالة فى الحديث بجانب الطب والصيدلة والعلوم الطبيعية كانت شئشنة الكثير من ارباب الفكر أيام الموحدين ، فهذا أبو جعفر بن هارون الترجالى ، طبيب يوسف بن تاشفين قد تنلذذ لابی بكر المافري فى الحديث ، وكان شيخ ابن رشد فى الطب والتعاليم واهصائيا فى

(20) نشرة المعهد المصرى ج 26 عام 1934 — بحث بقلم ماكسى ماير هوف ص 33 ، وقد اشار ابن النفيس الى ذلك فى (الكتاب الشامل) الذى احتوى على 300 مجلد) ولم يكمل منه سوى ثمانين .

(21) (الاعلام للمراكشى ج 3 ص 145) .

(22) Millet فى كتابه عن الموحدين عام 1923 (ص 129) .

(23) آداب الشافعى ومناقبه ص 321 .

صناعة الكحل (اي طب العيون) . ومما يدل على وحدة منهج البحث في مجموعة من العلوم أن بعض الاطباء استخدموا في دراساتهم طريقة الاسناد والتحري في ضبط النصوص والمقارنة والتنظير بين العناصر الخارجية لمقابل التجربة بنظرية النص وهى منهجية لقنها لهم اساتذتهم في علوم الحديث ، وقد أشار على بن ميمون في تأليف له الى أنه ما رأى مثل ناس ومثل علمائها في حفظ نصوص كل علم مثل المنطق والتوحيد والبيان والطب وسائر العلوم العقلية ملاحظا أنها تفوقت في ذلك على تونس والشام والحجاز ومصر ومعززا وجهة نظره بالمشاهدة والعيان (25) . وقد ألف الامام السنوسى شارح البخاري شرحا على رجز ابن سينا في الطب وشرحا كبيرا على الحوافية في الحساب والرياضيات الفه وهو ابن تسع عشرة سنة (نيل الابتهاج ج ص 353) . وبهذه المشاركة تبلور الفكر الاسلامى العلمى فشم كل مجالات المعرفة ووازن بين نتائج التجربة العلمية من جهة ونتائج الفكر النظري بما ينطوي عليه من عقل ونفس وقلب وروح كمدارك تجمعها « لطيفة ربانية » تشمل الوجدان الى جانب الحدس والالهام وبذلك اكتملت نظرة الباحث المسلم الذي انطلق من توازن ذاتيته التى ازدوج فيها الجسم (او المادة) والروح . وقد وجد الاطباء في الطب النبوي حقا خصباً حفل ببادرات سبقت الكشوف العلمية من ذلك قوله عليه السلام : « ان هذا الطاعون رجز سلط على من كان قبلكم أو على بنى اسرائيل فاذا كان بارض فلا تخرجوا منها فرارا منه واذا كان بارض فلا تدخلوها » (26) . أما قوله عليه السلام (مسلم ص 30) : « لا عدوى ولا طيرة ولا هامة ولا صفر » فيقابله قوله عليه السلام « فر من المجذوم فرارك من الاسد » وما ورد في صحيح مسلم (ص 31) من أن ابا هريرة كان يحدث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله « لا يورد ممرض على مصح » وكان يحدث كليهما ثم صمت عن قوله لا عدوى ولا طيرة الخ . واتام على أن لا يورد ممرض على مصح وعلق أبو سلمة على ذلك فقال : « لا ادري انسى ابو هريرة او نسخ أحد القولين الآخر » .

(24) ابن ابى اصيصة ج 2 ص 75 .

(25) سلوة الانفاس ج 1 ص 74 .

(26) صحيح مسلم ج 7 ص 27 طبعة على صبيح .

وقد كان أبو العباس النبطي أحمد بن محمد بن مفرج الاشبيلي المعروف بابن الرومية او ابن العشاب « اماما في الحديث حافظا ناقدا » قام

على الصناعتين لوجود القدر المشترك بينهما — كما يقول ابن الخطيب في (الاحاطة) — وهما الحديث والنبات اذ موادها الرحلة والتقيد وتصحيح الاصول .

وهنا ننقل الى علم النبات لنعطى نظرة عن منهجية علمائه فقد درس (النبطي) الاعشاب في محاولات شخصية دون اعتماد على النصوص الكلاسيكية مثل كتب (ديستوريدس) و (جالينوس) واقتبس منه تلميذه الاندلسي ابن البيطار ذوقه الخاص وعلمه الواسع وقد رحل الى الشرق عام 613 هـ بعدما درس اعشاب الاندلس والمغرب ودعاه الملك الانضل للاستيطان بالقاهرة فأبى ، وعند وصوله الى مصر لم يكن قد مر على وفاة موسى بن ميون سوى القليل ، وقد اقتبس ابن ميون هذا خلال مقامه بفاس الكثير مما نقله الى مصر حيث حاول بلورة الفكرين الشرقي والغربي في أبحاثه .

وقد كان ابن البيطار اعظم نباتي العرب (27) لا يضاهيه سوى الغافقي والشريف الادريسي والنبطي ورشيد الدين الصوري الذين درسوا كلهم الطبيعة ووسعوا دائرة المعلومات البشرية بتجاربهم وابحاثهم وقد تنقل ابن البيطار في جبال الشام صحبة رسام كان يصور له الاعشاب وهذا مظهر جديد لمنهجية العرب في العلوم الطبيعية استأنسوا بها في « مسالكهم » عندما حددوا ايضا الاطوال والعروض الجغرافية بدقة تحدوا بها ما وصل اليه العلم آنذاك ، وقد خلف لنا ابن البيطار أعظم مجموعة في هذه العلوم وقد رحل الى الشرق عام (1216م) ومرو ببلاد اليونان والمغرب حيث سجل ملاحظات شتى حول الاعشاب والاسماء البربرية التي اندرجت منذ ذاك في القاموس العربي فكانت تلك وسيلة دقيقة للتعرف بالضبط على نوع وخواص النبات المقصود حتى لا يختلط مع غيره

(27) لوكلير 2 ص 225 .

وذلك انطلاقاً من الصورة أولاً ثم من الفحوى الناتج عن مقارنة التعريفات في كل لغة وهذه العبقرية الفذة هي التي حدث الملك الأفضل الى تعيين ابن البيطار المغربي رئيساً لعشابه مصر القاهرة وكذلك الكامل بن العادل (النسخ ج 2 ص 683) ولم يهمل ابن البيطار نتائج تجاربه بل ركزها في جزائيات بتعاون مع تلميذه ابن أبي أصيبعة علاوة على الرسام المذكور حيث رتبها على حروف المعجم وصنفها الى أشجار وجنابات وأعشاب وأزهار أسوة بشيخه النبطي الذي رتب أيضاً كتابه في الحشائش على حروف المعجم وواجه سيلاً من التلاميذ والمعجبين عندما فتح دكاناً لبيع الأعشاب بأشبيلية حيث توفى عام 638 هـ (28)، فلذلك حمل علماء النبات في الشرق أسماء متعددة هي العشابون والشجارون والنباتيون والحشائشيون (التذكرة التيمورية) .

وعنصر آخر في منهجية البحث عند ابن البيطار هو عدم الاكتفاء بنتيجاته الخاصة بل حاول دعمها وإكمالها بالتجارب التي أجراها زملاؤه قبله في مختلف الاقطار كالخافقي والزهرراوي والادريسي وعبد الله بن صالح الكتامي الذي كتب أيضاً عن أعشاب الاندلس والمغرب وخاصة أرباض فاس (29) ولذلك استوعب كتابه « جامع المفردات » ألفي وصفة من أوصاف العقاقير فكان أكمل وأوسع ما صنفته العرب في الطب .

و (كتاب الادوية) للشريف الادريسي الذي اثار اليه ابن أبي أصيبعة صورة حية للأسلوب التجريبي أيضاً فهو حافل بالملاحظات الشخصية التي اقتبس منها ابن البيطار في مائتي موضع من كتابه في الأعشاب (30) واعتمد عليه وحده في ثلاثين موضعاً (31) وقد ترك لنا وصفاً دقيقاً عن حشائش المغرب وأعشابه معروفاً أياها أحياناً بأسمائها البربرية فزار من اللبس وأمعنا في التوثيق والشريف الادريسي هذامغربي صميم خلافاً لما ذكره الحسن بن محمد الوزان من انه ولد في صقلية (32)

(28) النسخ ج 1 ص 635 .

(29) لوكلير ج 2 ص 248 .

(30) لوكلير ج 2 ص 8

(31) ص 68 .

وما توهمه أيضا من وفاته عام 506 هـ - 1122م في حين انه انتهى من تأليف كتابه (نزهة المشتاق) عام 548 هـ/ 1154م .

وقد عرف المغرب في عهد بنى مرين ازهر عصوره في تشييد المدارس اي احياء الطلبة للتفرغ للبحث والدرس ، وقد أكد (ابن مرزوق) في «المسند الصحيح الحسن» (33) ان ابا الحسن انشأ اول مدرسة هي مدرسة الحلفائيين (وهي مدرسة الصغارين الحالية) عام 670 هـ. بينما أسس أبو سعيد مدرسة العطارين ومدرسة المدينة البيضاء ومدرسة الصهريج ومدرسة الوادي ومدرسة مصباح ، وقد والى أبو الحسن اقامة المدارس في المغرب الثلاثة حيث انبسط الحكم المريني ، والمدينة البيضاء هي فاس الجديد التى أقام فيها المولى محمد بن عبد الرحمن العلوي عام 1260هـ/1844م مدرسة للمهندسين ادرج فيها كمعهد للتعليم دراسة العلوم فاستحال بذلك مفهوم المدرسة كحى جامعى الى مفهومها كمعهد ومؤسسة تعليمية ، ولعل العامل الجوهرى في تبلور المنهجية العلمية الصحيحة بفاس حوالى 620 هـ. أي بعد مرور بضع سنوات على ظهور المرينيين (عام 613 هـ) (34) هو أن حاضرة المغرب الاسماعيلية أصبحت آنذاك مجعاً لعلم القبروان وقرطبة حيث رحل علماء المدينتين متخذين مقراً لهم هذه المدينة التى أصبحت تسمى (بفداد المغرب) ومعنى ذلك أن معطيات الفكر العلمى التى كلفت منهجيات الدراسة والبحث منذ القرن الرابع الهجري في افريقية والاندلس قد تجمعت وتبلورت بفاس لتعطى اروع نتائجها لذلك اعتبر (باديا ليليش) المعروف بعلى بباي العباسى مدينة فاس بمثابة (اثينة افريقيا) التى هى عاصمة الفكر اليرناني كما اعتبر القرويين اول جامعة في الدنيا (رحلة ص 12) ، وقد وصف الدكتور (رينو) مدينة فاس بمعهد الحضارة التى تجلب العلماء والطلبة مع العالم أجمع ملاحظاً أيضاً انها « كعاصمة اثينة بالنسبة للإسلام » حيث كانت تدرس جميع العلوم والفنون والآداب (35) . وقد

32 لوكلير 2 ص 65 .

33 هسبريس ج 5 35 عام 1925 .

34 كما لاحظ المراكشى في المعجب ص. 220 .

35 الطب القديم بالمغرب ص 77

لاحظ (دوكامبو) أن جامعة القرويين كانت ملتقى الاجانب من مختلف الجنسيات والاديان (36). وقد أشار « كابريل شارمس » (37) الى « عصر المجد الذى كان المغرب فيه ملتقى جميع العلوم وجميع الفنون التى تنتشر من هنالك فى اوروبا معرجا على مدينة فاس التى يرى معظم مسلمى افريقيا انها اعظم مدينة مقدسة بعد مكة نظرا لاصلها وللدور الذى قامت به فى تاريخ الاسلام حيث كانت مركز القوة العربية عندما كان نورها يتالق وحتى عندما أصبحت مراكش عاصمة المغرب السياسية كانت فاس بمعاهدها ومساجدها عاصمة الغرب الاسلامى فكريا وادبيا بل ان مدارسها كانت طوال مدة مديدة اولى مدارس العالم (ص 297) وهنا فى هذه المدينة « انبثق ما يسمى بالحضارة الغربية التى اشع نورها فى اسبانيا، فضاء جوانب اوربا » (ص 298) . ولكن « ملكة العلم والتعليم » كما سماها ابن خلدون وهى طريق النظام لم يعد لها وجود فى نظره فى المائة الثامنة من الهجرة وهى عصر ابن خلدون وابن الخطيب وهو يقصد التمكن فى المشاركة دراية ورواية اى فهمها وحفظها أو تجربة ونظرا بحيث بدأ التوازن يختل فى عنصري منهجية البحث وهما النقل الصحيح انطلاقا من النص والتحصيل الدقيق لمعطيات الوجود والكون اى التجربة العملية الرصينة التى تتلمس فى تؤدة وعمق وشمولية مدى انطباق الفكر والنظر على الواقع .

ومهما يكن فان نكبة أبى الحسن بافريقية وطريف بالاندلس وتوالى الازمات الاقتصادية والابوثة التى جرفت بالعالم اجمع آنذاك وكابد المغاربة من جرائها المرائر فانتشر الفقر والمرض وانتكس العمران وهلك العلماء وكادت تندرس معالم العرفان ثم فى آخر القرن الثامن تبدلت — كما يقول الناصري (38) أحوال المغرب بل واحوال المشرق ونسخ الكثير من عوائد الناس ومالوفاتهم وأزيائهم » وذلك حسب ابن خلدون نظرا لما « نزل بالعمران شرقا وغربا فى منتصف المائة الثامنة من الطاعون الجارف الذى تحيف الامم وذهب باهل الحيل وطوى كثيرا من محاسن العمران ومحاهها وجاء للدول على حين هرمها وبلوغ الغاية من مداها فقلص

(36) المغرب المعاصر ملكة تنهار ص 12 باريس 1886 هـ .

(37) فى كتابه (سفارة المغرب ص 254) .

من ظلالها وفل من حدها وأوهى من سلطانها وتداعت الى التلاشى والاضمحلال احوالها وانتقص عمران الارض بانتقاص البشر فخرّب الامطار المصانع ودرست السبل والمعالم وخلت الذكار والمنازل وضعفت الدول والقبائل وتبدل الساكن وكأنى بالمشرق قد نزل به مثل ما نزل بالمغرب لكن على نسبته ومقدار عمرانه » وهذا العصر هو عصر ابن الخطيب الذي قال فيه « رينو » (39) « ان دراسة عصر ابن الخطيب مفيدة للطبيب لانها عصر الطاعون الاسود والاكثر الذي هلك فيه حسب المؤرخين ثلث سكان المعمور » . و اضاف الدكتور « رينو » الى ذلك ان الاطباء المغاربة صنفوا مؤلفات في علل هذا الداء وطرق علاجه وهذا الملحق يبرز لنا البحوث المغربى منكبا في مكتبه او عيادته يمحس وينقب غير مستكين لحواجز الانهيار التى جرفت بزملائه محاولا استكناه اصل هذا الطاعون والكشف عن اسبابه لوصف ما يمكن أن يستأصل شافته او يحدد على الاقل من لوائه .

وهذه خاصة تعد من ضروريات النجاح فى استكمال البحوث والكشوف والواقع ان الفكر العلمى العربى بدأ يتحجر لا لعوامل ذاتية بل تحت ضغط ظواهر خارجية عجلت فى الشرق أيضا بعصر الانحطاط العلمى منذ اواخر القرن الثامن وبداية القرن التاسع على اثر السيول التى حطمت معالم المدينة تحت سياط (جنكيزخان) و (تيمورلنك) الذى واكبه فى المغرب غزو البرتغال لجيوب استمر احتلاله لها ازيد من ثلاثة قرون بعد ان استولى على سبتة عام 818 هـ/ 1415 م. ثم قصر المجاز 862 هـ/ 1457 م ثم طنجة 869 هـ/ 1464 م ثم اصيلا وانفا عام 876 هـ 1471 م. ثم الجديدة والبريجة فى حدود 907 هـ/ 1501 م. والعرائش عام 910 هـ/ 1504 م وآسفى عام 912 هـ/ 1506 م. وازمور عام 914 هـ/ 1508 م ثم المعمورة والمهدية حوالى 920 هـ/ 1514 م. وقبيل ذلك بنحو العقد من السنين كان المستعمر قد بسط نفوذه على اكادير وما اتصل بها من سواحل السوس فلم يبق من الثغور سوى سلا والرباط وهذه هى المرة الاولى التى كابد فيها المغرب غزوا اجنبيا فى مثل هذه الاهمية منذ

(38) (الاستقصا ج 3 ص 47) .

(39) (فى كتابه الطب القديم بالمغرب ص 47) .

الفتح الاسلامي فطويت صفحة في شمال المغرب على اثر سقوط سبنة التي ازدهرت فيها الفلسفة والطب ومختلف العلوم (40) .

وقد لاحظ لوكليير (41) انه أمكن في هذه الفترة تسجيل نحو الاربعين عالما نصفهم من الاندلس لا يوجد بينهم طبيب مشهور لقلة الاصالاة وللإقتصار على الجمع والتأليف .

وعندما أعاد الملوك السعديون وحدة البلاد بعد الفوضى التي اتسمتها فيها حروب آخر ملوك بنى مرين اتبعث المغرب فكريا وقد تحدث ليفي بروفنسال (42) عن نهضة المغرب من الوجهة الادبية مبرزاً انه من الغريب أن لا نجد مثل هذه النهضة في العلوم الطبية . والواقع أن الفكر العلمي التجريبي تقلص في هذه الآونة وحتى الأطباء الذين برزوا خلال هذه الفترة كانوا من النوع الذي توازنت عناصر تكوينه العام دون اختصاص علمي دقيق من هؤلاء عبد الرحمن سقين القصري الفاسي (956 هـ / 1549 م) كان مشاركاً في الحديث والادب والتصوف يقريء (الفية ابن سينا) في الطب بجامعة القرويين (43) وعبد الوهاب الزقاق (961 هـ / 1553 م) الذي شارك في الآداب والاصلين والطب والتفسير والحديث والنحو ، وأحمد بن عبد الحميد المعروف بالمرید المراكشي الذي كان اماماً في جميع الفنون حكيماً ماهراً في الطب (1048 هـ / 1638 م) (44) وهذا لم يمنع ظهور عالم فذ اختص في الطب والنبات هو أبو القاسم الوزير الغساني صاحب (شرح حیات ابن عزرون) و (حديقة الازهار في شرح ماهية العشب المعتار) الذي ألفه للسلطان المنصور السعدي عام 994 هـ / 1585 م . (45)

40) كما يتلج ذلك من كتاب « بلغة الامنية ومقصد اللبيب فيمن كان بسبنة في الدولة المرينية من مدرس واستاذ وطبيب » .

41) (ج 2 ص 258)

42) في كتابه « مؤرخو الشرفاء »

43) (النيل ص 153) .

44) (الاعلام للمراكشي ج 2 ص 114) .

45) (النشر ج 2 ص 125)

والواقع ان رجز ابن عزرون بن اسحاق هذا الذي لمرحه أيضا أبو الفضل محمد العجلاني (46) ومحمد بن يحيى اللمتونى انها هو تكميل لارجوزة ابن سينا في الطب ولكنه محاولة من الطبيب المغربي تعريف المغاربة فيه بنظريات الاقدمين وأطباء العرب في منهجية كتاب (الحقائق) الذي تحدث عنه الدكتور « رينو » (47) فاشاد بالمنهاج الواضح الذي امتاز به في الوصف النباتى « الذي يتسم غالبا بطابع الاصاله والطرافة لاثارته الى منابت الاعشاب بالقرب من فاس ولتوفره على معلومات ثمينة حول معظم المواد الصيدلية بهذه المنطقة مع محاولة لترتيب ثلاثى يدخل عنصرا جديدا في وصف اعشاب المدرسة الصيدلية الشرقية ، كما جلى محمد الاندلسى الصوفى صاحب الطائفة الاندلسية (980 هـ/1572 م) في الكيمياء والرياضيات والطب والهيئة والطبيعة (48)

ولكن العنصر الجديد هو أن العطاء العربى في المغرب بدأ يتقلص حيث تحجرت مناهج البحث بل انقلبت كفة التوازن واندرج في سلك اطباء البلاط السعدي اطباء اجانب مثل :

- 1) كيوم بيرار ، الطبيب الجراح الفرنسى الذي كانت ثقافته العلمية مع ذلك متواضعة (49) .
- 2) (كريستوف كوستا) الطبيب النباتى الذي ولد بسبته ثم جال في آسيا عام 1578 م. 986 هـ. (50)
- 3) الطبيب (دوليل) قنصل ملك فرنسا (هنري الرابع) الذي عوضه الطبيب (هوبير) استاذ اللغة العربية بباريس (ص 499) .
- 4) الطبيب (اندرياس كاميلو) الاسير الاسبانى .

(46) نسخة في خـع .

(47) في نشرة معهد الدروس المغربية العليا ج 18 ص 195 .

(48) الاعلام للبراكشى ج 4 ص 318

(49) رينو — نشرة معهد الدروس العليا ج 18 ص 206 .

(50) كودار ص 495 .

وقد أسس الرهبان الاسبان في فاس ومكناس وسلا وتطوان
مستشفيات لمعالجة النصارى والمغاربة معا (51) واتسمت العلوم
التطبيقية كالصيدلة بالعقم حيث لاحظ الحسن الوزان أن العقاقيريين
بفاس أصبحوا غير قادرين على تركيب الاشربة والادهان طبقا لما يصفه
الاطباء فيجتمعون كلهم لاعداد المستحضرات وهذه الظاهرة تتم على
الاقل عن امانة وأخلاص للمهنة ، غير أن الرصانة الحضارية ومناعة
التقاليد السليمة كان من لوازمها الموصولة بالرغم عن فوضى الفكر
وهلهلة المنهج وانخفاض المستوى الاجتماعى قلة الوفیات حيث ظل
معدل التعمير متراوحا — كما يقول الحسن الوزان — بين 65 و 70 سنة
بل يرتفع في الاطلس الى ما بين 80 و 100 سنة (52) .

وإذا كان العهد العلوي قد اتسم بنوع من الازدهار في العلوم العقلية
والعقلية خاصة في رحاب جامعة القرويين فان الدراسات العلمية أُمست
سطحية بل اندرس التعليم الرسمى للطب والعلوم أوآخر القرن
الماضى (53) وان كان العلماء ظلوا يعتنون بكتب الطب الكلاسيكية
الا أن الروح العلمية التجريبية وحتى التطبيقية الصحيحة تقلصت فأصبح
المغرب في الحقل الطبى مثلا يتأرجح بين ممارسات العجائز والحجامين
الذين يتقنون النصد وجبر الاعضاء المكسرة والطلبة الذين يقضون بضعة
أشهر في اوربا ويحملون معهم أدوية يسيئون استعمالها نظرا لعدم الضبط
في وصفات العلاج ولما ابرزه « رينو » (ص 128) من غموض في
المعلومات « حول اسباب الامراض وخواص الادوية المفردة » وهذا لم
يمنع طبعاً من استمرار وجود رواسب لمهارة علمائنا الاقدمين تركزت في
بعض التطبيقات التقليدية مما جعل بعض الاطباء الجراحين يتسمون بحذق
في اجراء عمليات التشريح الصغرى التى لم تكن تتمخض عن مضاعفات
ناتجة عن التعفن أو الاصداد والتقيح بسبب استيناس عامة الناس
بتقاليد طبية كتضميد القروح بالزيت الغليان أو التطران الساخن والحناء
والفحم وصمغ الصنوبر لاستئصال جراثيم التعفن أو مقاومة النزيف

(51) (رينو ص 27) .

(52) (ماسينسون ص 73) .

(53) (الطب القديم بالمغرب ص 77) .

بالصوفان والماساحيق المستخلصة من اليقطين ودقيق الفول في اللفافات الضاغطة او محاولة التئام الجروح بخياطة حافتي الجرح في شكل منحرف، ثم جبر العظام المكسورة بعملية الدلك الذي أكد « رينو » ان المغاربة سبقوا فيه كشوفات (لوكاس شامبيونيير) حيث كان الطبيب يصف في كسر العظام حب (ايلان) الفنى بمادتي الفوسفات و كاربونات الجير كما يوصى لايقاف داء الفتق بآلات من جلد او ثوب محشو بالصوف مع استخدام الكى دائما في الامراض الباطنة وكثير من العمليات الجراحية (ص 134) وقد لاحظ « كودار » في كتابه (54) أن الكى أعظم دواء للجراحات بالمغرب، وقد نجح المغاربة حيث أخفق جراحون فرنسيون أشاروا بقطع العضو الجروح في حين أشار المغاربة الى كى العضو بحديدة محمأة ، وقد وصف أطباء غربيون بعض المظاهر التطبيقية الرائعة في أساليب العلاج وتحضير الدواء حتى خلال فترة التحجر المنهجي فتحدثوا عن تبنيج المريض اثناء العمليات الجراحية بالسيكران وهو عشب مخدر وكذلك جوز الطيب في عملية الختان وظلت طريقة التطبيق مطلقة كما كانت من الثلاث الكلاسيكى أي علم الطبيعة وعلم الصيدلة وعلم الطب وهو ثابوت كان للمغرب فضل تنظيمه على أساس علمي وبذلك أمكن مثلا تشخيص الداء اعتبارا من هذا التشخيص والاستمداد من علم الاحياء لانتقاء اصلح العشب او المعدن استجابة لدواعى المرض وقد أكد الدكتور « رينو » ان الطبيب الجراح الحسن ركب دواء من السيكران والكبريت يكون البخار المتصاعد من طبخه بمثابة مخدر يستمر تأثيره اربعا وعشرين ساعة (رينو) كما لاحظ الدكتور « ميكيريز » (55) بالجزائر ان الاطباء المغاربة كانوا يستخدمون وسائل الايحاء والتنويم في معالجة مرضاهم واجراء عمليات جراحية لهم بحيث يتوصلون الى درجات شتى من التنويم لا تختلف عن الاساليب المستعملة عند الاوروبيين منها تعليق زجاجة لامعة امام المريض فينام بينما الجاخر ترسل روائح العطر والعود (56) كما حلل « كودار » في تاريخه (57) عمليات التنويم التى أشار اليها الدكتور

(54) (وصف وتاريخ المغرب ج 1 ص 238)

(55) في كتابه (الاخبار الصادر عام 1859 م) .

(56) رينو ص 131 .

(57) (ج 1 ص 240) .

« ميكريز » وهو وضع زجاجة فوق طاولة مغطاة بخوان أبيض يتلأأ وراءها مصباح فيجلس المريض على مسافة قريبة مصوبا نظره نحو الضوء فيشعر بتناقل وبعد بضع دقائق ينام وتتسارع دقات قلبه ويحرق البخور في الغرفة فيفقد النائم احساسه على أن بعض التخصصات قد امتاز فيها اطباء المغرب الى ما قبل الحماية الفرنسية (1331 هـ / 1212) كالأوجاع وأمراض العيون والحميات وكذلك طب فن الاسنان الذي أكد « رينو » ممارسته بمهارة كبرى (ص 122) في المغرب .

ولم تكن عناصر هذه المنهجية تحيد بكثير عما وصلته أوروبا حيث كان أطباؤنا يستمدون من (علم الاحياء) طريقة رصينة لاستخدام بعض الحيوانات في معالجة الامراض وهو نفس ما يستعمله الغربيون (58) وقد صدر في القرن الماضي كتاب لعبد الرزاق بن محمد بن حمادوش الذي حج عام 1130 هـ / 1717 م . اسمه « كشف الرموز في شرح العقاقير والاعشاب » مرتبا على الحروف ومحتويا على نحو الالف عشبة كما صدر لنفس المؤلف كتاب « تعديل المزاج بحسب قوانين العلاج » وقد أشار ابن حمادوش في (كشف الرموز) الى خواص بعض أعضاء الحيوانات في العلاج منها استئصال داء الكلب بمقتال (جرام) من كلية الكلب العقور بمجرد قتله وهي نظرية أشار الى جدواها الدكتور (فزانزان) حيث لاحظ (59) أن مرارة الكلب العقور تحتوي على مادة مضادة لجراثيم داء الكلب ويستعمل الكحالون (أطباء العيون) أيضا أعضاء حيوانية خاصة في مرض العين منها خلاصة الكبد واكباس ما فوق الكلتيين وقد استخدمها الدكتور (باطيس) في (نيويورك) ضد التهاب القرنية الملتهمة وكذلك الدكتور « صور » في مدينة « ليون » والدكتور « دراى » في (باريس) (60) على أن لهؤلاء الكحالين مهارة في معالجة أنواع السرمد بأساليب وضعوها فاستطاعوا بها ازالة قشاة العين المانعة من الابصار بل نجحوا في عمليات أصعب من ذلك (61) .

-
- (58) رينسو ص 155
(59) في بحث له في (الاسبوع الطبى) بتاريخ 14 مايه 1898 .
(60) راجع رينسو ص 160
(61) رينو ص 13

وقد صنع أطباء الاسنان أدوات وآلات خاصة لقلع الاضراس والثنايا المسوسة ذكر « رينو » مجموعة منها (ص 135) كما مهر الطبيب المغربى فى معالجة قروح الاذن حيث مارس عمليات خطيرة كلكت بالنجاح ، وقد وصف طبيب مختص هو الدكتور « بنسيمون » (62) جدوى منهجية الطب التقليدي فى المغرب فى عدة حالات لم يعد نزاع فى جدواها — على حد تعبيره — منها ان المصاب بالحصبة او الحميرة (بوحمرون) كان يجعل فى غرفة يكسى فراشها وجدرانها واغطيتها بلون احمر وهى طريقة فى العلاج لا يزال يستعملها الدكتور « شاطينيير » الذي لاحظ ان الفضل يرجع اليها فى تخفيف تفجر الحميرة والحمى وتدارك الاستئصالات .

وقد تأخر علم البيطرة فى القرن الماضى رغم توفر بياطرة فى جميع المدن كان لهم معرفة ببعض الامراض الحيوانية بل لهم اختصاص فى ادواء الافراس والبالغ والحمير والجمال يستعملون فيها بالاخص الكى والنصد والخصاء وقد لاحظ « رينو » بمزيد من الدهشة استعمال البيطري المغربى للتلقيح ضد مرض منتشر عند المعز وهو المعروف بالبيور وقد ساق « رينو » (ص 171) ستة وثلاثين نوعا من الامراض التى تصاب بها الدواب وكذلك انواع الماشية مثل البقر والغنم والمعز مع الادوية المركبة لعلاجها من طرف البيطرة المغاربة .

واذا كان المغرب قد سلم من كثير من الوبئة التى عرفتها اوربا فى القرن الماضى كالحمى الوبائية والحمى الحصبية او قلت فيه الاصابات بالدفترية او التفويد (63) فان ذلك ليس راجعا الى علاجات وقائية بقدر ما هو راجع الى طبيعة المناخ ، وكذلك أسلوب العيش لدى المسلم المغربى يقطع النظر عن المستوى الاجتماعى وكان لحسن التربية التقليدية اى منهجية علماء التربية اثر فى المناعة الوقائية حيث كان السل نادرا ولم يظهر الوباء منذ (1234هـ/ 1818م) كما ظهرت الكوليرا (بوكليب) لآخر مرة عام 1313 هـ/ م. وكان اول ظهورها عام 1250 هـ/ 1834 م. فاستعمل الطب المغربى لمكافحة زيت الزيتون الملح بجدوى ا رينو ص

(62) (فى بحث نشره فى مجلة المغرب الطبى فى عدد سبتمبر عام 1951) .

(63) (رينو ص 140) .

86) ثم تفتشت عام 1276 هـ/1859 م. منحدرة من (اسبانيا) وكذلك عام 1865 فاستؤصلت بتدابير صارمة اتخذها المخزن في المعزل الصحى بالصويرة حيث طرد البواخر الواردة من الاقطار المنكوبة بأوروبا .

وقد عرف المغرب ابان الحماية مجاعات وأوبئة رغم وسائل العلاج والوقاية المتطورة وكان الجدري يظهر كل سبع سنوات تقريبا فيلقح بحقن جراثيم بثور ودمايل الفحل أو الناقة أو باستعمال الكبريت والملح مع الاخلاص الى الراحة فى مكان مظلم ، واذا اردت أن تعرف سر ذلك فاقرا كتابا صنف فى نفس السنة لمؤرخ هو « مولييراس » اسمه (المغرب المجهول) حيث لمس الكاتب الرحالة من خلال تطوافه بمختلف قبائل شمال المغرب المظاهر الحضارية التى وسماها الاسلام بسمات الروعة والعمق والفعالية ومن ذلك الطهارة التى هى احدى دعائم الاسلام والتكافل الاجتماعى الذى كان يجعل من المواطنين ذاتا واحدة رغم ضعف الوازع الدينى فى نفوس الكثير منهم مما ادى الى نوع من التضامن أسفر عن تساؤل المجاعات المؤدية الى سوء التغذية وانتشار الامراض فبينما لم يعرف المغرب منذ 1023 هـ/1614 م. طوا لثلاثة قرون القحط والمجاعة الا ثمانى مرات أى مرة كل خمس وثلاثين سنة تقريبا (64) لاحظنا تفتشى المجاعة فى جنوب المغرب ابان الحماية بصورة اودت بحياة ازيد من مليون نسمة .

وكانت المنهجيات العلاجية العلمية تعزز بوسائل وقائية ادارية كوجود لجنة صحية فى كافة مدن المغرب تسهر على سلامة الصحة العمومية وطهارة المدينة وتموين الاسواق وجلب الماء كما كان المخزن يؤسس المحاجر الصحية للحيلولة دون تسرب الاوبئة من خارج المغرب ، ويحاصر فى الداخل انتقال العدوى ، فمنذ ازيد من ثلاثة قرون أى عام 1089 هـ/1678 م. وقف الحراس من العبيد على (مشرع سبو) وغيره — عندما ظهر الطاعون بمكناس والقصر الكبير يصدون الواردين على ناس ومكناسة ، كما امر السلطان بتحريق ما بسوق الخميس (65) كما

(64) رينو ص 140 .
(65) نشر المئانى ج 2 ص 44)

كان محظورا نقل جثث الموتى من خارج المدن الى داخلها حتى في الاوقات العادية . ورغم تضائل الاصاله في المنهجية العلمية ظهر اطباء وعلماء امثال عبد الوهاب أدراق (1076 هـ/ 1665 م) الذي نظم ارجوزة في حسب الفرنج (الزهري) والجدي وقد ورد في كتاب « الاقنوم في مبادئ العلم » لعبد الرحمن بن عبد القادر الفاسي (1096 هـ/ 1684 م) 281 فصلا حل فيها علوم عصره منها ستة فصول خصصها للطب وللتشريح والبيطرة والزردقة (او طب الحيوان) والصيدلة وطرائق العلاج (يوجد مخطوط في خع في مجلدين) وقد أقرد أبو زيد هذا علم النبات برسالة سماها « تفسير الاعشاب » .

ولاحد بن محمد بن حمدون ابن الحاج (1316 هـ/ 1898 م) كتاب « الدرر الطبية المهداة للحضرة الحسنية » خصصها لمبادئ الطب والطبائع وضروريات الحياة (الهواء والاعذية والاشربة ، والادوية المفردة والامراض وطرق علاجها والخواص الطبية) .

وقد لاحظ « رينو » (66) ان ابن الحاج أعطانا للمرة الاولى في تاريخ المغرب تقسيما فنيا للادوية (67) .

وقد اصذبح للمغرب منذ ذلك قاموس طبى ما فتىء يتضخم منذ ذاك وقد وصف « رينو » الارجوزة الشقرونية (لابن شقرون الكناسي) بأنها اسهام في بلورة المصطلحات التقنية في هذا المجال ، ولكن في بداية هذا القرن انبثق نموذج جديد في شخص الطبيب والنباتى والصيدلى عبد السلام العلمى الذي بعثه الحسن الاول لدراسة الطب بالقاهرة فحاول وصل تراث المغرب بتراث المشرق بتحديثنا عن علماء مصر المعاصرين وبتوليف رصيد الفكر العربى من خلال خمسين مصنفا تمثل خلاصة المنهجية العملية في شتى العروبة ، فقد درس عام 1291 هـ/ 1874 م . في الاسبطالية الكبرى بالقصر العينى الذي أسسه الخديوي محمد على عام 1243 هـ/ 1827 م . ، فكانت البادرة التى دغدغت فكره لاول وهلة والتى

(66) (الخطيب ص 8)

(67) (الاعلام للمراكشى ج 2 ص 246) .

تنم عن اهتمامات الفكر العربى وخاصة المغربى اوائل هذا القرن — هى تأليف كتاب حول « الاسرار المحكمة فى حل رموز الكتب المترجمة » لتفسير المصطلحات التقنية فى العلوم العصرية الدخيلة فى العربية ولكنه اقتصر على جانب من هذا العمل الموسوعى الشامل تبلور فى كتابه « ضياء النبراس فى حل مفردات الانطاكى بلغة فاس » (الذى طبع عام 1318 هـ / 1900 م.) حيث اضاف مفردات بربرية مرادفة للمصطلحات الطبية العربية .

فهذا الكتاب يشكل بميتين تحليلاته نقطة تحول فى منهجية تاريخ العلم عامة والطب خاصة حيث حاول التوفيق بين الشهور والبروج والادوية وانواع النباتات المتداولة فى الشرق والغرب مصححا اغلاط سلفه ومنظرا بين المصادر المطبوعة ودروسه فى مصر والطرائق المنهجية عند اطباء المغرب وصيدلته وما يسميه بالطب الجديد والكيمياء الجديدة باوريا وامريكا ويأتى أحيانا بأسماء الدواء بالعربية ومختلف لهجاتها ثم باللاتينية والافرنجية مع تحليل ذلك بالمصطلحات الحديثة كالتصعيد والتقطير وتطبيقاته وتجارب شيوخه بمصر واسهامه الشخصى فى هذه التجارب كتصبير الحيوانات لدراستها وتحضيرات العمل الكيماوي وعندما عاد الى فاس اقام مصحة على نمط جديد قرب الحرم الادريسى بفاس واصل فيها تجاربه طوال ثمان عشر سنة (توفى عام 1323 هـ / 1905 م.) فأنم كتاب « ضياء النبراس » ووضع « مفتاح التشريح » ورتب تذكرة الانطاكى على الامراض بدلا من الحروف على النمط العصري لتسهيل البحث عن اسلوب علاج مرض مخصوص مخرلا ذلك بنماذج من المنهجية التقنية الحديثة كاسلوب تقطير مخلوط النوشادر بجهاز « ولف » وتقسيمات الطب الى امراض باطنة وتشريح هيكلى وعضلى ومفصلى وتشريح عصبى وتاريخ طبيعى وكيمياء طبية وأقرباذين « صيدلة » وطب الرمد والامراض الجلدية وداء الزهري وامراض النساء والاطفال وعلم الحيوان وكيمياء المعادن الخ.

ولم تكن هذه النواة من المنهجية الحديثة مجرد امتداد لتطبيقات تقليدية فقد وصف لنا الدكتور « رينو » مشهدا من المشاهد الجامعية فى 8 شوال 1310 هـ / 1892 م. حيث اجتمع اربعة من علماء فاس لامتحان

طبيب مغربي فانهالت عليه الاسئلة في « الطب وقوانينه وتركيب الادوية وتقاسيم الشرايين ووظائفها وعددها وعدد العظام وكيفية التمييز بين انواع العصب والعضلات ومعرفة النباتات والازهار والاعشاب وخواصها واسماؤها وطرق اذابتها والمواقيت المناسبة لوصفها للمرضى » . وبعد الداولة منحوا الطبيب الممتحن اجازة (68) ومع ذلك فان الطابع النظري امسى مسيطرا على التعاليم حيث وصف لنا الدكتور « رينو » ايضا (ص 117) مشهدا في « تالكزونت » بسوس حيث تابع خمسون طالبا تعليمهم في الطب بدون تطبيقات حول علاج المرض او التشريح وكانت الدروس مجرد محفوظات ، ولذلك حاول الحسن الاول ارسال بعثات علمية الى اوربا مع تشجيع المؤسسات العلمية الاوربية بالمغرب كالمستشفى الاسباني بطنجة حيث تابع ستة طلبة مغاربة تمرينات في الفحص والتضديد والتشريح البسيط ، وقد مارس ثلاثة منهم التطبيق في الجيش واستفاد الناس من تجاربهم (69) والواقع ان الفكر العلمى تقلص بالمغرب اول هذا القرن وكان من اسباب ذلك جوارف الاستعمار الاوربي الجديد الذي اقام العراقيل في وجه النشء الصاعد فتسرب الدخيل الاجنبى كعنصر توطينى للاستعمار الفكرى الذي تبلور في وجود اثنين واربعين طبيا بالمغرب اوائل هذا القرن مع عدة مستشفيات ركزت البعثات البروتستانتية في مختلف الحواضر وشملت بادرار المخزن وامسى المغرب يعيش ليومه وتوقفت البعثات الى الخارج وتحجرت دراسات العلوم بجامعة القرويين وروافدها وانفتح الباب على مصراعيه لغزو اغتعلت اوربا اسبابه ومهدت باتفاقاتها السرية ضد مصر وليبيا والمغرب العربى الى سريان دائه الفتاك في مجموع دار الاسلام التى ما لبثت ان تفككت اوصالها تحت ضربات انهارت على اثرها الخلافة الاسلامية واسفرت الحرب الاولى عن فسيفساء من الدويلات والامارات التى شغلت احتكاكاتها ومجازباتها الهامشية الفكر العربى والاسلامى عن مواصلة النضال في المسار الحضارى الذى كان للعرب فيه الدور المبدع الخلاق .

(68) (ص 121)

(69) (رينو ص 60)

أما الهندسة والرياضيات فقد كان العرب — حسب « سيديو » Sédillot أستاذة أوربا فيها حيث أدرجوا الخطوط المماسية للدائرة Tangentes في الحساب واستعاضوا عن الأساليب العتيقة بحلول مبسطة أصبحت أساسا في علم حساب المثلثات الحديث Trigonométrie وقد لاحظ « شال » Chales أن الفضل يرجع للعرب في تطبيق الجبر على الهندسة وتأكد ذلك عندما صدرت منذ عام 1252 هـ/ 1836 م مؤلفات لمحمد بن موسى الخوارزمي تحتوي على بحث في الجبر حلت مشاكله في المعادلات الثلاثية بطريق هندسية وقد أبدع العرب في علم المثلثات نظرا لتطبيقاتها في علم الفلك وواصل الاندلس والمغرب كلاهما بلورة هذه المنهجية الرائدة فظهر أمثال ابن حمزة المغربي الذي استعمل في القرن الرابع طريقة جديدة في اللوغريتم كما استخدم الحاج يعيش المالقي علم الهندسة في « الميكانيك » أو « علم الحيل » لصنع مقصورة عبد المومن ابن على في جامع القصبة بمراكش وقد وضعت على حركات هندسية ترفع بها لخروجه وتنخفض لدخوله ، كما صنع على التلمسانى موقت القرويين « منجانة » مدرسة أبى عنان المريني بفاس عام 758 هـ / 1356 م (70) واستخدم عبد الله بن يونس الاندلسى طرائق هندسية لاستخراج المياه من أجل سقى بساتين مراكش (71) وذلك في نطاق ما يسمى اليوم بالهيدرولوجيا Hydraulogie كما استعمل أبو عمران موسى بن حسن بن أبى شامة الهندسة في البناء وهو ما يسمى اليوم بالهندسة المعمارية وذلك عندما « صنع البيلة والخصة » بصحن جامع القرويين عام 599 هـ/ 1202 م (72) وقد تضخم عدد هؤلاء المهندسين المعماريين في عصر بنى مرين حيث خرج السلطان يعقوب عام 674 هـ/ 1275 م. الى ضفة « وادي فاس » ومعه أهل المعرفة بالهندسة والبناء فوقف على المدينة البيضاء (فاس الجديد) حتى حدث وشروع في حفر أساسها (73).

وقد عرف الرياضيون المقاربة علما خاصا هو « علم المساحات » ألف فيه أبو العباس بن البنا العددي المراكشى (721 هـ / 1321 م) (74).

(70) (الجذوة ص 31)

(71) (نزهة المشتاق — افريقيا والاندلس ص 67) .

(72) (الجذوة ص 37 و 57)

(73) (السلسلة ج 3 ص 145)

(74) (الجذوة ص 77)

وضرب المنصور الذهبي المثل في هذا العمل الرائد حيث تضلع في المنطق والحساب والهيئة والهندسة فكان يفك كل يوم شكلا من مشاكل كتاب « اتليدس » (درة الحجال ص 51) علاوة على ضلوعه في الجبر والمقابلة (75) ، وقد عرفت بهراكش في عصر ابن القاضى (76) زمرة من الاختصاصيين في التعاليم عرفت بـ « جماعة الفنون » كان شيخها هو أحمد الثقليتى كما برع السلطان سيدي محمد بن عبد الرحمن العلوي في الهندسة فكان يلقي دروسا تطبيقية فيها بهراكش ويحل أشكالها (77) . ومن مظاهر التطبيقات الهندسية في الفلك والمساحات الآلة التي اخترعها محمد بن محمد بن سليمان الرودائى (1094 هـ / 1682 م) الذي كان نبوذا لعالم مغربى شارك في مختلف التعاليم فبرز في (الرياضيات والمخروطات والمتوسطات والمجسطى وأنواع الحساب والمقابلة والارتماطيقى والمساحة) وكانت الآلة عبارة عن كرة مستديرة مسطرة دوائر ورسوما ركبت عليها أخرى مجوفة منقسمة نصفين فيها تخاريم وتجاويف (78) .

وقد أصبحت لعلم الرياضيات في القرن الثانى عشر الهجرى تطبيقات في علم الاقتصاد حيث صدر لمحمد المسناوي مرينو الرباطى (1207 هـ / 1792 م) مؤلف في (تقدير فرض النفقات) « وضعه بعمل الرموز والارقام مرتبطا على اطوار حياة المنفق عليهم » (79) .

ولم يتوقف العلماء مع ذلك عن ابداع الجديد في حقل الهندسة والرياضيات حيث وضع الرياضى الكبير محمد بن على التركى الرباطى ما سماه بالشكل (80) الكوري انتظمت فيه « سائر الزوايا في الخطوط والاشكال » ، كما تفنن الحيسوبى الفلكى أحمد بن عبد الله التنانسى

(75) (السلوة ج 3 ص 226)

(76) (درة الحجال ص 92)

(77) (الاعلام للبراكش ج 2 ص 216)

(78) (نشر المغانى ج 2 ص 273 مع رسالة في وصفها منشورة في الاعلام للبراكش ج 4 ص 334 نقلا عن خلاصة الاثر) .

(79) (الاغبتا ج 1 ص 136)

(80) (الاغبتا ج 2 ص 192)

الصويري في مختلف فروع الرياضيات فحل الكثير من الاشكال ونقلها الى الاعمال الحسابية وكان رئيس الحيسوبيين والمهندسين في الحضرة الحسنية (أي فاس عاصمة الحسن الاول) .

أما الفلاحة فقد برز فيها علماء أنذاذ اهتم معظمهم بهذا العلم كرافد للطب والصيدلة فدرسوا الاعشاب والعقاقير والاغذية الطبيعية وامتاز بعضهم بمنهجية أصيلة في البحث حيث كان ابن البيطار عبد الله بن صالح الكتامي ينتقل في الجبال صحبة رسام كان يصور له الاعشاب وقد خلف لنا أعظم مجموعة في العلوم الطبيعية عند العرب وسجل بالمغرب بعد عام 613 هـ / 1216 م. ملاحظات شتى حول الاعشاب ضبطها على حروف المعجم (81) وعززها بما أفاده من رحلة ابن الرومية (وهو ابن العشاب) للمغرب وخاصة مدينة فاس وكان معلمه هو عبد الله بن محمد ابن صالح الشجار الكتامي صاحب الدكان بهراكنش (583 هـ / 1187 م.) ، وقد نالت اعشاب المغرب حظها من دراسة المحدث الطبيب النباتي الرحالة على بن عبد الله الاشيلي المعروف بقلم الحرة الذي جال في اقطار المغرب العربي وسجل أعيان الكثير من الحشائش والنباتات قبل رحلته الى الشرق .

وكانت التجربة والفحوص هي السمة البارزة في « كتاب الفلاحة » لابن العوام الاندلسي وهو كتاب لا يوجد له نظير في الادب العربي بما يحتوي عليه من معارف تطبيقية ووثائق قديمة ثمينة (82) بل هو اعظم ما أنتجه لا العرب وحدهم بل حتى العصور القديمة (ص 110) .

ولاحد بن محمد الفافقي كتاب في الاعشاب يحتوي على 380 رسما ملونا لنباتات وحيوانات متقنة الرسم (83) ، كما للشريف الادريسي كتاب في الادوية أشار اليه ابن ابي أصيبعة ملئء بالملاحظات الشخصية اقتبس منه ابن البيطار في مائتي موضع من كتابه واعتمد عليه وحده في ثلاثين موضعا .

(81) (التفتح ج 2 ص 683)

(82) (لوكلير الطب عند العرب ج 2 ص 11) .

(83) (نسخة في دار الآثار العربية بالقاهرة)

وقد صنف أبو القاسم الوزير الغساني للسلطان أحمد المنصور السعدي عام 994 هـ / 1585 م. كتابه « حديقة الازهار في شرح ماهية العشب والعقار » الذي ذكر الدكتور « رينو » (84) أنه يمتاز بمنهاجه الواضح جدا في الوصف النباتي الذي يتسم غالبا بطابع من الاصالـة والطرافة .

وفي علم الجغرافية والفلك عرف المغرب عالما جغرافيا قام بدور طلائعي في وضع أسس علم الجغرافية الحديث هو الشريف الإدريسي الذي رسم أول خريطة للعالم وكان بحق استاذ أوربا في الجغرافية ، وقد طاف بمصر وآسيا الصغرى والقسطنطينية وانجلترا قبل أن يستدعيه ملك صقلية وهو أول من اكتشف أن النيل ينبع من بحيرات خط الاستواء في حين أن الأوربيين لم يكتشفوا ذلك إلا منذ عهد قريب (85).

وقد وضع لروجي الثاني ، ملك صقلية كرة أرضية فلم يخطئ في تحديد الأطوال بين الإسكندرية وطنجة إلا في نصف درجة بينما غلط بطليموس قبله بألف عام في ثمان عشرة درجة ولم يعرف العالم طوال هذه الألف سنة عالما جغرافيا في مثل ضلالة الشريف الإدريسي السبتي ، أما أبو علي الحسن بن عمر المراكشي (627 هـ / 1230 م) فهو أحد أمجاد المغرب في القرن السابع : قام بتجارب أصيلة فقلّس من المحيط الأطلنطي إلى مصر ارتفاع القطب في إحدى وأربعين مدينة واقعة بين سبعمئة مرحلة في الساحل وإلى برجع التطوير في تخطيط المزاوئ الفلكية وقد لاحظ « ماسينيون » (86) أن المراكشي جمع مائة وأحدى وثلاثين إحداثية فلكية Coordonnées للمدن الإسلامية وضع أربعاً وثلاثين منها بنفسه في سبع عشرة مدينة مغربية مر بها ولذلك كانت الخريطة الناتجة عن هذه المقاسات متقدمة بالنسبة لخريطة الشريف الإدريسي حيث استطاع أن يوضح الاتجاه العام لشواطئ الأطلنطيك فكان أول جغرافي يرجع إليه الفضل في تخطيط خريطة المغرب ، وقد ضمن هذه المعلومات

(84) نشرة معهد الدراسات المغربية العليا ج 18 ص 195)

(85) هضارة العرب — كوستاف لوبون — الطبعة الفرنسية ص 508)

(86) في كتابه (المغرب في السنوات الأولى للقرن السادس عشر ص 51)

كتابه « جامع المبادئ والغايات في علم الميقات » في مجلدين مع رسوم هندسية وجداول (87) وهناك جغرافي مغربي ثالث هو الحسن بن محمد الوزان الفاسي المعروف بليون الافريقسي (957 هـ / 1950 م .) ، فقد زار بلاد فارس والتتار والاسنانة وافريقيا (مصر والصحراء) وعاش بفاس ككاتب في مستشفى المجانين وصنف بالاطالية كتابه « وصف افريقيا » عام 934 هـ / 1527 م. ترجمه الى الفرنسية
 وصدر بالعربية بتحقيق الدكتور جما لذكريا قاسم ، كما صنف قاموسا عبريا لاتينيا الفه بروما عام 930 هـ / 1524 م. (مخطوط بالاسكوريال 598) وولى نعمته بفاس هو السلطان محمد البرتغالي .

وقد كان التقسيم الجغرافي للحسن الوزان (كما يقول ماسينيون) (88) منبثقا عن الجغرافية الاحيائية والاقتصادية وذلك للمرة الاولى في تاريخ هذا العلم وهو تقسيم اسمى من التقسيم العربي الى الاقاليم .

ومن ابرز ما حققه علماء المغرب من بادرات ذات أهمية دولية قيام ابن رشد بالكشف عن « العالم الجديد » اي امريكا حيث اعترف « كريستوف كولومب » نفسه بأنه لم يشعر بوجود قارة يابسة وراء المحيط الا بعد أن قرا كتاب « الكليات » في الطب لابن رشد (89).

وقد امتاز الفكر المغربي في الدراسات الاسلامية بنوع من الانتقادات الاصلية يدعمها في شتى المجالات ابتكار وابداع .

فقد استظهر المغاربة القرآن بكامله على كل المستويات فأسست كتابات في السهول والجلال والمدن والقرى لتحفيظه بالقراءات السبع ، ونظم الشعب بكل طبقاته تلاوته في المساجد في شكل « أحزاب » مرتبة على

(87) (يوجد هذا المخطوط في عدة مكتبات (في خع وهي غير كاملة وفي مكتبة سليم اغا 866- مكتبة ليدن - مكتبة احمد الثالث (الجزء الاول 3343 - دار الكتب المصرية 1208 ميقات) نسخة غير كاملة ، طبع نصفه المترجم الى الفرنسية من طرف Sédillot في مجلدين عام 1835 بباريس .

(88) (في كتابه « المغرب في السنوات الاولى للقرن السادس عشر ص 73)

(89) راجع كتاب (ابن رشد ومذهبه) Averroès et l'Averroïsme للمؤرخ الفرنسي (رونسان)

أيام الشهر مهدوا لها بقواعد رصينة للتجويد مع وضع طريقة فطرية لوقف آية القرآن تجمع بين اعتبارين اثنين هما المفهوم والنفس الطبيعي . وقد شعر رجالات المغرب بأسبقية الشرق في علوم القرآن ففقتوا التفسير الذي لم يكن يتصدى له الا علماء انذاك باذن خاص من أمير المؤمنين فأمر المنصور السعدي أولا باختصار « الكشاف » للزمخشري مع تتبع سقطاته حفاظا على صفاء العقيدة ثم بجمع تفسير ابن عرفة من تفسيري تلميذيه البسيلي والسلوى وضرب ابنه زيدان المثل بالانكباب شخصا على وضع تفسير اعتمد فيه على ابن عطية والزمخشري مع ابراز مظاهر الشذوذ انطلاقا من روح عملية كيفت منهجية علمائنا فاقترضوا على شروح وحواشي وايضاحات حللوا فيها ما كان من نظرات خاصة انبثقت عن الشعور بضرورة الحفاظ على وحدة الفكر الاسلامي بتصفية أسس العقيدة والارتكاز على مصدر مزدوج تبلور أولا في التأويلات القرآنية المعززة بالحديث الصحيح وثانيا في استقراء واقع فعل الرسول واصحابه وكبار القراء والمحدثين ولهذا اتسمت منهجية الدراسات الدينيية في كل العصور بالاستناد الى الاصيلين الكتاب والسنة مع رفض سائر الاتجاهات الفردية أو الجماعية المحدودة من خلال نظرات الفرق والنحل الانفصالية فكان المنبع الثاني الذي ارتكزت عليه طرائق البحث هو السنة النبوية مستمدة من التوفيق بين أقوال الرسول عليه السلام وانهاله ، وكان لعمل أهل المدينة الاثر القوي في تفضيل المذهب المالكي على غيره من المذاهب حيث كان منطلق الاقتباس هو صحيح الامام مسلم أولا ثم صحيح الامام البخاري ثانيا فنظمت دراسات الحديث باشراف الملوك منذ عهد الموحدين أي القرن السادس الهجري واستمر في ظل الدولة العلوية الى عهدنا هذا فكان مظهرا لسلفية الفكر المغربي في رجوعه الى الاصاله ، وللدروس الرمضانية التي ينظمها جلالة الحسن الثاني منتدى يضم اقطاب الفكر الاسلامي كل سنة توحيدا للفكر وتعريفا بالتسرات .

وقد تواكبت منهجيات البحث العلمي منذ عهد الموحدين في مجالى النقل والعقل فتبارى العلماء للمشاركة في المجالين حيث برز أمثال ابن رشد وابن

زهر واختص في تدريس الحديث والاستنباط من أصوله في مجلس المنصور الموحي الشيخ ابن القطان الذي استبحر في علوم الحديث وبصر بطرقه وميز بين سقيم وصحيحه ونقد رجاله فكان أول شخصية مغربية ركزت الدراسات الحديثية على الاساليب والمناهج المتبعة في الشرق مع نوع من الطرافة والاختصاص تبلورا في التركيز على الاصل الصحيح دون غيره والانطلاق بروح جديدة لفهم النص تحلا من تعقيدات بعض الفقهاء ، فادت هذه الروح التحررية الى احراق كتب المذهب المالكي منذ عهد يعقوب المنصور بعد تحررها من الحديث (90). وكان جده عبد المؤمن بن علي قد امر عام 550 هـ / 1155 م. بتحريق كتب الفروع ورد الناس الى قراءة الحديث في العدوتين معا (المغرب والاندلس) فبرز المغاربة في علم الحديث دراية ورواية حتى تتلذذ الحافظ ابن حجر امام اهل الحديث شرقا وغربا لمحدثين مغاربة كأبي البركات الكمال الكناسي وتقى الدين الفاسي ، وابن شقرا محمد بن بدر الدين السلاوي بل وصف العلماء محدثا مغربيا هو ادريس العراقي الفاسي بأنه احفظ من ابن حجر .

وكانت جامعة القرويين منارا وهاجا بدد الخلائق المذهبية التي سادت بفاس قبل القرن الرابع الهجري حيث انتشر مذهب الامامين ابي حنيفة والاوزاعي بل وحتى المذهب الشافعي عن طريق ابي جيه الفاسي ولكن الفكر الوحدوي ما لبث ان تغلب فكان القرن الرابع آخر عهد بالفكرة الخارجية التي سادت في سجناسة الى قيام الدولة الشاكرية .

وتداخلت العلوم الاسلامية ومنها علوم الآلة الاثنا عشر مع جملة من العلوم العقلية والتجريبية فكان لعلمى الاجتماع والاقتصاد شأنهما في اطار علم الفقه كما كان للفلسفة والمنطق دور في تكيف علم الاصول.وعلمى الكلام والتصوف وكانت الرياضيات مدمجة في علم الفرائض كما اندرج الفلك في علم التوقيت ولنا مثال من القرن الحادي عشر في شخص ابن سليمان محمد ابن محمد الروداني الفاسي 1094 هـ / 1682 م) الذي كان محدثا فلكيا يحسن غالب الحروف ويتقن علم التوقيت حيث صنف منظومته التي بناها على تجاربه الخاصة وارصاداته فلم يقلد احدا من المتقدمين كما عززها

بألة صنعها بوسائله الخاصة في علم التوقيت والهيئة (نسخة في خـع 2197 د) وله أيضا « تحفة أولى الالباب في العمل بالاسطرلاب » استخرج فيه تسوية البيوت من زيـج الفبيـك (الغ بيـك) (خـع 2187 د) غوطا بألمانيا الشرقية 1415 .

وهو محدث ضليـع استطاع ان يضع معلـمة لكل كتب الحديث مما لم يسبق اليه بفضل فكره الموسوعى حيث جمع في كتابه « جمع الفوائد بجامع الاصول ومجمع الزوائد » (احاديث الصحاح والسنن والمسائد) ومجمع الطبرانى (91) الثلاث الخ . وهو ايضا فقيه أصولى (له مختصر التحرير في اصول الحنفية لابن الهام وشرحه) ومؤرخ ضليـع له « صلة الخلف لموصول السلف » وهو فهرست لترتيب اسماء الكتب على حروف الهجاء (92) .

وقد احتفظت اللغة العربية بأصالتها في المغرب الاقصى بفضل رجالها المجددين الافذاذ ، وقد نشرنا بحثا معززا بالوثائق حول مصحى عامية المغرب (93) وكان لعلماء اللغة في الشق الغربى للعروبة ، دور فعال في بلورة معطيات اللغة مما فسح المجال لفاتن الحكى (329 هـ / 1008 م) فقام بمناظره صاعد بن الحسن البغدادي في مجلس المنصور (94) كما رد على صاعد هذا ابن قزار البربري الذي صحت عن طريقه اللغة العربية .

ومن اللغويين الذين برزوا بابتكاراتهم في هذا الحقل :

(1) عيسى بن عبد العزيز يلبخت المراكشى (607 هـ / 1210 م)
الذي فاق ابن الشلوين امام النحاة بالاندلس ؟

(2) ابن عصفور على بن ابى الحسين الحضرمى (659 هـ / 1260 م)
الذي سكن مدينتى أنفا ومراكش وكان خاتمة النحاة في الوطن العربى (بدأ

بدا النحو على وكذا ختم النحو ابن عصفور على

(91) (خـع 2584) طبع مرتين (عام 1345 هـ – 1926 م على الحروف بالهند ثم طبع في الستينات بالحرمين الشريفين في مجلدين) .

(92) (خزانة الاوقاف 6275) .

(93) راجع كتابنا « نحو تفصيح العامية » .

(94) الذيل والتكملة ج 2 ص 526 (طبعة احسان عباس)

(3) محمد بن عمر الفهاري (802 هـ / 1399 م) الذي تفرد على رأس المائة الثامنة في النحو (95) .

(4) محمد بن الطبيب الشرقي الفاسي (1170 هـ / 1756 م .) الذي اكمل قاموس الفيروز ابادي واعتمد تلميذه الشيخ مرتضى الزبيدي على حاشيته الكبرى على القاموس (وهي في اربعة مجلدات) وقد تتلمذ له علماء المشرق والمغرب .

(5) ابن مضا احمد بن عبد الرحمن بن محمد بن سعيد قاضي الجماعة بفاس ومراكش (592 هـ / 1195 م) الذي ابرز في « كتاب الرد على النحاة » (96) بنظرية جريئة تقول بعدم القول بالقياس في هذا العلم (تبعا لانكار الموحدين لفكرة القياس كمنهجية في الفقه) والاعتماد على السماع وهو يهدف الى هدم نظرية العامل والمعمول القائلة بأن كل حركة نتيجة واثر لعامل لفظي يأتى بعدها وأن اللفظ لا يحدث حركة في اللفظ التالي له وانما يحدثها المتكلم نفسه فليس الفعل هو الدافع للفاعل وانما وردت اللفظة هكذا فنحن ننحو كما نحا العرب والحقيقة ان ابن جنى هو اول من انكر العامل في كتابه (الخصائص) حيث قال : « وأما في الحقيقة ومحصول الحديث فالحركات من الرفع والنصب والجر والجزم انما هي للمتكلم نفسه لا لشيء غيره » ثم قال : « ان ضرب انتهت فلا يمكن أن تكون عاملا بمجرد النطق بها في زيد أو عمر والنح. »

وأول من أسس تعليم العربية للأجانب بروما في القرن العاشر الهجري الحسن بن محمد الوزان الفاسي المعروف بليون الافريقى ، كما أن لبرات دونش اليهودي الفاسي (349 هـ / 960 م .) اول من دعا الى وجوب العناية باللغة العربية والاستعانة بها في فهم « العهد القديم » وقد أخضع يهود المغرب النحو العبري لكتاب سيبيويه وقام داود بن ابراهيم الفاسي بوضع قاموس اسمه « أجرون » انطلاقا من معاجم اللغة العربية .

(95) (نيل الابتهاج ص 281)

(96) نشر كتاب الرد على النحاة حديثا (ظهر الاسلام احمد امين ج 2 ص 118 وج 3 ص 96)

وقد برزت براعة الفكر الاندلسي المغربي في بادرات رائعة ضمن
المعمار الهندسى والموسيقى (أو الآلة) الذين امتازا باصالة ما زالت معالمها
يثير اعجاب العالم فالفن المعماري بتصميماته وترخيماته ونجيبساته
وتسظيراته وترصيعاته وتلويناته وكذلك الآلة الاندلسية بطبوعها ونوباتها
وترانيمها وتلحيناتها كل ذلك مظهر لعبقرية نادرة ، وقد تبلورت روح
الابداع في منهجية التصنيع حيث كان المغرب منذ عهد الموحدين يبذ العالم
بانتاج الورق لامداد أوروبا الغربية كما يصنع أنواع الزجاج والسكر المصفى
الذي تنافس البلاطان الفرنسى والمغربى على اقتنائه فى عهد السعديين ،
وقد صنع المغرب أسطولا وصفه « اندري جوليان » (97) بأنه أول
أسطول فى البحر الابيض المتوسط مما حدا صلاح الدين الايوبى الى
الاستجداد به ، كما أكد أن الموحدين هم أول من نظم الاساليب التجارية طبقا
لمقتضيات التجارة الدولية (راجع كتابنا « معطيات الحضارة المغربية ») ؟
وقد أشاد المؤرخ والقانونى الفرنسى « جاك كاى » Caillé بالروح
الدولية التى كانت تذكى السلطان سيدي محمد بن عبد الله لها كان يديه
من آراء سبق بها ما عرفته أوروبا فى العصر الحاضر اذ لم ينس فى اتفاقاته
البنود المتعلقة بالسلم والحرب والحصانات الدبلوماسية وبعض مظاهر
الحرية المحددة فى اطار دقيق برهن عن ادراكه العميق لمقومات القانون
الدولى مما يدل على مدى اسهام المغرب فى دعم التشريعات التى تعتبر
أساسا للعلاقات بين الدول فى القرن العشرين (راجع كتاب كاى) حيث
نشر نصوص المعاهدات والاتفاقات المبرمة بين المغرب ودول أوروبا فى عهد
محمد الثالث . وهذه الروح الخلاقة قد أذكت أيضا ملك المغرب محمد الرابع
الذي نوه القنصل « لوكونط دووسكواط » بحصانة فكره والمابه بمعطيات
السياسة الاوربية وتعريبه لكتب علمية وانكبابه على دراسة العلوم حيث
اسس مدرسة للمهندسين بفاس وبلغت مبادراته مبلغا من الابداع جعل كلا
من « فرانسوا شارل رو » و « كاى » يؤكد اختراعه لمدفع (تاريخ
المغرب — عبد العزيز بنعبد الله ج 2 ص 65) .

وقد ظل انطاب الفكر ينتجعون الشرق لاستتتمام المعارف وتبادل
الاجازات كما كان المشاركة يتوقون الى مبادلة علمائنا وجوه النظر ، وقد
عرف الشرق كيف يقدر المغرب في شخص أمثاله ابن سليمان
الروداني والمقري وابن الطيب الشرقي ويحيى الشاوي واليوسى وأحمد
بن ناصر وأحمد القادري ومحمد (فتحا) الفاسى ومحمد بن الطيب العلمى
المتوفى بالقاهرة وأحمد بن الخياط الذي مكث طويلا في القاهرة أيضا وأحمد
الهلالى الذي ترك لنا وصفا شيقا لرحلته العلمية هذه لان اساليب
الشرق والغرب كانت تتكامل كما أن عناصرها الحيوية يتم بعضها بعضا
في هيكل موحد رصين . ولعل ما لاحظته المقري — وقبله ابن خلدون —
من فروق بين الشرق والغرب في الاتجاهات الفكرية والمناهج العقلية قد
ظل على ما كان عليه اذ بينما كان الشرق مطبوعا بالعمق في ملكة العلوم
النظرية طفق المغرب يوغل في البحث اللفظى مع تحقيق ما احتوت عليه
بواطن الابواب وتصحيح الروايات وبيان وجوه الاحتمالات والتنبيه على
ما في الكلام من اضطراب الجواب واختلاف المقالات مع ما انضاف الى ذلك
من تتبع الآثار ، وبينما غلب على تأليف المشاركة الاجاز (عدا البعض
كالغزالي والفخر الرازي) مع انحصار في الموضوع سواء في التصنيف أم
التدريس اذا بالمغاربة من القيروان الى القرويين يوغلون في الاستطراد ،
واذا كانت صناعة التأليف قد انتهت في علماء المغرب على صناعة أهل المشرق
في شخص ابن البناء المراكشى فقد عللوا ذلك (ببراءة نسبه من البداوة)
غير أن الامر لم يبلغ الحد الذي زعمه ابن خلدون في المائة الثامنة من انقطاع
ملكة التعليم على طريق النظر ، لان التحقيق العلمى ظل طابع الكثير من
علماء عهد الشرفاء ، هذا مع تحفظات منها نوع من التجمد في المنهج وايفال
في استظهار النصوص حيث ادى الحال في بعض نواحي المغرب الى تطرف
في الاستظهار تجاوز المتون الى معاجم اللغة ، ولكن هذا الاسلوب الذي
كان يحجر الفكر أحيانا عند من لا يستطيع أن ينسق بين واعيته وملكتيه
التصورية قد ضخم — على العكس عند البعض — السليقة العربية .
غير أن العلوم فقدت منذ أوائل القرن الحادي عشر سميتها العلمية
فأصبحت مجرد «حرف» تقنية ضمت اختصاصيين في الحساب والهندسة
والمساحات (98) .

وبالرغم من تقلص شبكة العلوم فان الروح العملية ظلت تذكى الخاصة من العلماء الذين كانوا يشعرون بالفروق الدقيقة في الاتجاهات العلمية ، ويتجلى ذلك في تقسيمات أبى على اليوسى للعلوم : الى فلسفية وملية ، وتحديد لهامية علم الفلسفة الذي يهدف الى « تكميل النفس الناطقة ، والاطلاع على حقائق الاشياء بقدر الطاقة » وانه — كما يقول — اما نظري واما عملي ، والاول اما مجرد عن المادة مطلقا وهو العلم الالهى ، او فى الذهن فقط وهو العلم الرياضى ، او مقيد بالمادة وهو العلم الطبيعى . والثانى اما متعلق بنفس الشخص من حيث هى ، وسمى سياسة النفس وعلم الاخلاق ، أو بها وبها يحتاج اليه من شهوات قواها وهو علم تدبير المنزل ، او بها يعم وهو الملكية والسلطنة . »

وبذلك اصبحت التعاليم تنحصر فى عمليات تطبيقية . صرف تلك فذلكة مختصرة تعطينا صورة مكبرة عن بعض مظاهر منهجية البحث العلمى فى المغرب .

الرباط

عبد العزيز بنعبد الله

مسكينة

للكاتبة الأمريكية : غريس ماسن
ترجمة : عبد المجيد بن جلون

أطلقت عليها احدى صويحاتها في المكتب لقب « مسكينة »
فعلق اللقب بها لانها واصلت قبول الضرب على الآلة الكاتبة
الضخمة العتيقة فترة طويلة من الزمن دون ان تشكو من ذلك
أو تطالب مستر اريكسون باستبدالها لها بآلة خفيفة جديدة ،
وتتالت على ذلك الشهور .

كن يقلن لها : ان مصابك يا مسكينة يتلخص في أن لك قلبا
فارغا من كل عزيمة ، أتخشين ان تقتحمي على الشيخ مكتبه
وتجاري بالشكوى ، ثم يتحاكى في حبور ، وكانت تعلم أن ذلك
من حقها ، وكانت تردد في نفسها كل صباح وهى في طريقها الى
عملها العبارات التى ستقولها لمدير المكتب عند وصولها اليه ،
ولكنها لم تستطع الى ذلك سبيلا في يوم من الايام .

وكانت تقيم معها أخت لها طاغية ضاقت بها ذرعا ، كما ضاقت ذرعا بزواج اختها الذي ظل يسخر من الصديق الشاب الوحيد الذي كانت تعرفه ، الى ان هجرها الى غير رجعة ، فاستقر في أعماقها أنها فتاة مهينة ، واقتترنت هذه المهانة بالآلة العتيقة الكريهة ، فاما تخلصت منها والا تعمق شعورها بالضعف الذي كان سببا في كل ما تشعر به من كرب وبلاء .

وعندما دقت الساعة الثانية عشرة والنصف ، انتفضت من مكانها لتسير في الردهة منهوكة القوى ، وسعت الى باب مكتب مستر اريكسون نصف المفتوح فرأت أنه لا يباشر أى عمل فانتفض قلبها انتفاضة بائسة وهى تسعى اليه لتجد نفسها واقفة أمامه تقول له فى تلعثم : مستر اريكسون المعذرة .

وفجأة انطلق جرس التليفون ، فقال لها وهو يرفع السماعة: عودي في وقت آخر فخرجت مسكينة لا تلوي على شىء وسارت تائهة في طريقها الى المطعم الذي تتناول فيه غدائها دون ان يعيد اليها اي اطمئنان جو الخريف الجميل ، ولا الموسيقى المرحلة التى كانت تأتيها من قبل ملعب الحيوانات التى مرت به في طريقها الى المطعم .

وشعرت بالمهانة التى اعتادت ان تشعر بها كلما تقدم فتى المطعم الاسمر لتولى خدمتها ، ثم انطلقت تحلم بغرفة لها خاصة لا يشاركها فيها احد ، وذهبت تتخيلها كما تتمنى ان تكون ، ثم انهمكت في تناول طعامها لا تكاد تشعر بالضوضاء التى ارتفعت

حارج باب المطعم ، ولكنها استيقظت أخيرا من احلامها على صراخ سيدة ضخمة توقف بها الباب الدائري .

وعندما سادت — المطعم — الفوضى لم يكن أحد يعرف ماذا حدث سوى ان هناك سيدة تصرخ ، وذهبت خادمة تتبين جلية الامر ، ثم اخذت تصرخ هي بدورها حينما اقتحم المطعم حيوان اثار الرعب والهلع : يا للطامة ! انه أسد .

وصعق الناس في امكنتهم حينما وقعت اعينهم على هذا الزائر المخيف الذي لم يزد على ان وقف في اختيال ، ودار برأسه ليرى الناس وكأنهم قد انقلبوا الى بهلوانات تجري وتنطح وتختفى تحت الموائد وخلف حاجز المشرب ، وقد تملكهم ما يشبه الجنون .

أما مسكينة فعجزت عن الحركة تماما ، واقتصرت على لزوم كرسيها في ذهول ، ولم تستطع ان تتحرك حتى حينما أخذ الفتى الواقف خلف حاجز المشرب يشد طرف كمها ، وتعالى الاصوات من كل مكان: «نادوا رجال الشرطة، اضربوه بالكراسى انثروا الفلفل على عينيه » .

حاولت مسكينة ان تطبق جفניה دون جدوى ، فتقدم الاسد خطوة وعاد يرفع رأسه وهو يغمض عينيه الذهبيتين ويفتحهما ويصبص بذنبيه ويشمشم بخياشيمه ، وهمهم في جوفه بعض الهدير .

ولم تحفل مسكينة بالناس وهم يصيحون بها ، فقد تركز انتباهها في الاسد الذي اصبح على مقربة شبر واحد منها ، وتوقفت أنفاسها وهي تراه يلحق شفريه في تمهل واناة .

ثم مد رأسه الى مسكينة فترددت في المكان همهمة من الرعب ، فجمدت من الذعر وقرب فكه من ركبتها فنظرت الى بقية الفطيرة في يدها التي امتدت به الى فم الاسد ، فالتقطها من بين اصابعها بلسانه القرمزي ، ثم لعق اصابعها .

وهنا حدث أمر عجيب ، لقد شحذ الذعر شخصية مسكينة فتنفست الصعداء ، وراعاها ما تطفح به عيناه من أمارات الاستغراب والاستفهام ، كما راعها تغض اذنيه البادي والندبة السوداء الواقفة على خيشومه ، وخطر ببالها ان الخوف قد انتابه هو ايضا .

وكان الفتى الواقف خلف حاجز المشرب قد شرع في العمل وأخذ يملأ اناء بماء ملتهب يغلى ، وقال لمسكينة خذي حذرك سأصب هذا على وجهه ، ولما ادارت راسها وراثة حذرتة من ذلك صائحة : لا تفعل ، الا تعلم انك سوف تؤذيه ؟ بل وقفت تحول بين الاسد وبين الفتى الطائش ، فاقترب منها الاسد الى أن حاذى ركبتها، فمدت اليه يدها — في غير ما وعى — فلمست لبدته الصفراء تلمسا مال براسه اليها ، فانقشع عنها الخوف دفعة واحدة ، كانها بعد ترديها في مهاوي الرعب المدلهم قد خرجت الى حرم آمن لم يعرف مجرد الوجس في يوم من الايام .

ولما اقتحم المطعم شرطى وفى اثره عملاق رث الملابس ،
ارتجف الاسد ارتجاجا شديدا ، وقد وضع عند الباب قفص ،
واخذ الرجل العملاق يلوح فى الهواء بهراوة وهو يصيح بالاسد
« هيا يا قيصر هيا » فأهابت به مسكينة صائحة : لا تضربه ،
فلم يسع الرجل الا ان يحدق فيها حينما ادرك وجودها وتمتم :
يا الاهى !

وازدحم المكان بعد ذلك بمخبري الصحف والمصورين وهم
يباشرون عملهم فى حذر ، فزار الاسد زئيرا اعقبته فوضى
ضاربة الاطناب ، ولما عاد الهدوء الى نصابه كان قيصر الهرم
قد قبع فى زاوية من زوايا القفص وقد بدا عليه ان قواه قد
خارت وانه سئم الحياة ، وانصرف عنه الصحفيون ليتجهوا الى
« مسكينة » يلتقطون لها الصور ويلحقون بالاسئلة هذه
الفتاة العجيبة التى تمكنت من ان تهديء من روع الاسد بنصف
فطيرة ، فصرفته عن الفتك بالناس وتمزيقهم ، حتى اذا ما انتهى
الحادث بسلام رجعت واجفة وقد تأخرت عن موعد عملها عشر
دقائق .

وعند عودتها الى المكتب قال لها مستر اريكسون ساخرا :
تحضرين فى الوقت الذي يحلو لك يا مسكينة ، فلم تزد على أن
رفعت الغطاء الجلدي عن الآلة الضخمة الكريهة بعد ان جلست
اليها .

وعندما أخذت تدق عليها تشابكت اذرع حروفها وتعطلت عن
العمل ، فقالت لها زميلة لها ساخرة : تطالبين متى بآلة جديدة
يا مسكينة ؟ وتعالى الضحكات .

كانت قد انجزت بعض الاوراق فجمعتها وانطلقت بها الى مكتب الرئيس ، ولكنها شعرت في طريقها بعزيمتها على مجابهته تنهار ، فعرجت على الحمام ، وفي الحمام رأت خصلة من شعر الاسد ما تزال عالقة بركبتها ، فطافت بأنفها ذكرى رائحته ... فأحيت الذكرى العزائم في قلبها ... وتطلعت الى المرأة فخيّل اليها انها رأت آثارا للدمع في مآقيها ، وشعرت في أعماقها بشيء جديد لا تدرك كنهه ... بشيء لا تستطيع الكلمات التعبير عنه ، فهو يشبه مزيجا من الندم والتمرد وتفاهة الدنيا ما كاد يتقمصها حتى وجدت نفسها بعد لحظة في طريقها الى مكتب مستر اريكسون ، ثم حدثت في وجهه وصاحت به وهي تضرب بقبضة يدها على مكتبه بين الكلمة والاخرى قالت له :

مستر اريكسون : ان من حقى الحصول على آلة جديدة ، فان أحدا غيري لن يقبل الضرب على تلك الآلة العتيقة العجفاء ، ولذلك فأننى لن اجلس اليها مرة أخرى ولو وصل الامر الى حد فصلى من العمل ، يضاف الى ذلك انك وعدتني بمكافأة في آخر السنة ولكنك لم تبر بما وعدت ، وها انذى لا ازال أقيم مع اختى وأخضع لما تسومنى به من بخس :

فأجابها مستر اريكسون وقد جحظت عيناه من العجب ، ماذا حدث ؟ قالت : ربما كنت تعلم يا مستر اريكسون ان صويحباتى لقبننى « مسكينة » ، لقبننى بذلك لاحتمالى ، ولذلك فانا امقت اللقب ولن احتمل ان ...»

وعندما رفعت بصرها الى مستر اريكسون أدهشها أن ترى شيئا أصلع قد ارتسمت على محياه أمارات ما لقيه من عنت في

الحياة ، فقالت هل أنت على ما يرام يا مستر اريكسون ؟ هل أصابك صداع .

— كلا ، كلا يا ابنتى ، لقد بلغ منى التعب منتهاه من عناء اليوم ، وادركنى اللغوب .
— اننى آسفة لذلك .

عجبا ، فلقد شعرت مرة اخرى بان الخوف قد انتشع عنها وخرجت بعد ترديها فى مهاوي الرعب الى حرم لم يعرف مجرد الوجس فى يوم من الايام ، فاضافت : لا يوجد فى الحياة شىء يستحق ان يخشى ، ما دام هناك حق .

وقال لها مستر اريكسون وهو يبتسم ، وقد رفع حاجبين تظللهما الشيب : هذه اول كلمة طيبة أسمعها فى يومى ، وقد تكونين على حق ، ومهما يكن من شىء فان لك على آلة جديدة ، ولك على المكافأة أيضا ، فانها لن تلحق بنا خسارة يا مسكينة ... اوه ، اعذرينى فقد نسيت انك تمقتين هذا اللقب .

— لن احفل بذلك بعد اليوم ، ولك شكري يا مستر اريكسون .

وتبسمت لنفسها ، ثم هرولت منصرفة قبل أن يخطر على بالها ان تفعل برأس مستر اريكسون ما فعلته برأس الاسد منذ قليل حينما لمست لبدته الصفراء ...

عبد المجيد ابن جلون

الرباط

قضية روديسيا (*)

تطورها التاريخي

د. شوفي عطا اسد الجمل

مقدمة :

قضية روديسيا من القضايا الهامة التي شغلت بال الافريقيين ، ولا تزال تؤرقهم بل شغلت هيئة الامم المتحدة ولجانها المختلفة ، ولا تزال مدرجة في (جدول) مجلس الامن والجمعية العمومية ، كما تستحوذ على نشاط وجهود لجان عدة من لجان الهيئة الدولية .

ولعل شكوى بتسوانا الاخيرة امام مجلس الامن من اعتداءات حكومة الاقلية العنصرية في روديسيا عليها ومنسادة ممثلي الدول الافريقية وفي مقدمتهم ممثل المملكة المغربية في الامم المتحدة لبِتسوانا في شكواها تثير التساؤلات حول حقيقة قضية روديسيا .

1) سنستخدم هذا اللفظ — تجاوزا — في هذا البحث رغم أن الوطنيين يفضلون أن يطلقوا على بلادهم لفظ زيمبابوي (Zimbabwe) أو زيمبزيا اللفظ القديم المعبّر عن أصلهم الإفريقي وحضارتهم القديمة والمرتبطة بتهرم العظيم (الزمبزي) .

والقضية غريبة في بعض أطوارها لكنها على العموم تعتبر صورة من الصور التي مارس بها الاستعمار نشاطه في القارة الامريكية منذ أن رزنت به في العصور الحديثة . ووجه الغرابة فيها يرجع الى أن الاقلية العنصرية من المستوطنين البيض الذين لا يزيد عددهم عن 220 ألفينما يتجاوز عدد الوطنيين أصحاب البلد الحقيقيين أربعة ملايين نسمة — قد أعلنت الاستقلال بالبلاد عن النفوذ البريطاني . والاستقلال في حد ذاته هدف تسعى كل الشعوب المغلوبة على أمرها في الحصول عليه ، ولكن استقلال هذه الاقلية الدخيلة وانفرادها بالحكم يعنى في الحقيقة استبدادها بالامر دون أصحاب البلاد الحقيقيين واستمرار استغلالها لخيرات البلاد — وتسخيرها لاهلها لخدمة مصالح هذه الاقلية التي تشبه الاضطبوط الذي يتسلك على النبات الاصلى ليمتص عصارته ويتركه جانبا لا حياة فيه .

وتمتد جذور هذه القضية في الحقيقة الى الوقت الذي قدم فيه الاستعماري البريطاني سيجل جون رودس (Cecil John Rhodes) الى جنوب افريقيا ، ثم بدا نشاطه في هذه البلاد ، واسس شركة جنوب افريقيا البريطانية [British South African Company] ليحقق عن طريقها أهدافه بعد أن استطاع الحصول من ملك قبائل (الميتابلى) الذي كان يحكم هذه البلاد على تصريح بالتعقيب عن المعادن في أرضها فوضع خطة للإطاحة بالملك الافريقى ، ووضع يده على هذه البلاد واستعمارها واستغلالها لتحقيق أهداف الرجل الابيض .

وفي عرضنا لتطورات هذه القضية سنقدم عرضا سريعا للملامح الجغرافية للبلاد لاهميتها في تفسير الاحداث التي ألمت بها بعد ذلك ، ثم سنتبع التطور التاريخى والحضارى للسكان في الفترة السابقة لامتداد النفوذ البريطانى اليها ، مبرزين بعض معالم الحضارة الافريقية بهذه البلاد والتي يعتمد المستعمرون الاوربيون تجاهلها لانها تهدم الاساس الذي يبنون عليه استئثارهم بالسلطة دون الافريقيين ، اذ يدعون أنه لم يكن لهم نصيب من الحضارة من قبل فلن يمكنهم بالتالى مسيطرة الحضارة الحديثة .

وسنشير للوسائل التي اتبعتها الاستعمار لبسط نفوذه على البلاد

ونظام الحكم الذي وضع لها والذي أدى في الحقيقة الى أن تصل المشكلة الى الوضع الذي وصلت اليه :

فالمشكلة في الحقيقة ليست بنت اليوم ، لكنها النتيجة الطبيعية للسياسة الاستعمارية التي اتبعت منذ البداية في هذه البلاد ، فسواء في فترة ادارة شركة جنوب افريقية للمستعمرة وهي الفترة التي امتدت من 1890 الى 1923 أو في فترة الحكم الذاتي وهي فترة امتدت من 1923 الى 1953 ، أو في فترة الاتحاد الثلاثي (اتحاد وسط افريقيا) الذي فرضا المستوطن البيض في عام 1953 مهددين بالانضمام الى اتحاد جنوب افريقيا اذا لم تتحقق الوحدة مع روديسيا الشمالية ونياسالاند - كان واضحا ان الاقلية البيضاء في روديسيا تعمل للانفراد بالسلطة لتستطيع أن تنفذ سياستها العنصرية المتطرفة والتي تتنافى مع كل المبادئ الانسانية والدولية .

والقاء نظرة على وضع الافريقيين ومدى ما يتمتعون به من حقوق ، وما متاح لهم من فرص للاستفادة من الخدمات في بلادهم ، ومقارنة ذلك بوضع المستوطنين البيض يوضح أبعاد السياسة العنصرية التي تعمل الاقلية البيضاء في روديسيا لتحقيقها .

أما عن موقف منظمة الوحدة الافريقية من القضية ، وما اتخذته من قرارات في هذا الشأن ومدى فاعليتها فسنستند في توضيحه على تقارير لجان المنظمة ومحاضر جلساتها وقرارات مؤتمراتها .

كذلك في معالجة موقف الجمعية العمومية للأمم المتحدة ، ومجلس الامن واللجان الخاصة المتخصصة (لجنة الاربعة والعشرين عضوا) ، ولجنة حقوق الانسان ، والمجلس الاقتصادي والاجتماعي وغيرها من هذه القضية - فقد رجعنا لتقارير هذه اللجان الرسمية كما هي واردة في وثائق الامم المتحدة ، وقد اشرت بصفة خاصة للدراسة التفصيلية التي قامت بها « اللجنة الخاصة لمعرفة مدى نشاط المصالح الاقتصادية الاجنبية وتغلغلها في روديسيا واثار ذلك على القضية الروديسية » ، فقد تناولت هذه الدراسة كل نواحي النشاط المتعلق بالزراعة والتعدين وأعطت صورة لاستثمارات الشركات الاستغلالية المختلفة في روديسيا وأرباحها

التي تحققت بها يلتقى الاضواء على موقف الراسماليين الاجانب وموقف القوى الاستعمارية الاخرى من القضية التي تعتبر من أهم وأخطر قضايا الكفاح في سبيل الحقوق الطبيعية للشعوب .

اولا - الملامح الجغرافية لروديسيا :

ليس من شك في أن (شخصية المكان) — كما يعبر عنها بعض الجغرافيين أو (فلسفة المكان) كما يحلو للبعض أن يسميها (2) — كان لها أكبر الاثر ليس فقط في اغراء الاستعماريين السابقين من أمثال سيسل جون رودس على الاصرار على مد النفوذ الاجنبى لهذه الجهات — لكن أيضا كانت في مقدمة الاسباب التي جعلت أحفاد هؤلاء الاستعماريين يعملون اليوم على زيادة قبضتهم على هذه البلاد فاذا القينا نظرة على خريطة روديسيا فلعل أول ما يلفت النظر هو موقعها الداخلى في الهضبة الجنوبية للقارة الافريقية ، فهي لا تطل على سواحل بحرية أو محيطية وان كانت تقترب كثيرا من سواحل المحيط الهندي ، وتحدها من الشمال والشمال الغربى جمهورية زامبيا Zambia (روديسيا الشمالية سابقا) ، ومن الشرق موزمبيق Mozambique (المستعمرة البرتغالية السابقة) ومن الجنوب جمهورية جنوب افريقيا S. Africa R. ومن الغرب بوتشوانا Botswana (بتشوانا لاند البريطانية سابقا) فهي تشبه الصدفة المغلقة على نفسها (3) . وقد حتم هذا الموقع الداخلى على روديسيا أن تتجه الى الدول القريبة المطلة على المنافذ البحرية مثل موزمبيق (على المحيط الهندي) وأنجولا (على المحيط الاطلنطى) ، وارتبطت روديسيا بها بخط حديدي يمتد من ميناء بيرا Beira في موزمبيق الى بنجويلا Benguala على المحيط الاطلنطى فى أنجولا Angola وقد أدرك (سيسل رودس) أهمية ميناء بيرا لروديسيا باعتباره منفذا طبيعيا لها ، وكاد أن يدخل فى نزاع مع

(2) انظر حمدان ، جمال : شخصية مصر (القاهرة 1976) ص 1 ، 2 ، 3 .

Brlsford, W.V. : Hadbook to the Federation of Rhodesia & Neysaland (3) (London 1960) p. 1,

البرتغال بسببها لكن اللورد سولزبري Salisbury رفض أن يذهب إلى حد الحرب مع البرتغال لهذا السبب (4) .

وموقع روديسيا هذا جعلها مطمح الدول الاستعمارية — هذا من جهة الموقع .

أما سطح روديسيا فهو مرتفع اذ تمثل هضبة يتراوح ارتفاعها بين 4.000 و 5.000 قدم فوق سطح البحر ، وقد أدى هذا الارتفاع إلى اعتدال المناخ معظم شهور السنة رغم وقوع (روديسيا الجنوبية) في العروض المدارية ، وأغرى هذا الارتفاع كثيرا من الأوروبيين على الهجرة إلى هذه البلاد ، وتقطع الهضبة عدة أنهار تختلف في اتجاهها وتصريفها النهري ، وأهم هذه الأنهار — نهر الزمبيزي وروافده وهو يسير من الغرب للشرق وتعرض مجراه (شلالات فيكتوريا) الشهيرة التي رآها لفتنجستون Livingstone في 16 نوفمبر عام 1855 فأبدع في وصفها وقدم لنا صورة من وحي انفعالاته النفسية اثر مشاهدته لها للوهلة الأولى (5) . وقد أقيم على هذا النهر سد كاريبا الذي تم تنفيذه في عام 1959 (6) .

وبالطبع تختلف درجة الحرارة كما تختلف كميات التساقط (أي الأمطار) تبعا للارتفاع والموقع ولذلك اختار المهاجرون الأوروبيون المناطق المرتفعة المعتدلة المناخ تاركين المناطق المنخفضة الحارة والتي تنتشر فيها الأمراض للأفريقيين .

ويسقط المطر هنا في فصل الصيف (الجنوبي) في الفترة ما بين شهري نوفمبر ومارس ، بينما يسود الجفاف باقى شهور السنة ، ومتوسط المطر

(4) Waugh, Evelyn : Tourist In Africa (New York 1960) p. 149
(5) Livingstone, David : Missionary Travels & researches in South Africa (1857) (5) p.p. 510-525.

(6) طول جتم السد 420 قدما وعرضه نصف ميل تقريبا ، وتبع أقامته نشأة — بحيرة مساحتها 2.000 ميل مربع وقد ترتب عليه تهجير عدد كبير من السكان من الأماكن التي غمرتها مياه السد . والهدف الأساسي من السد امداد منطقة (الحزام النحاسى) بقوة كهربائية ضخمة تيسر عمليات الاستغلال الاقتصادي التي يحرص عليها المستعمرون الأوروبيون

ما بين 25 ، 30 بوصة سنويا ، ويلاحظ ان اكثر شهور السنة حرارة ليست هي شهور الصيف ، لكن ترتفع درجة الحرارة بشكل ملحوظ في فترة الجفاف التي تسبق موسم المطر ، والمطر عامل رئيسي في تحديد الانتاج الزراعى (7) .

ومن جهة النبات الطبيعى تغطى حشائش السافانا مساحات ، واسعة من روديسيا ، كما تغطى مساحات كبيرة الغابات التي تستغل اخشابها في صناعة الاثاث والصناعات الخشبية الهامة الاخرى بالاضافة الى استخدامها كوقود ولاغراض التعدين ، ولذا فقد قطعت كثير من الاشجار بغير نظام ودون أن يزرع بديل لها مكانها ، وساعدت الحرائق - التي كثيرا ما كانت تنشب في الغابات ويتعذر اخمادها الا بعد أن تأتى على مساحات واسعة منها - على اهدار هذه الثروة الطبيعية ، ولذا يجد المتنقل في بعض غابات روديسيا التحذير التالي « شجرة واحدة تعمل مليون عود ثقاب - لكن عود ثقاب واحد يمكن أن يقضى على مليون شجرة (8) » .

اما عن الانتاج الزراعى فيختلف تبعا لكمية المطر ، وأهم الفلات الزراعية : الفاكهة ، والشاي ، والبن ، والذرة ، والطباق ، والقطن ، والحبوب ، وقصب السكر .

وترعى الماشية في المناطق التي تصلح للرعى والتي تتوفر بها المراعى الطبيعية من السافانا ومراعى الفلد الصالحة لتربية الكثير من الحيوانات ، وتعتبر روديسيا من أكبر الدول المصدرة للثروة الحيوانية ومنتجاتها ، وقد ادخل الاوروبيون انواعا جديدة من الماشية التي اشتهرت باعطاء كميات وفيرة من الالبان ، كما ادخلوا رعى الخيل والخنازير (9) . وللزراعة والرعى مكانة هامة في حياة الافريقيين في روديسيا كما في مناطق كثيرة في القارة الافريقية - فنظرتهم للأرض والماشية تختلف اختلافا كبيرا عن النظرة الاستغلالية التي ينظر بها الاوروبى لها ، فالارض ملك للقبيلة منها

Black, Colin : The Lands & People of Rhodesia & Nysaland (London 1961) (7) p. 23.

Maurette, Fernand : Geographie Universelle, Tome XII (Paris 1883) p. 263. (8)

Kuper, H. : The Shona & Ndebele of Southern Rhodesia (London 1954) (9) p. 20.

نستمد سلطانها في السلم أو الحرب كما أنها ترتبط بعقيدة روحية لديهم
فهى المكان الذي تأوي إليه أرواح الأسلاف .

ولذا كان اغتصاب الاستعماريين لأراضى الأفريقيين واستغلالها
لانتاج الغلات التجارية (كالطباق ، والشاي ، والفاكهة ، والقطن) دون
مراعاة لتقاليد الأفريقيين وحاجاتهم مثار غضبهم وحقدهم على الاستعماريين
الـدخلاء (10) .

وشهرة روديسيا في التعدين ليست حديثة ، ولا يرجع الفضل فيها
— كما قد يتبادر للذهن للمستعمرين الأوروبيين ، فقد ذاعت القصص عن
شهرة هذه البلاد (بالذهب) ، فقد قيل أن كنوز الملك سليمان التى
اشتهر بها جاء الكثير منها من روديسيا ، وأن ملكة سبا أتت من أرض
سابى التى يجرى فيها نهر سابى وقد دلت الآثار على أن (الحديد) و
(النحاس) كانا معروفين منذ زمن بعيد في هذه البلاد ، وكان السكان
يصنعون منها بعض لوازم حياتهم (11) .

وقد أكد الجيولوجى الألماني كارل ماوخ (Carl Mauch)
في عام 1866 وجود الذهب بروديسيا ، كما يرجع إليه الفضل في لفت
انظار العالم الى آثار زيمبابوي (Zimbabwe) وإلى أهميتها في
الكشف عن معالم الحضارة القديمة للشعب الأمريتى الذي سكن هذه
البلاد .

ومن المعادن الهامة الأخرى التى كشف عنها في روديسيا —
الاسبستوس ، والكروم ، والفحم ، والحديد ، والنحاس الى جانب معادن
أخرى مثل الجرافيت والميكا ، البريليوم ، والليثيوم والتصدير (12) .

ويتضح لنا مما سبق أن المواد الخام الزراعية والمعدنية متوفرة في
روديسيا ، هذا بالإضافة الى الأيدي العاملة ، ورؤوس الأموال الأجنبية

(10) انظر التقادير السنوية عن الانتاج الزراعى الروديسى التى تصدرها وزارة الاقتصاد .
Ministry of Economic Affairs Salisbury : Economic Report.

Certrude, Sarah : Rhodes (London 1933) p. 10 (11)

Stamp ; Dudley : Africa - A Study of Tropical Development (N.Y. 1959) (12)
p. 432.

التي تدفقت على البلاد بهدف الاستغلال ، كما توفرت الطاقة المحركة لوجود الفحم بكميات كافية ولاستغلال مساقط المياه على نهر زمبيزي بعد اقامة (سد كريبا) - وكل هذا يتيح الفرص لنجاح مشروعات التصنيع بها .

وتحتل الصناعات المعدنية وخاصة صناعة الحديد والصلب مركزا هاما في اقتصاد البلاد ، كما قامت الصناعات الغذائية ويتركز الانتاج الصناعى في المدن الكبرى مثل سولزبرى (Salisbury) وبولاوايو Bulawayo ومن تحليلنا لجدول الصادرات والواردات ومن التقرير الاقتصادي الذي تصدره وزارة الاقتصاد الروديسية يتضح لنا ما يلى : (13)

1 - يعتبر الدخان ، والجلود المدبوغة ، والذرة ، والاشخاب في مقدمة الصادرات من الانتاج النباتى والحيوانى والاسبستوس ، والكروم ، والذهب ، والنحاس من الانتاج المعدنى .

2 - الدول الهامة التى يجرى معها التعامل التجارى هى : دول الكومنولث ، والبرتغال ومستعمراتها السابقة (موزمبيق وانجولا) والمانيا الغربية ، وايطاليا ، والهند ، واليابان ، وفرنسا .

3 - منذ سنة (1958) دخلت اسرائيل في عداد الدول المشتركة في نطاق هذا التبادل التجارى وعقدت معها اتفاقيات اقتصادية كذلك التى عقدت مع اتحاد جنوب افريقيا بهدف معاملة هذه البلاد معاملة خاصة تتيح لها الاولوية في مجال النشاط الاقتصادي ، وحجم التبادل التجارى مع البلدين سجل تزايدا مستمرا عاما بعد عام .

واهمية هذه الدراسة للاقتصاد الروديسى في موضوع بحثنا هذا ترجع الى ان انها تعطى فكرة عن اثر المقاطعة الاقتصادية على الحكومة العنصرية في روديسيا لو طبقت هذه المقاطعة بحزم ودقة ، كما توضح الدور الذي تلعبه بعض الحكومات الاستعمارية مثل جنوب افريقيا

(13) انظر التقرير الاقتصادي (Economic Report) الصادر عن وزارة الاقتصاد الروديسى والارقام الخاصة به لعام (1965) .

العنصرية واسرائيل في افساد فاعلية قرارات المقاطعة التي اصدرتها الامم المتحدة ضد حكومة الاقلية العنصرية في روديسيا التي ستنحدر عنها فيما بعد (14) .

وقبل مجيء المستعمرين الى روديسيا كان الوطنيون يستخدمون الطرق البرية في تنقلاتهم ، ورغم وعورة هذه الطرق فقد اعتادوا عليها ، لكن المستعمرين طوروا وسائل النقل لتساير اهدافهم الاقتصادية فمهدت عدة طرق برية لتيسير نقل الخامات المعدنية لاماكن التصنيع والتصدير ، كما مدت الخطوط الحديدية لتسهيل السيطرة على الاقليم وربطه بالخطوط الحديدية التي تصل الى موانئ جنوب افريقيا ، كما ربطت المدن الهامة في روديسيا الخطوط التلغرافية ، وقد انشئ في كل من (بولاوايسو) و (سولزبري) مطار دولي (15) .

واذا كان استنزاف ثروة البلاد من اهم الدوافع التي دعت المستعمرين للاهتمام بتيسير وسائل النقل والمواصلات وربط هذه البلاد بالبلاد الاخرى المجاورة — فاننا لا يمكن أن نقلل من اثر وسائل النقل والاتصال المختلفة في فتح عيون المواطنين الامريكيين في روديسيا الى ما يدور حولهم في البلاد الامريكية الاخرى بل وفي العالم الخارجى .

ثانيا - التطور التاريخي والحضاري لروديسيا

مر تاريخ الشعوب التي سكنت روديسيا من مراحل اهمها :

1 - في العصور السابقة للميلاد :

كشف النقاب عن التاريخ الماضى للشعب الافريقى في روديسيا وعن المظاهر الحضارية لهذا الشعب قبل أن ينكب بالاستعمار — يعتبر امرا كريها لدى المستوطنين البيض بل هو مصدر رعب بالنسبة لهم لانه

(14) انظر تقرير اللجنة الخاصة للامم المتحدة (Special Committee) من النشاط الاقتصادي الاجنبى في روديسيا الجنوبية والصادر في اكتوبر 1966 .
(15) Halley, Lord : An African Survery (London 1957) p. 1593

يرتبط في ذهنهم بما يطالب به الافريقيون من جق الاغلبية في الحكم ، بينما يرتبط هذا التاريخ في ذهن الافريقي بماضيه المجيد ومقومات قوميته وحضارته وآماله في مستقبل سعيد (16) .

وتعتمد الكثير من معلوماتنا عن تاريخ الشعوب التي عاشت في هذه المنطقة في الفترة السابقة للاستعمار الاوروبي على الاثار التي عثر عليها وعلى الروايات التي يرويها السكان عن أسلافهم وعلى الاساطير التي تشير لمعتقداتهم بالاضافة الى كتابات الرحالة .

ولعل اول دليل على حضارة وحياة السكان الاوائل لهذه البلاد يتمثل في الرسوم الجبيلة الملونة التي عثر عليها على جدران أكثر من (1500) كهف في روديسيا ، وهي تدل على مرحلة حضارية متقدمة وعلى فن افريقي أصيل ، فمن دراسة هذه المناظر نستطيع ان نكون فكرة عن حياة هؤلاء السكان ، ونظامهم الاجتماعي ، وتقاليدهم ، وجواناتهم (17) . وقد لجأ الفنان الروديسي الى صقل الاحجار وفي بعض الاحيان تغطيتها بعجينة لمساء تسهل الرسم عليها ، ويبدو أن الادوات التي استخدمت في الرسم هي ريش الطيور وقطع الاخشاب المدببة ، أما المواد التي استخدمت في التلوين فلملها أخذت من جذور بعض النباتات بالاضافة الى مساحيق صنعت من طحن بعض الصخور ومن التربة ذاتها التي تحتوي على بعض المعادن . « وقد ظهر في رسومهم اللون الرمادي ، والاصفر ، والاحمر ، والابيض ، واللون الاسود ، الذي ربما حصلوا عليه من الفحم النباتي بينما كان اللون الازرق نادر الاستخدام ، ولم يظهر اثر للون الاخضر فقد كانت الاشجار تلون بلون ذهبي باهت ، وقد بدت في بعض الاشكال محاولات للتعبير عن الحركة ، بل لقد تغلب الفنان الروديسي على بعض العقبات التي واجهت الفنان الاوربي غيما بعد كرسم المنظور

Mtshali, Vulindela : Rhodesia ; Background to Conflict (London 1968) (16) p.p. 16-19.

— ملاحظة : مؤلف هذا الكتاب من قبائل (الزولو) في جنوب افريقيا ، وقد تخصص في دراسة الحركات القومية في جنوب افريقيا ، وحصل على درجة الماجستير في العلوم الاجتماعية من معهد الدراسات الاجتماعية في نيويورك (Institute of Social Studies) وبعد رسالة للحصول على الدكتوراه في العلوم السياسية .

Brelsford, Op. Cit. p. 33 (17)

ومراعاة المسافة (18) . ويرجع بعض المؤرخين أن هذه الآثار الفنية ترجع الى (البوشمن) ، ويذهب هؤلاء الى أنهم كانوا منتشرين - هضبة روديسيا منذ وقت بعيد قد يصل الى القرن الخامس قبل الميلاد ، لكنهم تحت ضغط موجات أخرى اجتاحت المنطقة اضطروا للهجرة ولم يبق من نسلهم الا بقايا البوشمن الذين يوجدون اليوم في صحراء كلهاري وقد تأقلموا على مضي الزمن بالبيئة الجديدة .

ويذهب البعض الآخر من المؤرخين الى أن السكان الذين تركبوا آثارهم في هذه الكهوف لم يتركوا البلاد نهائيا بل اندمجوا في هجرات أخرى من اجناس جديدة وفدت على المنطقة (19) .

ولا شك في أن هذه اللوح الفنية التى تركها سكان روديسيا الاوائل على كهوفهم تحتاج لدراسة أكثر عمقا ، فمثل هذه الدراسة يمكن أن تعطى صورة أوضح عن خصائص البيئة التى كانوا يعيشون فيها وعن مظاهر حياتهم المختلفة .

وهناك سؤال يلح على المشاهد لهذه الآثار الفنية وهو : ما الدافع الذى دفع الروديسى لان يسجل هذه المناظر على الاحجار وبهذه الكثرة الغريبة ؟

هل ترتبط هذه الرسوم بالنظام (التوتى) أو ببعض معتقداتهم ، أم أن الفنان الروديسى كان في هذه الرسوم فنانا أصيلا يعبر عن انفعالاته أكثر من أي شيء آخر أو يرسم للفن ذاته (L'art pour l'art)

2 - في العصور الميلادية الاولى :

منذ طلائع القرن الاول الميلادي وفد على روديسيا قوم جدد أخذوا يشاركون (البوشمن) في هذه المنطقة ، ويبدو أن دخولهم في هذه البلاد كان في موجات وتم بطريقة سليمة ، وبدل عليهم التغير الواضح في

Ransford, Oliver : The Rulers of Rhodesia from Earliest Times to the (18) Referendum (London 1968), p.p. 14 & 15.

Ransford, Oliver : Op. Cit. p. 748. (19)

النقوش والرسوم التى وجدت على الكهوف ، ويبدو ان هؤلاء الوامدين الجدد كانوا يعيشون فى اكواخ وانهم كانوا على دراية باستغلال المعادن فصنعوا منها الكثير من ادواتهم ، وانهم كانوا يمتازون عن السكان السابقين بطول القامة وميل البشرة الى السمرة وان كانت لا تبدو فيهم الصفات الزنجية ، وقد ربط بعض المؤرخين بين هؤلاء القادمين الجدد وبين (الهوتنتوت) وذكروا انهم يمثلون هجرة جديدة من مناطق البحيرات الوسطى فى افريقيا الى روديسيا ، بينما رأى آخرون ان التغير الذى طرأ على المنطقة لا يعدو ان يكون مرحلة حضارية متقدمة من المراحل التى مر بها (البوشمن) انفسهم وانهم كانوا من المرونة بحيث استطاعت جماعة منهم ان تنتقل من العصر الحجري الى عصر المعادن ومن الجمع والصيد والتنقل المستمر الى الرعى والاستقرار النسبى — ويعتبر هذا بداية شهرة هذه البلاد بالذهب ، والعاج . وشجع هذا العرب والهنود والصينيين للدخول للساحل الشرقى لافريقيا فى انتظار مبادلة بضائعهم بالذهب والعاج الروسى .

3 - هجرات البانتو لهذه البلاد :

منذ القرن التاسع الميلادى — نلمس بوضوح ان النقوش الفنية للروديسيين الاوائل تبدأ تفقد طابعها الاصيل ، ويظهر فيها عامل السرعة والعجلة ، ويستطيع المدقق ان يحكم بيسر على انها تمثل فترة قلق واضطراب ، ولعل هذا يرجع الى تعرض المنطقة لغارات الزنوج (البانتو) الذين زحفوا جحافلهم على المنطقة فافقدتها هدوءها .

وادت هذه الغزوات الى انقراض معظم سكان هذه البلاد اللهم الا القلة التى استطاعت ان تهرب للمناطق الوعرة ، وقد اصطدمت هذه القلة فيما بعد بالمستعمرين الاوروبيين . والعجيب ان الاوروبيين الذين حرصوا على سن القوانين التى تكفل الحفاظ على بعض الحيوانات التى ادركوا انها على وشك الانقراض لم يهتموا بالحفاظ على احفاد هذا الشعب العريق .

4 - امبراطورية المونوماتابا : (Monomatapa)

كان تدفق البانتو على هذه البلاد على شكل موجات بدأت صغيرة لكن بالتدريج زادت كثافتها وتعتبر هذه الهجرات من أبرز الهجرات المعروفة في التاريخ وكان تأثيرها على التكوين السكاني والحضاري على جنوب القارة الافريقية كله عميقا وقويا .

وفيما يختص بروديسيا فقد استطاعت احدى هذه القبائل المهاجرة المعروفة بقبائل الكارنجا (Karanga) ان تبسط نفوذها على منطقة الميتابلي (Metabele Land) ، ثم بسطت نفوذها على منطقة الماشونا (Mashona) في الشمال والشرق ، واستطاع زعماء الكارنجا ان يفرضوا سلطانهم على القبائل المنتشرة شمالا حتى قرب نهر الزمبيزي واستمروا يتوارثون حكم هذه المناطق عدة قرون .

ومنذ منتصف القرن الخامس عشر شنوا سلسلة من الحروب ترتب عليها مد سلطانهم ايضا حتى ساحل المحيط الهندي وبهذا أصبحوا يحكمون المنطقة التي تشمل معظم روديسيا الحالية وجزءا كبيرا من جنوب (موزمبيق) ، وأصبحت حدود امبراطوريتهم من نهر الزمبيزي شمالا الى نهر (لمبويو) جنوبا ، ومن المحيط الهندي شرقا الى نهر جواي (Gwai R.) غربا وتعاقب على حكم هذه البلاد عدد كبير من الحكام ونقلوا عاصمتهم الى سفوح تلال تشيناكو (Giako)

واختير تل مرتفع منها كمدفن للزعماء المتوفين وأصبح يطلق عليه لفظ (Zimbabwe) وهي تعنى بلغتهم مدافن الزعماء (20) .

ووصلت امبراطورية المونوماتابا الى قمة مجدها في القرن الخامس عشر ونهضت فيها الصناعة حتى انه قيل ان بضعة الالاف من الهنود كانوا يساهمون في استغلال مناجم الذهب بها وان ما يقرب من 10,000 تاجر عربى مسلم كانوا يستقرون بها ليمارسوا عملية التبادل التجاري وليكونوا حلقة الاتصال بين اخوانهم في الجزيرة العربية وبين سكان هذه

(20) اطلق اسم (زمبابوى) على أكثر من مدينة حيث كانت تنقل العاصمة ومدفن الزعماء ، ولكن يطلق الاسم اليوم فقط على العاصمة القديمة بالقرب من حصن مكتوريا

البلاد الامريكية . وقد أعطى لنا الرحالة البرتغاليون — الذين أخذوا يترددون على هذه الامبراطورية منذ القرن السادس عشر — صورة عما وصلت اليه من العظمة والتقدم ، فوصفوا لنا القصر الامبراطوري في زمبابوي وما به من تحف وسجاجيد واواني خزفية ونحاسية والحصون الحجرية المنتشرة في انحاء الامبراطورية حيث كان الامبراطور يحتفظ بحاميته لحماية المناجم والطرق التجارية المؤدية للساحل ، كما ذكروا ان المراعى كانت في هذه الامبراطورية عامرة بالحيوانات ، والمزارع مملوءة بالحبوب والفواكه ، وكان يصاد منها سنويا ما لا يقل عن 50.000 فيلا ، وأن جيش الامبراطورية كان يصل في وقت الحرب الى 100,000 مقاتل مسلحين بالسيوف والاقواس والسهام وذكروا أن جزءا من دخل الامبراطورية كان مخصصا للعناية بالفقراء والمعوزين (21) .

وقد ظلت هذه الامبراطورية قائمة لكن عوامل الضعف زحفت عليها حتى أصبحت تحت رحمة المستعمرين الاوروبيين بالإضافة لغارات القبائل الامريكية الاخرى الطامعة في ثروة هذه الامبراطورية الغنية .

5 — محاولات البرتغاليين مد نفوذهم لهذه البلاد :

افتتح البرتغاليون — كما نعلم — صفحة الاستعمار الاوروبى الحديث في القارة الامريكية بنزولهم في ساحل المغرب واحتلالهم سبتة Ceuta في عام 1415 وتتابعت رحلاتهم بعد ذلك حتى قام فاسكو دا جاما Vasco Da Gama في عام 1497 برحلته الشهيرة التى عبر فيها رأس الرجاء الصالح الى الساحل الشرقى للقارة ، ومن ثم تتابعت رحلات البرتغال للساحل الشرقى بقصد تثبيت أقدامهم في هذه السواحل

(21) كان اول اوروبى دخل هذه البلاد وكتب انطباعاته عنها هو انطونيو فيرناندز البرتغالى، فقد اوفدته حكومة البرتغال في عام 1511 لزيارة امبراطورية المونوماتابا وبحث امكانيات التبادل التجارى بينها وبين البرتغال .

انظر : Tracey H. : Antonio Fernandes (Lourenco Marques 1940)
وكذلك قام ادوارت بربروسا بعد رحلة فاسكو دا جاما الشهيرة برحلته الى الامارات العربية بساحل افريقيا الشرقى وتوغل بعض الشيء في الداخل وتحدث عن امبراطورية المونوماتابا وما شاهده فيها وما سمعه منها .

— انظر : —

Keatley, Patrik : The Politics of partnership (London 1965) p.p. 57-59.

الامريكية ومحاولة القضاء على نفوذ العرب الذين كانت لهم السيادة التامة على طريق التجارة ويعملون كوسطاء في نقل منتجات الهند والشرق الاوسط الى افريقيا ، واستولى البرتغاليون على الموانئ والامارات العربية بشرق افريقيا ، وفي سنة 1509 عينوا حاكما عاما لمستعمراتهم في شرق افريقيا ، ومن ثم أخذت انظارهم تتجه الى امبراطورية المونوماتابا التي ذاعت شهرتها وأخبار ثرائها (22) .

وقد مهدت رحلة (انطونيوفرناندز) التي اشرنا اليها سابقا الطريق امام البرتغال لهذه المملكة الافريقية فبدأ نشاطهم التجاري والتبشيري في هذه المنطقة ، ومن وفد اليها من المبشرين البرتغال القس دي سلفيرا [Don Concala Da Silveira] الذي وصل اليها في عام (1560) وقابل الامبراطور الذي سمح له بالتبشير في بلاده ، لكن بعض المقربين للامبراطور اتقنوه بأنه ساحر وجاسوس يهدد الطريق لحملة غزو برتغالية ضده وانتهى الامر بقتله ، وأثار مقتل (دي سلفيرا) ضجة في البرتغال وانتهاز الملك (سيباستيان) الفرصة فأعد حملة لغزو هذه البلاد واقلعت الحملة من لشبونة في عام 1569 وكان من ضمن المرافقين للحملة شخصان هما مونكلارو Monclaro ودي فاريبا (De Faria) نخصهما بالذكر لانهما قاما بتسجيل (يوميات) دقيقة عن أحداث هذه الحملة وهي تعطينا فكرة عن احوال هذه البلاد في ذلك الوقت (23) .

وقد اقتترف المستعمرون أعمالا وحشية ضد المواطنين والمسلمين في المناطق التي مرت بها حملتهم ، واستطاعوا أخيرا أن يجبروا الامبراطور على التوقيع على معاهدة ترك لهم بموجبها العمل لاستغلال مناجم الذهب في بلاده على أن يتكفوا بحماية عرشه — لكن البرتغاليين الذين كانوا يظنون

(22) للدراسة التفصيلية لنشاط العرب في السواحل الشرقية للقارة الافريقية وفي المناطق الواقعة خلف هذه السواحل في ذلك الوقت انظر : شوقي جيل : تاريخ كشف افريقيا واستعمارها (1970) ص 35 — 47

(23) قام تيل Teal بترجمة مقتطفات من هذه المذكرات ونشرها في Records of South East

وقد تحدث ايضا بالتفصيل عن اخبار هذه الحملة البرتغالية .
Africa Welch, S.R. : South Africa under King Sbastian (Cape Town 1949).

— كما قال أحد الكتاب المرافقين للحملة — أنهم سيفرغون من الذهب بأيديهم كما يشاؤون من مناجم منطقة مانیکا (Manica) أصيبوا بخيبة أمل (24) .

ويمثل منتصف القرن السابع عشر قمة النفوذ البرتغالي في بلاد (المونوماتابا) ، ومنذ النصف الثاني من هذا القرن بدأ النفوذ البرتغالي يضعف حتى انتهى الأمر بانسحاب البرتغال من هذا الميدان تاركين إياها لغيرهم من الدول الاستعمارية الأخرى . ولعل وصول فان ريببيك (Van Reibeek) الذي أرسلته شركة الهند الشرقية الهولندية على رأس بعثة من ثلاث سفن إلى نقطة خليج تيبيل Teble Bay في أبريل 1952 ووضعه نواة محطة لتموين السفن حيث تقوم مدينة كييتون Cape Town الحالية تعتبر النقطة الحاسمة في هذا التحول ، فقد بدأت أعداد من الهولنديين تتدفق على هذه البلاد وتستقر في المناطق الصالحة للزراعة والاستغلال فكان هذا بداية لنفوذ البوير ونشاطهم في جنوب إفريقيا .

6 — مملكة الميتابلسي (Matabele)

تعرضت إمبراطورية (المونوماتابا) لغارات قبائل إفريقية أخرى هي قبائل الروزوي Rozwi المحاربة ، واستطاعت هذه القبائل في أواخر القرن السابع عشر أن تسقط هذه الإمبراطورية وأن تفرض سلطتها على هذه البلاد ، واتخذ زعماء هذه القبائل الغازية من مدينة زمبابوي العظيمة (Great Zimbabwe) (25) مقرا لحكهم .

(24) من أقوال دي فاريا De Faria مؤرخ الحملة البرتغالية .
(25) ترتبط المدينة في ذهن الرويسيين الوطنيين بمجدهم التالد وتاريخهم القومي ، فهي ترمز إلى ماضيهم المجد وبالتالي للمستقبل المرتقب ، ولعل هذا هو السبب في أنه حتى الأحزاب الوطنية الحديثة حرصت على أن تنسب لهذا الاسم العريق ، فقام اتحاد شعوب زمبابوي الإفريقي (Zimbabwe Peoples Union) ويرمز له بالحروف الأولى زابو ZAPU واتحاد زمبابوي الإفريقي القومي (Zanu Zimbabwe African nationalist Union) وقد كشف صياد يدعى آدم ريندرز (Adam Renders) صدفة في عام 1869 عن بعض آثار زمبابوي في المنطقة الواقعة على بعد 17 ميلا جنوب شرقي حصن فكتوريا ، إذ عثر على (برج) مقام على أحد التلال وأرتفاعه يبلغ 24 قدما ، كما عثر على مآري

على أن مجموعة من قبائل الزولو Zulu التي اشتهرت
بالمهارة في فنون الحرب والقتال بقيادة مزيلكازي Mzilikazi
لم تلبث أن زحفت على هذه البلاد واستقرت بها . ويقال أن زحف هذه
القبائل كان تحت ضغط قوات البوير الذين كانوا قد زحفوا من مستعمرة
الكيب بعد أن ضيق عليهم الانجليز الخناق . واستقر مزيلكازي وأتباعه في
عام (1837) بالقرب من مدينة بولا وايو Bulawayo ولم
يجدوا مقاومة تذكر في بسط نفوذهم على هذه المنطقة التي تشمل معظم
حدود روديسيا الجنوبية حاليا ، وقد أطلقت عليهم القبائل المعادية لفظ
التابلي Matabele لكنه أصبح بعد ذلك علما عليهم (26) .

وكان مزيلكازي الذي حكم هذه البلاد حتى عام (1866) حريصا
في البداية على الاتطاف قدم أوروبى بلاده ، لكن استطاع فريق من المبشرين
ومن المفارمين الاوروبيين أن يحطم هذا السياج الذي أحاط الملك به
بسلامه .

من هذا المكان في الوادي المنخفض على بقايا منازل تدل على قيام مدينة قديمة وصفها ريدر هجر
(Rider Haggard) في قصته الشهيرة كنوز الملك سليمان (King Solomons Mines)
وعثر في أرض منبسطة ليس بعيدا عن هذه الآثار على مبنى بيضى الشكل من هجر
الجرانيت له حوائط تسيكة ، وقباب مخروطية الشكل وقد نحتت له ممرات وسلالم
وجزء من البناء مستوف بينما باقى البناء عبارة عن فناء واسع ، كما عثر على أواني يعتقد أنها
كانت معدة لصور الذهب ، وقد نقلت بعض الآثار والأحجار التي عثر عليها إلى متاحف
الغرب وبعضها حفظت في متحف بولا وايو ، وكثرت التكهانات حول هذه الآثار ، فقد
ذهب البعض إلى أنها ترجع إلى شعوب غربية وفدت على هذه المنطقة بينما يشيهر
البعض الآخر إلى أنها قد تكون لشعوب أفريقية لكنها تأثرت بحضارات أخرى وفدت
من مصر أو من بابل أو من شبه الجزيرة العربية . على كل لا تزال المنطقة تحتاج
لدراسات أخرى ولعمل حفريات في هذه المناطق الأثرية .

انظر : Hensman Howard : A history of Rhodesia compiled from official
sources (Edinbur 1900) P. 9

كلاك Mitshall, Vulindela : Rhodesia Background to conflict (London 1968)
PP. 19 & 20.

كلاك Waugh, Evelyn : Tourist in Africa (N.Y. 1960) P. 149.

(26) لفظ Matabele يعنى المتخفين وراء تروسهم الطويلة ، وبعض الكتاب ذكر أنه
تحريف لاسمهم القبلى Amandabele
انظر :

Frank ; Thomas : The Struggle for Power In Rhodesia & Nyasaland
London : 1960) P. 10.

وكان المبشر د. روبرت موفات Dr. Robert Moffat في مقدمة الذين استطاعوا أن يقتربوا للملك وأن ينالوا ثقته ، وكان ممن فتحو الطريق أمام الاطماع الأوروبية في هذه البلاد ، كذلك كان هنري هرتلي Henry Hartley من سمح لهم الملك بصيد الفيلة وقد كان أول من اكتشف وجود الذهب في صخور المنطقة التي يصطاد فيها وأكدت أبحاث الجيولوجي كارل ماوخ Karl Mauch بعد ذلك هذه الحقيقة .

واستطاع المستكشف الجغرافي الدكتور دافيد ليفنجستون Dr. David Livingstone زوج ابنة الدكتور روبرت موفات أن يزور هذه البلاد معتبدا على المكانة التي كانت لصهره لدى الملك الأفريقي . وتنجح (ليفنجستون) في عام 1851 في تتبع نهر زمبيزي لمصبه مكتشفا ما أسماه اللورد كرزون Lord Curson أكبر عجائب الانهار في العالم ، ولما اكتشف المساقط المائية التي تعترض مجرى النهر سماها (شلالات نكتوريا) على اسم ملكة انجلترا في ذلك الوقت ، وقد انتهت حياة ليفنجستون بموته في شمال غرب روديسيا قرب قرية تشيتامبو Chitambo وكانت رحلاته بداية تدفق البعثات التبشيرية على هذه البلاد (27) .

وظهر خطر هذه البعثات التبشيرية والمغامرين الأوروبيين الذين وفدوا على البلاد يطلبون التصريح لهم بالبحث عن الذهب وغيره من المعادن واستخراجها في عهد ابن مزلكازي الذي استتب له الأمر في مملكة والده في عام 1870 ولقب باسم لوبنجيولا Lubengula ، وقد اتخذ هذا الملك الشاب صديق والده المبشر الدكتور روبرت موفات مستشارا له وعن طريقه وقع الملك عدة معاهدات تجارية ومنح عدة تصريحات للبحث عن المعادن لأجانب مختلفي الجنسية ، ولعل من سوء حظ لوبنجيولا أن الأمر لم يقتصر على اطماع فردية لكن كان عليه أن يواجه الاطماع السياسية المتضاربة لثلاثة من دهاء السياسة في ذلك الوقت هم بسمارك Bismark

mansford, Oliver : The Rulers of Rhodesia from Earliest times to the (27) Referendum (London 1968) P. 116.

ملاحظة : نشرت مذكرات ليفنجستون عن رحلاته في هذه الجهات :

(a) Livingstone, David : Narrative of an expedition, Zambesi & its tributaries (1865).

(b) Livingstone, David : Missionary Travels & researches in South Africa (London 1867).

الزعيم الالمانى ، وكروجر Kruger زعيم البوير ، ورودس Rhodes الاستعماري البريطاني . وكانت المأساة التى انتهت حياة الرجل بمثابة كارثة اصابته شعبا بأسره ، ولذا ارتبطت صورة الملك لوينجيولا فى اذهان شعبه بصورة أبطال القصص الشعبى من أمثال أوديب Oedipus وأخيل Achilles مع فارق أن بطل الميثابلى ليس خرافيا لكنه بطل حقيقى ويوجد حتى اليوم الالف الشيوخ الروديسيين الذين سمعوا من طفولتهم قصصا بطولية عن ملكهم الراحل والطريقة التى رحل بها من هذا العالم المليء بالغدر لانه لم يتحمل مشاهدة مأسى شعبه على أيدي الأوربيين الذين خانوا عهدهم للملك ، وذلك من أفواه أناس شاهدوا هذه الاحداث شهود العيان (28) .

7 - بسط النفوذ البريطانى على روديسيا :

يرجع نفوذ بريطانينا فى البلاد الى سيسل جون رودس Cecil John Rhodes . وقصة مجيء رودس الى هذه البلاد وهو فى سن السادسة عشرة للاستشفاء وانضمامه لجماعة المغامرين الساعين للثراء عن طريق العمل فى حقول التعدين والذي ذكر هو أنهم يعانون من حمى الاحجار الكريمة Diamond Fever تشبه القصص المسرحية — ويعتبر رودس فى الحقيقة مثالا قويا للنزعة الاستعمارية التى يتميز بها العصر الفكتوري فى انجلترا . فقد ظل الى آخر حياته لا يمل من ترديد قوله المأثور وهو يشير بيده لخريطة افريقيا « أريد أن أرى كل هذه ملونة باللون الاحمر .
"All Red-From Cape to Cairo"

وتتبعنا للمراحل التى مرت بها علاقة انجلترا بروديسيا توضع الجذور التى منها نشأت قضية روديسيا .

مرت علاقة انجلترا بروديسيا فى أربع مراحل هامة نجملها فيما يلى :

١ - فترة ادارة شركة جنوب افريقيا البريطانية (1890 - 1923) :

تبدأ هذه الفترة بنجاح رودس في بسط نفوذه على مملكة الميتابلي ،
وبقضائه على نفوذ الملك لوبنجيولا الذي اضطر للهرب من البلاد .

وقد بدأ اهتمام رودس بمملكة الميتابلي باقناعه حاكم مستعمرة الرأس
ليرسل جون موفات John Moffat وهون ابن المبشر روبرت موفات
Robert Moffat وكان مقربا للملك الافريقى - ليعقد معه معاهدة
صداقة تمهد لنفوذ بريطانيا في هذه البلاد وتضع حدا لنفوذ البوير وغيرهم
من الذين بدأت أنظارهم تتجه لهذه المناطق .

ونجح موفات في مهمته فعقد معاهدة عرفت باسمه (Moffat Treaty)
أقر فيها الملك بروابط الصداقة التى تربط بين شعبه والشعب البريطانى ،
وتمهد بالا يعقد أية معاهدة تمنح أي فرد أو دولة أجنبية أخرى أية حقوق
في بلاده دون اخطار سابق لممثل جلالة ملكة بريطانيا في جنوب
افريقيا (29) .

على أن رودس وقد نجح في تحقيق الخطوة الاولى نحو هدفه - وهو
بسط نفوذ بلاده على المنطقة التى يحكمها لوبنجيولا - أسرع باتخاذ الخطوة
التالية فبعث في عام 1888 الى بولاوايو بعثة على رأسها شارل دنيل رود
(Charles Dunnel Rudd) لمحاولة الحصول على توقيع الملك على امتياز
يكنل لشركة يكونها رود ورفاقه حق استخراج واستغلال المعادن الموجودة
في حدود مملكته مع سلطة كاملة لعمل كل ما يلزم للحصول على هذه المعادن
على الا يمنح الملك اتفاقات مماثلة لمنافسين آخرين . وقد نجح رود
بوسائله المختلفة وعن طريق الهدايا للملك وللمقربين اليه من الحصول
على توقيع الملك على ما عرف بامتياز رود Rudd Concession (30)

واتجهت جهود رودس بعد ذلك الى لندن فأرسل لوزارة المستعمرات
البريطانية مطالبا بسرعة منحه التصريح بتأسيس شركة لاستغلال المناطق

(29) Samkange, Stanlake : Origins of Rhodesia (London 1968)

(30) للاطلاع على نصوص الاتفاقية المذكورة انظر : Ibid, PP. 78 & 79.

- كذلك نشرت نصوص الاتفاقية مع تعليقات عليها في جريدة التيمس في الكيب في عدد 24
نوفمبر 1888 (the cape times)

التي تمنحه الاتفاقية حق البحث عن المعادن فيها — وسافر رودس إلى لندن في أبريل 1889 وبذل جهودا جبارة لدى أعضاء مجلس العموم والصحافة البريطانية ولاسكات أصوات المعارضين لمشروعاته من الجماعات الإنسانية Humanitarians وأعضاء الغرفة التجارية البريطانية والصحفيين وأقطاب المال والسياسة وغيرهم ، مستخدما كل الأسلحة الممكنة من سلاح الرشوة إلى سلاح الترغيب أو التهديد ، وقد فضح أمرهذه الرشاوي وكان ذلك مثار ضجة في البرلمان وخارجه باعتباره أسلوبا خطيرا للعمل في المجلس النيابي ، وكان رودس يردد أنه يستطيع أن يكسب أي رجل إلى صفه وأن لكل رجل عنده ثمنه (31) .

وكان الملك لوبنجيولا قد أخذ يرتاب في النتائج المترتبة على الاتفاقية التي وقع عليها لانصار رودس فأرسل بعثة إلى الملكة فكتوريا يستفسر عن أهداف البعثة البريطانية التي جاءت لبلاده وعن نتائج الاتفاقية التي منحها لأعضاء هذه البعثة . وكان رد ملكة انجلترا على رسالة الملك « انها تخبره أن البريطانيين الذين جاءوا لبلاده لطلب امتيازات خاصة بالتعدين لم يكلفوا من الملكة بهذا الامر ، وذكرت له الملكة أن الحكمة تقتضي ألا تمنح كل هذه الحقوق والسلطات لأي فرد أو مجموعة أفراد غرباء فالملك قد يهب ثورا من قطيعه لكنه لا يهب كل القطيع الذي يملكه » (32) .

وأرسل رودس أحد رفاقه المدعو الدكتور جيمسون Dr. Jameson ليسافر فوراً إلى (بولاوايو) ليكون بجوار الملك وليهديه من روعه ، واستطاع الدكتور جيمسون فعلاً أن يتقرب للملك عن طريق تخفيف آلامه التي كان يشكو منها باستخدام (المورفين) .

31 أنظر :

Robinson, R. & Gallagher, J. : Africa & The Victorians (London 1961) P. 228

— وكذلك : Cross, Felix : Op. Cit. P. 165.

ملاحظة : كانت مجالس إدارة الشركات الاستعمارية في ذلك الوقت تعتبر المجالس لمن يستطيع أن يؤدي للشركة خدمة عن طريق نفوذ أنصاره في البرلمان أو ما شابه ذلك .

32 للاطلاع على نص خطاب الملك أنظر

Gertrud, Sarrah : Rhodes (London 1933) P. 110.

ورد الملحة وارد في :

Gross, Felix : Rhodes of Africa (London 1956) P. 168.

وفي 3 أبريل 1889 وافق البرلمان البريطاني على الرسوم المطلوب
بتأسيس شركة جنوب افريقيا البريطانية

The British South Africa Company

وأعطى المرسوم الشركة حقوقا وامتيازات عجيبة — منها حق تكوين قوة
بوليسية مسلحة ، ومد الخطوط الحديدية ، والتلغرافية وتشجيع هجرة
الاوربيين لمناطق نفوذ الشركة (33) . ولسنا ندري ما هو الحق الذي يخول
للحكومة البريطانية أن تعطى للشركة كل هذه الامتيازات في اراضى مملكة
أخرى ؟

واستنادا على هذا المرسوم أعد رودس لغزو بلاد الماشوئا
والميتابلى بحجة اقامة المحطات والنقط الحصينة لحماية عمال وموظفى
ومهمات الشركة ، وتقدمت الحملة شمالا وأسست عدة حصون دفاعية
مثل حصن فكتوريا Victoria Fort وحصن سولزبري Salisbury Fort
وزهدت احتجاجات الملك (لوبنجيولا) وصرخاته هباء .

ولما وجد رودس — الذي أصبح فى عام 1890 — رئيسا لوزارة
مستعمرة الرأس — الوقت مناسباً لتحقيق أطماعه أمر فى أكتوبر 1893
الحملة التى كانت قد أعدت لغزو بلاد الميتابلى بالتحرك ، فبدأت مدافعه
تطبق على مدينة بولاوايو وتحصد الافريقيين — ولم يجد الملك أمامه الا أن
يحرق مساكنه ومخازنه ويغر مع بعض حرسه ، واختفى الملك نهائيا فى
الغابات والاحراش وهكذا زالت امبراطورية الميتابلى (34) .

ولم يكتف رودس بالاستيلاء على اغلب اراضى الميتابلى لكنه أيضا نهب
ماشيتهم وكانت حجته فى ذلك « أن غير المتحضرين يجب أن يتركوا المجال
للمدينة والحضارة ، وأن الحرب لم يكن منها مفر لضمان استقرار واطمئنان
المستوطنين الاوربيين » (35) .

وهكذا باسم المدنية والحضارة — سلب رودس سكان البلاد الافريقيين
حقهم فى اراضيهم وماشيتهم وكم من جريمة اقترفت باسم المدنية
والحضارة .

(33) للاطلاع على نص المرسوم الصادر للشركة انظر :

Hertslet, E. : The Map of Africa by Treaty : Vol I (London 1909) P. 271.

Black, Colin : The Lord & Peoples of Rhodesia & Nyasaland (1961) P. 11 [34]

Lockhart & Woodhouse : Op. Cit. P. 265. [35]

وكان الاسم الرسمي للمناطق الممتدة من الترنسفال الى الطرف الجنوبي لبحيرة تنجانيقا والمتداول في اوراق الشركة البريطانية هو زامبيا لكن منذ عام 1895 غير الاسم فاطلق على هذه الجهات اسم (رويسيا) على اسم الرجل الذي ربط هذه البلاد بعجلة الامبراطورية البريطانية .

واتجهت اُنظار رودس بعد ذلك الى جمهوريتي البوير في الترنسفال والاورنج . ولتحقيق هدفه هذا دبرت المؤامرة المعروفة غارة جيمسون Jameson Raid ولكنها فشلت لكن تجددت الحروب بين البوير والانجليز وانتهت بتوقيع معاهدة بريتوريا في 31 مايو 1902 وبموجبها فقدت جمهوريتا البوير استقلالهما وقام اتحاد جنوب افريقيا من (الكيب ، وناتال والترنسفال ، والاورنج) (36) .

على ان قبائل الميتابلي والماشونا لم تستسلم للامر الواقع فقد ثارت هذه القبائل واعتصمت بالجبال وشنّت على المستعمرين حرب العصابات واستخدمت القوات التي ارسلتها حكومة جنوب افريقيا منتهى الشدة ضد الاهالى الثائرين في وجه مستعمرهم ، فقد كانت تعليمات رودس تقضى باطلاق الرصاص فورا ودون رحمة على كل افريقى يشتبه في انضمامه للثوار « لان الافريقيين — كما قال — كالكلاب يجب أن يطلق عليها الرصاص اذا خرجت عن المألوف واصبحت خطرة » (37) .

لكن هذه الكلاب الافريقية علمت رودس درسا قاسيا والزمته ان ينزل عن كبريائه وغطرسته وأن يسعى للصالح وانتهى الامر باتفاق عقد في 13 أكتوبر 1896 بعد ان كان الحصار الطويل والجوع قد اضنى الثائرين .

على ان جهود رودس اتجهت منذ اللحظة الاولى الى استغلال موارد البلاد ، فأتامت الشركة (حكومة) من المستوطنين للادارة المستعمرة حسب تعليمات مجلس ادارة الشركة . وكانت مدة الامتياز الممنوح للشركة

36 للدراسة التفصيلية لحروب البوير انظر

Pemberton, Baring : Battles of the Boer War (London 1964)

Marais : The Fall of Kruger's Republic (Oxford 1961).

Lockhard & Woodhouse : Op. Cit P. 352.

— كذلك
(37)

خمسـة وعشرين عاما تنتهى فى عام 1914 لكن بعد ان انتهت مدة الترخيص المذكور مدت الحكومة البريطانية مدة الترخيص المذكور عشر سنوات اخرى . وهكذا استمرت مدة ادارة الشركة لهذه البلاد قرابة خمسـة وثلاثين عاما استطاعت الشركة خلالها ان تثبت اقدم المستوطنين البيض الذين اطلق عليهم اسم (الرواد الاول) على كل مرافق البلاد ، وكرس رودس المدة الباقية من حياته (توفى عام 1902) لتحقيق حلمه هذا فقد مدت الخطوط التلغرافية الحديدية لربط مناطق الاستغلال الهامة بهذه البلاد ، فقد كان رودس يردد دائما التعبير الذي اصبح مشهورا به وهو : « ان الخطوط الحديدية هى العربة التى ستحمل نفوذ بريطانيا عبر القارة الافريقية » .

وبتدفق المستوطنين البيض على أرض روديسيا بدأت عمليات النهب والاعتصاب للأراضي وممتلكات وحقوق الوطنيين (38) .

ويقول اللورد هيلي Hailey ان السلطات الحاكمة فى روديسيا قد بسطت سلطانها على الارض وامتلكتها بوسائل متعددة ، بقوة السلاح أحيانا ، وعن طريق عقد اتفاقات مع رؤساء القبائل أحيانا اخرى ، أو عن طريق الاستيلاء على الارض بحكم النصوص واللوائح وتفسيرها من وجهة النظر الأوروبية دون النظر لحقوق الافريقيين أو لاهمية الارض بالنسبة للقبيلة والفرد (39) .

واقامت الشركة (مجلسا تشريعيا) من 18 عضوا من المستوطنين البريطانيين تعرض عليه القوانين لمناقشتها .

ب - فترة الحكم الذاتى (1923 — 1952) :

شكلت الحكومة البريطانية لجنة برئاسة اللورد بكستون (Boxton Commission) لاجراء استفتاء فى روديسيا لاختيار أحد امرين :

(38) انظر احصاءات توزيع الاراضى ، ونصيب كل من الوطنيين الاوروبيين والتاج من اراضى روديسيا فى :

Brelsford, WV. : Hand Book of the federation of Rhodesia & Nyasaland (1960) P. 783.

Hailey : An African Survey (London 1956) PP. 685-686.

(39)

(1) اما الانضمام لاتحاد جنوب افريقيا الذي تكون في عام 1910 .

(2) او ان تتكون في روديسيا حكومة مستقلة استقلالا داخليا مع تبعيتها للتاج البريطانى ، وتمت عملية التصويت في 27 اكتوبر 1922 واسفرت النتيجة عن موافقة 8874 ضد 5989 صوتا في صالح الاقتراح الثانى ، وبناء على ذلك صدر قرار بان تكون روديسيا مستعمرة مستقلة ذاتيا (Self Governing Colony) تابعة للتاج البريطانى - وعلى هذا الاساس وضع اساس الحكم الجديد في روديسيا الذي ظل معمولا به حتى عام 1952 (40) .

وهكذا منحت روديسيا الجنوبية في عام 1923 صورة من الاستقلال واصبح على نظام الحكم الجديد فيها صبغة ديمقراطية فاصبح هناك مجلس تشريعى ، لكن في الحقيقة كانت هذه كلها مظاهر شكلية ، بل ان الوضع ازداد سوءا يوما بعد يوم اذ ان السلطة تركزت في ايدي الاقلية البيضاء التى استغلت قبضتها في الجمعية التشريعية ففسدت القوانين التى مكنت المستوطنين البيض من وضع ايديهم على كل مراكز النشاط في البلاد ، وزاد عددهم بشكل ملحوظ وانتزعوا ما بقى من الارض الصالحة او التى يمكن استصلاحها من الافريقيين ومارسوا سياسة التفرقة العنصرية بأبشع صورها فاصبح الافريقيون غرباء في بلادهم ، وبحكم القانون اصبحوا يعيشون اما في المعازل Native reserves او في الاماكن المخصصة للخدم (Servant Quarters) خلف منازل الاوربيين التى يخدمون فيها ، واصبح دخول المدن الاوربية جريمة يعاقب عليها بأشد العقوبات (41) .

وامتدت مظاهر التفرقة لكل جوانب الحياة فقد اتجهت التشريعات الى ان تلزم الافريقيين على العمل في المناجم او في الاعمال الحرة التى تحتاج لجهود يدوية يترفع الاوروبيون عن القيام بها ، وكانت اجور الافريقيين لا تتناسب بحال من الاحوال مع الجهد المبذول او مع الاجور

(40) كان عدد البيض في روديسيا في ذلك الوقت حوالى 34.000 نسمة بينما كان عدد الافريقيين اكثر من مليون نسمة ولم يؤخذ برأى الا نفر قليل جدا منهم .

(41) Frank, Thomas : Race & Nationalism (London 1960) P. 87.

التي تدفع للاوربيين ، وكان العمال الافريقيون يلتزمون بالسير على
الاقدام لعدة أميال بينما تلتزم الشركات بنقل الاوربيين في سيارات خاصة
وعمل الامر بحجج تحمل كل معاني الاستخفاف بالقول وبالقيم والمبادئ
الانسانية ، فقد برر المسؤولون الامر بأن الابيض لا يتحمل المشى على
قدميه بعكس الافريقى ، وامتدت مظاهر هذه التفرقة الى المؤسسات
الاجتماعية فالافريقيون ممنوعون من ارتياد النوادي والمسارح والمطاعم
ودور السينما والفنادق التي خصصت للاوربيين ، بل امتدت للمدارس
والمستشفيات وأصبحت تمارس بحماية القانون وفي ظل التشريعات التي
صدرت تباعا لتحقيق رفاهية الاوربيين وتسخير الافريقيين لهذا الهدف .
والعجيب أن الاوربيين وصل بهم الامر الى أنهم لم يجدوا ما يدعوهم
لإخفاء هذا الاتجاه ، فقد ذكر جودفري هاجنز Godfrey Huggens
في كلمة القاها في 12 يولييه 1934 : « لقد حان الوقت ليدرك الناس في
أوربا أن الرجل الابيض في افريقية ليس مستعدا ولن يكون مستعدا أبدا
لقبول الافريقى على أنه مساو له من الناحيتين السياسية والاجتماعية » .
وقد أكد ديفري هذا المفهوم ثانية في حديث له آخر بعد 19 عاما من هذا
الحديث الاول ، أي في عام (1953) (42) .

إن دراسة التشريعات التي صدرت في هذه الفترة من تاريخ
روديسيا تؤكد كلها حقيقة صارخة وهي أن النهاية التي وصلت إليها
مشكلة روديسيا هي في الحقيقة وليدة السياسة التي اتبعت في هذه البلاد
طوال سنوات طويلة وتمتد جذورها حتى بداية الاستعمار البريطاني لها
— وهذا مع العلم بأن دستور 1923 منح بريطانيا الحق في الاعتراض
على أي قانون تصدره الجمعية التشريعية يكون فيه اضرار بمصالح
الوطنيين الافريقيين (43) .

ح — روديسيا ضمن اتحاد وسط افريقيا (1953 — 1963) :

كانت الحلقة الثالثة في سلسلة هذه الاحداث التي أدت للقضية
التي نحن بصددنا هي محاولة الابيض في روديسيا الجنوبية — على وجه

(42) راشد البراوى : الاستعمار البريطانى ومشكلة روديسيا — مجلة العلوم السياسية
المعد 3 ص 12 .

Franck, Thomas : Op. Cit. P. 20.

(43)

الخصوص - لتثبيت امتيازات الاقلية العنصرية البيضاء وكان هذا هو الدافع وراء تحمس هؤلاء البيض في روديسيا لفكرة تكوين اتحاد من روديسيا الشمالية والجنوبية ونياسالاند .

وحين وجدت الاقلية البيضاء السيطرة على الحكم في روديسيا معارضة عنيفة من الافريقيين في تكوين مثل هذا الاتحاد هددت بأنهما ستلجأ الى اعلان انضمام روديسيا الجنوبية الى جنوب افريقيا وهى كما نعلم قلعة الرجل الابيض ، وكانت الحجج التى قبلت لتبرير قيام مثل هذا الاتحاد « أنه يتيح فرصة للتكامل الاقتصادي بين الاقاليم الثلاثة » وقد عبر المؤيدون لفكرة الاتحاد عن ذلك مستخدمين المثل الافريقى « ان الاناء الذي يقف على ثلاثة أرجل لا يستطيع أن يقف على اثنين (A three legged pot cannot stand on two legs) (44)

وقد ظلت فكرة الاتحاد تتأرجح فترة طويلة بين التأييد والمعارضة حتى خرجت الى حيز التنفيذ أخيرا في عام 1953 بعد سلسلة طويلة من الاجتماعات واللجان والمؤتمرات ، ففي أبريل 1952 عقد حكام الاقاليم الثلاثة مؤتمرا عرف باسم مؤتمر لانكستر هاوس Lancaster House Conference حضره وزير المستعمرات البريطانى واتفق فيه على أسس قيام الاتحاد ، ولم يحضر هذا المؤتمر أحد من الافريقيين ، لكن بذلت المحاولات لاقتناع الافريقيين بأن مصالحهم وضعت في الاعتبار وأن فجر عهد جديد من التعاون والمشاركة يوشك أن يبدأ وأن الجميع مدعوون للمشاركة فى البناء الجديد (45) .

على أن مفهوم المشاركة للأسف عند الاقلية البيضاء - كما عبر عنه رئيس الاتحاد - هو أنها تشبه (العلاقة بين الحصان وراكبه) أو كما عبر عنه روى ولينسكى Roy Wolensky الذي خلف جود فري في رئاسة الاتحاد عام 1956 « بأن الاوروبيين عليهم مهمة قيادة الافريقيين

Brelsford, W.V : Handbook to the Federation of Rhodesia & Nyasaland (44) (London 1960) P. 591.
Mshali, Vulindela : Rhodesia Background to conflict - (London 1964) (45) P.P. 96-98.

في الاتجاه السليم « (46) . فهي علاقة بين تابع ومتبوع وليست بين أفراد متساويين .

وظهرت منذ اللحظة الاولى لقيام الاتحاد سيطرة الرجل الابيض وتحقق ما كان يخشاه المعارضون لقيام الاتحاد ، فقد اتجهت معظم التشريعات التي صدرت الى تحقيق سيطرة البيض وتمكينهم من استغلال موارد البلاد الى اقصى حد ممكن ، واتبعت اقصى اساليب القمع والعنف مع المعارضين لهذه السياسة العنصرية حتى من البيض — فحين طالب جرفيلد Garfield Todd الذي كان رئيسا لوزراء روديسيا الجنوبية في الفترة من 1953 الى 1958 بالعمل على رفع مستوى الافريقيين ونادي بان التأخر بين الجميع وخلق مجتمع يشارك فيه الكل ، وينعم فيه الكل بالخير وبثمرة جهودهم هو الوسيلة الوحيدة للتقدم — تكتل المتطرفون ضد هذه السياسة المعتدلة وانتهى الامر بابعاده عن الحياة السياسية واعتقاله (47) .

على أن هذا الصراع بين الآراء والاتجاهات المختلفة كان له الفضل في دفع الافريقيين الى تنظيم انفسهم في هيئة جماعات وهيئات يتزعمها بعض القادة الذين نالوا حظا من الثقافة والتعليم وذلك للوقوف في وجه القوانين الجائرة والاطماع الجامحة للبيض فظهر المؤتمر الافريقي الوطني (African National Congress - ANC) وظهرت الهيئة الوطنية الديمقراطية (National Democratic Party - NDP) وغيرها من الهيئات . وقابلت السلطات الحاكمة الامر باصدار مزيد من قوانين القمع وكبت الحريات ، لكن تطور الاحداث بهذا الشكل جعل الكثيرين من البريطانيين انفسهم — ومنهم أعضاء في البرلمان البريطاني من امثال جون ستونهوس (John Stonehouse) الذي اتهم اثناء زيارته لروديسيا ولقائه بزعماء الافريقيين بأنه حرضهم على الخروج على السلطات بقوله لهم : « انكم يجب ان تتصرفوا كأنكم اصحاب البلاد ولستم غرباء فيها » — يشيرون الى أن الاوضاع في روديسيا الجنوبية لا تختلف عن الاوضاع التي تشكو منها نسي الكفـو .

Mshall, Vulindela : Op. Cit. P.P. 96 & 100.
Todd, Judith : Rhodesia (London 1966) P. 29.

(46)

(47)

وقد عقدت الحكومة البريطانية عدة اجتماعات ومؤتمرات لمحاولة وضع علاج لهذه الأوضاع المندھورة في الاتحاد عن طريق وضع دستور جديد يعمل به في روديسيا الجنوبية بدلا من دستور 1923 ، لكن الوضع في روديسيا تدهور بشكل ملحوظ واصبح ينذر بالخطر اثر فوز حزب ايسان سميث Ian Smith الذي يمثل في الحقيقة كبار الملاك والرأسماليين البيض الذين اثروا ثراء فاحشا من استغلال اموالهم في روديسيا الجنوبية — في انتخابات عام 1962 — والف ستون فيلد Field وزارة كان سميث وزيرا للخزانة فيها بينما كانت كل من روديسيا الشمالية ونياسالاند تسعى للحصول على الاستقلال .

وفي 31 ديسمبر 1963 عقد بتلر Butler الوزير البريطاني مؤتمرا اعلن فيه حل اتحاد وسط افريقيا وأعقب ذلك استقلال روديسيا الشمالية في يولييه 1964 تحت اسم (جمهورية زامبيا) كما استقلت نياسالاند في اكتوبر 1964 تحت اسم (جمهورية مالاوي) وبقيت روديسيا الجنوبية مستعمرة تحت حكم الاقلية العنصرية البيضاء باسم روديسيا .

د - حكم الاقلية العنصرية البيضاء في روديسيا :

هكذا كانت عجلة الاحداث في هذه المنطقة الهامة من افريقيا تسير بسرعة عجيبة فبينما الاقلية البيضاء تستحث الخطى لتضرب ضريتها الاخيرة فتعلن الانفصال التام عن النفوذ البريطاني وتنفرد بتسيير دفة الامور في روديسيا دون منازع — نجد الزعماء الوطنيين يتخاصمون ويتنازعون على أشياء ليست جوهرية في هذه الامة الحاسمة من الفضال — فقد حدث خلاف بين انكوتو ، وسيزول Sithole وانتهى الخلاف بخروج سيزول وبعض رفاقه وأعلنوا تكوين حزب جديد باسم اتحاد زمبابوي الافريقي القومي — زانسو .

وفي أبريل 1964 استقالت وزارة ونستون فيلد لتفسح المجال لوزارة يرأسها ايان سميث ، وأعلن سميث بمجرد توليه الوزارة الجديدة « أن هدف حكومته الاساسي هو اعلان استقلال روديسيا ووضع دستور جديد لها يكفل السيادة الكاملة للبيض ويضع في ايديهم كل السلطات والامكانيات .

وبدا سميث على الفور سياسة عنيفة لتصفية الحركات القومية ،
فاعتقل الاعضاء البارزين من حزبي (زاتو) ، (زابو) وزج بهم في
معتقلات انشأها في الاماكن النائية بعيدا عن المدن الرئيسية — ثم بدأ
بمفاوض بريطانيا للاتفاق على ما اسماه (الاستقلال) ملوحا باستعداده
لاعلان الاستقلال من جانب واحد اذا لم تصل الحكومة البريطانية الى
اتفاق معه تمنح روديسيا بموجبه الاستقلال .

واتضحت نوايا سميث حين زار جنوب افريقيا قلعة العنصرية في
افريقيا للاجتماع مع رئيس وزرائها د. فيرورد Dr. Verwoerd كما زار وهو
في طريقه الى لندن — دكتاتور البرتغال في ذلك الوقت دون سالازار
Don Salazar ونستطيع ان نتكهن بسهولة بما دار في هذه الاجتماعات
بين الاطراف الثلاثة التي تمثل بلا شك تحالفا غير مقدس أو غير شريف
بتعبير آخر .

وتعددت الاجتماعات بين ممثلي بريطانيا وبين سميث وأعوانه للوصول
الى الاتفاق على شروط يرتضيها الطرفان دون طائل ، وكان سميث قد
أجرى انتخابات برلمانية عامة أسفرت عن أغلبية ساحقة لحزبه في
البرلمان ، وفي أكتوبر 1965 طار ولسون Wilson الى روديسيا
في محاولة يائسة ليفتن سميث عن عزمه ، لكن هذا الأخير لم يلبث ان
أعلن حالة الطوارئ في البلاد في 5 نوفمبر 1965 ، وفي 11 نوفمبر أعلن
في بيان قصير قراره الخطير . وقد جاء في هذا البيان : « ان القرار الذي
اتخذناه اليوم هو قرار برفض الروديسيين ان يتنازلوا عن طريق البيع عن
حقهم الوراثي . . . لقد اتخذنا هذا القرار لحماية العدل ، والحضارة
والمسيحية فمن وحي هذه الاهداف فاننا في هذا اليوم قررنا أن نمارس
حقنا في الاستقلال ليبارككم الله جميعا » (48) .

وقد أحدث هذا الاعلان دويا عنيفا في بريطانيا ، وفي الدول الامريكية
وفي الامم المتحدة فتمحكت لاتخاذ الاجراءات لمواجهة الموقف الجديد الذي

ملاحظة : ولد سميث في روديسيا في عام 1919 من ابوين من المستوطنين الانجليز ،
وتعلم في جامعة رودس في جنوب افريقيا ، وبدأ نجهه يلمح منذ عام 1961 حين استقال
من حزب الجبهة الروديسية (Rhodesian Front Party) احتجاجا على دستور 1961 ،
وشكل جماعة اخرى متطرفة تعارض منح اية حقوق سياسية للافريقيين .
(48) ترجمة هرفية لاعلان الاستقلال الذي أذيع في ذلك التاريخ .

يعتبر في الحقيقة تحديا صارخا للضمير العالمى وللمبادئ العالمية كلها .



ثالثا — موقف منظمة الوحدة الافريقية من قضية روديسيا

منذ أن بدأت المؤتمرات الافريقية بهدف توحيد جهود الافريقين فى مواجهة قضاياهم المشتركة — احتلت قضية روديسيا مكانة هامة من اهتمام الدول والحكومات الافريقية .

وحين نجح مؤتمر القمة الافريقى الاول فى اديس ابابا الذي عقد فى الفترة من 22 الى 25 مايو 1963 فى اصدار ميثاق منظمة الوحدة الافريقية (Organisation of African Unity (OAU) تركزت الانتظار على هذه المنظمة لتبنى قضية روديسيا باعتبارها فى مقدمة قضايا النضال الافريقى من أجل حق الشعوب الافريقية فى الحياة الحرة الكريمة (49) .

وقد اتخذ مؤتمر القمة الافريقى الاول قرارات خاصة بتضييعة روديسيا فأعلن تأييده الكامل للوطنيين الافريقين بها ، ودعا المملكة المتحدة بالآ تنقل سلطات ومقومات السيادة لحكومة تمثل الاقليات المستوطنة فيها وأشار الى أن هذا العمل اذا تم يعتبر اخلاخل بقرار الامم المتحدة 1514 الذي اتخذته الجمعية العامة للامم المتحدة فى الدورة 15 بتاريخ 14 — 12 — 1960 .

(49) حفلت الفترة التى تلت الحرب العالمية الثانية بسلسلة هامة من المؤتمرات الاسيوية والافريقية .

- للدراسة المستفيضة لهذه المؤتمرات وقراراتها انظر :
شوقى الجمل : الوحدة الافريقية ومراحل تطورها (القاهرة 1966) .
- أما عن ميثاق منظمة الوحدة الافريقية فهو من 32 مادة — انظر :
Organization of African Unity ; Basic Documents & Resolutions-Charter of OAU .
- وكذلك بطرس بطرس غالى : منظمة الوحدة الافريقية (د . ت) ص 79 وما بعدها .

وقد شكل المؤتمر لجنة خاصة أطلق عليها اسم (لجنة التحرير) من تسعة أعضاء لبحث — قضية الاستعمار من جميع نواحيه وعهد اليها ببحث هذه المشكلة الروديسية ، وقد قررت هذه اللجنة بدورها تأليف لجنة ثلاثية من ممثلى (تنجانيقا ، وأغندة ، ونيجيريا) للسمى فى سبيل التوفيق بين الحزبين الرئيسيين فى روديسيا حزب زابو وحزب زانو لتكتائف الجهود كلها لمواجهة الاستعمار خاصة بعد أن فُاز فى الانتخابات حزب جبهة روديسيا الذى يمثل المتطرفين من الاقلية البيضاء .

وقد وجه مجلس وزراء منظمة الوحدة الافريقية الذى عقد فى لاجوس بنيجيريا فى الفترة من 24 الى 29 فبراير 1964 الانتظار الى التطورات الخطيرة التى تتطور اليها مشكلة روديسيا ، وطالب الحكومة البريطانية باتخاذ اجراءات فعالة لمواجهة الموقف الذى يندر بالانفجار فى روديسيا ، كما طالب الاعضاء فى منظمة الوحدة الافريقية باعادة النظر فى علاقاتهم مع بريطانيا اذا تجاهلت توصيات المؤتمر ، كما دعاهم لتقديم المزيد من التأييد للوطنيين الافريقيين فى كفاحهم فى سبيل حقهم ، وطالب المجموعة الافريقية من الامم المتحدة بالضغط لالزام الحكومة البريطانية بتنفيذ قرارات الامم المتحدة بشأن روديسيا .

وكان على مؤتمر القمة الافريقى الثانى الذى عقد فى القاهرة فى الفترة من 17 الى 21 يوليوز 1964 أن يواجه الموقف فى روديسيا بما يستلزمه من اجراءات حازمة خاصة بعد أن تولى الوزارة ايان سميث فى أبريل 1964 عقب استقالة وزارة فيلد .

وقد أشار رئيس وفد الجمهورية العربية المتحدة فى الخطاب الذى القاه فى جلسة الافتتاح الى خطورة الوضع فى روديسيا ، كما أشار رئيس وفد زامبيا — وهى الدولة الافريقية التى لم تكن حتى انعقاد المؤتمر قد استقلت بعد (50) — الى وضع زامبيا الحرج بالنسبة لموقعها بين قوى استعمارية وعنصرية (انجولا ، وموزمبيق ، جنوب افريقيا ،

50) استقلت زامبيا فى 24 أكتوبر 1964 وهى روديسيا الشمالية ، لكنها اتخذت بعد الاستقلال اسم جمهورية زامبيا .

روديسيا الجنوبية) كما أن الاستعمار ربط بين اقتصاديات هذه البلاد بطريقة تضمن تحكمه في شرايين الحياة الاقتصادية بها (51) .

وقد اتخذ هذا المؤتمر الإفريقى (مؤتمر القمة الثانى) قرارات هامة خاصة بروديسيا تقضى بأنه فى حالة اعلان حكومة الاقلية فى روديسيا الاستقلال من جانبها فان الدول الافريقية ستؤيد قيام حكومة وطنية افريقية فى المنفى ، كما ناشد المؤتمر بريطانيا الاسراع باتخاذ الخطوات الكفيلة باعلان دستور ديمقراطى جديد يضمن حكم الاغلبية ، وطالب بالامراج فورا عن الزعماء الوطنيين المعتقلين فى سجون روديسيا ، واندب المؤتمر لجنة من ممثلى مالواي و (تنجانيقا) و (زنجبار) لبذل مساعيها للتوفيق بين الاحزاب الروديسية .

وحين عقد مؤتمر القمة الافريقى الثالث باكرا فى انقرة من 21 الى 25 اكتوبر 1965 كانت منظمة الوحدة الافريقية قد اتمت 29 شهرا من عمرها ، وكانت فى هذه الفترة الوجيزة قد قامت بنشاط كبير فى حل العديد من المشاكل الافريقية المترسبة من عصر الاستعمار الطويل كالتنازع الصومالى الاثيوبى الكينى ، والحركات الاستعمارية التى صاحبت استقلال الكونغو - ومع ذلك فقد كانت المشكلة الروديسية تفرض نفسها على رؤساء الدول الافريقية وكانت هذه المشكلة فى الحقيقة تعتبر اختبارا صعبا لمدى قوة منظمة الوحدة الافريقية ومبادئها - ورغم اختلاف وجهات النظر بين المنادين باستخدام القوة المسلحة لردع المتمردين البيض فى روديسيا وقطع علاقات الدول الافريقية مع بريطانيا وانسحاب الدول الاعضاء فى الكومنولث وبين من كان يرى ضرورة التروي قبل اتخاذ هذه الخطوات الحاسمة - فقد اتخذ المؤتمر قرارات توفق بين وجهات النظر المختلفة (52) .

(51) أشارت اللجنة الخاصة التابعة للأمم المتحدة التى شكلت فيها بعد لبحث اثر المصالح الاقتصادية الاستعمارية وتأثيرها على قضية روديسيا - الى ذلك كما سنوضح فيما

يلى
Resolutions of African Heads of State & Governments held in Akra (52)
from 21 to 25 October 1965.

ومن أهم هذه القرارات :

1 — تقديم كل مساعدة للشعب زمبابوي لتحرير نفسه وبلاده ودعوة الدول المحبة للسلام لمعاونة هذا الشعب في محنته .

2 — دعوة مجلس الامن لاستعمال العقوبات المنصوص عليها في الباب السابع من ميثاق الامم المتحدة باعتبارها الموقف في روديسيا مهدد للسلام والامن العالميين .

3 — مقاطعة الحكومة القائمة في روديسيا الجنوبية مقاطعة سياسية واقتصادية تامة .

وتشكلت لجنة من خمس دول افريقية لمتابعة تنفيذ قرارات (اكرا) بشأن روديسيا على أن اعلان اين سميث في 11 نوفمبر 1965 — الاستقلال المزيف وضع جميع الدول الافريقية ومنظمة الوحدة الافريقية امام اختبارقاس فحكومة الاقلية البيضاء في روديسيا فضلا عما تمارسه من أعمال القمع والاضطهاد ضد شعب زمبابوي — تمثل في الحقيقة قاعدة استعمارية تمارس الدول الاستعمارية عن طريقها نشاطها مثلها في ذلك مثل اسرائيل في منطقة الشرق الاوسط .

تحليل موقف منظمة الوحدة الافريقية بعد اعلان سميث الاستقلال :

في ضوء قرارات مؤتمر اكرا والمؤتمرات السابقة له ، كان امام الدول الافريقية عدة اجراءات تتطلبها التزاماتها اتجاه الموقف في روديسيا منها :

1 — اتخاذ اجراءات اقتصادية وسياسية ضد حكومة الاقلية — ويتطلب هذا تعاون الدول الاخرى التي تتعامل مع روديسيا لتكون المقاطعة

الفعالة كما يتطلب الامر فرض الحصار على الثغور التجارية التي تعتبر منافذ لروديسيا .

2 — الضغط على بريطانيا بكل الوسائل لالزامها بالقيام بواجبها باعتبارها المسؤولة عن الوضع في روديسيا .

3 — التزمت الدول الافريقية في مؤتمر اكرا باستخدام القوة لمنع استقلال الاقلية البيضاء — وتنفيذ هذا القرار يتطلب اسهام الدول الافريقية في تكوين قوة عسكرية مسلحة لتموين المعركة ضد حكومة الاقلية في روديسيا ولتقديم التأييد الكافي لزامبيا باعتبارها المنفذ الوحيد لوصول المساعدات للشعب الافريقى في روديسيا ، كما يستلزم تنفيذ هذا أيضا أن ينبذ شعب زيمبابوي خلافاته ويجمع كله حول هدف واحد هو استخلاص حقه من مقتصبه .

4 — اقامة حكومة وطنية لروديسيا في المنفى تعترف بها وتساندها الدول الافريقية — لكن تنفيذ هذا يستلزم حسم الخلاف بين حزبى زابو وزانو وتكوين جبهة واحدة تواجه الموقف وتتولى الكفاح المسلح ضد العدو المشترك — لكن كان يحول دون ذلك اصرار كل حزب على أنه الحزب الوحيد الذي يمثل جماهير الشعب الروديسى .

وفي عام 3 ديسمبر 1965 عقد مجلس وزراء خارجية الدول الاعضاء في منظمة الوحدة الافريقية اجتماعا طارئا في اديس ابابا لبحث الموقف الجديد في روديسيا واتخذ المجلس في هذا الاجتماع قرارات تقضى بفرض حصار اقتصادي كامل على روديسيا وعدم تقديم اية تسهيلات للحكومة العنصرية بها للحصول على البترول او الوقود .

وقد ناقش المؤتمر الذي عقد في اديس ابابا في الفترة ما بين 5 و 9 نوفمبر 1966 مشكلة روديسيا في اكثر من جلسة من جلساته ، كما ناقش وضع زامبيا بالذات وما تتعرض له من ضغوط اقتصادية وسياسية نتيجة موقفها من القضية واتخذ المؤتمر قرارات تقضى بدعم حركة تحرير روديسيا وتقديم المساعدات الفنية والاقتصادية لمساندة زامبيا ليمكنها

أن تصمد وأن تقدم مساعدات أكثر للمحاربين في زيمبابوي وكذلك تقضى باتخاذ إجراءات مشددة ضد الأفراد والشركات التى لا تزال تـزاول نشاطها مع روديسيا الجنوبية .

وهكذا أصبحت قضية روديسيا تحتل مكانا بارزا من مناقشات واجتماعات اللجان المختلفة والمؤتمرات لمنظمة الوحدة الإفريقية ، وقد تآلفت لجنة خماسية خاصة متفرعة من لجنة تحرير إفريقيا لتابعة الجهورود المبذولة المتصلة بهذه القضية وهى من ممثلى (الجمهورية العربية المتحدة، وزامبيا ، وكينيا ، وتانزانيا ، ونيجيريا) وبذلت هذه اللجنة جهودا مضمينة لبحث الوسائل الفعالة لمساندة المناضلين الوطنيين فى روديسيا — كما تكونت لجنة ثلاثية أخرى لتابعة الموقف المتعلق بالقضية فى الأمم المتحدة وقد أطلق على هذه اللجنة اسم (لجنة روديسيا التابعة لمجلس الأمن) .

ورغم كل هذه الجهود فقد أثبتت تقارير هذه اللجان التى قدمت لمؤتمر القمة الإفريقى الذى عقد فى كنشاسا (زائري) فى الفترة ما بين 11 و 14 سبتمبر 1967 أن الأمر يحتاج الى إجراءات أخرى أكثر فاعلية خاصة وأن العقوبات الاقتصادية التى فرضت على حكومة الأقلية العنصرية فى روديسيا كانت قليلة الجدوى بسبب المساعدات المستمرة التى تقدمها البرتغال وجنوب إفريقيا للنظام الثائر فى روديسيا ، كما أن الإفريقيين هم الذين يتحملون العبء الأكبر لهذه المقاطعة الاقتصادية — كما ذكر الكاتب (كولين ليجوم) المتخصص فى الشؤون الإفريقية ، « فالعمال الزراعيون أصبحوا يعيشون على لقمة العيش التى يقدمها لهم مخدموه ، ولما كان الإفريقيون لا يجدون أي بديل لهذا الوضع الذى يعيشون فيه فانهم لا حول لهم ولا قوة » . (53) .

ورغم أن قضية روديسيا كانت مثار بحث ونقاش فى مؤتمرات القمة الإفريقية التى عقدت بعد ذلك ، لكن لم تستطع الدول الإفريقية أن تركز على هذه القضية بالذات لبروز مشكلات أخرى حيوية كمشكلة بياغرا ومشكلة الشرق الأوسط فلم تعد المشكلة الروديسية هى المشكلة الرئيسية التى يتركز عليها اهتمام الدول الإفريقية .

(53) الكاتب هو صاحب كتاب الجامعة الإفريقية وقد ترجمه الى العربية أحمد محمود سليمان (القاهرة 1964) .

ولا شك في أن آيان سميث قد استفاد من هذه الظروف فعمد الى دعم مركزه في البلاد ، كما أن بريطانيا لجأت الى مفاوضة نظام الاقلية غير الشرعية في سولزبري لايجاد حل للالزمة من وجهة نظرها — ففى الفترة ما بين 10 و 12 أكتوبر 1968 دارت المباحثات بين ويلسن رئيس وزراء بريطانيا وبين آيان سميث على ظهر الباخرة البريطانية (فيرلس) وكانت الحكومة البريطانية قد وضعت بعض المبادئ لتفسير المباحثات بين الجانبين على أساسها — ورغم أن هذه المبادئ قد رفضت من جانب الحكومة العنصرية في روديسيا فان الدول الافريقية أعربت أيضا عن اعتراضها على ما تضمنته هذه المقترحات من مبادئ ، بل احتجت على مبدأ المفاوضة نفسه مع هذه الحكومة دون اتخاذ موقف أكثر حزما منها .

وتتمة للخطوة التى بدأها سميث يوم اعلن في 11 نوفمبر 1965 استقلال روديسيا في ظل نظام الاقلية العنصرية — قامت حكومة سميث في عام 1970 بوضع دستور جديد لروديسيا يزيد من قبضة الاقليات العنصرية في حكم البلاد — كما أعلنت في آخر فبراير 1970 قيام الجمهورية في روديسيا — فكان هذا بمثابة تحد جديد لمنظمة الوحدة الافريقية وللأمم المتحدة والعالم المتحضر كله .

وقد ناقش مجلس وزراء منظمة الوحدة الافريقية في دورته الرابعة عشرة (فبراير — مارس 1970) الوضع في روديسيا ، كما ناقش مؤتمر القمة الأمريكى الثامن في اجتماعه في أديس أبابا (سبتمبر 1970) القضية في ضوء هذه التطورات الجديدة ، وقد أعرب المؤتمر عن سخطه ازاء هذا التحدي السافر من حكومة سولزبري وطالب بضرورة تطبيق الفصل السابع من ميثاق الأمم المتحدة الخاص باستخدام القوة لحسم الموقف في روديسيا باعتبار أنه يعرض السلام والامن الدولى للخطر .

على أن مشكلة روديسيا برزت من جديد على مسرح الاحداث منذ عودة حكومة المحافظين في انجلترا الى الحكم في 18 يونيه 1970 فقد صرح رئيس الوزراء ادوارد هيث (Edward Heath) بأنه سيعمل للوصول الى حل سلمى لهذه المشكلة ، ومرت المفاوضات بين الطرفين في هذه المدة في عدة مراحل واستغرقت شطرا كبيرا من عام 1971 وانتهى الامر

بإعلان صدر في لندن في 25 — 11 — 1971 بأن الوفد البريطاني الذي كان على رأسه السير اليك دوجلاس قد وصل إلى مشروع اتفاق بشأن الأزمة الدستورية بين بريطانيا وروديسيا سوف يعرض على شعب روديسيا لإبداء رأيه فيه عن طريق ما أطلق عليه لفظ (اختبار القبول) (The test of acceptability) ، وقد كونت لجنة برئاسة اللورد بيرس Lord Pearce للقيام بهذه المهمة ، ولا يتسع المجال هنا لمناقشة كل بنود هذه الاتفاقية لكن نشير لبعض ملاحظات بخصوصها : (54)

1 — لم يوضح المعيار الذي ستتخذه اللجنة لتصل إلى الحكم الصحيح بالنسبة لرأي الأفريقيين في الاتفاق ولعله كان من الأفضل معرفة رأي الأفريقيين في الاتفاق عن طريق الاقتراع العام بدلا من لجنة لم يحدد الاتفاق عدد أعضائها أو نوعيتهم .

2 — يتعلق بدستور روديسيا نص الاتفاق على أن الأساس سيكون دستور 1969 مع تعديلات تتيح الفرص للأفريقيين للدلاء بأصواتهم في الانتخابات وبالتالي بالترشيح للبرلمان حسب الدخل ومستوى الثقافة بحيث يصبح الأفريقيون على قدم المساواة مع البيض في الحكم إذا ما وصل تقدمهم في الميدان التعليمي والاقتصادي إلى المستوى الذي وصل إليه البيض .

وهذا الفرض وإن كان للمساواة لكن حقيقته غير ذلك ، وقد أشار اللورد البورت الذي كان وزيرا مسؤولا عن الشؤون الأفريقية في حكومة هارولد ماكملان تعليقا على هذا التعديل في الدستور « أنه لا يتوقع أن تكون هناك فرصة أمام قيام حكم للأغلبية في ظل هذا الاتفاق » .

3 — كذلك لم يضع الاتفاق حدا جذريا لمشكلة التفرقة العنصرية ، وإن كان قد أشار إلى أن سميث قد سجل « رغبة حكومته في الحد من التفرقة العنصرية إلا إذا وجدت اعتبارات خاصة تنظر إليها أية حكومة على أنها بالغة الخطورة » .

(54) نلاحظ أن البيان لم يستخدم كلمة استثناء .

وقد قوبلت هذه العبارة في مجلس العموم البريطانى باستهجان وكان تعليق أحد أعضاء المجلس (مستر فولدز (Faulds)) بأن « أقل ما توصف به هذه العبارة أنها أمر مشين وخيانة كاملة واضحة » (55) .

4 — ومن جهة الخدمات قررت بريطانيا تزويد روديسيا بمساعدة قدرها 50 مليون جنيه استرليني سنويا ولمدة عشر سنوات لمساعدة الحكومة على تنفيذ برامج للتنمية والتعليم خاصة في المناطق الامريكية — وكانت هذه المساهمة البريطانية هي الورقة التي حاولت بريطانيا أن تكسب عن طريقها موافقة الافريقيين على هذه الاتفاقية .

وقد قوبلت الاتفاقية بموجة من الهجوم في الدول الامريكية — وكذلك في اوساط الامم المتحدة بل وفي بريطانيا من حزب المحافظين ومن الافريقيين في روديسيا — .

وصلت لجنة (تقصى الراي) الى روديسيا في 11 يناير 1972 للقيام بمهمتها ، وفي مايو 1972 قدمت للبرلمان البريطانى نتائج عملها الذي شرحت فيه بايضاح الطريقة التي اتبعتها لمعرفة رأي الافريقيين والمصاعب التي قابلتها مع جداول تفصيلية بعدد الافراد الذين قابلتهم اللجنة من كل من الاوربيين والافريقيين واتجاه آراء كل مجموعة فيها يتعلق بالاتفاقية وما قدمت للجنة من شكاوي واتهامات عن تدخل رجال الادارة او غيرهم في الانتخابات او عن اعتقال الحكومة الروديسية لبعض الزعماء الافريقيين في فترة عمل اللجنة .

ومن تحليلنا لنتائج الاستفتاء حسب تقرير اللجنة نلاحظ :

1 — أن عدد الذين ادلوا بأصواتهم من الافريقيين كان 116,364 ، بينما عدد البالغين فوق 18 سنة حسب احصاء 1969 هو 200742 وتقدير الزيادة في عدد السكان خلال هذه الفترة بحوالى 7 ٪

(55) انظر : Times Friday-November 26, 1971 (House of Commons)

وانظر

Report of the Commission on Rhodesian Opinion under the Chairmanship of the Right honourable Lord Pearce presented to Parliament (May 1972).

2 — عدد الذين ادلوا بأصواتهم من الاوربيين كان 6،024 بينما عدد البالغين (فوق 18 سنة) حسب احصاء 1969 هو 144،970 وتقدر الزيادة في العدد في هذه الفترة بـ 5 ٪

3 — بلغ عدد الذين رفضوا المقترحات من الافريقيين الذين ادلوا بأصواتهم 107-309 بينما عدد الذين وافقوا عليها لم يتعد 2934 — وهكذا تكون الاغلبية الساحقة من الافريقيين قد رفضت المقترحات ، وكما ذكر التقرير ان أكثر المتفائلين من رجال الاحزاب الافريقية لم يكونوا يتوقعون ان تصل نسبة الرفض الى هذا الحد الكبير .

4 — وصل عدد الذين قبلوا هذه الاتفاقية من الاوربيين الى 5،634 وعدد الراضين لم يتعد 390 — وهكذا تكون غالبية الاوربيين قد قبلت المقترحات .

ومن الاسباب الرئيسية التي ذكرتها الاغلبية الاوربية لقبولها المقترحات ان هذه المقترحات هي الفرصة الوحيدة لايجاد جو من التفاهم والتقارب بين الافريقيين والمستوطنين الاوربيين ، وانها ستفتح المجال لتحسين الحالة الاقتصادية ولايجاد فرص عمل جديدة ، للافريقيين وبذا يستتب الامن لانه كما قال أحدهم « الانسان الجائع انسان خطر » .

اما الافريقيون فعملوا رفضهم للمقترحات بأنها لا يحق لهم العدالة والمساواة ، كما أنهم ذكروا ان الاتفاقية تضيء الصبغة القانونية على تصرفات الحكومة الروديسية دون أن تكفل أية ضمانات على احترامها لالتزاماتها .

وهكذا انهارت هذه الاتفاقية الجديدة من بريطانيا وحكومة روديسيا العنصرية .

رابعا — موقف الامم المتحدة من قضية روديسيا :

كان ميلاد الامم المتحدة الذي وقع ميثاقها في 26 يونيه 1945 وأصبح نافذا في اكتوبر 1945 — املا جديدا للشعوب الواقعة تحت نير الاستعمار —

فقد أعلن ميثاق الأمم المتحدة (إيمان البشرية بحقوق الإنسان الأساسية وبكرامته وقيمه وبتساوي حقوق الأمم كبيرها وصغيرها ، كما أعلن حق جميع الشعوب في ممارسة الحقوق الإنسانية والحريات الأساسية دون تمييز بسبب العرق أو الجنس أو اللغة أو العقيدة) (56) .

وفي عام 1948 تبنت الجمعية العامة للأمم المتحدة (الإعلان العالمي لحقوق الإنسان) كما أصدرت عدة قرارات خاصة بحق الشعوب المستعمرة في التمتع بحريتها ومن أهمها قرارها رقم 1514 الذي صدر في الدورة 15 (في 14 - 12 - 1960) .

وفي 1961 أنشأت الجمعية العامة اللجنة الخاصة (The Special Committee) لنظر الموقف فيما يتعلق بتطبيق إعلان منح الاستقلال للبلدان والشعوب المستعمرة .

وفي هذا العام (1961) تقدمت 11 دولة أفريقية وآسيوية بقرار للجمعية العامة لتعهد اللجنة الخاصة ببحث الوضع في روديسيا — وقد اعترضت بريطانيا بأن روديسيا الجنوبية لا تدخل ضمن الاقاليم التي تعهدت بتقديم بيانات عنها للأمم المتحدة — لكن الدول الأفريقية أشارت الى أن الوضع في روديسيا خطر وانها تتحول الى جنوب أفريقيا أخرى — فأصدرت الجمعية العامة قرارها رقم 1745 (16) في 23 فبراير 1962 مذكرة بقراراتها السابقة المتصلة بالاقاليم غير المتمتعة بالحكم الذاتي — وطلبت من (اللجنة الخاصة) بحث الوضع في روديسيا . ومنذ ذلك الوقت أخذت اللجنة الخاصة تدرس مسألة روديسيا وتوليها اهتماما خاصا ، وقدمت هذه اللجنة عدة قرارات للجمعية العامة أوضحت فيها أن الوضع في روديسيا خطير واستنادا لهذا أصدرت الجمعية العامة عدة قرارات منها قرارها 1747 (16) في 28 — 6 — 1962 ، وقرارها 1755 في 12 — 10 — 1962 ، والقرار 1760 في 31 — 10 — 1962 ، والقرار 1883 (18) في 14 — 10 — 1963 ، والقرار 1889 (18) في 6 — 11 — 1963 وفي جميع هذه القرارات دعت الجمعية العامة حكومة المملكة المتحدة الى اتخاذ الاجراءات الكفيلة بعدم نقل أية سلطة من سلطات السيادة الى روديسيا الجنوبية بنظام حكمها العنصري الحاضر

(56) انظر ديباجة ميثاق الأمم المتحدة .

وان تنظر في امر قيام حكومة تامة التمثيل لجميع سكان المستعمرة ، وان تعمل للامراج عن المعتقلين السياسيين . وقامت اللجنة الخاصة (لجنة الاربعة والعشرين عضوا) بنشاط واضح في القضية خلال عام 1964 وقد قامت هذه اللجنة بدراسة شاملة لنفوذ المصالح الاقتصادية الاجنبية في الاقليم واثره على القضية — فقد اوضح التقرير ان الرأسماليين الانجليز هم اصحاب الانصبة الكبيرة في رؤوس الاموال المستثمرة في روديسيا — كما اوضح ان الشركات التي تمارس نشاطها هناك معظمها لها فروع في جنوب افريقيا وفي المستعمرات الافريقية ، ولذا فمن مصلحتها وفي وسعها تحطيم التأيود المفروضة على الاقتصاد الروديسي (57) .

ولما كان اتجاه الحكومة الروديسية الى اعلان الاستقلال من جانب واحد قد وضع فتد أصدر مجلس الامن في 6 مايو 1965 قرارا يطلب فيه من المملكة المتحدة وجميع الدول الاعضاء عدم قبول اعلان الاستقلال من جانب واحد ويطلب من المملكة المتحدة القيام بكل ما يلزم لمنع ذلك .

وقد أصدرت الامم المتحدة عدة تحذيرات للسلطات الحاكمة في روديسيا والمملكة المتحدة بصفتها السلطة الادارية المسؤولة عن اعلان استقلال غير قائم على اساس حق الانتخاب العام للبالغين . وكان لاعلان حكومة سميت الاستقلال في 11 نوفمبر 1965 رد فعل سريع في الامم المتحدة فدعت الجمعية العامة فور صدور الاعلان لاجتماع طاريء عقد في نفس اليوم وصدر قرار بادانة الاستقلال من جانب واحد الذي اعلنته حكومة روديسيا الجنوبية ، وطلبت الجمعية العامة من المملكة المتحدة تنفيذ قراراتها السابقة من اجل وضع نهاية لتمرد السلطات غير الشرعية في روديسيا ، وأوصت الجمعية العامة مجلس الامن ببحث الموقف في روديسيا على وجه السرعة .

(57) يعتبر تقرير اللجنة في هذه الناحية والذي صدر في 7 اكتوبر 1966 تحت رقم (Addi 1) من اهم الدراسات التي تلقى الاضواء على العلاقة بين النواحي الاقتصادية والنواحي السياسية في القضية الروديسية ، وأورد جداول احصائية للمصادر وقيمة كل النقدية ، وقدم دراسة لتشريعات الارض المختلفة ، وبيانات عن شركات الاراضى وملكية كل ، بالاضافة الى دراسة تفصيلية للمعادن الهامة وانتاجها في روديسيا — كما درس العمل والعمالة وموقف العمال الافريقيين وقارن بين أجورهم وأجور الاوربيين .

Studies of the Activites of Foreign Economic & Other Interests In Southern Rhodesia & Thier mode of Operation.

واجتمع مجلس الامن في اليوم التالي لاعلان الاستقلال من جانب واحد ودعت الدول الانريقية والاسيوية الى استخدام القوة لسحق التمرد بموجب الفصل السابع من الميثاق (المادة 42) وأشارت هذه الدول الى ان التدابير التي تتخذها المملكة المتحدة قاصرة عن حل الموقف . لكن تحت ضغط بريطانيا وحلفائها اقتصر قرار المجلس رقم 217 ، الذي صدر في 20 — 11 — 1965 على دعوة جميع الدول الى فرض الحظر على منتجات النفط والبتروول وقطع جميع العلاقات التجارية والامتناع عن تزويد روديسيا الجنوبية بالاسلحة والمهمات والمواد الحربية ، وناشد القرار جميع الدول عدم الاعتراف بالسلطة غير الشرعية وعدم مساعدتها وعدم الاحتفاظ بعلاقات دبلوماسية معها .

وهكذا لم تخرج الاجراءات التي اتخذتها انجلترا والامم المتحدة لانقاذ افريقيين في روديسيا الجنوبية وتمكينهم من الحصول على حقهم في بلادهم — عن هذه الاجراءات الاقتصادية التي ثبت أنها قليلة الجدوى وانها — كما أشارت الصحفية البريطانية المعروفة د. لوس مير Dr. Lucy Mair لا تعفى بريطانيا من مسؤوليتها الاخلاقية قبل الشعب الافريقي في روديسيا — (58) .

ورغم ان عددا كبيرا من الدول الاعضاء في الامم المتحدة — ابلغت السكرتير العام انها قررت قطع علاقتها الاقتصادية كلية مع حكومة روديسيا وفرضت حظرا على تصدير النفط اليها — فان حكومة سميث لم تعبأ بهذه التدابير الاقتصادية التي اتخذتها المملكة المتحدة والامم المتحدة وثبت ان هذه التدابير — كما أشارت اللجنة الخاصة للامم المتحدة في تقريرها في 6 أبريل 1966 — غير كافية — وان روديسيا الجنوبية تحصل على حاجتها من النفط عن طريق السكك الحديدية وسيارات النقل عبر جنوب افريقيا

(58) انظر مجلة (الايكونومست البريطانية) العدد الصادر في 18 نوفمبر 1965 .
— ود . لوسي مير حجة في المشاكل الاستعمارية ، وقد اصدرت عدة كتب عن افريقيا ، كما ألقت عدة محاضرات قيمة عن بعض القضايا الافريقية الهامة — في المعهد الافريقي الدولي (International African Institute) وقد ذكر اللورد هيلي أنها حاولت معاونة صابرة في مراجعة واعادة كتابة بعض فصول كتابه الضخم عن افريقيا — انظر مقدمة كتابه :

Hailey, Lord : An African Survey P. VI (London 1957).

وموزمبيق ، وأن الامر يجب أن يتجاوز العقوبات الاقتصادية الى التدخل العسكري ، وقد لجأت بريطانيا الى ذر الرماد في العيون (Smoke Screen) كما عبر عن ذلك ممثل زامبيا في الامم المتحدة واسكات أنراي العام العالى بايهامه أنها جادة في اتخاذ كل الوسائل الممكنة لحل المشكلة ، محاولت أن تجري مفاوضات مع الحكومة العنصرية في روديسيا دون جدوى (59) .

وقد أصدر مجلس الامن في 16 - 12 - 1966 - قرارا بفرض عقوبات اقتصادية اضافية ملزمة : على روديسيا طبقا للمادة 41 من ميثاق الامم المتحدة فقد قرر أن تمتنع جميع الدول الاعضاء في الامم المتحدة عن استيراد المنتجات الاتية من روديسيا الاسيستوس ، الحديد ، الكروم ، النحاس ، السكر ، التبغ ، منتجات اللحوم ، جلود الحيوانات - كما طالب القرار أن تمتنع الدول عن تصدير النفط ومنتجاته والاسلحة ، والمعدات الحربية والطائرات ، والمركبات الالية - الى روديسيا الجنوبية ، واعتبر المجلس عدم تطبيق اية دولة لهذا القرار انتهاكا للمادة (25) من ميثاق الامم المتحدة التي تلزم الدول الاعضاء في الامم المتحدة بقبول قرارات مجلس الامن وتنفيذها (60) .

وقد أصدرت الجمعية العامة ولجان الامم المتحدة الاخرى عدة قرارات اكدت فيها شرعية كفاح شعب زيمبابوي لاسترداد حقه في الحرية والاستقلال وطالبت جميع الدول بتقديم كل معونة لهذا الشعب في كفاحه ونسدت بسياسات البرتغال وجنوب افريقيا والدول الاخرى التي تساند نظام الحكم غير الشرعى ودعت المملكة المتحدة لاتخاذ تدابير فعالة لاستقاط نظام الحكم المتورد في روديسيا . لكن ازدادت الحالة في روديسيا سوءا وتمادت الحكومة العنصرية في ارهابها وتنفيذ احكام الاعدام على المعتقلين السياسيين ، كما أن مجلس الامن اعترف بأن الاجراءات التي اتخذت كلها فشلت في انهاء حركة التمرد في روديسيا ، وأن بعض الدول من أعضاء الامم المتحدة لا تزال تتحدى قرارات المجلس والجمعية العامة فهي لا تزال تراول نشاطها الاقتصادي والسياسي مع نظام الحكم غير الشرعى في روديسيا (61) .

U.N. Year Book 1966 P. 101.

(59)

(60) جلسة المجلس رقم 1340 - قرار 212

(61) قرار المجلس رقم 277 في 18 - 12 - 1970 (الجلسة رقم 1535) .

خامسا - تطور قضية روديسيا

بعد تصفية الاستعمار البرتغالي بالقارة

ساعدت الظروف التي أحاطت بالقارة الافريقية ، والظروف الدولية في عام 1975 — 1976 على تدعيم مركز المواطنين الانارقة في روديسيا في كفاحهم ضد الحكومة العنصرية المغتصبة للسلطة في بلادهم ، فقد تحطم نفوذ الاستعمار البرتغالي في موزمبيق وانجولا ، واضطرت البرتغال لتسليم السلطة في مستعمرتيها السابقتين للانارقة ، وادى هذا الى اهتمام الازم تحت اقدام الحكومة العنصرية في روديسيا ، وكذا في جنوب افريقيا ، فاضطرت حكومة روديسيا العنصرية الى الانراج عن الزعماء الوطنيين لتتيح فرصة للوصول لاتفاق حول مستقبل روديسيا .

وتدخلت كل من انجلترا والولايات المتحدة الامريكية ، واتفق على عقد مؤتمر بمقر الامم المتحدة في جنيف في اكتوبر 1976 يحضره ممثلون عن الحكومة العنصرية ، والحركات الوطنية الروديسية .

وعقد المؤتمر فعلا برئاسة ايفور ريتشارد مندوب بريطانيا ، وحضره جوشوا نكومي زعيم الجناح الداخلي للاتحاد الوطني الافريقى ، وروبرت موجابى قائد جبهة التحرير الوطني الروديسى ، والاستقف موزورويوا زعيم الجناح الداخلي للمجلس الوطني الافريقى ، وداما ينجى سيتهول رئيس حزب اتحاد زيمبابوي الوطني الافريقى .

وواجه المؤتمر مشكلة تحديد موعد اعلان استقلال روديسيا وتسليم الاغلبية الوطنية للحكم ، وكان الاتجاه ان يتم ذلك خلال عامين لكن الزعماء الانارقة اصرروا على ان يتم الاعلان عن الاستقلال وتسلم الاغلبية للحكم خلال اثنتى عشر شهرا على الاكثر .

واجتمع زعماء الدول الافريقية المجاورة لروديسيا والتي اطلق عليها اسم (دول المواجهة) وهم جوليوس نيريري رئيس تانزانيا ، وكينيت كاوندرا رئيس زامبيا واجوستينو رئيس انجولا ، وسامورا ميثيل رئيس موزمبيق لبحث وسائل مساندة الوطنيين الروديسيين في كفاحهم .

وقد ضاعف الثوار من هجماتهم المسلحة ، بينما زادت الحكومة العنصرية من حركة القمع لمواجهة نشاط الثوار خاصة المتركزين على حدود موزمبيق والدول الامريكية الاخرى المجاورة لروديسيا .

وجابهت المؤتمر أيضا مشكلة تأليف الحكومة الانتقالية التى ستتولى الحكم فى الفترة السابقة لنقل السلطة للأغلبية الامريكية — بالإضافة الى اصرار حكومة الاقلية العنصرية على أن تكون بعض المناصب الحساسة كوزارة الدفاع وقيادة الجيش فى هذه الفترة فى يد البيض . ورغم أن الحكومة البريطانية قدمت بعض المقترحات الجديدة واعلنت استعدادها لتتولى بعض السلطات فى مرحلة الانتقال تيسيرا للخروج بالمؤتمرين من المازق الذى أدى لتأجيل اجتماعاته على أن تستأنف فى مستهل هذا العام الجديد (عام 1977) فقد رفضت الحكومة العنصرية المقترحات البريطانية . وهذا يؤكد أن على الافارقة أن يدركوا أن الامر بأيديهم هم ، وأن تكتلهم واتحادهم ونبذ عوامل التفرقة بين الاحزاب الوطنية ومضاعفة حركات المقاومة لجهودها هو الطريق الوحيد لنيل حقوقهم فى بلادهم .

والله فى عون العبد ما دام العبد فى عون أخيه .

الرباط د. شوقى عطا الله الجمل

أهم مراجع البحث :

نورد هنا أهم المراجع التى استعنا بها فى هذا البحث .

أولا — المراجع الاصلية :

وتشمل النشرات والتقارير الرسمية ، ومحاضر جلسات منظمة الوحدة الامريكية وهيئة الامم المتحدة ولجانها وكذلك الاحصاءات الرسمية الصادرة من حكومة سولزبري :

1. Organization of African Unity (Information Department) ID/Rhodesia (The OAU & Rhodesia : Published by the General Secretariat of the Organisation of African Unity (Addis Ababa 1961).

2. Organization of African Unity (Basic Documents & Resolutions) : published by the provisional Secretariat of the Organization of African Unity (N.D.).
3. United Nations Documents Index (Southern Rhodesia Situation)
4. United Nations Reports (A/7601/Add. I).
5. United Nations Resolutions
6. United Nations draft Resolutions (A/C. 3L. & A/C AL.)
7. United Nations Meeting Records.
8. United Nations Demographic Year Book (1960).
9. United Nations Year Book (1965).
10. United Nations Year Book (1966).
11. United Nations Year Book (1967).
12. Report of The Special Committee on the Situation with regard to the Implementation of The Declaration on the Granting of Independence to Colonial Countries & Peoples (Study of the Activities of Foreign Economic & Other Interests in Southern Rhodesia & Other Mode of Operation (7 October 1966).
13. Report of the Commission on Rhodesian Opinion under the chairmanship of the Right honourable the Lord Pearce (Presented to parliament — May 1972).

ثانياً — بعض نشرات ومطبوعات صادرة من هيئات تحرير زيمبابوي :

- *1. The Zimbabwe Review (Published by the Publicity & Information Bureau of the Zimbabwe African Peoples Union (Post Box 1657 — Lusaka, Zambia). June 1965- March 1966- April 1966-January 1967- February 1967 -October 1969, Dec 1969 & January 1970.
2. Zimbabwe Today (Published by The Zimbabwe African National Union of Southern Rhodesia (5 Ahmed Hishmat Street Zamalek, Cairo U.A.R. (November 1965, April 1967, Dec. 1969 & January 1970).
3. Nkomo, Joshua : " One Man & One Vote ", The Only Solution in Southern Rhodesia » (Published by Zimbabwe African National Union of S.R.).

ثالثاً مراجع عربية او مقربة :

- 1 — بدير ، صلاح الدين : التفرقة العنصرية في افريقيا (القاهرة 1966) .
- 2 — الراوي ، راشد : الاستعماري البريطاني ومشكلة روديسيا (1966) .
- 3 — البطريق ، عبد الحميد وآخرون : افريقيا حلم الاستعمار البريطاني (1962) .

- 4 — تشيرس ، ر. ج. هاريسون : الاستعمار الحديث (ترجمة دولت صادق — مراجعة محمد السيد غلاب) .
- 5 — الجمل ، شوقي : التضامن الاسيوي الافريقى واثره فى القضايا العربية 1966 ..
- 6 — الجمل ، شوقي : الوحدة الافريقية ومراحل تطورها (1967) .
- 7 — الجمل ، شوقي : تاريخ كشف افريقيا واستعمارها (1971) .
- 8 — حمدان ، جمال : استراتيجية الاستعمار والتحرر (1968) .
- 9 — الخشاب ، شوقي : اتحاد روديسيا — ونياسالاند (القاهرة 1964) .
- 10 — رياض ، زاهر : استعمار افريقيا (1965) .
- 11 — الصتار ، فؤاد : التفرقة العنصرية فى افريقية (1965) .
- 12 — صلى الدين ، محمد : افريقيا بين الدول الاوربية (القاهرة 1959) .
- 13 — غالى ، بطرس بطرس : منظمة الوحدة الافريقية (القاهرة د. ت. الناشر الانجلو) .
- 14 — ليجوم ، كولين : الجامعة الافريقية (ترجمة أحمد محمود سليمان — مراجعة عبد الملك عوده 1964) .
- 15 — نكروما ، كوامى : الاستعمار الجديد (ترجمة خيرى حماد) .

رابعاً — مراجع اجنبية :

1. Abraham, O.P. : The Early Political History of the kingdom Mwnnee mutapa (Slisbury 1962).
2. Barber, James : Rhodesia, The Road to Rebellion (London 1967).
3. Barber, William : The Economy of British Central African (London 1960).
4. Bartlett, V. : Stuggle for Africa (1953).
5. Black, Colin : The Lands and People of Rhodesia & Nysaland (London 1961)
6. Boggs, S. : International Boundaries (New York 1940).
7. Brelsford, W.V. : Hand bookto the Federation of Rhodesia & Nysaland. (London 1960).
8. Carter, Margret : Rhodesia & Nysaland (London 1960).
9. Clegg, Edward : Race & Politics (Partnership In the Federation of Rhodesia & Nysaland (London 1960).
10. Cooper, Ayandele Gravin & Afigbo : The Growth of Africain Civilisation (London 1965).
11. Coupland, : East Africa & Its Invaders (London 1938).

12. Donald, S. Rotschild : Towards Unity In Africa, A Study of Federation In British Africa (Washington 1960).
13. Duffy, J. : Portuguese Africa (London 1959).
14. Franck, Thomas : The Struggle for Power In Rhodesia & Nyasaland (London 1960).
15. Gertrude, Sarah : Rhodes (London 1933).
16. Gross, Felix : Rhodes (London 1933).
17. Hailey, Lord : An African Survey (London 1956).
18. Hanna, A. J. : The Beginnings of Nyasaland & North-Eastern Rhodesia (1859-95) (London 1965).
19. Hanna, A.J. : The Story of the Rhodesia & Nyasaland (London 1960).
20. Hensman, Howard : A. history of Rhodesia Compiled from Official Sources (Edinburg 1900).
21. Hertslet, E. : The Map of Africa by Treaty. Vol. I (London 1909).
22. Johnston, H. : A History of the Colonization of Africa by Alien Races (1913).
23. Keatley, Patrick : The Policies of Partnership (London 1909).
24. Kellie, Scott : The Partition of Africa (London 1985).
25. Kruger, Paul : The memoirs of Paul Kruger Vol. I (London 1954).
26. Kuper, H. : The Shona & Ndebele of Southern Rhodesia (London 1954).
27. Leo Marquard : The Story of South Africa (London 1954).
28. Leys, Colin European Policies in Southern Rhodesia (London 1959).
29. Leys, Colin & Prate, Granford Rhodesia & Nyasaland (N.Y. 1961).
30. Livingstone, David Missionary Travels & Researches In South Africa (1857).
31. Lockhart & Woodhouse : Cecil Rhodes (N.Y. 1963).
32. Marais : The Fall of Kruger's Republic (Oxford 1961).
33. Masan, Philip : The Birth of a Dilemma (London 1958).
34. Maurette, Fernand : Geographic Universelle Tome XII (Paris 1883).
35. Mtshali, Vulindlela : Rhodesia, Background to Conflict (London 1968).
36. Pemberton, Baring : Battles of the Boer War (London 1964).
37. Ransford, Oliver : The Rulers of Rhodesia from Earliest times to Referendum (London 1968).
38. Raner, William : The Tribe & Its Successor (London 1962).
39. Robinson, R & Callagher, J. : Africa & The Victorians (London 1961).
40. Samkange, Stanlake : Origins of Rhodesia (London 1968).
41. Seligman G.G. : Races of Africa (London 1959).
42. Stamp, Dudley : Africa, A Study of Tropical Development (N.Y. 1959).
43. Todd, Judith : Rhodesia (London 1966).
44. Tracey, H. : Antonio Fernandes (Lourenco Marques 1940).
45. Waugh, Evelyn : Tourist in Africa (New York 1960).
46. Welch, S.R. : South Africa Under King Sebastian (Cape Town 1949).
47. Woolf, Leonard : Empire & Commerce In Africa (London 1920).

D : ch. A, A, A :

الإسلام والتطور

في ضوء فلسفة محمد إقبال⁽¹⁾

مقدمة الكتاب

هناك عدة معطيات في تاريخ المجتمعات الإسلامية الحديثة تسبح بتناول موضوع كهذا يتعلق على وجه التحديد بموقف الإسلام من حركة التطور التي يعرفها عالمنا المعاصر .

ذلك أن المجتمعات الإسلامية الحديثة قد عرفت الوانا من التطور الحثيث ، الذي غير وجه الحياة الاجتماعية والاقتصادية التي كانت تعيش المجتمعات الإسلامية على نسقها من قبل ، فأصبحت حياتها الجديدة بعد احتكاكها بالحضارة الغربية تختلف في نظمها وأخلاقها وأسسها التشريعية والقيم التي تنطوي عليها تلك النظم عن الحياة التي عاشتها كامتداد للحضارة الإسلامية الوسيطة .

وهناك عدة عوامل قضت بهذا التفسير ، أو قضت بهذا الانقلاب الجذري في حياة المجتمعات الإسلامية . منها أن القرن العشرين الذي نعيش فيه يوصف بأنه قرن التطور الحاسم في تاريخ البشرية ، ويكفى أن نشير إلى أنه القرن الذي انتقل فيه التاريخ البشري إلى عصر الذرة ، أو

(1) سيصدر للكاتب قريبا كتاب تذكاري عن (محمد إقبال مفكرا إسلاميا) . يتناول هذا الموضوع في إطار سياقه الكامل من موقف إقبال الإسلامي .

غزو الفضاء أو غزو الافلاك والكواكب وانه القرن الذي خاض الانسان فيه غمار حربين عالميتين غيرتا الكثير من القيم والتقاليد والعلاقات الدولية، واستعادت فيه الشعوب المستعمرة استقلالها وسيادتها، ومن جعلتها الشعوب الإسلامية، فواجهت هذه الشعوب مشاكل الحكم الذاتى، ومشاكل التخلف ومشاكل التنمية. وبحسبك أنك لا ترى في كل مجال ولا تسمع على كل لسان الارغبات تنوق الى الحياة الجديدة، والاعقولات تؤمن بالتطور وتنشد التقدم وهذه الحركة لها تاريخ ممتد وطويل ، فمنذ الثورة الصناعية في أوروبا أصبح الإنسان لا يتقدم فقط ، ولا يتطور فقط ، وكان الأمر خارج عن طبيعته وادارته ، وانما يحدد الإنسان نفسه مراحل هذا التطور ، ويخطط لهذا التقدم ، فيختصر المسافات ويطوي المراحل طيا . ومن ثم نرى انسان القرن العشرين سواء كان ينتمى الى العالم الاول أو العالم الثانى أو الثالث يعلم أنه لا بد من ان يتخذ من التطور حليفا بالرغم منه، وان يسعى دائما لتغيير اوضاعه وتجاوز قدم منها واستنفذ امكاناته، والا كان عليه ان يواجه الانحلال أو الموت ، وكانت النتيجة ان كل مجتمع ذا حضارة عريقة كالمجتمعات الإسلامية أصبح يعانى توترا بين ماضيه وحاضره .

وتطرح مشكلة التوتر نفسها على هذا النحو : كيف يوفق المجتمع بين معطيات تراثه وتقاليد ماضيه الذي هو اساس من اساس الاستمرار والاصالة وبين مشكلات التعاصر وتجاوز الاشكال العتيقة ، مما يعتبر اساسا للتحرر والانعتاق والتكيف مع الواقع ؟

وتطرح مشكلة التأصل والتعاصر نفسها على جميع المستويات ، ولا يمر يوم دون ان يزيد من تضيق سلطان الماضى على نفوس الناس وعقولهم بالنسبة لهذه الشعوب التى كان لها ماضى ترو به وتعتز ، وذلك تحت ضغط التقدم الآلى ، ومشاكل التنمية التى تعطى الاسبقية لضمان الغذاء والعمل والصحة والتعليم .

وهناك عامل آخر ، وان كان يطرح من وجهة نظر خاصة ، هو ان الإنسان الذي اكتشف قوانين الطبيعة ، وسخرها في خدمته يحاول ان يكتشف القوانين التى يتحرك بها تاريخه ، وذلك لتحقيق مصيره المحتوم مع

تجنب ما لا غناء فيه لعرقلة هذا التاريخ المتطور عبر مراحل معلومة نحو مصائر معلومة . أما الماركسى فيعتقد أنه قد اكتشف هذه القوانين بالفعل ، وأما سواء من عقلاني أو ميتافيزيقي فما يزالان يعتبران التطور خارجا عن ارادة الانسان نفسه ، وما تزال قوانين هذا التطور في حكم الغيب .

وإذا كان التطور الانساني حقيقة لا تقبل الجدل أفلا يحق التساؤل بالنسبة لنا نحن المسلمين على هذا النحو الذي طرحه منذ سنوات المستشرق الأمريكي ولفورد سميث : هل هناك شيء خاص يخص الاسلام والمسلمين في هذا المعترك الحضاري ، وفي هذا الانغمار الدرامي في صنع تاريخ جديد للانسان ؟

والحقيقة أن المفكرين الاسلاميين الواعين ، منذ جمال الدين الافغانى كانوا يشعرون بهذه المشكلة على نحو من الانحاء ، وغالبا ما صوروها بصورة الصراع بين الاسلام والحضارة الغربية . ووقفوا منها او من الحضارة الغربية مواقف متباينة عكست تصورات متباينة للاسلام ، من التصور السلفى الوهابى الى التصورات الاخرى المتعددة المتعاقبة . فقد كان للاسلام في نظرهم جميعا صورة ثابتة في جميع مستوياته ان في التشريع أو في الاخلاق أو في الاعتقاد (2) . وكانوا يرون التحرك الحضاري ينطوي على مناقضة الاسلام ، لا سيما حين يتعلق الامر بتحكيم العقل وحده في توجيه الحياة الانسانية .

واذن فمصير الاسلام اليوم يتوقف الى حد بعيد على قدرة المسلمين انفسهم على اقامة ذلك التوازن بين سلطان العقل وسلطان الوحي ، في الحدود التي رسمها الاسلام نفسه على أساس التصور الميتافيزيقي الذي يقدمه في هذا المجال . أين يقف المسلم وأين يتقدم ، وأين يحكم عقله ، وأين يلتزم بأمر الله ويسكت صوت عقله ، ماذا يأخذ وماذا يدع من حضارة الانسان الراهنة ومعطياتها ونزعاتها ؟

(2) هناك استثناءات لا سبيل الى ذكرها الآن ، كموقف محمد عبده مثلا من بعض الاصول الاسلامية .

لا نحسب هنا أن ندلى برأي خاص في هذا المشكل الخطير ، وإنما نحسب أن نميط ستار النسيان . إذا لم يكن هناك إلا النسيان عن افكار رجل مسلم وشاعر وفيلسوف أنجبته الهند الاسلامية ، فيمن أنجبت من عباقرة ومفكرين ، هذا المفكر هو محمد اقبال ، الشاعر الفيلسوف الباكستاني الذي نحى هذه السنة ذكره الميلاية المثوية الاولى ، ففى افكاره ما يشكل موقفا متميزا بين المواقف الاخرى ، قوامه العمق والاخلاص والشجاعة .

لقد نظر الكثيرون الى اقبال على أنه شاعر ، أو على أنه فيلسوف ، أو على أنه رائد من رواد انشاء دولة باكستان . وننظر اليه الآن كمفكر اسلامى واجه قضية الاسلام والتطور مواجهة صريحة وعميقة .

هناك فى الحقيقة عدة عوامل حملت اقبال على اثاره هذا الموضوع . فقد لاحظ اولا ان التفكير الدينى فى الاسلام ظل راكدا خلال القرون الخمسة الاخيرة ، فى حين عرف الفكر الاوروبى خلال هذه القرون الخمسة بالذات حركة دائبة ، ونهضة شاملة ، وتطورا خلافا افادت منه الانسانية جمعا فى كل ميدان من ميادين الحياة . دع عنك ان هذه النهضة الاوروبية افادت هى بدورها الشئ الكثير من الحضارة الاسلامية ، فهذا ما لا يغير اليوم من واقع الامر شيئا . وواقع الامر هذا ان المسلمين اليوم أصبحوا — كما يرى اقبال — ينفذون نحو الغرب ، ونحو تمثل حضارته ، والتعلق روحيا بفلسفاته مما يتنافى فى ذلك مع دينهم وقيمهم . وان ما يخشاه المرء من هذا التعلق والانقياد لتأثير الغرب أن يكون المظهر البراق لحضارته وثقافته عائنا يشل حركة التقدم ، وينحرف بالتفكير الاسلامى عن وجهته ، ويصبح المسلم فى وضع استلابى ، لا يملك لنفسه ضرا ولا نفعا الا بما تشاء له مصلحة الغالب فى الضعيف المغلوب .

وهناك امر آخر شعر به اقبال ، فى تلك الفترة من حياته ، وهو أن شباب المسلمين فى آسيا وأفريقيا يبحثون عن توجيه جديد لعقيدتهم ، أي يطلبون مفاهيم جديدة للدين تتناسب مع تطور العقل الانسانى . ولهذا كان من الواجب أن تبرز هذه البقطة التى هبت ريحها على الشعوب الاسلامية بثقافة جديدة ، تقوم على تحييص حقيقى لنتائج الفكر الاوروبى،

وبروح مستقلة ، لتكشف للأجيال الاسلامية عن المدى الذي تستطيع به الحضارة الغربية وثقافتها ان تفيدنا به نحن المسلمين في اعادة بناء حضارتنا ، والنظر في شؤون حياتنا العقلية او في تجديد تفكيرنا الدينى ، او في بنائه اذا لزم الامر .

وامر ثالث لم يغفل عنه اقبال ، واعتبر من الخطأ تجاهله أو تجاهل تأثيره على الشبيبة الاسلامية . وهو هذه الحركات الالحادية ، والفلسفات المادية والانظمة المنبثقة عنها ، والتي اخذت تحرك اطرافنا من شعوب آسيا وتغزو المجتمعات الاسلامية . ولا ادل على ذلك في نظره من تأثير بعض مفكري وشعراء تركيا الذين ثاروا على الاسلام ، وخلصوا ربقته ، وكانوا نواة الانقلاب اللادينى فى الربع الاول من هذا القرن .

كل هذه العوامل ، وما كانت تمارسه من ضغوط على تطور المجتمعات الاسلامية بحيث توجهها فى خط بعيد عن الاتجاه السليم نحو تمثّل عقيدتها واحياء دينها لاحظته محمد اقبال وقدر عواقبه ، فاعلن : « انه آن الاوان للنظر فى مبادئ الاسلام وأصوله » (3) . ومن أجل هذه الغاية ساهم فى مناقشة بعض المبادئ الاساسية والاصول الاعتقادية فى الاسلام ، التى من شأنها ان تعين الاجيال الجديدة على فهم هذا الدين فهما صحيحا ، بوصفه الدين العام الاكمل الذى ارتضاه الله للانسانية . وهذه المناقشة هى اطار محاضراته الست التى جمعها فى كتابه (تجديد التفكير الدينى فى الاسلام) (4) .

اما من حيث المنهج الفكرى الذى انتهجه فى تحديد موقف الاسلام من التطور الحتمى الذى كان يغير كل شىء فى تاريخ الشعوب الحديثة فهو منهج مستمد من مزاج رجل فيلسوف أو مفكر متأثر بالمازاهب الفلسفية الغربية . فهو لم ينظر الى قضية تطور الاسلام كمشكل مستقل عن فلسفة الاسلام نفسها ، اى عن بنائه الميتافيزيقى كله ، بل نظر اليه كحركة ينظمها

(3) تجديد التفكير الدينى : ص 15 .

(4) دعى اقبال سنة 1928 الى كلية مدراس ، فلقى اولى محاضراته الست التى اكملها فيما بعد فى اله آباد وعلمكرة . (محمد اقبال للدكتور عبد الوهاب عزام) . ص 33

الموقف الاسلامى ككل من طبيعة الحياة الانسانية ورسالة الانسان على الارض .

ان التحديات الجديدة التى يواجهها الاسلام اليوم تجاه الحضارة الغربية بعضها ثقافى ، وبعضها حضاري ، وبعضها ايدىولوجى . وهذه التحديات طبيعية وليس الخطر فى وجودها بقدر ما يكمن الخطر فى سوء فهم المسلمين لدينهم ، بحيث يقود سوء الفهم هذا الى موقف خاطئ . وهنا نتساءل : ما موقف الاسلام اساسا من ظاهرة التطور مع العلم انه دين له طبيعة الدين السماوي الكامل ، ولا سبيل الى اعادة النظر فيه الا من جهة واحدة وهى الاحتجاج له او الدفاع عن مبادئه مثلما فعل المتكلمون الاولون . فالاسلام بطبيعته لا يقبل أي شكل من أشكال التطور طالما انه وحى وانتهى فى عهد صاحب الرسالة وخاتم النبيين محمد (صلى الله عليه وسلم) ، وطالما أننا نفهم من كلمة التطور مفهومها البيولوجى أو العلمى (5) .

من أجل ذلك اضطر اقبال الى فحص مبادئ الاسلام الميتافيزيقية من جديد ، والنظر من جديد فى طبيعة المبادئ التى جاء بها الاسلام ، وما توحى به من مواقف ، او تمنحه من اعتبار لطبيعة الانسان فى هذا الكون ، وهى طبيعة متطورة بنفسها . وأذن ما هو التصور الذى يقدمه الاسلام للانسان عن دوره فى الحياة ، ومن صلته بالوجود ، وعن تنسيق جهوده ، والتوفيق بين حاجاته وغاياته العليا ؟

ان المجال يضيق أمامنا عن تحليل كل ما يتصل بهذا الموضوع على النحو الذى حلله محمد اقبال فى محاضراته الست ، من أجل صياغة فلسفة كلامية جديدة ينطلق منها المسلم المعاصر نحو مواجهة واقعه وبناء وجوده . ولكن لا ينبغي رغم ذلك أن يفوتنا تحديد المنطلق الاساسى الذى سينطلق منه نحو تحديد موقف الاسلام .

يرى اقبال ان موقع الانسان من الوجود ، وطبيعة تكوينه هما يهيئانه لامرين أساسيين :

5) انشأتى لتحديد مفهوم التطور أثناء المقالة .

1) الامر الاول ادراك ما يحيط به من الظواهر الكونية ، بحكم ما زود به من قدرة عقلية ، تمكنه من بناء صرح المعرفة او العلم فى شتى مناحيه وموضوعاته .

2) والامر الثانى اكتشاف الحقيقة الكلية وادراكها مباشرة بحكم ما زود به من قدرة على خوض التجربة الروحية التى تعتمد على البصيرة والالهام . فهناك اذن الفكر والبداهة ، العقل والبصيرة ، التجربة العلمية والتجربة الدينية .

وليس هناك فى نظر اقبال من سبب يدعو الى الظن بأن الفكر والبداهة متضادان بالضرورة ، لانها ينبعثان من أصل واحد ، وكل منهما يكمل الآخر ، فأحدهما يدرك الحقيقة جزءا ، والآخر يدركها فى جملتها ، يتقيا فى هذا المنطلق مع الفيلسوف الفرنسى برجسون القائل بأن الحدس الوجدانى ليس الا ضربا عاليا من التفكير .

الانسان فى نظر اقبال يسعى الى ادراك هذا العالم ، عن طريقى تتبع ظواهره وأحداثه ، وتحديد صفات كل منها لاستنباط القوانين ، وتصنيف الأشياء ، وإقامة صرح المعرفة على أساس من وعى ما يجري ، وادراك النظام الذى يتحرك به كل شىء . وبإمكانه مع ذلك — لو أراد أن يسعى — أن يكتشف الحقيقة العليا المحيطة بهذا النظام نفسه ، المدبرة لوجوده ، من خلال تجربة روحية ، تتخطى كل الحواجز المادية القائمة بين الانسان وبين هذه الحقيقة المطلقة ، فمعلقته بالكون فى المستوى الاول أو المستوى الثانى علاقة واعية عاقلة حدسية . وهكذا يتحدد مصدر الدين نفسه فهو فى جوهره مستمد من المصدر الثانى ، مصدر الوعى أو التجربة الدينية ، التى هى بطبيعتها فوق تجربة العقل . وليس الوعى الا ظاهرة كونية من ظواهر الوجود ، تتدخل فى توجيه عوالم متعددة على تفاوت فى قدرة التلقى وسمو الغاية ، من هذه العوالم التى نعلمها عالم الملائكة وعالم الانسان ، وعالم الحيوان وعالم الجهاد . والآيات التالية تشير الى هذه الدلالة الشمولية للوحي :

— « وما ينطق عن الهوى ، ان هو الا وحى يوحى » . (6) .

— « واوحى ربك الى التحل ان اتخذي من الجبال بيوتا ومن الشجر
ومما يعرثون » (7) .

— « اذ يوحى ربك الى الملائكة اتى معكم فثبتوا الذين آمنوا » (8)

— « واوحى في كل سماء امرها » (9) .

— « يومئذ تحدث اخبارها بان ربك اوحى لها » (10) .

وتتفاوت درجات الوحي حسب درجات الكائن الذي يتلقى هذا التوجيه
الغيبى . والمهم ان الانسان في طفولته البشرية كان اقرب الى ضرورة هذا
التوجيه النبوي او السماوي ، لان عقله الاستدلالي لم يبلغ به بعد درجة
يمكن الاعتماد عليها في قيادة حياته . ولكنه عندما بلغ رشده أصبحت قوة
الوجود العليا تكبت فيه تلقائيا تلك القوى الروحانية الاخرى التي لا تتلاءم
مع مسئوليته ، وتتركه لمقاليذ العقل ثسينا فثسينا . ولهذا اعلن الاسلام
ختم النبوات واعلن كمال الدين . (11) ، وكأنه يعلن بذلك ضمنيا ان العهد
الذي يتكل فيه الانسان على التدخل الغيبى قد انتهى ، وان ما لا يبلغه
الانسان الا بالوحى قد تقرر نهائيا ، وان تاريخ الانسان بعد مجيء
الاسلام يواجه مرحلة جديدة يعتمد فيها على عقله . ويقول محمد اقبال
بهذا الصدد : « ان النبوة في الاسلام تبلغ كمالها الاخير في ادراك الحاجة
الى الفناء النبوة نفسها ، وهو امر ينطوي على ادراكها العميق لاستحالة
بقاء الوجود معتمدا الى الابد على مقود يقاد منه ، وان الانسان لكي يحمل
كمال معرفته لنفسه ينبغي ان يترك ليعتمد على وسائله هو (12) .

46 سورة النجم ، الآية 4 .

47 سورة النحل ، الآية 68 .

48 سورة الانفال ، الآية 12 .

49 سورة فصلت ، الآية 12 .

50 سورة الزلزلة ، الآية 5 .

51 قال الله تعالى : اليوم اكملت لكم دينكم وانمتم عليكم نعمتى ورضيت لكم الاسلام ديناً

المائدة 3 .

52 تجديد التفكير الدينى في الاسلام ص 144 .

— والاسلام في نظر اقبال يعلن ان التاريخ البشري قد بدا مرحلة العقل ، وهذا سر اهتمام الاسلام في نظرنا بالفعل في منطوق النصوص ومفهومها ، واعتباره التفكير فريضة دينية (13) .

والاسلام من منظور آخر انما يواجه في هذا العصر المشكلة التي واجهها في عصر مضى ، وهي مشكلة الصراع الدائر بين الدين وبين الحضارة . فالدين من حيث هو نظام عقائدي ثابت يبحث حسب كل ديانة عن مستقر للحياة الروحية ، يتخلص فيه الانسان من الصراع المادي والروحي. اما الحضارة فهي نظام للحياة الاجتماعية ، متجدد منفتح على معطيات التجارب البشرية . والحضارة انما تبحث عن رفاهية الانسان وسعادته الارضية قبل كل شيء . هذا التعارض الصميمي بين نزعة الدين الروحية، وبين نزعة الحضارة المادية تجلى مثلا في المسيحية ، التي تقود الانسان الى الخلاص عبر آلام التطهير نحو مستقر روحي ، وتتجلى في النصوص الذي يجعل من شعاره : « موتوا قبل ان تموتوا » (14) . ان هذا التعارض بين الذات والموضوع ، او بين العالم الخارجى والذات الانسانية بين فهم انكون كحقيقة موضوعية ، وبان احتوائه كحقيقة مطلقة صوفية هو ما ينبغى ان نبحث عن موقف الاسلام منه . وهنا يعلن اقبال ان الاسلام يختلف عن المسيحية ، لانه يدرك ما بين عالم الذات وعالم الواقع من علاقة مادية ، بل هو يريد ان يبقى على هذه العلاقة في ونام ، ويوجه العقل الى التماس القناعة بالحقيقة العليا من خلال هذا الكون المادي . وان اكتشاف نظام هذا الكون حسب منطق القرآن هو المجال الوحيد للبرهنة على وجود الله ، والآيات التالية دليل على ذلك :

— « وما خلقنا السماوات والارض وما بينهما لاعبين . ما خلقناهما الا بالحق ولكن اكثرهم لا يعلمون » (15) .

— « ان في اختلاف الليل والنهار وما خلق الله في السموات والارض لآيات لقوم يتقون » (16) .

(13) الف العقاد كتابا في هذا الموضوع . بعنوان ((التفكير فريضة اسلامية)) . ط . دار القلم .

(14) حديث غير ثابت ، ولعله من وضع بعض الصوفية . راجع المقاصد الحسنة ص 202 .

(15) الدخان 38 - 39

(16) يونس : 6

بالإضافة الى ذلك فان العالم مرتب على نحو يجعله قابلا للامتداد والزيادة قال تعالى « يزيد في الخلق ما يشاء ، ان الله على كل شيء قدير » (17) ويستنتج اقبال من ذلك ان هذا العالم كتلة قابلة للامتداد والتطور ، وليس كتلة مكتملة الخلق ، وربما استقر في اعماق هذا الكون حلم نهضة جديدة . « قل سيروا في الارض فانظروا كيف بدا الخلق ثم الله ينشئ النشأة الآخرة ، ان الله على كل شيء قدير (18) .

تلك طبيعة العالم ، وما يحمل في طياته من امكانات التجديد والتطور ، والانبعث بعد الانحلال . فما طبيعة الانسان الذي يواجه هذا العالم ؟

يجيب اقبال بان طبيعة الانسان طبيعة قلقة ، تشغلها المثل العليا ، وتنزوي بها الحاجات الملحة ، ولهذا تعاني الآلام المبرحة في سبيل البحث عن الآفاق التي يتحقق فيها التوازن المنشود ، فالانسان كتلة بيولوجية ، تعكس ما في الطبيعة من امشاج وتناقضات ولكنه في نفس الوقت روح متسامية وعقل مستنير ، وبصيرة نافذة ، فهو قادر على اكتشاف نفسه وقيادتها ولهذا فهو مدعو الى اختراق الآفاق لمعاناة الحقيقة والتسامي اليها عبر مراحل من التطور والارتقاء . وبهذا يؤول اقبال معنى الآية : (فلا أقسم بالشفق والليل وما وسق والقمر اذا اتسق لتركبن طبقا عن طبق » (19) .

فلا تعارض اذن بين الذات والموضوع ، ولا بين الروحي والمادي في التصور الاسلامي . فاذا أضفنا الى ذلك ان القرآن دعا العقل الانساني لاكتشاف عالم الطبيعة ومجرى التاريخ وما ينطويان عليه من قوانين او سنن كونية ، وهى دعوة صريحة الى مواجهة عالم الحس والتجربة عن طريق الاستقراء والاستدلال ، وكيف انتهى هذا المنطق الحسى التجريبي في الفكر الاسلامي الاصيل الى مناقضة المنطق اليونانى الصوري عرفنا مدى الاعتبار الذي يوليه الاسلام للوجود المادي . والنتيجة من هذا كله ان

(17) فاطر : 1

(18) المنكبوت : 20

(19) الانشقاق : 16 .

الطبيعة والتاريخ سيظلان في حركة جدلية خلقة ، فالإنسان سيد بيئته ، وقد رسم له الإسلام منهج التفكير والبحث لتسخير هذه البيئة وإدراك قوانينها ، وتلك هي أصول الموقف الإسلامي التي يتحدد في ضوءها موقفه الآخر من حركة التطور . وهذه الأصول هي تركية العقل واعتبار المادي وجها للروحي ، واعتبار التجربة والاستدلال الحسي المنهج الوحيد الذي يقود الى الحقيقة ، جزئيا عن طريق التجربة العلمية ، او كليا عن طريق التجربة الدينية .

ولكن، هل حددنا مدلول التطور الذي نقصده في هذا المجال؟ ينبغي قبل ان نمضى في الاستنتاج ان نحدد طبيعة هذا التطور الذي يحاول أقبال التوفيق بينه وبين طبيعة الإسلام :

يمكننا ان نلاحظ ظاهرة التطور — باعتباره اتجاها عاما للنمو، وتنويع الوظائف ، وتمعید البنيات ، وتجاوز الاشكال الجاهزة ، في ثلاثة مستويات :

1 — المستوى البيولوجى العضوي .

2 — المستوى الاجتماعى فى الحياة الانسانية .

3 — المستوى الثقافى بكل ابعاده .

ولكى لا نقوط فى ايراد تفاصيل المفاهيم التى يطرحها علماء البيولوجيا او علماء الاجتماع ، او الاثنولوجيون ، او الانثروبولوجيون لظاهرة التطور علينا ان نعتبر ان المستوى الاجتماعى هو الذى يهمنا . وقد ألحت فكرة التطور على الاجتماعيين منذ ظهور كتاب داروين « اصل الأنواع » فى منتصف القرن الماضى . فاصبح لهذه الكلمة سحر خاص فى نفوس الناس ، وبولغ فى أهميتها ، واخذ كل باحث فى ميدانه الخاص يبحث عن التطور فى المادة التى يبحثها ، ولو كانت أدبا . وكان اوغوست كونت اهم من اعتبار التطور قانونا طبيعيا فى الميدان الاجتماعى والثقافى ، وجاء

بعده سبينسير فجعل التطور قانونا كونيا شاملا . فلنأخذ اذن بظاهرة التطور في المستوى الاجتماعي على أن نفسرها بأبسط ظواهرها . وهنا نجد أن المجتمعات تتبع خطا واحدا من النمو الاجتماعي ، يتجلى في تزايد التخصص المهني ، والتشعب في التنظيم ، والتعقيد الاقتصادي ، والتنوع في الانتاج ، واستبدال الاشكال المستنفدة بأشكال أخرى أكثر دقة وأوفى حاجة . ولكن هل يعنى هذا التطور حتما معنى التقدم ؟ ذلك ما لا يتفق عليه المختصون في هذه الدراسات . لان من المتناقضات الغربية أن يصبح التطور في بعض المجتمعات مهددا بانحلال البنيات الاجتماعية ، بحيث يخلق فجوة لا تعبر بين التقدم التقنى والانحلال الخلقى ، بين تسخير الطبيعة ، وضياح الانسان — كما حصل في بنیان الحضارة الغربية — وكلما أمعن التطور في هذا المجال ازداد التدهور في المجال المقابل . وعلى أي حال فإن المجتمعات تنسلخ من حضارتها التقليدية ، وتندمج في حضارة جديدة ، وكان ذلك تحت تأثير الاحتكاك بالحضارة الغربية نفسها ، فاخذت هذه المجتمعات الاسلامية الحديثة عرفت هذا التغير العميق في بنياتها الاجتماعية، تختلف في قيمها وفي اصولها عن الحضارة الاسلامية .

وبالرغم مما كان يقال عن هذه الحضارة الغربية أو ما يزال يقال من ضروب النقد والتنديد فإن هذه الحضارة أفلحت أخيرا في الهيمنة على اوضاعنا الاقتصادية والاجتماعية والفكرية . فالعالم الاسلامي اليوم يتحرك مع الاقتصاد العالمي ، ويتعامل في ذلك بمقتضى قوانين السوق الرأجبة، وبمقتضى الفوائد الربوية غير مبال بتحريم أو تحليل . والعالم الاسلامي يتحرك مع الانظمة الاجتماعية والسياسية التي اشاعتها التجربة الغربية بين أمم العالم ، فيذهب بعضها يمينا ، وبعضا يسارا ، نحو البحث عن اقرار عدالة اجتماعية ، تستهدف رعاية حقوق الاقلييات أو الاكثريات حسب المذاهب والانظمة . ووراء هذين الاتجاهين : الاقتصادي والاجتماعي تنهض بنيات فوقية من الايديولوجيات والثقافات والقيم الاخلاقية .

حصل هذا التغير أو التطور في العالم الاسلامي ، فانار حربا في كل نفس ، ومعاركة على كل لسان ، فطائفة مضت في التكيف مع الواقع الجديد لا تسال نفسها ، ماذا تركت خلفها ، ولا ماذا تستقبل امامها . وطائفة

جمدت على تقاليدها وتحدت كل تغيير ، فعزلت نفسها عن التأثير في الواقع .
وطائفة ظلت تتردد بين المحافظة وبين التجديد ، بين الثبات وبين التطور ،
باحثة عن التوفيق أو التلفيق ، ولم يكن لها وزن عند هؤلاء أو أولئك .

نحن اذن امام تطور هائل ، أو مخيف ، أو منذر بأسوأ العواقب ، على
مجتمع يملك ميراثا من حضارة ، وقيسا من وحى ، وقوة من الماضي يعتز
بها ، ولا تسخر نفسه بتركها . وكان محمد اقبال من أولئك الذين شعروا
بهذه اندوامة الرهيبية ، وبما توشك أن تفضى اليه من القضاء على هذه
الحضارة الاسلامية ، واطفاء نورها ، شعر اقبال بهذا الخطر على نحو
من الانحاء . وبادر الى عمل شيء في سبيل تجنب الكارثة . وكانت تبدو امامه
عدة واجهات للعمل . ومنها واجهة ترميم الفكرة الدينية في قلوب الناس
وعقولهم ، بملء الفراغ الروحي بما يتلائم مع الحياة الجديدة . ومنها واجهة
الدفاع عن الاسلام امام طعون المستشرقين والمنكرين والملاحدين ، كحملة
من حملات الاستعمار والتغريب . ومنها واجهة الحياة الاجتماعية والنفسية
للمسلمين وما ران عليها من فساد وانحلال وسلبية ومشاعر خسيصة
وقاعة باليأس والحرمان والتبعية

ومن هنا جاءت فلسفة اقبال الدينية ، ودواوينه الشعرية الطافحة
بالحماس والاخلاص والنقد والتوجيه والشكوى والعتاب . دعا الى الايمان
بأنذات ، واضعا فلسفة لثماسكها وصنع مصيرها في منظومة (أسرار
خودي) ، وفيها دعا الى العمل ، والاهتمام بالمعالم المادي ، والتحرك مع
الواقع ونبت التصوف الرهباني وما يدعيه من خوارق ووصول وحلول (20).

(20) ويكفي أن نشير الى أن اقبال يجعل من مقاصد الحياة وأهدافها العليا الدوافع الكبرى
للخلق والإبداع والتجدد المستمر ، فلا حياة بدون دوافع تتسامى بالذات عن نفسها في
كل لحظة . وفي هذا المعنى يقول :

جـرس في ركبها ما تقصـد
سرهما في السـمى منها يضمـر
أو يحل طينك نربا مهمـلا
ما سوى الحق لدى القلب هباء
هـيـض سقطا وعن الطير ونـسى
يطفئ الشـعلة فـقدان الفـضاء

إنما يبقى الحياة المقصـد
أصلها في أصل مستـتـمـر
أحـى في قلبك هـذا الإيمـلا
فحياة القلب من نار الرجاء
فإذا همى بتحليق الهـنى
ويبيت الحى فقدان الرجاء

ودعا الى الروح الاجتماعية وتسخير الذات في خدمة الجماعة في منظومة اخرى سماها : « رموز بيخودي » . ثم قام بعد ذلك بعشر سنوات بالقاء محاضراته الست في موضوع تجديد الفكر الدينى في الاسلام ، وفي هذه المحاضرات حاول بناء علم كلام جديد يلائم فيه بين الكثير من الآراء الفلسفية والمعتقدات الاسلامية . وكان حديثه عن ضرورة التطور بالنسبة للمجتمع الاسلامى مبنيًا على اساس ما للاسلام من تصور كونى يلقى على الانسان مسؤولية تشكيل مصيره وتحقيق خلوده ، والتواصل مع الحقيقة العليا .

وفي المحاضرة الخامسة من محاضراته يعرض لموضوع يتصل بقضية التطور ، وكيف يقوم التشريع الاسلامى على اساس اعتبار هذا المبدأ اعتبارا اكيدا . فما جوهر دعوته في الموضوع ؟

يقرر اقبال ان ثقافة الاسلامية قامت على اساس اعتبار الكون متحركا متغيرا على الدوام . كما قامت على اساس ثان ، وهو وجود حقيقة مطلقة تعتبر الظواهر الكونية المتغيرة دليلا على وجودها وهى الله . ويقول :

ان المجتمع الذي يقوم على تصور الحقيقة على هذا الوجه لابد من ان يوفق في وجوده بين نسق الثبات ، ونسق التغير في آن واحد . ولابد لهذا المجتمع ان يكون له في شريعته مبادئ ابدية تنظم حياة الجماعة وتضبط امورها ، وذلك لان الثابت الابدي يثبت اقدامنا في عالم متغير باستمرار . ولكن اذا فهمنا ان المبدأ الابدي يستبعد كل امكان للتغيير فان هذا الفهم قد جعلنا نثبت ما هو متحرك بطبيعته وان اخفاق اوروبا في تجربتها السياسية والاجتماعية يشير الى عدم ايمانها بما هو ثابت في هذه الحياة . كما ان اخفاق العالم الاسلامى في القرون الخمسة الاخيرة من انحطاطه يشير الى عدم ايمانه بضرورة التغير والتطور ، والاساس الذي يعتبره اقبال منطلقا لهذا التطور هو النظام الحقيقى او التشريعى في الاسلام ، لانه وحده ينظم سلوك المجتمع الاسلامى ويحفظ كيانه ويرعى حاجاته ويلبى تطلعاته . فاذا كانت الشريعة الاسلامية قابلة للتطور كان الاسلام حتما

منسجما مع تلك الاصول التي بنى عليها تصوره الميتافيزيقي ، وهي التي تضم الكلام عليها . ومصدق ذلك أن الثقافة الاسلامية غنية بمادة الفقه ، تلك المادة التي استوعبت كل امكانات التنظيم لبيئة متعددة الاجناس والحضارات ،

ويعتبر اقبال ان الاجتهاد في الشريعة الاسلامية هو الباب الاوسع لتحقيق كل تطور اجتماعي تمليه الضرورة ، ان جميع المذاهب الفقهية اقرت بإمكان الاجتهاد ولو في أضيق الحدود . فكيف انتهى الامر بالفقهاء الى اغلاق باب الاجتهاد ، وهو امر يعده اقبال منافيا لطبيعة الشريعة الاسلامية ، ومنافيا لمبدأ الحركة في التفكير الاسلامي ؟ لقد علل ذلك بخوف الفقهاء من امتداد الحركة العقلية على يد المعتزلة ، وهي حركة خاضت في امور قطعية لا سبيل الى مناقشتها . فماذا يكون مصير الجماعة الاسلامية لو امتدت هذه الحركة العقلانية الى ميدان الفقه نفسه ؟ وكانت هناك حركة التصوف التي شاعت في المجتمع الاسلامي ، وجعلت بعض المتصوفة يتردون على ظاهر الشريعة ، ويستخفون بالنصوص ، ويفرقون بين الشريعة والطريقة والحقيقة . ويدعون انهم تجاوزوا الرسوم والشكليات. فقوى ذلك كله من حركات التحرر من ربة الشريعة، واهمال الانضباط مع النظام الاجتماعي . ثم جاءت كارثة سقوط بغداد على يد المغول فخشى الفقهاء على مصير الوحدة الاسلامية ، ووقفوا جميعا وراء النظام الاجتماعي الذي تحميه المذاهب القائمة بالفعل ، واغلاق باب الاجتهاد دون احداث مذهب جديد ، او رأي جديد . وقد أصابوا في ذلك واخطأوا ، أما صوابهم فيرجع الى ضرورة وجود عناصر ثابتة في حياة المجتمع ، والى ان كل استقرار اجتماعي انما تحققه القوة الالزامية والمستقرة للقانون . وأما خطؤهم فيرجع الى كونهم تشبثوا بهذا الثبات الى حد تجاهلوا معه حقيقة التطور . فوقعوا في التقليد والجمود . وقد حدث رد الفعل على يد ابن تيمية الحنبلي الذي استرد حق الاجتهاد، كما عمل فقهاء آخرون كبار على استئناف النظر المباشر في النصوص الاسلامية متجاوزين حدود التقليد كابن حزم الظاهري .

ويعتقد محمد اقبال ان حركة تركيا في الانقلاب الجذري الذي حققته انما قامت على هذا الاساس من الاجتهاد ، ونعتقد أنه ركب الشطط في هذا

القول ، لانه سيفضى به الى القول بأن فصل الدين عن الدولة ضرب من ضروب الاجتهاد، وقد أحس بذلك وظل موقفه غير واضح في هذه القضية، أو لعله قصد الى أن تحويل الدولة الاسلامية من نظام الخلافة الى نظام الجمهورية بالمعنى الحديث هو ضرب من ضروب الاجتهاد .

لقد وضع اقبال على نفسه هذا السؤال الصريح : هل التشريعة الاسلامية قابلة للتطور؟ وكان جوابه ان التشريعة تقبل هذا التطور بشرط ان يواجه العالم الاسلامى هذا السؤال بروح الشجاعة والاستقلال في الراي كما كان يفعل عمر بن الخطاب . وهو ينظر الى كثير من المواقف المعروفة لعمر بن الخطاب في تطبيق النصوص الدينية واحكامها وكان ينظر أيضا الى ما يمكن أن يؤدي اليه حرية الفكر في الاسلام الحديث ، وفتح باب الاجتهاد من نتائج ايجابية أو سلبية معا ، ولهذا نراه عندما نادى بحرية الراي وفتح باب الاجتهاد ناشد زعماء الإصلاح في الدين والسياسة ألا يتجاوزوا في تحمسهم لتحرير الفكر الحدود الصحيحة للإصلاح، مشفقا ان يؤدي التهور في ذلك الى ما أدت اليه الحركة البروتستانتية في أوروبا.

ومن جملة الاصول التشريعية التي يحلها اقبال في هذا المجال القول بأصلية الاجماع في التشريع الاسلامى ، ويستغرب كيف أن هذه الفكرة الهامة ظلت مجرد فكرة لا غير عبر التاريخ الاسلامى دون أن تتحول الى نظام تشريعى ثابت يبرز السلطة التشريعية للامة الاسلامية. غير انه يعلل ذلك بأن مصلحة الحكم المطلق الذي عرفه تاريخ الاسلام كان يتعارض مع هذه الفكرة العظيمة القيمة ، اذ ربما أدى تطبيق حق الاجماع الى قيام معارضة صعبة المراس على الخلفاء والسلطين ؟ على أن مما يبعث على الارتياح ان ضغط العوامل العالمية وتجارب الشعوب الأوروبية قد جعل الفكر الاسلامى وقادة المسلمين يفهمون ما لفكرة الاجماع من قيمة عظيمة، وما تتطوى عليه من امكانات لتغيير الكثير مما يجب تغييره من النظم والاوزاع . ويعتقد ان قيام هيئة تشريعية في كل بلد اسلامى هو التحقيق الوحيد لفكرة الاجماع . ففي هذه الهيئة يلتقى العلماء بالشريعة ، مع خبراء في كل فن ، او مع المثليين للراي العام فيشتركون جميعا في وضع ما يتناسب مع مصالح الجماعة من تشريعات ونظم . وقد ناقش اقبال بتوسع

كل اصول التشريع الاسلامى من قرآن وحديث وقياس واجماع ، مستخلصا كل النتائج الايجابية التي يمكن الاستفادة منها في تطوير الشريعة الاسلامية.

واخيرا ينظر اقبال الى ان التطور هو حاجة نفسية واجتماعية كما انه ظاهرة بيولوجية . وتطور الانسان المعاصر في المجال الروحي والمادي دليل على هذه الحاجة ، وعلى ما ينبغي ان تتجدد معها من ضروب التوجيه والاصلاح . فالانسانية اليوم تحتاج الى ثلاثة امور :

(1) استعادة الايمان بالروح في هذا الكون ، او رد الاعتبار لكل ما هو روحى .

(2) تحرير روح الانسان ، وتحرير عقله من رق التبعية والتقليد

(3) وضع مبادئ جديدة توجه المجتمع البشرى نحو المساواة والاخوة الانسانية على اساس روحى .

ولقد اعتقد ان في بعض المذاهب الفلسفية الغربية ما يجنح نحو هذه النزعة الانسانية او الروحية ، ولكن التجربة كشفت عن ان الحقائق التي يصل اليها العقل وحده لا قدرة لها على اشعال جذوة الحماس في النفس الانسانية ، بقدر ما يستطيع ذلك الدين وحده . واوروبا في تجاربها السياسية والاجتماعية دليل على ما افضت اليه مذاهبها العقلية من تناحر واثرة واستبداد وظلم . فالعالم الاسلامى مدعو الى الاستفادة من تجربة الغرب ، والاقبال على فهم دينه فهما صحيحا يحقق له تجنب الكوارث او تجنب الانحلال الذي عرفته اوروبا او حضارة اوروبا .

لقد كان اقبال اذن ينظر الى الاسلام كدين ينسجم مع طبيعة الانسان ، ويقدم لمعتقديه تصورا يتطابق مع طبيعة الكون نفسه ، ويرى ان الاسس الميتافيزيقية التي حددها والاصول الاعتقادية التي جاء بها تمنح الانسان مكانة ايجابية ، وتلقى عليه مسؤولية بناء العلم الذي يسخر له الطبيعة ويدله على وجود الله . ويعطى لعقله آخر الامر الحق في ممارسة التشريع فيما سكنت عنه النصوص ، ليساير بذلك حركة التاريخ المتطور.

والدليل على ذلك ان الثقافة التي اتبنت من الفكر الاسلامى كانت ثقافة متحركة مبدعة ، واذن لا يمكن بحال ان يتهم الاسلام بالمعجز او الجمود، بقدر ما يمكن ان يتهم بذلك المسلمون الذين اصطلحت عليهم اسباب التدهور ، فوقعوا فى الجمود .

ان اقبال يفتح بآرائه الكثير من مجالات المناقشة والاخذ والرد ، فى بعض القضايا، أو فى منهج النظر، أو فى طريقة الاستدلال، أو فى تاويل الآيات القرآنية، ولكن تناول هذا الجانب مما يضيق عنه المقام، وبالرغم مما قد ينتهى اليه المرء فى تقييم اقبال أو تقييم آرائه فإنه يحتفظ بمكانته بين مفكري الاسلام الكبار فى العصر الحديث ، من حيث الاخلاص لدين الله ، والشجاعة فى الراي والعمق فى التفكير والتحليل .

محمد الكتانى

فاس

قِلة

للمغرب المسلم الحبيب

عمر بن محمد الدين الأميري

قبلى « المغرب » عنى يا حبيبة
قبلة يودعها قبلى وجيبه

حدثنى عن « عمر » عن روحه
فدقة فى عالم الروح عجيبة

كيف فى « المشرق » ينأى جسمها
وهى فى « المغرب » بالحب قريبه

كيف يمتد جناحها .. هنا
وهنا ، وهى لكل مستجيبة

(*) نظمت هذه القصيدة فى حلب بتاريخ 11.11.1397 هـ .

تبدل الذات مضياء وندى
لتشع الخصب في كل جديبة

أمل « الاسلام » في ذراتها
مشرئب ، والنداءات مهيبه

قد كفانا فرقة يا أمة ..
هى خير الناس ، والخير وجيبه

ليس دعوى ، ودعاء ، ومنى
انه أمر .. ونهى .. وكتيبة

وصواب من هدى الله اذا
نحن لم ننهض به ، فهى المصيبة !

* * *

رب روح أنسها يحيى الدنى !
وهى من هم الدنى تحيا غريبة!!

حلب عمر بهاء الدين الاميري

المغرب

في كتاب صبح الأعشى

(4)

محمد بن تاوريت

وفي الصفحة 99 وما بعدها جاءت نسخة كتاب من أبي الحسن أيضا وردت صجبة الهدايا والحررة الحاجة سنة 738 على المذكور ، وهو بعد البسلة : من عبد الله أمير المسلمين .. (الى عبد الحق) الى السلطان الجليل .. سلام كريم .. ورحمة الله وبركاته ، أما بعد حمد الله والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد المصطفى .. والرضى عن آله الأبرار .. فاننا نحيط علم الاخاء الاعز ما كان من عزم مولانا الوالدة .. على اداء فريضة الحج .. فاعترض الحمام دون ذلك المرام .. وأن لدينا من نوجب اعظامها .. وعزمها الى ما املته مصروف .. وهى محل والدتها .. وقد شيعناها الى حج بيت الله الحرام ، والفوز من السلام على ضريح الرسالة .. وحين شخص لذلك الغرض الكريم موكبها .. اصحبناها من حور دولتنا واحظيائنا ، ووجوه دعوتنا .. من اخترناه لهذه الوجهة .. من اعيان بنى مرين .. والعرب وأولاد المشايخ .. وقصدهم من اداء فرض الحج قصدها .. وهكذا سيرنا من تحف هذه البلاد اليكم ما تيسر .. وعينا لايرادها لديكم .. أبا اسحاق ابن الشيخ أبى زكريا يحيى بن عثمان السويدي ، وأمير الركب الحسن بن عمران وغيرهم .. ومقام ذلك الاخاء

الكريم يسئى لهم من اليسرى .. ومعظم قصدنا من هذه الوجهة المباركة
ايصال المصحف العزيز الذي خططناه بيدنا .. الى مسجد سيدنا .. محمد
رسول الله صلى الله عليه وسلم .. وقد عينا بيد محل الولاية .. من المال
ما يشتري به فى تلكم البلاد .. ما يكون وقفا على القراءة فيه .. وعلى
غيرهم من المالكية .. والله يصل للاخاء العلى نصره ايامه .. والسلام
الكريم المميم يخص اخاءكم الاعز ، ورحمة الله وبركاته .. فى يوم الخميس
المبارك من ربيع الاول عام ثمانية وثلاثين وسبع مائة .

وفى الصفحة 103 وما بعدها وردت نسخة كتاب من السلطان عثمان
ابن أبى العباس المرنى ، فى العشر الاوسط من شعبان 804 من عبد
الله ووليه ، عثمان أمير المسلمين .. ابن السلطان الملك الجواد .. أمير
المسلمين .. أبى العباس ابن مولانا ، أبى سالم .. ابن .. أبى الحسن .. (الى
عبد الحق) الى محل اخينا .. فرج ابن السلطان .. أبى سعيد برقوق
ابن انص .. سلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

أما بعد حمد الله على سبوغ نعمائه .. والصلاة والسلام الاكبلين
على سيدنا ومولانا محمد .. والرضى عن آله وصحبه وأوليائه وصلاته
الدعاء لمقامكم الكريم .. فانا كتبنا اليكم .. من خضرتنا العلية بالمدينة
البيضاء .. والى هذا .. وكتابنا هذا يقرر لكم من ودادنا ما شاع وذاع
وقد كان انتهى الينا حركة عدو الله وعدو الاسلام .. يعلق إمله الخائب
بالوصول الى أطراف بلادكم المصرية .. والحمد لله الذي كفى .. شره
.. ولقد كنا حين سمعنا بسوء رايه عزمنا على أن نهدكم من عساكرنا
المظفرة بما يضيق عنه الفضا .. واساطيلنا المنصورة ما يحمد .. ويرتضى
فالحمد لله على أن كفى المؤمنين القتال .. وبحسب ما لنا فيكم من الود ..
وقع تخيرنا فيمن يتوجه من بابنا .. أبى عبد الله محمد ابن الشيخ .. الشريف
.. المرحوم أبى عبد الله محمد بن أبى القاسم ابن نفيس الحسنى العراقى ..
.. حسب ما بنى بشرح ما حملناه نقله .. ان شاء الله تعالى ، وهو يديم
سعادتكم ... والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

وفي الصفحة 106 وما بعدها جاءت الجملة الرابعة في عادة الكتّيب الواردة عن صاحب الاندلس ، والرسم أن يكتب « الابواب الشريفة » .. ابواب السلطان الفلاني .. سلام كريم .. من فلان .. أما بعد حمد الله ثم الخطبة بالتحميد والتصلية والرضا عن الصحابة : فانا كتبنا .. وهذه نسخة كتاب ، عن أبى عبد الله محمد بن الحجاج يوسف بن نصر .. صاحب غرناطة الى السلطان .. شعبان بن حسين ابن قلاوون من انشاء ابن الخطيب ، (مشيرا الى حادثة الفرنج بالاسكندرية سنة 767 ، ووهب في لقبه الملوكى فلقبه المنصور) :

الابواب الشريفة .. ابواب السلطان الكبير .. الملك المنصور أبى الفتوح شعبان .. ابن الامير أبى على حسين .. ابن السلطان .. المنصور المؤيد .. أبى عبد الله محمد بن قلاوون الصالحى .. سلام كريم .. من معظم سلطانه .. أمير المسلمين بالاندلس ، عبد الله الغالب بالله محمد ابن يوسف بن اسماعيل بن فرج بن نصر .. أما بعد حمد الله .. والصلاة واسلام على سيدنا محمد .. والرضى عن آله وأصحابه .. والدعاء لتلك الابواب .. فانا كتبناه لمثابكم السلطانية . من منزلنا المحبور .. بحراء غرناطة .. ووصل لها بشرف مخاطبتكم الارتفاع والانتفاع .. فالنفوس الى الله تجهز وتسلم ، والصبيان فى المكاتب تدرب على مواقف الشهادة وتعلم .. والى هذا فاننا اتصل بنا ما رامت الروم من المكيدة .. وقد سول لهم الشيطان كيد ثغر الاسكندرية .. لينتموا ثغر الاسلام بصدمتها .. ويرفعوا عن دينهم المعرة ، ويتلقفوا فى القدس كرة الكرة .. ويشيخوا سيوف التغلب على الشام ، ويحولوا بين المسلمين .. وحجهم ومزارهم .. فهنيئا بما خولكم الله من ظفر شهدت برضا الله مراسمه .. ويهتئ البيت المقدس مكان فضل الله ومنه .. ويهتئ الاسلام عصمة ثغره .. وباب ايوانه ، مرفا الفسطاط .. ومتخير الاسكندر عند البناء .. ومما زادنا بجحا بهذا الفتح .. ما تحققنا أنه يثير من شفقة المسلمين لهذا القطر الذي لا يزال يطرقه ما طرق الاسكندرية .. والله لا يقطع عن الجميع عوائد آلائه .. وقد كان اتصل بنا فى هذه الايام الفارطة الذخر الذي ملأ اليد اكترانا .. جوابكم الكريم .. فأكرم به من وافد مخطوب .. صدعنا به فى حفل الجهاد انتحاء وافتحسارا .. والله تعالى يجعل لاملاك الهناء على مخاطبة مقامكم الرفيع العلاء مدارا

.. ويبتكم للإسلام ركنا شديدا .. ما استأنفت الدور ابدارا ، وعاقب
الليل نهرا ، والسلام .

وفي الصفحة 123 وما بعدها ، جاء الضرب الرابع في الكتب الواردة
من ملوك الفرنج بالاندلس والجهات الشمالية وما الى ذلك .

قال والعادة ان تكتب باللسان الفرنجى .. ويختتم عليه بطمغة في شمع
أحمر ، على نحو ما تقدم في الكتب الواردة عن ملوك المغرب ..

وفي الصفحة 148 وما بعدها ، ورد المقصد الثانى في رسوم اخوانيات
أهل المغرب ، والعادة أفراد الضمير ، وربما خوطب الواحد بالجمع ،
كما يعبر المتكلم عن نفسه بالنون ، وربما وقع الخطاب بالغيبة ، وفيه
جملتان :

الاولى ، وفيها مهيئان : الاول ، في ابتداء المكاتبات ، منها أن تفتح
بالدعاء ، كما كتب عبد الله بن طاهر : أطال الله بقاء سيدي .. وكما
كتب ابن عميرة : أطال الله بقاء الأخ السري .. وكما كتب أبو محمد بن
عبد البر : أبقي الله الشيخ في عزة تالدة .. فهذا بالبقاء له . وهناك
دعاء بالبقاء بالحضرة ، كما كتب أبو زيد الفازاري : أبقي الله حضرة
السيد ناضرة أدواح السعد ، عطرة أفواح المجد . وظل الحضرة المكرمة كثيف
الإنماء ، ووردها مغن عن وسائل الأوشية والدلاء والله تعالى يعين
الحضرة المكرمة على الأيادي تسوغها ، والأمال تبلغها بمنه .. ودعاء بذلك
للمحل ، كما كتب ابن عميرة : أبقي الله المحل الأعلى حرما يتحاهم الأنام
(الى غير ذلك من أنواع الدعاء) .

ومنها أن تفتح بلفظ « كتابى » كما كتب ابن عميرة : كتابى الى سيدي
حفظه الله مقيما وسائرا .. ومنها أن تفتح بلفظ « كتبت » كما كتب أبو
زيد الفازاري : كتبت — كتب الله للاح .. مجدا هامى الربابة .. ولا جديد
بيمن الله تعالى الا صنعه الجليل .. والحمد لله .. ومنها أن تفتح بكناية من
المكتوب اليه من لقب ونحوه ، كما كتب ابن عميرة : الجناب الرياسى ،

أدام الله اعتلاءه ، وحرس مجده وسنائه .. وكما كتب أبو بكر بن عيسى :
 السيد العباد ، والماجد الجواد .. وكذا كتب ابن عميرة : عن الأمير أبي
 جميل زيان الى الأمير أبي زكريا بن اسحاق : الأمير الاجل الهمام الاعلى ..
 ومخاطبتنا هذه الى مجلسه .. عما نعلمه من كبير قدره ، ونوجبه لعالى
 أمره ، ونبيح به من طيب منبره وكما كتب أبو الحسن بن شلبون : العباد
 المدخر ، والملاذ الذي بولائه أنخر وكذا كتب ابن عميرة : المحل الاعلى ،
 ضاعف الله انوار هدايته ، وكما كتب أبو الخصال : الشيخ الاجل أدام
 الله عزه .. والرب تعالى ينهض بحقكم اللازم الالزم ، ويصل حراسة
 مجدكم الاتلد الاقدم ، بمنه وفضله .

وربما اتى بعد ذكر النعوت بالسلام ، ثم بحمد الله والصلاة على
 النبي ، ثم الرضا على الخلفاء الماضين والخليفة القائم ، وهى طريقة
 الموحدين أتباع المهدي بن تومرت ، مثل ما كتب به أبو محمد بن عبد البر ،
 الشيخ الاجل ، أدام الله عزته .. مجل قدره ، وملتزم بره .. سلام
 عليكم .. وبعد حمد الله العظيم ، والصلاة على سيدنا محمد .. وعلى آله ،
 والرضا عن الامام المعصوم مهديه ، وعن خلفائه الائمة الراشدين ، والدعاء
 لسيدنا الخليفة .. ابن الائمة الخلفاء .. بالنصر الاعز .. فكتب — كتب الله
 لكم مجدا .. — من فلانة — حرسها الله — ... وان الامر كذا وكذا ..
 قال المؤلف : وعلى هذه الطريقة ، كانت كتابة ابن الخطيب ، كاتب ابن
 الأحمر بالاندلس ، على القرب من زماننا .

ومنها أن تفتتح بالخطاب ، مع ياء النداء (لا النسب) أو حذفها ، كما
 كتب أبو المطرف بن المنثى (بحذفها) : سيدي ومفخري ، وعصمتي
 ووزري ، وذخيرتي وعتادي .. وبها كما كتب أبو المطرف بن الدباغ : يا
 مولاي وسيدي ، العظيم شأنه وأمره .. وليس الذي يتبع الويل رائدا كمن
 جاءه في داره رائد الويل .. ومنها أن تفتتح بالتحية والسلام ، كما كتب
 ابن عميرة : تخص الابن ومقة .. تحية الاجلال والتكرمة .. ورحمة الله
 وبركاتة ..

وكما كتب أبو زيد الفازازي : السلام الكريم العميم ، على الشيخ ..
 كتب أخوكم البر بكم .. فلان ، ولا جديد بمن الله تعالى الا الخير والحمد

لله .. ومنها أن تفتتح بالكناية عن المكتوب عنه ، كما كتب ابن أبى الخصال :
معظم الشيخ الاجل أبى فلان .. ونعمكم الزم للاعناق من أطواق الحمام .
ومنها أن تفتتح بلفظ « من فلان » كما كتب بعضهم : من فلان الى
الشيخ الحافظ .. ومنها بلفظ الى فلان : الى مولاي المعظم وأبى ..

وفي الصفحة 158 جاء المهيح الثانى فى الاجوبة ، رهى على ضربين :
الاول أن يفتتح بما يفتتح به الابتداء ، كما كتب ابو عمرو الباجى : وعدك
الكريم — أدام الله عزك — دين ، وقضاؤه شرف وزين .. ووصل كتابك
العزیز .. والثانى ، بورود الكتاب ووصوله ابتداء ، كما كتب ابن أبى الخصال
ورد كتابك فى أمر فلان .. وليس عندي الا عون وانجاد ، وطاعة وانقياد ،
غير أن فى الامر كذا وكذا .

الجملة الثانية فى خواتم المكاتبات على اصطلاحهم ، وهى على أساليب
منها : أن يختم الكتاب بالسلام المجرد ، كما فعل الباجى : وأقرأ عليك
سيدي .. أجزل السلام واحفله ، وأتمه واكمله .. ومنها ، أن يختم بالدعاء :
كما كتب ابن الدباغ ، والله لا يخلى مولاي من عبد يسترته ومنها أن يختم بذكر
التودد والمحبة ، كما كتب أبو جعفر الكاتب (ابن عطية ؟) وإن لم يكن لى
من الحق ما لا أتبسط به عليه ، فلى من الود ما أمت به اليه ، فحسبى
به سلما الى فضلك ، وذريعة الى مجدك ، ان شاء الله تعالى والسلام .

ومنها أن يختم باستمache النظر ، فى أمر المكتوب عنه ، كما فعل ابن
المنشى ، ولك الطول العام .. فى اعتبار امري ، وتحقيق خبري والسلام
الى غير ذلك من الخواتم .. وفيما ذكر من الصدور والخواتم ، ابتداء وجوابا
مقنع لمن تأمل .

وبعد هذا نتصل بالجزء التاسع ، فنجد فى الصفحة 35 مثالا لابن أبى
الخصال فى التهئة بالقدوم من السفر ، وهو من مقاصد الاخوانييات : سر
الله مولاي ورئيسى ، ورب تشريفى وأنيسى ، بقاء الاحباب ..
ولا زالت الايام تتصنع لاقباله ، وتقبله أوجه العز فى اقتباله ، على رغم
الحاسد ..

وفي الصفحة 85 والتي بعدها ، أتى له بتعزية في (بنت) ، وهي الضرب الثاني من المقاصد المذكورة : الشيخ فلان ، عزاه الله على احتسابه .. فأتى كتبه .. عندما وصلني وفاة إبتكم المرحومة .. فليعزك عنها مصابنا بالنبى عليه السلام .. فأحمد الله عز وجل اذ رجحت ميزانك .. والسلام عليك ورحمة ..

وفي الصفحة 86 والتي بعدها ، ساق له تعزية أخرى وهي في الاب بالضرب الثالث : يا سيدي وواحي ومحل الابن المبرور ، والاخ المشكور .. وقد وصل كتابك .. بما نفذ به القدر .. في الوزير الفقيه الشهيد أبيك .. رحمه الله واكرم مثواه .. فأسفت كل الاسف لفقدانه .. تغدده الله بغفرانه .. وتلك غاية الاحياء .. وانك بفضل الله تسد مسده .. واخوتك أعزك الله — لك اظهار وأعضاد .. فاشتغل عليهم وارفق بهم ، فانهم ينزلونك منزلة أبيهم .. والسلام .

وفي الصفحة 87 والتي بعدها أتى بتعزية ابن عبد البر ، في الضرب الرابع ، وهو التعزية بالام :

ما مات من أنت بعده خلف والكل في البعض غير ممتنع

كتب عبده القن ، من الاسى لاجله بعض ما يجن .. فلان ، بعد وصول كتابه الكريم بصدع يصمى القلوب .. فوقف العبد عليه مترقق المدامع منخرق الاضالع .. فيا أسفى لخطب ضعضع ركن الجد .. فاه لدين ومروءة فقدت في قرن .. لقد أصم بها الناعى وان كان اسمع .. أبى الله الا أن تعم الحرقه ، وتستولى على الوقت الفرقة .

وفي الصفحة 88 وما بعدها وردت في الضرب الخامس تعزية ابن عبد البر في أخ ، وكتبت والانفس مرتبطة ، والعين غير مفتحة .. أسفا للمصاب الذي عم وغم .. بوفاة الفرد الذي في رأسه نور .. والفذ الذي شهد الرجال بفضل .. أبى فلان صنوكم .. فانا لله وانا اليه راجعون ... فوا أسفى لرزئه .. ولولا أن المنية منهل لا يحلأ وارده .. لم يبق في أنس مطمع .. ولكن الثاكل غير ما ترى وما تسمع .. فصبرا فالمنون غاية المسين والمصحين .

وفي الصفحة 89 والتي بعدها ، نموذج آخر له : الشيخ فلان .. يتلقى
الارزاء بحسن الصبر .. فانى كتبته .. عندما وصل من وفاة .. أخيكم ،

وفي الصفحة 90 وما بعدها ، جاء الضرب السادس ، التعزية
بالزوجة ، وصدر بقول ابن عبد البر أيضا :

وقد تقرر عند ذوى الالباب .. أن الدنيا قنطرة دائرة ، ومعبرة الى
الآخرة .. وقد نفذ القدر الذي ما له رد .. بوامة فلانة الحثها الله رضوانه
.. فاننا لله وانا اليه راجعون .. لقد ذهب لذهابها الرفق والحنان .. ولولا
العلم بأن اللحاق بها امر كائن .. لما بقيت صباة دمع .. لكن لا معنى لحزن
لما يقع فيه الاشتراك .. وما أنتم بحمد الله ممن يذكر . ولولا أن التعازي
مما أطرده به العمل .. لما سلك سبيله معكم .. فالصبر خير من الجزع ..
والله ييقبكم اثم البقاء ، وبرقيكم اثم الارتقاء .

وفي الصفحة 91 نموذج أبى الخصال أيضا :

الشيخ الاجل فلان ، أنس الله وحشته .. معزيه عن اهله الهالكة
وسكنه .. فلان ، فاننا كتبناه عن دموع تصوب .. ببوت فلانة رحمها الله ..
عزانا الله جميعا فيها .. وأعقبنا من الوحشة أنسا ، وعمر بالرحمى جدنا
مباركا ورمسا .. بمنه وكرمه .

وفي الصفحة 227 جاءت رسالة لابن أبى الخصال ، كذلك ، فى المداعبة ،
وهى فى النوع السابع عشر من مقاصد المكاتبات الاخوانية :

سيدي وواحدى الذي أجمل ذكره .. عبدك فلان مؤديها ينتجع الكرام
.. وأم الحضرة .. والمالك بها غرض الشباب .. فأوسعهم قرى .. بل أمجده
قبنا وعلفا ، وأركبه حزنا من الارض ظلنا .. وعنده كما علمت دعاء مباح
وثناء فى الشكر مساء وصباح ، والسلام .

وفي الصفحة 298 جاء المذهب الثالث فى البيعة ، ان تفتتح بعد
البسلة بخطبة مفتحة بالحمد لله ، ثم البعدية .. وهذه نسخة بيعة كتب

بها طاهر الاندلسي .. للرشيـد بن المـامون الموحـدي (لا الاموي) في أخذ البيعة على أهل دانية ، اقتصر على تحبيـدة واحدة :

الحمد لله الذي أسبع أنعامه باطنا وظاهرا .. نحمده سبحانه على نعمه .. ونشهد أن لا اله الا الله شهادة من أقر له بالوحدانية .. وصلى الله على سيدنا محمد رسوله .. وعلى آله وأصحابه الذين منهم صاحبه وخليفته .. ورضى الله عن الامام المهدي .. وعن الخلفاء ، أما بعد فان الله سبحانه جعل الامامة للناس عصمة .. وأطلع بالغرب ثورا مـلا الدلو .. وطلع على الافاق طلوع النهار .. وكلفت به الخلافة ، وقام بالخلافة مثل ما قام بها الخلفاء الراشدون سلفه ، وذلك هو الخليفة الامام أمير المؤمنين الرشيـد بالله ابن الخلفاء الراشدين رضى الله عنهم .. ومن أبوه المامون وجده المنصور ، العريق في الخلافة ، والحقيق بالامامة والانافة ، فجمع ما افترق ، ونظم الامور ونسق ..

وفي الصفحة 301 وما بعدها ، وردت بيعة أهل شاطبة للمستنصر العباسي ، كتبها ابن عميرة ، قام بعقدها محمد بن يوسف بن هود :

الحمد لله الذي جعل الارض قرارا .. وصلى الله على سيدنا محمد الشريف نجارا .. صلى الله عليه وعلى آله الطيبين آثارا واختبارا وعلى أصحابه الكرام مهاجرين وانصارا .. أما بعد فان المستائر بالدوام اللطيف بالانام ، أنشأهم على التفابير والتباين .. وبعث النبيين وكان أعمهم دعوة .. صلى الله عليه وعلى آله .. وقام بعده الخلفاء الاربعة .. رضى الله عنهم .. وعن سيد الانام .. عم نبينا عليه أفضل الصلاة والسلام .. العباس بن عبد المطلب .. وعن الفائزين بالرتبة الكريمة .. حموا حرم المسلمين ، وأحبوا سنة ابن عمهم سيد المرسلين .. آباء أمير المؤمنين وخليفة رب العالمين .. لما دعا الناس بالملكة الفلانية ، حماها الله ، الى حجتهم القوية .. مجاهد الدين بسيف أمير المؤمنين .. المتوكل على الله تعالى أمير المسلمين ، أبو عبد الله محمد بن يوسف بن هود .. مالت اليه الاجياد ، وانثالت

عليه البلاد .. وتقدم أيده الله بأخذ البيعة على نفسه ، وعلى أهل البلدة قاطبة ، للقائم بأمر الله سيدنا ومولانا الخليفة الامام المستنصر بالله أبى جعفر أمير المؤمنين .. وخاطب الديوان العزيز النبوي — خلد الله شرفه — متضرعا لوسائل خدمته ، متضرعا لعوارض رحمته ، ويعث رسوله على اصدق رجاء فى القبول .. واثناء هذه الارادة القوية .. تتفاوض أهل البلاد فى توثيق عقدهم للسلطان .. فلم يروا رأيا اسد .. من أن يطلبوه بعقد البيعة لابنه الواثق بالله .. محمد ابن مجاهد الدين ، سيف أمير المؤمنين على أن يكون ولى عهدهم مدة والده .. فأمضى لهم ذلك من اتفاقهم .. وبعد ذلك أتى صولة الاسلام ، وصلة دار السلام ، وورود رسوله .. ومعه الكتاب الذي هو نص أغنى عن القياس .. وقده السيف الصارم وسماه باسمه .. وبناء على وصايا عهد الخليفة ، أن يجددوا البيعة .. ولابنه الواثق بالله .. ولما انتهى ذلك الى المأ من أهل فلانة وجهاتها رأوا أن يخلف من سبق ، ويصدقوا النبوة مع من صدق .. فحضر منهم العلماء والصلحاء ، والاجناد والسوزراء والفقهاء ، والكافة على تباينهم فى المراتب .. فأبضوا بيعة كريمة المقاصد .. على اشد مذاهب الفتوى ، والزماها لكلمة التقوى .. « هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين واجعلنا للمتقين إماما » انك انت الله .. واله الارض والسموات .

وفى الصفحة 337 جاء النوع الثانى من البيعات ، بيعات الملوك .. ففى المغرب ، جرت عادة مصطلحهم بكتابة البيعات لملوكهم ، اذ ليس عندهم خليفة — كما قال — يدينون له ، بل جلهم أوكلهم يدعى بالخلافة ، فهم يكتبون البيعة لهذا المعنى ، وهذه نسخة بيعة كتب بها للسلطان أبى عبد الله محمد بن أبى الحجاج بن نصر بن الاحمر ، صاحب حمراء غرناطة .. من انشاء ابن الخطيب :

الحمد لله الذي جل شأننا .. والحمد لله الذي بيده الاختراع والانشاء .. والحمد لله الذي رفع قبة السماء .. نحمده وله الحمد فى الاولى والاخرة ونشهد أن سيدنا ومولانا محمدا .. عبده ورسوله .. انتخبه من أشرف العرب أما وأبا .. وملاً بنور دعوته البسيطة جنوبا

وشمالا ومشرقا ومغربا .. ولا دليل أظهر من هذا القطر الاندلسي الغريب ولما استقام الدين .. أشعره الوحي بالرحلة عن هذه الديار .. وحيا الله وجوه حى الانصار .. ونسالك اللهم لهذا الامر النصري الذي سببه بسببهم موصول .. نصرا عزيزا وفتحا مبينا .. أما بعد .. فان من المشهور الذي يعضده الوجود ويؤيده .. ما عليه هذا الملك النصري الحمى .. من أصالة الاعراق .. والجهاد الذي هو سمر الركب ، وحديث الرفاق .. دارهم الثغر الاقصى — وشعارهم « لا غالب الا الله » وان هذا القطر الذي انتهى سبل الفتح الاول الى ناحيته .. وان موسى بن نصير وفتاه حل من غرضة مجازه محل موسى وفتاه .. فلولا ان الله عبد الدين منهم بالعمدة الوثيقة .. لاجهز النصل ، واجتث من الدين الفرع والاصل .. لكنهم انتدبوا الى امسك الدين بها انتدابا .. وتناولوها منهم صقر قبيل الخزرج .. أبو عبد الله الغالب بالله محمد بن يوسف بن نصر .. فأثنت الظلمة ، وتهاست الامة .. وتوارثوا ملكها ولدا عن أب .. الى أن قام بالامر وسطى سلكهم .. أبو الوليد ابن المولى .. أبى سعيد بن أبى الوليد بن نصر ، فاحبى رحمه الله معالم الكتاب والسنة .. وتارج من فكره عرف ، وجرى الى باب حرف مولانا الملك الهمام .. أمير المسلمين .. الخليفة الامنام أبو الحجاج ، رفع الله درجته .. ولما اختار الله له ما عنده .. فوثقت آراء ارباب الشورى من أهل العلم بقاعدة ملكه غرناطة .. على مبايعة وارث ملكه .. ووسطى سلكه .. أبو عبد الله .. وهبوا الى بيعته تطير بهم أجنحة السرور .. ما بين الشريف والمشروف .. فمعدوا له البيعة الوثيقة الاساس .. على ما بويح عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم .. أشهدوا عليه الله وكفى بالله شهيدا .. اللهم بابك عند تقلب الاحوال عرفنا .. اللهم ان قطرنا من مادة الاسلام بعيد .. اللهم من بايعنا فى هذا العقد فأسعده بمبايعته وطاعته .. وكتب الملاء المذكورون أسماؤهم بخطوط أيديهم فى هذا الكتاب .. وذلك فى الثانى والعشرين لشوال من عام خمس وخمسين وسبع مائة .

وفى الصفحة 366 وما بعدها ورد للوزير أبى حفص بن برد كتاب عهد للناصر عبد الرحمن بن المنصور ، كتمودج لطريقة المتقدمين فيما يكتب لولى عهد من الالقب ، مما تضمنه الوجه الخامس من الفصل الثالث من

الباب الاول من المقالة الخامسة في بيان ما يقع به التفاوت في رتب الولايات هذا ما عهد هشام المؤيد بالله .. الى الناس عامة .. بعد اطراح الهوى والتحري للحق .. وبعد ان قطع الاواصر واسخط الاقارب ، فلم يجد احدا أجدر أن يوليه عهده ، ويفوض اليه الخلافة بعده .. من المأمون العيب الناصح الجيب ، أبى المطرف عبد الرحمن بن المنصور أبى عامر محمد بن أبى عامر ، وفقه الله ، اذ كان أمير المؤمنين أيده الله ، ابتلاه واختبره .. فرآه .. مساعفا في الخيرات ، سابقا في الحلبات .. ومن كان المنصور أباه والمظفر أخاه ، فلا غرو أن يبلغ من سبيل البر مداه .. مع ان أمير المؤمنين — أيده الله — بما طلعه من مكنون العلم ووعاه من مخزون الاثر ، يرى ان يكون ولى عهده القحطاني .. ان النبي صلى الله عليه وسلم قال : « لا تقوم الساعة حتى يخرج رجل من قحطان يسوق الناس بعصاه) .. أشهد الله على ذلك .. وأشهد من أوقع اسمه على هذا ، وهو جائز الامر ، ماضى القول والفعل ، بمحضر ولى عهد المأمون أبى المطرف عبد الرحمن بن المنصور ، وفقه الله ، وقبوله ما قلده .. وذلك في شهر ربيع الاول سنة ثمان وتسعين وثلاثمائة ، وكتب الوزراء والقضاة ننقل بعد هذا الى الجزء العاشر ، فنجد في الصفحة 31 وما بعدها ما كتبه أمين الدين أبو سعيد بن وهب بن موصلايا عن القائم عهدها لأمير المؤمنين يوسف بن تاشفين ، بسلطنة الاندلس وبلاد المغرب « كذا » هذا ما عهد عبد الله ووليه .. القائم بأمر الله أمير المؤمنين ، الى فلان حين انتهى اليه ما هو عليه من ادراع جلابيب الرشاد .. من موالة لأمير المؤمنين .. فؤاده الصلاة بأعمال المغرب ، والمعاون ، والاحداث ، والخراج ، والضياح .. وسائر وجوه الجبايات ، والعرض والعطاء والنفقة .. ببلاد كذا وكذا .. والله تعالى يصل مرامى أمير المؤمنين بالاصابة .. وأمره باعتماد تقوى الله .. وأمره أن يلثم بكتاب الله .. وأمره أن يحافظ على الصلوات .. وأمره بالسعى في أيام الجمع الى المساجد الجامعة .. وفي الاعياد الى المصليات الضاحية .. وان يقيم الدعوة على منابرها لأمير المؤمنين ، ولولى عهده .. أبى القاسم عبد الله بن محمد ابن أمير المؤمنين .. وأمره بأن يعتمد في اخراج الزكاة ما أمر الله تعالى به .. وأمره بأن يهذب من الدنس خلاله .. وأمره بأن يضفى على من قبله من اولياء أمير المؤمنين وجنوده اصناف جلابيب الاحسان وبروده .. وأمره بأن يعدل

فى الرعايا قبله .. ليكون الكل وادعين فى كنف الصون .. وأمره بأن يكون
للمعروف آمرا وعن المنكر زاجرا .. ويتقدم بتعطيل ما فى أعماله من
المواخير .. وأمره بأن يرتب لحماية الطرقات من يجمع الى الصرامة
والشهامة سلوك محاج الرشاد .. أمره بأن يتقدم الى ثوابه فى الاعمال
بوضع الرصد على من يجتاز بها من العبيد الاباق .. وأمره بأن يختار
للنظر فى المعاون والاجلاب من يرجع الى دين يحميه من مهاوي الزلل ..
وأمره ان يوعز الى اصحاب المعاون بأن يشدوا من القضاة والحكام
ويجدوا فى اجراء امورهم .. وأمره بعرض من نضمه الجبوس من اهل
الجرائم .. وتأمل احوالهم .. وأمره باختيار المرتب للعرض والعطاء ..
وأمره باختيار عمال الخراج .. وأمره ان يرد امر المظالم .. الى من عضد
بالظلف الورع .. ومعتدين اجراء الامر فيما يطبع على القانون بمدينة
السلام .. وأن يثبت ذكر أمير المؤمنين ، وولى عهده فى المسلمين ، على
ما يضرب من الصنفين .. والى المستخدمين فى الطرز بملاحظة احوال
المناسج .. واثبات اسم أمير المؤمنين على ما ينسج من الكسا والفروش
والاعلام والبنود .. وأمره بأن يعرف قدر النعمة التى صفت عليه برودها
.. ويبدأ امام ما يتوخاه بأخذ البيعة لامير المؤمنين وولى عهده على
نفسه وولده .. وأن يحمل الى حضرة أمير المؤمنين من الفىء والغنائم
ما أوجبه الله وفرضه .. ثم ان أمير المؤمنين أثر أن يضاعف له من
الاحسان ما يقتضيه مقامه لديه... ولقبه بكذا وأذن فى تكنيته عن حضرته...
فتلقى يا فلان هذه الصنيعة الفراء .. بالاستبشار التام .. واعتمد مكاتبة
حضرة أمير المؤمنين متسميا .. .

هذا عهد أمير المؤمنين اليك .. فأصغ الى ما حواه .. وكن لاوامر
أمير المؤمنين فيه محتديا .. وان خفى عليك الصواب .. فطالع حضرة
أمير المؤمنين به ، واستنجد الله فى ذلك بأسد راي وأصويه ، بيدك من
الشك يقينا .. ان شاء الله تعالى .

وفى الصفحة 160 جاء الوجه الخامس ما يكتب فى متن اليهود ،
فذكر فى الطريقة الاولى ، وهى ما تفتتح بلفظ « هذا » ما كتبه أبو بكر ابن
القصور ، عن أمير المسلمين يوسف بن تاشفين ، سلطان المغرب ، بولاية

عهد لابنه أبى الحسن على ما بيده من المغرب والاندلس في ذي الحجة سنة ست وتسعين وأربعمائة :

كتاب تولية عظيم جسيم .. انفذه أمير المسلمين وناصر الدين ، أبو يعقوب يوسف بن تاشفين .. للامير الاجل أبى الحسن على ابنه .. وقد تهتم بمن تحت عصاه من المسلمين .. فاعتام في النصاب الرفيع واختار .. فلم يوقع الله بعد طول تأمل .. اختياره .. الا عليه .. فوله على استحكام بصيرة .. وجعله خليفته في رعايا مسنده .. وإن ينتظم أقصى بلاده وأدناها في سلك تدبيره .. ثم دعا له ، لمبايعته من دنا ونأى من المسلمين ، فلبوا مسرعين .. ثم أمر بمخاطبة أهل البلاد لتبایعه كل طائفة في بلدها .. والله يبارك لهم فيها بيعة رضوان .. شهد على أمير المسلمين .. بكل ما ذكر عنه .. وذلك بحضرة قرطبة حماها الله تعالى ..

وفي الصفحة 299 ورد الطرف الرابع ، من الفصل الاول فيما يكتب من الولايات الصادرة عن الخلفاء لارباب المناصب ، فكان هذا فيما يكتب عن مدعى الخلافة ببلاد المغرب والاندلس — كما قال — وهم يعبرون عن ذلك بالظواهر والصكوك ، فالظواهر جمع ظهير ، وهو المعين ، سمي به لما يقع من المعاونة لمن كتب له به ، والصكوك جمع صك وهو الكتاب فارسي معرب ، ثم تحامى المتأخرون الصك للاشتراك فيه وهو الصفح وفي الموضوع حالتان ، الاولى ما كان عليه الامر في القديم ، حيث لم يكن مصطلح في الابتداءات ، فتارة يبدأ بلفظ « من فلان الى فلان » أو أهل فلانة ، أو الى الاشياخ بفلانة ، أو يصلحكم فلان بهذا الكتاب ، وتارة يبدأ بلفظ « أما بعد حمد الله » وتارة بلفظ « تقدم فلان بكذا » وتارة بلفظ « مكتوبنا هذا » ، فمن الظواهر من فلان الى أهل فلانة .. أما بعد حمد الله ، والصلاة على سيدنا محمد .. وعلى آله .. والرضا عن الخليفة أمير المؤمنين .. والدعاء للمقام الاماري .. فانا كتبناه اليكم .. من فلانة .. وولينا للنظر فيما لديكم ، من له التقدم في الاقدام .. فلان .. وعليه أن يلزم تقوى الله .. ويشمر عن ساعده في الدفاع عن احوازكم .. وعليكم أن تسمعوا وتطيعوا .. وستجدون من مواليكم .. ما يوافق الظن به .. ان شاء الله تعالى والسلام .

ومن ذلك آخر : من فلان الى أهل فلانة .. ويعد فانا كتبناه اليكم .. من فلانة .. وقد اقتضى ما نتوخاه من الاحتياط على جوانبكم .. ولما كان فلان ممن حمدت مقاصده .. رأينا .. أن نقدمه لحفظ جهاتكم .. فاذا وافاكم فتلقوه بنفوس منبسطة .. بحول الله سبحانه .

ومن ذلك أيضا : وانا كتبناه اليكم .. من فلانة .. وقد صرفنا اليكم فلانا .. مطالعا لحوال الموحدين .. أعدناه الى الشغل الذي كان يتولاه .. ولا يستند في شيء من أحكامه الى من لا يقوم على عصمته دليل .. فاعينوه وفتكمم الله .. ان شاء الله تعالى .

ومما كتب في ولاية قاض : أما بعد حمد الله رافع علم الحق لمن اهتدى .. والصلاة على سيدنا محمد .. وعلى آله وصحبه .. والرضا عن الخليفة أمير المؤمنين العباسي .. فانا كتبناه اليكم .. من فلانة .. وقد علمتم أن الاحكام الشرعية هي ملك الامور .. وقد أمعنا .. فراينا أهلا لذلکم .. « فلان » .. فأنفذناه اليكم حكما .. فتلقوه .. بنفوس منبسطة .. والسلام .

ومن ذلك للرعيى أبى الحسن :

من فلان الى الاشياخ بفلانة .. والى ذلکم فان فلانا .. رأينا .. أن نقدمه للنظر في قضاياكم الدينية .. فاذا وافاكم فاستبشروا بموافاته ، وقفوا عندها بعضيه .. وتعاونوا على الخير تعاوننا يجزل حظكم من فضل الله وبركاته ، فهو المؤمل في ذلك ، لا رب سواه .

ومن الظواهر بالوظائف الديوانية ، ما كتبه ابن عميرة بولاية وزارة :

مكتوبنا هذا بيد فلان .. يجد به مكان العزة مكيئا .. ويتقلد وزارتنا تقلد تفويضى واطلاق .. ان شاء الله تعالى والسلام .

ومن ذلك ما كتبه ابن الأبار في مشاركة ناحية : عن اذن فلان يتقدم فلان للنظر في الاشغال المخزنية بفلانة .. جاريا في ضبط الامور المخزنية .. على المقاصد الجليلة .. عالما أن المرء بها قدمت يداه مرتين .

ومنه أيضا ، ما له باعادة مشارف الى ناحية : يساد بهذا المكتسوب
فلان الى خطة الاشراف بفلانة .. مخلقى بينه وبين النظر في ضروب الاشغال
المخزنية وصنوفها .. فليقتل هذه الخطة بحقها .. جامعا بين الاحتياط
للمخزن والرفق بالرعية .. ان شاء الله تعالى .

نتقل الى الجزء الحادي عشر ، فنجد في الصفحة 6 الطرف الثانى
من الفصل الثانى من الباب الرابع ، من المقالة الخامسة ، فيما يكتب من
الولايات عن الملوك وهذا الطرف فى مصطلح كتاب المغرب والاندلس فيما يكتب
من الولايات عن الملوك ، فهم يعبرون بالظواهر مفتحة بلغلا « هذا ظهير » ،
كما تقدم عن خلفاء المغرب ، وهى على ثلاثة اضرب :

الاول ما يكتب لارباب الوظائف من أصحاب السيف ، كما كتب ابن
الخطيب :

هذا ظهير كريم منزله فى الظواهر .. ومحل من الصكوك .. محل
اولى الرايات .. امر به فلان لصدر صدور اودائه .. شيخ شيوخ المجاهدين
.. الشيخ الاجل .. (ابن) الشهيد المقدس المرحوم أبى عبد الله بدر الدين
ابن شيخ الشيوخ .. الشيخ الكبير .. أبى عمران موسى ابن أبى زيد رحو بن
محيو بن عبد الحق بن محيو .. لما قامت له البراهين الصادقة على كرم شيمه
.. قابل بالرعى كرائم ذمه .. فائتله له ميزان المكافات .. وجعله يمين الملك
الذي به يناضل .. فقدمه .. شيخ الغزاة بحضرته العلية ، وسائر بلاده
النصرية .. وبقلة دواره المرنى فى خدمة مقامه النصري يقفون .. فلبيته
المزية بالحق ، المستوجبة للفخر بسابقة السعادة لعبد الحق .. فهى خطة
قومه .. وعلى الغزاة .. أن يعرفوا قدر هذا التعظيم .. فيكونوا من ايجاب
حقه حيث حد ورسم .. بحول الله تعالى وقوته .

وفى الصفحة 9 وما بعدها ، تأتى نسخة ظهير بناية السلطنة ببعض
الاعمال : هذا ظهير كريم .. أصدرناه للفتية أبى فلان .. وأمرناه أن يتوجه
الى جهة كذا — حاطها الله — فيجمع الناس فى مساجدهم ، ويندبهم من

مشاهدتهم .. فمن نالته مظلمة فليرفعها اليه ... ويختبر ما افترض صدقة للجبل .. ليعين لبناء الحصن بجبل قارة .. وغيره مما افترض اعانسة للمسافرين .. ويعلم الناس ان هذه المعونة .. ليست مما يلزم .. ويندب الناس الى تعليم القرآن لصبيانهم .. ومن أهم ما أسندناه اليه .. البحث .. عن أهل البدع .. ومن يبرز بفساد العقد .. والتلبس بالصوفية .. والذاهبين الى الاباحة .. والمؤلفين بين النساء والرجال .. ومن قصر .. أو خالف .. فلا يلومن الا نفسه .. والله المستعان .

وفي الصفحة 12 وما بعدها نجد نسخة ظهير بالامرة على الجهاد : هذا ظهير كريم .. أصدر حكمه .. عبد الله الغنى بالله محمد ابن مولانا أمير المسلمين أبي الوليد بن نصر .. لوليه .. الامير أبي عبد الرحمن ابن الامير أبي على ابن السلطان أمير المسلمين أبي سعيد . لما وفد على بابهِ الكريم ، مؤثرا على ما كان بسبيله .. مفضلا ما عند الله على رجب أوطانه .. قابل .. وفادته بالقبول .. وجعل له الشرب المهنا .. ثم استظهر به على أعداء الله .. ثم رأى الآن .. أن .. يقيمه في قود عماركه .. ونصبه للقبائل الجهادية .. وعلى الغزاة بالحضرة .. من بنى مرين وسائر القبائل المجاهدين أن يعرفوا قدره .. ومن وقف عليه فليعرف ما لديه ، بحول الله تعالى .

وفي الصفحة 15 وما بعدها ، وردت نسخة ظهير بالتقدمة على المجاهدين ، لولد السلطان :

هذا ظهير كريم .. عقد للمعتمد به عقد التشريف .. امضى أحكامه .. أمير المسلمين ، عبد الله محمد ابن مولانا أمير المسلمين أبي الوليد نرج بن نصر .. لكبير ولده .. الامير .. سمى جده .. أبي الحجاج يوسف .. ولما صرف وجهه الى ترشيحه .. وعقد له لواء الجهاد على الكتيبة الاندلسية من جنده .. رأى أن يزيد من عنايته ضروبا واجناسا .. وكان جيش الاسلام في هذه البلاد الاندلسية .. كلف همه .. رأى .. أن يحمدهم لاختياره .. يستنيب .. من يجري مجرى نفسه .. فقدمه على الجماعة الاولى كبرى الكتائب ، المشتملة من الغزاة على مشيخة آل يعقوب .. وسائر

قبائل بنى مرين .. فليتول ذلك .. والنسب العربى مفخر لطبيب طبيعه ..
وعلى جماعتهم .. أن يطيعوه .. فمن وقف على هذا الظهير .. فليعلم مقدار
ما تضمنه .. واقطعه .. جميع القرية المنسوبة الى عرب غسان . وكتب
فى كذا .

وفي الصفحة 19 وما بعدها ، جاءت نسخة ظهير لمشيخة الغزاة
بمالتة :

هذا ظهير كريم .. أمر به وأمضاه .. الامير عبد الله محمد ابن مولانا
أمير المسلمين .. أبى الحجاج .. لوليه .. الشيخ أبى العلاء ادريس ابن
الشيخ أبى سعيد عثمان بن أبى العلاء .. ولما كان له القدر .. ثم خلصه
الله من ملكة الكفر الخلاص الذي .. وقابله بالقبول والاقبال .. رأى ..
أن يستظهر بعضائد .. فقدمه .. شيخ الغزاة المجاهدين .. بمدينة مالتة ..
راجعا اليه نظر القواعد الغربية رندة وركوان ؟ .. حتى يظهر على تلك
الجهات .. آثار الحماية والبسالة .. وعلى من يقف عليه من الفرسان ..
أن يكونوا ممثلين .. وبحسبه يعمل بحول الله وقوته .

وفي الصفحة 21 ورد الضرب الثانى ، من ظهائر بلاد المغرب ما يكتب
لارباب الوظائف الدينية من أصحاب الاقلام ، منها نسخة بتضاء الجماعة .

هذا ظهير كريم .. أمر به .. أمير المسلمين أبو الحجاج .. لقاضى
حضرتة العلية ، وخطيب حمرائه السنية .. الشيخ .. أبى الحسن .. ابن
الشيخ .. أبى محمد بن الحسن .. ولما كان له الحسب .. فلما زان الله
خلافته .. كان من صحب ركابه وصلى به صلاة السفر والحضر ..
وخطب به فى الاماكن التى بعد بذكر الله عهدا ، وخطب عنه .. المخاطبات
التى حمد قصدها .. حتى استقل ملكه فوق سريريه .. ثم رأى ، أن يشرك
رعيته فى نفعه .. وقدمه .. قاضيا .. بحضرة غرناطة .. فليتول ذلك عادلا
.. بارا بمشيخة اهل التوثيق .. سائرا من مشهور المذهب على أهدي
طريق .. وأمره .. أن ينظر فى الاحباس على اختلافها .. فعلى من يقف عليه
أن يعرف حق هذا الاجلال .. فى الثالث من المحرم عام اربعة وستين

وسبعمائة ، عرف الله فيه هذا المقام العلى عوارف النصر .. فهو
المستعان لا رب غيره .

وهذه نسخة أخرى : هذا ظهير كريم .. أمر به .. فلان ، للشيخ
.. قاضى الجماعة وخطيب الحضرة ، أبى الحسن ابن الشيخ الفقيه ..
أبى محمد بن الحسن .. أصدر له هذا الظهير .. مشيراً بالترفع .. وقدمه
.. خطيباً بالجامع الاعظم .. فليتول ذلك .. بحول الله وقوته .

وفى الصفحة 26 ورد الضرب الثالث ، فيما يكتب لأرباب الوظائف
الدنيوية ، وهذه نسخة ظهير بالقلم الاعلى (كتابة السر) :

هذا ظهير كريم .. أمر به الأمير فلان لفلان .. وصل الله سعادته
وجعل أقداره جواداً لاجالة أمره العلى .. لما كان ناهض الوكر فى طلبه
حضرت من البداية .. وحين رد الله عليه ملكه .. وكان ممن وسبه الوفاء
.. رعى له .. هذه الوسائل .. فقصر عليه الرتبة الشماء .. وقدمه ..
كاتب السر .. فليتول ذلك عارفاً بمقداره .. مستعيناً بالكنم لاسرارهِ ..
وعلى من يقف عليه .. أن يعرفوا قدر هذه العناية .. بحول الله وقوته ،
وكتب فى كذا .

وبعد هذا نتصل بالجزء الثانى عشر فلا نجد فيه ما له علاقة خاصة
بالمغرب والاندلس . فإذا اتصلنا بالجزء الثالث عشر ، فنجد بالصفحة
2 فى الفصل الاول من الباب الاول من المقالة السادسة فيما يكتب فى الوصايا
الدنية ، حيث يقول فى هذا الفصل :

اعلم انه كان لقدماء الكتاب بذلك عناية عظيمة ، بحسب ما كان للملوك
من اقبال على معالم الدين ، ومن أكثرهم عناية بذلك أهل المغرب ، لم
يزالوا يكتبون بمثل ذلك الى نواحي ممالكهم ، ويقرأ على منابرهم ، ولهم
فى ذلك الباع الطويل والهمة الوافرة .. ثم يورد نموذجاً من ذلك لـ أبى
زيد الدارارى — كذا ولعله الفازازي — أحد كتاب الاندلس عن أمير
المؤمنين ابن أمير المؤمنين المنصور ، أحد خلفاء بنى أمية — كما يقول خطأ —
ولعله بنى عبد المؤمن بالاندلس :

الحمد لله الذي جعل الامر بالمعروف والنهي عن المنكر اصلين تنفرد
عنهما مصالح الدنيا والدين .. والصلاة على سيدنا محمد الكريم المبتعث
بالشريعة .. وعلى آله الكرام .. والرضا عن الائمة المظهرين للدين المتين
.. وانا كتبناه لكم .. من حضرة اشبيلية .. والذي نوصيكم به تقوى الله ..
وان تعلموا انا لم نقم هذا المقام .. الا لنستوفي كل نظر يعود على الامة
باستقامة اخراها واولاها .. فعلينا لها بحكم ما تقلدناه من امامتها ..
ان نخولها بالحكمة .. ولنا عليها أن تطيع وتسمع .. وانما كان قصدنا
.. اقامة الكافة .. والى هذا — ادام الله كرامتكم — فانا لم نزل مع طول
المباشرة .. نقف وقوف التأمل على جزئيات الامور وكلياتها .. والان حين
استوفى اشرافنا على البلاد قاطبة .. صرفنا أعنة الاعتناء بجوامع المصالح
.. والامر بالمعروف والنهي عن المنكر وظيفه تعينت اقامتها على المسلمين
جميعا .. ومن اشد المنكرات بغير نكير .. الخمر التي هي أس الاثم والفجور
.. وشرب الخمر لجاج في الطبع .. ومن اشد ما حذر منه .. كتب الفلاسفة
لعن الله واضعها .. وقد كان سيدنا الامام المنصور رضى الله عنه ، قد
جد فيها بالتحريق والتمزيق ، وسد باهضاء عزمه المسدد ورايه
المؤيد وجوه طلابها بكل طريق .. والسلام (الغالب انها للماهون الموحدى
وقد بويع بالاندلس آنذاك) .

واخيرا ننتهى الى الجزء الرابع عشر ، فنجد في الصفحة 24 وما
بعدها نسخة هذنة من ملك مضعوف لملك قوي ، كتب بها الفقيه أبو عبد
الله ابن (بياض) أحد كتاب الاندلس ، عن بعض ملوك الاندلس من المسلمين
من اتباع المهدي بن تومرت القائم بدعوة الموحدين ، مع « دون قراندة »
صاحب قشتالة من ملوك الفرنج ، بعقد الصلح على مرسية : هذا عقدنا
بعد استخارة الله تعالى واسترشاده .. عقدناه لقشتالة ، مع غـسلان
النائب في عقده معنا ، عن مرسله الينا ، الملك الاجل : الاسنى المبجل
دون قراندة « ملك قشتالة وطليلة وقرطبة وليون وبلنسية .. حين وصلنا
من قبله كتاب مختوم بطابعه المعلوم .. وعقدناه على أن يكون السلم بيننا
وبين مرسله المذكور لعامين .. أولهما شهر المحرم سنة تاريخ هذا الكتاب
الموافق من الأشهر العجيبة شهر كذا .. على جميع ما تحت نظرنا الآن من
البلاد الراجعة الى الدعوة المهدية .. من جزيرة شقر الى بيرة والمنصورة وما

يلبها .. ويدخل في الطاعة مع البلاد بعد هذا في السلم ، كل ما يرجع الى هذه الدعوة ؛ بزيادة نسبته من المال .. والتزمنا في هذا السلم لملك قشتالة .. مائة ألف دينار واحدة وأربعين ألف دينار في كل عام .. والله الموفق ..
بمنه والسلام .

وفي الصفحة 26 ورد المذهب الثاني ، أن تفتح المهادنة قبل لفظ « هذا » ببعدية ، منها هذه النسخة بين ملكين متكافئين دون تقرير شيء منهما وقد كتبها الفقيه المحدث أبو الربيع بن سالم من كتاب الاندلس في عقد صلح على بلنسية وغيرها من شرق الاندلس :

وبعد فهذا كتاب موادة أمضى عقدها والتزمه .. فلان ، لملك أرغون وقرمط برجلونة ، وبرنسب مقت (كذا) بشلى حافظة ابن بطرة بسن أذفونش بن ريموند .. جنحا منه الى ما جنح اليه من ذلك متقاضيه ، وتحريا للعمل على شاكلة الصواب والايتار لها يقتضيه .. فأجلى ذلك عن امضاء عهد السلم لملك أرغون على بلنسية وكافة جهاتها .. وكذلك شاطبة ودانية ، وما ينتظم معها .. ويرجع الى حكم بلنسية .. نفتتحه بيوم الاحد الرابع والعشرين لشهر فونبر ، الموافق لعاشر ذي القعدة المؤرخ به هذا الكتاب .. من عام احد وعشرين وستمائة .. الامن الكافل لكافة من تشتمل عليه كافة المواضع المذكورة من المسلمين ، ومن تحويه بلاد ملك أرغون .. والحدود الفاصلة .. هي اواسط المسافات .. والتزم كله عن ملك أرغون النائب عنه .. الزعيم بطرة بن فدانف بكدريش ؟ .. وأشهد مع ذلك زعماء دولته .. تحقيقا .. وتوثيقا .. ان شاء الله .

وفي الصفحة 63 والتي بعدها نجد نسخة هدنة عقدت بين الملك الاشراف .. وبين دون حاكم الريد أرغون ، صاحب برشلونة من الاندلس 692 وتتضمن أن تكون بلاد السلطان الاشراف تحد من انبر الشامى من القسطنطينية والبلاد الرومية الساحلية ، وهي من طرابلس الغرب وسواحل برقة .. الى ثغر دمياط وبحيرة تنيس وحدها من البر الغربى ، من تونس واقليم افريقية .. الى ثغر الاسكندرية ورشيد وبحيرة تنيس .. وعلى أن تكون بلاد الملك دون .. أرغون وأعمالها وبلادها : صقلية وجزيرتها

وبلادها وأعمالها ، بريولية وأعمالها وبلادها .. مألقة ، وقوصرة ،
وميورقة ويابسة .. وأرسديار ! .. والله الموفق بكرمه ان شاء الله
تماماً .

وفي الصفحة 263 وما بعدها وردت رسالة لابی عبد الله محمد بن أبی
الخصال في الشكر على نزول الغيث :

الحمد لله الذي لا يكشف السوء سواء .. ولها لقت حرب الجذب عن
حيال .. وقالوا لا يطمع في الغيث وزحل في الليث ..
» تخرصا واحاديثا ملفقة

ليست بنبع اذا عدت ولا غرب »

انشأ الله العنان .. فيا أيها المومن بالكواكب انظر
الى الديم السواكب .. فمثلت الازهار .. فمن نرجس
ترنو الروانى بأحداقه .. ومن عرار تغنى مطالمة على عرار .. ومن أتحوان
جرى على الثنايا الفر .. ومن بنفسج كالطواق الورق .. وكل ربوة
أخذت زخرفها وأزينت .. فشكرا لرينا شكرا ..

وبعد فهذه ملاحظات : تردد فيه ذكر الشيخ عبد الواحد في المواقع
الجغرافية ، واعتقده « سيكو » عبد الواحد المراكشى ، ولا نظنه ، لانه
الف كتاب المعجب : وهو الوحيد المعروف عنه ، وعمر ابن سعيد لا يزيد على
عشر سنوات كثيرا ، مع أن الشيخ عبد الواحد هذا ينقل عنه ، كما رأيناه .

ومن أخطاء الكتاب ما يلى :

انه يذكر في الصفحة 94 من الجزء الاول أن المغرب أو الغرب
والاندلس كانا بيد نواب الخلفاء .. في خلافة عثمان ، وهذا خطأ تاريخي ،
فظيع ، فالاندلس ما فتحت الا بعد وفاة عثمان بستين سنة وأواخر أيام الوليد
ابن عبد الملك .

وفي الصفحة 231 من الجزء الثالث أخطأ — كما نبهنا — في جعل
مدينة سلا على ساحل الابيض المتوسط .

وفي الصفحة 101 من الجزء الخامس نقل عن الادريسي أن مدينة سببلة ، كانت قبل الاسلام القاعدة لملك الروم الافارقة « أفريسيس » والغالب أنه مصحفاً عن « جرجيس » كما هو مذكور في الصفحة 179 . وفي الصفحة 112 من هذا الجزء نجد نهاية للجملة الثانية ، من مملكة تونس ، وبداية للجملة الرابعة بدون ذكر للجملة الثالثة ، التي سقطت من نسخ الكتاب ، ولم ينبه على ذلك في هامشه .

وفي الصفحة 126 تردد ذكر يعقوب المنصور على أنه ابن عبد المومق فسقط ذكر أبيه أبي يعقوب يوسف ، وتكرر هذا في الصفحة 162 و 195 . وفي الصفحة 129 سقط كلام بعد قوله : « وكان الواثق بن المستنصر لما قتل هو وابوه ترك جارية حاملا به » .

وفي الصفحة 135 نجد هذه العبارة « وذلك أن الخلافة الاموية ودعاوي بني عبد المومن قد زالت عنها (الاقطار) في المغرب بغلبة نسي مرين عليهم وانتزاعهم الامر منهم » .

فذكر الخلافة الاموية قبل دعاوي بني عبد المومن لا محل له ، اللهم الا أن يكون كلام قد سقط بعد الخلافة الاموية وقبل دعاوي نسي عبد المومن أو تكون كلمة « الاموية مصحفة عن « الموحدية » وقد وقع هذا في الصفحة 298 الجزء التاسع ونبها عليه . وهذا هو الظاهر .

وفي الصفحة 157 نقل عن الروض المعطار ، أن سبلة ، بين البحر المحيط وبحر الروم . وهذا خطأ عظيم ، كما أشرنا اليه .

وفي الصفحة 181 ذكر ابن لمحمد بن ادريس هكذا « عيشا » فاعلمه مصحف عن « على » المعروف لنا .

وفي الصفحة 189 اختصر كلاما لابن أبي زرع في أصل المرابطين ومن ملك الصحراء من لتونة أولا بدون أن ينص على هذا الاختصار .

وفي الصفحة 192 ذكر ادريس ابن المنصور الموحي ثم ذكر ابنه عبد الواحد على أنه المامون وأنه لقب بالرشيد مع أن المامون هو لقب ادريس ، وليس لابنه الذي ذكر أنه لقب بالرشيد ، كما رأينا .

وفي الصفحة 223 ذكر أن شنترين على بحر برطانية ، وهو بحر برديل الخارج من البحر المحيط . وهذا خطأ لأن المدينة ليست على البحر بالمرّة وكانها التبتت عليه بشنتامرية المعروفة الآن باسم « فارو » .

وفي الصفحة 232 ذكرت سرقسطة على أنها في شرقي الاندلس ، وليست كذلك .

وفي الصفحة 87 من الجزء الثامن ، ذكر أن يوسف بن تاشفين استولى على المغرب قبل بنى مرين ، وأنه أول من كتب الى الديار المصرية ، ثم أتى بنص الرسالة ، التي هي في الواقع رسالة من أبى الحسن المريني ، كما أشرنا الى ذلك .

وفي الصفحة 31 من الجزء العاشر نجد رسالة القائم العباسي بتوليته الاندلس يوسف بن تاشفين ، مع أن حكمه الاندلس متأخر عنه بكثير إذ كان مجيئه اليها لأول مرة عام 479 وكانت وفاة القائم قبل عام 467 أما ابن موصليا فقد ولد عام 412 فلا يعقل أن تصدر عنه هذه الرسالة التي قال عنها المؤلف أنها صدرت بعد العشرين والاربع مائة .

وفي الصفحة 2 من الجزء الثالث عشر نجد رسالة جعلها صادرة عن أمير المؤمنين ابن أمير المؤمنين المنصور أحد خلفاء بنى أمية بالاندلس .. مع أن الرسالة — كما يبدو — صادرة عن المأمون الموحي وهو لما يزل في اشبيلية اثر بيعته . كما أشرنا الى ذلك في محله . ومن التصحيف ذكر « الفازاري » بالداراري . وهذا من قبيل الناسخ وهي أخطاء قليلة ، بالنسبة الى غيرها ، مما تجلى في تلك المعلومات الواسعة ، التي كانت للمؤلف عن المغرب والاندلس وملوكهما ، وخصوصا مملكتي بنى الاحمر وبنى مرين ، اللتين كان المؤلف يعاصرهما ، كما كان على اتصال بالمؤرخ ابن خلدون ، عند اقامته بالقاهرة ، واقتبس منه في كتابه هذا ، ونص على ذلك الاستاذ عنان في كتابه « ابن خلدون » وأحال على الاجزاء 4 و 5 و 6 من الكتاب المذكور .

محمد آبن تاويت

تطوان

مأساة الحسين في الأدب الأندلسي

د. عبد السلام المحراس

التشيع ، كما استقر على حقيقته ، اسباغ الحق الالهي على امامة على كرم الله وجهه وتفضيله على جميع الصحابة والدعوة لامام معصوم ، ذلك هو القاسم المشترك أو الفكرة العامة التي يشترك فيها جميع فرق الشيعة التي تشعبت بها الطرق وتنازعتها المذاهب الفرعية وتطرف بعضها تطرفا خطيرا أخرجها من دائرة الاسلام وأصبح الكفر يحيط بها من الجهات الاربع .

وقد ظهر التشيع أولا في المشرق في بيئة عربية صرفة ، وبرزت بوادره عند طرح مشكل الخلافة على اثر التحاق رسول الله صلى الله عليه وسلم بالرفيق الاعلى ، ولكن التشيع المرتبط بالفضال والدماء والذي سيتطور بعد ذلك يبدأ تاريخه في حركة التوابين .

جوبهت الشيعة بمقاومة عنيفة واجراءات شديدة من الامويين الذين انتزعوا الحكم بطريقة غير شرعية، وحولوا الخلافة المبنية على الشورى والمبايعة الحرة الى ملك عضوض ، فاعتدوا بذلك على حق المسلمين بل واجبههم في اختيار خليفتهم اختيارا قائما على حرية الارادة والشعور بالمسؤولية ، ولكن منطق الشيعة لم يتبن هذا المبدأ العادل ، بل حاول الاعتداء عليه من جهة أخرى ، كما اعتدى عليه بنو أمية ، وقد قدمت الشيعة كثيرا من الضحايا في سبيل تولية الحكم لآل علي ، ولم يكن نصيبهم من المآسى في عهد بنى عمومتهم العباسيين بأقل مما نالهم على يد الامويين ، ولكن أكبر مأساة خلفت صدى قويا وحيا الى الآن في أرجاء العالم الاسلامي هي مأساة الحسين في كربلاء .

وجد التشيع تربة خصبة في البيئات العربية والعجمية في المشرق بينما كانت التربة المغربية شحيحة عليه فلم تمتد بدوره بالعناصر اللازمة لنموه وان احتضنته أحيانا دون أن يخلف بعد اندثار حكمه في تونس جماعة أو مجتمعا .

اما في الاندلس فنجد عربها وبربرها يستقبلون عبدالرحمن الداخل الاموي وفاء للخلافة الاموية وتحديا للعباسيين ، وقد آزره أولئك بالدعوة والرجال والسلاح حتى انتزع الحكم من يد يوسف الفهري وحلفائه ، فأحيا في أقصى المغرب ما حاول الشيعة والعباسيون اقباره في المشرق ، وكان من الطبيعي أن يواجه الامير الاموي الجديد ، وهو أول أموي يحكم الاندلس مباشرة ، مشاكل متعددة لم يكن وراءها دوافع مذهبية أو دينية

الا بعض التمردات التى تمت من بعيد الى الشيعة أو تتحلل الدعوة اليها دون أن تكون لها بيئتها المناسبة .

ومع أن نزعة الاندلس كانت أموية ، لكن بنكهة أندلسية محلية ، فقد وجد ضمن العنصر العربى بها من كان ذا صلة ما بالشيعة ، كما أن البربر تأثروا بالتشيع ، كما تأثروا سابقا بالنزعة الخارجية .

ومن الاعمال الحربية التى قامت فى وجه الامويين ولها علاقة بالتشيع : الثورة التى قادها عبد الله بن سعد بن عمار ابن ياسر الذى كان أميراً على اليمانية من جند دمشق ، ومعنى هذا ، أنه كان قائداً أموياً دون أية شبهة تابعا لولاية يوسف الفهري آخر ولاية الامويين بالاندلس ، غير أن نزول عبد الرحمن الداخل « بالمنكب » ومطالبته بامارة هذا القطر لاحقيقته به من يوسف جعل هذا يقاوم الطارئ المغامر ويحاول تأليب الناس عليه بجميع الوسائل ، من ذلك أنه كتب الى عبد الله بن سعد أن يتصدى لمحاربة عبد الرحمان الاموي مذكرا اياه بما فعل أجداده بجده عمار بن ياسر وقتلهم له بصفين على يد عسكر معاوية اذ كان عمار من جند على . وقد فشلت ثورة عبد الله وآل الامر الى أن ضرب عبد الرحمن عنقه .. ويبدو أنه ثار فى القلعة التى تعرف بقلعة بنى سعيد ، وكانت هذه الثورة قبل سنة 143 هـ ، وهى السنة التى هلك فيها يوسف الفهري (1) .

(1) المغرب 2 / 161 ، نفح الطيب 2 / 330

وفي سنة 146 هـ يثور العلاء بن مغيث الجذامي بلقنست «ALICANTE» ولكن لم يكن يدعو للطالبين وانما كانت دعوته للعباسيين والى طاعة أبي جعفر المنصور فنشر أعلامهم السود محاولا ان ترفرف على أنحاء الاندلس . وقد هددت هذه الثورة دعائم الحكم الاموي حيث انضم اليها كثير من الجنود وعناصر مهمة من الشعب الاندلسي المتحفز للتمرد واثارة الاضطرابات في مثل هذه الظروف وكادت دولة عبد الرحمن أن تنصرم وخلافته أن تتخرم (2) غير ان عبد الرحمن استطاع باستماتته وشجاعته ودهائه أن يسحق هذه الثورة الخطيرة قرب قرمونة «CARMONA» بعد معارك عديدة قتل فيها العلاء مع نحو من ستة آلاف من أصحابه ، وقد أمر عبد الرحمن بجز رأس هذا الزعيم ورؤوس أعلام حزبه وكتب على كل رأس اسم صاحبه وجعلها في أوعية وبعث بها فطرحت في أسواق القيروان ، أما رأس قائد الثورة فوضعه في سنفط وجعل معه لواء العباسيين الاسود وطرح بباب سرادق المنصور بمكة عند زيارته لها بمناسبة الحج ، فقال المنصور عند ما رأى ذلك :

« انا لله ، عرضنا بهذا المسكين للقتل .. الحمد لله الذي جعل البحر بيننا وبين هذا الشيطان » (3) .

والثورة العربية الثالثة هي التي تزعمها الحسين بن يحيى ابن سعد بن عبادة وذلك سنة 165 ، وكان الحسين مغامرا

(2) البيان المغرب 2 / 52 - 53 - ذكر بلاد الاندلس .

(3) وانظر فكر بلاد الاندلس ص 134

طموحا اشتراك أول الامر مع سليمان بن يقظان الاعرابى فى التمرد بدافع الثأر لليمانية التى سبق أن أوقع بها عبد الرحمن الداخل ، ولكن الرغبة فى الامارة عن أى طريق أتت كانت أقوى عند الحسين من ارادة الانتقام ، لذلك لم يسر مع صاحبه الى آخر أشواط المغامرة ، فقد خوطب من قرطبة ليقام على صاحبه سليمان فاقتاله طمعا فى ان يتولى لعبد الرحمن حكم سرقسطة ، لكن سرعان ما انقلب عليه أيضا فقاد تمردا جديدا لحسابه وحده وقد جابهه عبد الرحمن بكل حزم فأخذه سنة 167 هـ بعد أن حاصر سرقسطة حصارا محكما ثم اقتحمها على المتمردين وقائدهم واشتد على أهلها وأجلاهم عنها ثم أعادهم اليها ... وعلاقة هذه الثورة بالشيعة علاقة غير وثيقة اذ ليس ثمة منها سوى نسب القائد الذى ينتهى الى سعد بن عبادة الذى كان من أنصار على ابن أبى طالب .

ولم تكن هذه الثورات صريحة التشيع ما عدا ثورة العلاء الذى كشف عن مقصده بصراحة على أن ثورته كانت عباسية ، فليس بينها وبين التشيع سوى تلك العلاقة الواهية !!

لكن أبرز ثورة شيعية فاطمية صريحة هى النى قادها قائد بربري فى منطقة شنتبرية «SANTAVER» وقد اختلفت المصادر التى نصت على هذه الثورة فى اسم هذا الثائر ، فهو فى بعض المصادر شقيا أو سفيان بن عبد الواحد المكناسي (4) .

(4) المعهد المصري ص 98 .

لكنه فى مصدر آخر تاشفين بن عبد الواحد الفاطمى (5) .
وحسب هذا المصدر فان الثورة كانت مدبرة من الخارج كما
نظم من هذا النص .

« وفى سنة أربع وخمسين غزا الامام (يعنى عبد الرحمن)
البرابر القادمين عليه مع تاشفين بن عبد الواحد الفاطمى » .

وليس ببعيد أن يكون «شقيا» محرفا عن تاشفين أو سفيان
ويبدو ان ثمة غزوا فاطميا خارجيا قام به جيش بربري استطاع
أن يتسلل الى المنطقة المذكورة ويتصل ببعض عملاء الشيعة
هنالك حيث دبوا مؤامرة وأشعلوا فتنة بشنتبرية سنة 150 هـ
تمهيدا لهذه الثورة التى كان يقودها تاشفين ، أو سفيان الذى
كان شخصية قوية وقيل عنه انه كان معلم صبيان حاذقا للقرآن
يطلق على نفسه « الفاطمى » لان أمه كان اسمها فاطمة وتسمى
بعبد الله بن محمد وهو أندلسى من ناحية وادي الحجارة .

استمرت ثورة عبد الله بن محمد من سنة 151 الى 160
وربما كانت البداية سنة 150 هـ كما معنا الى ذلك، وقد استطاع
أن يهزم جيوش عبد الرحمن المتوالية ، كما استطاع أن يؤثر فى
بعض قواد الامير ويستميله الى دعوته وهكذا صار وجيهه
الغسانى التائىد الاموي من أهم أنصار « عبد الله بن محمد »
والمؤمنين بدعوته ولم ينفع عبد الرحمن لمواجهة هذه الثورة الا
الحيلة والتآمر فدرس على تاشفين أو سفيان بعض أصحابه

(5) ذكر بلاد الاندلس ص 134 .

فاغتاله لكن الثورة لم تنته باغتيال زعيمها اذ تحمل عبء الثورة القائد الاموي السابق وجيه الغساني الذي ظل مخلصا لدعوة الفاطمي يقاتل دونها الى أن قتل . ويبدو أن الثورة في شنتبرية ظلت مشتتة الى سنة 162 . ولعل بلنسية كانت مشتركة أيضا فيها ومؤازرة لها وقد تكون الصدفة فقط هي التي قرنت ثورتيهما في تاريخ واحد ذلك أن عبد الرحمن خربهما معا في هذه السنة (6) .

وواضح من النص الجديد الذي عثرنا عليه في كتاب ذكر بلاد الاندلس أن تاشفين أو شقيا لم يكن يدعو لنفسه وانما كان عميلا للفاطميين الذين كانوا يزودونه بالرجال والعتاد ، ولم تكن الثورة بربرية خالصة بل كان ضمنها قواد عرب ، ولذلك يكون استنتاج الدكتور محمد مكي من تسمية ابن عذاري لهذا الثائر « بالداعي الفاطمي » بأنه كان يقوم بالدعوة لغيره لا لنفسه استنتاجا صحيحا (7) .

وفي سنة 237 هـ شهد شرق الاندلس تمردا تزعمه معلم ومؤذن أيضا كان غامض الدوافع وان كنا نظن أن ثمة علاقة بينه وبين بعض الاتجاهات الشيعية الباطنية . وهو ليس أندلسيا وانما ورد عليها من المغرب بعد ما فشلت دعوته ، يقول الناصري : 1 / 177 - 188 .

(6) ترصيع الاخبار ص 18 .

(7) صحيفة المعهد المصري ص 99 .

« وفي أيام يحيى ابن محمد صاحب الترجمة ، وذلك في سنة سبع وثلاثين ومائتين قام رجل مؤذن بناحية تلمسان يدعى النبوة وتأول القرآن على غير وجهه فاتبعه خلق كثير من الغوغاء . وكان من بعض شرائعه أنه ينهى عن قص الشعر وتقليم الاظافر وئنف الابطين والاستمداد وأخذ الزينة ، وكان شعاره في ذلك « لا تغيير لخلق الله » وعندما شاع أمره شارع أمير تلمسان الى القبض عليه ففر وركب البحر متجها للاندلس . وهناك اغتتن الناس بدعوته وتبعه من سفهاء الناس ورعاعهم خلق كثير وقد استتيعب فلم يتب فكان مصيره القتل صلبا وبينما هو يرفع على الخشبة اذ به يقول للقوم : انتقلون رجلا ان يقول ربى الله (8) .

وعندما قرر العبيديون العمل لمذهبهم اختاروا القبائل البربرية ميدانا لبث دعوتهم وارسال دعائهم ، وكانت قبيلة كتامة الواقعة بين مدن جيجل وسطيف وقسطنطينة محضن هذه الدعوة اذ استقر في حصن من حصونها أبو عبد الله الصنعاني داعية العبيديين واستطاع أن يقنع أسرة مهمة من أسرها القوية مهدت له السبيل وأبدى رئيسها من الاخلاص والتضحية ما ضمن للبداية شروط النجاح . . .

وقد صادف قيام الدعوة الفاطمية بافريقيا اضطراب الاحوال بالاندلس وانتقاض كثير من الرؤساء والمتمردين على السلطة

(8) اعمال الاعلام ص 32 .

المركزية التي كانت تعاني ضعفا كبيرا وكانت ثورة عمر بن حفصون أخطر تلك التمردات .

وكان عمر هذا ثائرا مغامرا وعنيذا ذا دوافع دفينة ملأى بالحق على الدولة وعلى دينها ، لذلك كان انتهازيا متلونا داهية في ميدان الحرب والسياسة ، وقد وجد في العبيديين وسيلة ثمينة للاستعانة بدعوتهم على تحقيق اهدافه فاهتبل هذه الفرصة واتصل بهم فاستجابوا لرغبته وبعثوا اليه بداعيين من دعائهم . يقول ابن الخطيب عن هذا الاتصال :

« وخاطب ملوك الشيعة باغريقية اصداد الاموية ووجهوا اليه رجلين ممن يعتقدان مذهبهم بخلعات وخاطبوه بالحض على التزام طاعتهم واقامة دعوتهم وأقاما عنده حتى حضرا كثيرا من حروبه وصرفهما ووجه معهما هدية انتخبها الى صاحبهما . . »

وقد سبق له أن دعا للقاسم الادريسي صاحب البصرة (9) (بصرة المغرب) ولم يكن ابن حفصون مخلصا لاي مذهب أو أمير سوى لنداء حقه الشديد على الاسلام والمسلمين لذلك كان يرتبط — اسما فقط — بأي جهة تدعم انشقاقه وتضفي على تمرده نوعا من الشرعية والصبغة الدينية (! !) فالتشيع لديه وسيلة للتضليل والتمويه سرعان ما انكشفت حقيقته اذ عندما كثر انصاره أعلن عن ارتداده الى النصرانية أصله الذي كان يضمه منذ مدة (10) .

(9) جمهرة الانساب ص 44 — المجلة المصرية 101 .

(10) البيان المغرب 2 / 139 .

وقد استطاع أن يموه على كثير من المسلمين ويخدعهم فانقادوا لدعوته وتابعوه في محاربة بنى أمية . وكادت ثورته تطيح بدولة الامويين لما كان له من قوة وصمود ولضعف المواجهة الاموية وتمزق وحدتها وتفكك عراها مما أتاح لظهور نزعات شعوبية وقومية ودينية وكانت كل نزعة تبحث عن زعامة تقودها لتحقيق مطامحها وكان البربر اذ ذاك يتطلعون الى ظهور « مهدي » يملأها عدلا كما ملئت جورا (١١) وان قيام دولة شيعية في الضفة الاخرى من المتوسط على أكتاف البربر وما كان يروجه الفاطميون في وسط الاندلس من دعايات فاطمية لاطهار دولتهم بمظهر المنقذ المخلص وتصوير الامويين بما يشوه حاضرمهم وماضيهم وما كان يسود الاندلس من اضطراب وفوضى كل ذاك كان له تأثيره في استجابة البربر لكل دعوة تبشر بالخلاص . وقد سبق أن استغل بعض المغامرين تلك التطلعات والارهاصات ولكن الغريب أن يتزعم الدعوة المهدوية وهى من ضمن عقيدة الشيعة — أمير من البيت الاموي الاندلسى وقد اختار الوسط البربري مناخا لبث دعوته فكانت جماهيره أو قاعدته الشعبية يتكون معظمها من بربر الشمال والغرب ومن أهل طليطلة وطلبيرة وكان هذا المهدي عالما وبخاسة في ميدان التنجيم والكيمياء والفلسفة مما قد يدل أنه كان له ارتباط ما بالفلسفة الباطنية السائدة بالشرق وقد اتهم بالشعوذة التسي استطاع أن يخذب بها ألباب اتباعه . ورأى أن يعلن الجهاد على النصارى فاتجه الى ما وراء الحدود وبعث الى الفونسو الثالث ملك استورياس «ASTURIAS» رسالة بليغة يدعوه فيها الى الاسلام وينذره وقومه بالصاعقة فان لم يجب فالموعد النزال

ونشبت بين الفريقين معركة قرب سمورة «ZAMORA» ^{١١} بمصرع المهدي وتمزيق انصاره وكان لخذلان رؤساء البربر اياه أثر في هذه الهزيمة الساحقة (11) .. يقول الدكتور محمود مكى تعليقا على هذه الثورة : ولعل هذه الثورة التي أشرنا اليها هي آخر المحاولات المسلحة لاقامة دولة على أسس شيوعية في الاندلس وقد انقطعت هذه الثورات بطبيعة تغيير الموقف السياسى الداخلى (12) .

كان عبد الرحمن الناصر شخصية فذة مد الدولة بدم جديد وقوة عظيمة انحسرت معها كل محاولة للنيل من الحكم الاموي .. وهكذا قضى على كل المتمردين وأخطرهم عمر بن حفصون وبادر الى قطع الطريق على الدعوة الفاطمية فأعلن صراحة انفصاله عن المشرق فأسند لنفسه الخلافة لكونه أحق بها .

ومن المهم أن نسجل هنا أن الصراع بين الامويين والفاطميين حمى وطبسه على عهد الناصر والمستنصر ، وكان المغرب الاقصى والايوسط ميدانا لهذا الصراع ، واستطاع كل طرف أن يستميل اليه انصارا وعملاء منهم المخلصون ومنهم المتلونون وان اجتمعوا كلهم في غرض الحفاظ على مصالحهم واماراتهم وكان بنو خزر ثم بنو العافية من أنصار الامويين يتنافسان

(11) المقتبس ص 133 - 139 - الحلة السراء 368/2 - 339 البيان المغرب 140/2

(12) المجلة ص 103 .

تتنافسا حادا في التقرب اليهم كما يبدو ذلك من خلال رسائل ابن أبي العافية الذي كان عبيدي السياسة قبل ذلك الى الناصر اذ فيها كثير من عبارات التزلف والتقرب والخوف على زعامته والحرص على أن يكون هو الاموي الاول بالمغرب دون غيره . . . أما الادارسة فكانوا هم أيضا يتخذون المواقف حسب المصالح لذلك اتسم موقف بعضهم بالتذبذب والتقلب . وقد وصف بعض هؤلاء الادارسة داعية من الشيعة الفاطميين بالفاسق وبكذب السوء وباليهودي والخنزير والمبدل لدين رسول الله صلى الله عليه وسلم وبالمعلن للكفر الجاحد للتنزيل وهذه النعوت والوصاف تعكس مدى تنصل هذا الادريسي مما قد يحوم حوله من شكوك من طرف الامويين في حين كان بعضهم الاخر ذا ارتباط بالفاطميين معلنين الحرب على الامويين (13) .

وكان استيلاء الناصر على سبنة والحاكما بعمالة الجزيرة الخضراء سنة 319 داخلا في نطاق مقاومة نفوذ الفاطميين وسد هذا الباب في وجوههم وجعله حائلا بينهم وبين الاندلس وقد حاول الادارسة استرداد سبنة الا أنهم فشلوا مما اضطرهم للاعتذار للناصر والعودة الى طاعته والاعتراف بامامته (14)

استمرت الدولة الاموية في قوة وازدهار خلال حكم المستنصر وحكم ابن ابي عامر وولده عبد الملك الى أن تفجرت الفتنة القرطبية التي دمرت السلطة المركزية بها واسرعت في

(13) انظر المقتبس لابن حيان ورفات 103 - 131 - 137 .

(14) المرجع السابق .

خراب الاندلس وقد أتيح للحموديين التدخل في شؤون الاندلس فاستغلوا هذه الفوضى ليندفعوا الى حلبة الميدان يسهمون في تأريث الفتنة يؤججون نارها وكان على بن حمود أول من استطاع أن ينتزع الحكم لنفسه من الثوار الامويين مدعيا أن له كتابا من هشام المؤيد يوليه فيه عهده ويجعل له حق الطلب بدمه . وهكذا ابتدأت دولة الادارسة الحموديين بالاندلس سنة 407 وانهارت سنة 449 ولما تمكنهم الظروف أن يحكموا حكما مستقرا وشاملا (15) . والحموديون من نسل ادريس أي سلالة البيت النبوي ولكنهم على مر الزمن والمصاهرات مع البربر تبربروا فأصبحوا يتكلمون بلغتهم ولهجتهم العربية .

والحموديون على الرغم من أنهم كانوا « طالبين » أو هكذا ينظر اليهم فان « شيعيتهم » كانت ضعيفة وسطحية ولهذا لم يسلكوا في حكمهم لا هم ولا أجدادهم مسلك الفاطميين الذين تدخلوا مباشرة وبشكل ساغر في أمور دينية كانت قد استقرت في المغرب كله على السنة والجماعة بل التزموا بما يلتزم به الاندلسيون في شؤون عقائدهم ومعاملاتهم ولم يدخلوا بمذهب مخالف أو عقيدة معادية ولذلك لم يحملوا الناس على أمر يكرهونه ولم يكن ذلك سياسة منهم بل لكونهم اندمجوا في المجتمع المغربي المتذهب فقها بمذهب الامام مالك والمتميز بعقلية طبعت حياته وسلوكه ومواقفه خلال تاريخه في ظل الحضارة الاسلامية .

(15) اعمال الاعلام ص 121 دولة الاسلام بالاندلس 2 / 603 .

وقديما سبق لادريس الاول وادريس الثانى رضى الله
عنهما أن أدركا أن المغرب مناخ خاص يرفض تلك الافكار المعقدة
والملتوية والمصادمة أحيانا لسماحة العقيدة الاسلامية وعدالة
تشريعات الاسلام ووسطيته فى الامور كلها .

والحموديون هم أول أثر طالبي بالاندلس وآخر أثر من
الناحية السياسية وقد ساهموا فى تمزيق الاندلس الى كيانات
صغيرة أطلق على كل جزء اسم مملكة وأطلق على ملكها اسم
رئيس أو الملك ثم انهارت الطوائف لاسباب داخلية أولا وتحت
ضربات النصارى ثانيا وانتهى أمرهم بتدخل المرابطين وتحملهم
مسؤولية صيانة الاسلام بالاندلس واستمرت تبعية الاندلس
لمراكش على عهد الموحدين الى أن ضعفت أخيرا فتمزقت
وحدثها لثالث مرة حتى انحصر الحكم الاسلامى فى دويلة بنى
الاحمر التى كانت لها رقعة صغيرة صارت تنتقل شيئا فشيئا
الى أن لفظت انفاسها فالتهمها النصارى وقضوا بذلك على
وجود الاسلام بالاندلس . . .

فاس : عبد السلام الهراس

لا تنبش القبور

أحمد عبد السلام البقالي

- لم أكن أعرف أنك تشرب شيئاً أقوى من القهوة !
- فأجاب ضابط الشرطة الشاب ، وهو يتناول كأس الكونياك ، ويرشف منها رشقة قوية :
- هذه حالة خاصة .
- فسألت مشفقاً :
- لا بأس ؟
- فجرع من الكأس الواسعة جرعة كبيرة ، وقطب جبينه ، ونفث حرارة السائل الكحولى من حلقه ، وقال :

— جئت لتوى من جلسة استنطاق مؤلمة .

ووضعت كتابى على المائدة ، مستعدا لسماع قصة من أرض الواقع .

كان الضابط الشاب يلبس حلته المدنية . وكنا نجلس فى مقهى الشاطيء الخالى فى تلك الساعة المتأخرة من المساء ، والشمس على وشك الغروب . وكنت أعرفه من أيام الدراسة ، فلم تكن بيننا كلفة .

وبدا عليه أنه حائر من أين يبدأ فقلت :

— ماذا حدث ؟

— البارحة ، قبضنا على شاب متلبسا بقتل ضابط شرطة متقاعد .

— هنا ؟ فى البلد ؟

قلتها بكل استغراب .. فبلدتنا الصغيرة الوديدة النائمة ، من قديم الزمن ، على أقدام المحيط ، لا يقتل فيها الا الشيوخوخة ، ولا يحدث فيها ما يثير .

فحرك الضابط رأسه بالايجاب :

— هنا ، فى البلد .. حاول قتل عبد الصمد .

— الضابط السمين المتقاعد ؟

— نعم ..

— وهل قتله ؟

— استطعنا استخلاصه منه فى آخر لحظة .. قبل أن يجهز عليه .
طيبا ، كان ما يزال حيا .. ولكنى أشك فى أنه سيخرج من هذه
سليما .. وخصوصا وأنه متقدم فى السن ، ومفرط فى السمنة .

— ولكن لماذا ؟ ومن يكون القاتل ؟

— القاتل برانى .. من ناحية الريف ؟ دخل المدينة منذ
أسبوع ، ونزل بفندق البحر ، وأخذ يتصل
بعدد من سكان المزارع والبساتين بالضواحي ، ويسأل عن رجل
اسمه اسعيد ، وزوجته فاطنة بنت اعمار .. هذا ما استطعنا
معرفته من الذين اتصل بهم من الفلاحين القادمين من الريف فى
نفس الفترة التى نزع فيها الزوجان الى الغرب ، أي حوالى
سنة 1947 ، أثناء مجاعة الشمال الكبرى .. تلك المجاعة المشينة
التي ذهب ضحيتها الآلاف ، دون أن تمتد لهم الدولة الحامية يد
المساعدة ..

وتنهذ الضابط الشاب ، وعاد يحكى :

— وبعد أسبوع من البحث اليأس عن أحد يعرف الزوجين ،
أو يدل عليهما ، غادر المدينة ، وعاد الى تطوان . كان يريد القيام

بمهمة مستحيلة . ففى تلك الايام تدفق على المدينة آلاف النازحين ..
فملأوا الملاجئ الخيري ، وساحات المساجد ، والزوايا ، وأضرحة
الاولياء ، وبعضهم سكن المقابر والمغاور ، وكهوف البحر ..
وكانوا يدفنون كل يوم بالعشرات أحيانا .. يموتون بمجرد
امتلاء بطونهم بعد الجوع الطويل .. وكان من المستحيل تسجيل
أسمائهم ، وأخذ هوياتهم ، واخبار أهلهم .

فقطاعته :

— أعرف ذلك .. وأذكر تلك الايام جيدا ، رغم أننى كنت مجرد
طفل صغير . وما زلت أشعر بغصتها المرة فى حلقى ..

فتنهذ الضابط الشاب ، وقال :

— هذا الشاب شبح جاء ليذكرنا بذلك العهد ! اسمه ميمون ..
والزوجان اللذان يبحث عنهما ، هما والداه أمه وأبوه .. وهو
وحيدهما . كانا مزارعين هناك . وحين شحت السماء ، وعم القحط
والجفاف المنطقة كلها سبع سنوات متواصلة ، تركا مزرعتهما ،
أو باعاها ، لا أحد يدري ، ونزلا المدينة ، فتركا الطفل الصغير
لعمه الذي كان تاجرا صغيرا بدون أولاد ، وتوجها غربا طلبا
للرزق ، على أن يعودا بعد سقوط الامطار ، الى طفلهما ومزرعتهما

.. ولم يرجعا أبدا .

.. ونشأ الطفل معتقدا أن عمه هو أبوه ، وزوجة عمه هى

أمه ، ودخل المدرسة ، ثم التحق بكلية الآداب ، وهو على وشك التخرج الآن .

.. وفي هذه الفترة الهامة من حياته ، وأثناء وجوده مع أهله لقضاء الصيف ، جاء من يخبره بأن أباه وأمّه ليسا في الحقيقة إلا عمه وزوجة عمه .

وأن أبويه الحقيقيين نزحا الى المنطقة الغربية أيام القحط الكبير .

.. ووقع ذلك موقعا شديدا في نفس الشاب الذي كان شديد الحساسية ، شاعري المزاج ، فثار على عمه وزوجة عمه لعدم اخباره بحقيقة نسبه ، وبمصير أمه وأبيه الحقيقيين حتى يبحث عنهما ..

.. وحاول عمه اقناعه بعكس ما سمع فلم يفلح .. فالجميع يعرف قصة عقم العم . وفي النهاية اضطر الى اخباره . وقال له ان والديه توفيا في احدى قرى الغرب القريبة من هنا . كما أخبره بذلك أحد معارفه . فلم يقتنع ميمون بذلك ، وعزم على استقصاء أخبار والديه ، ومعرفة ما اذا كانا على قيد الحياة ..

.. ونصحته عمه قائلا : لو كانا على قيد الحياة لرجعا إلينا . فلا تنبش القبور !

.. ولكن قرار ميمون كان حاسما ..

.. وقبل أن يسافر ، أعطته زوجة عمه شيئاً ثقيلاً ملفوفاً في منديل معطر ، قائلة ، وعيناها مغرورتان بالدموع :

— كنت أنتظر حدثاً أسعد لأعطيك هذا .. يوم خطوبتك أو قرانك مثلاً ، لتعطيه ، بدورك ، هدية لعروسك .. فقد أعطتني أياه أمك قبل رحيلها الى الغرب ، ذكرى منها اليك ، واعترافاً بجميلي .

.. وفتح ميمون المنديل بيدين مرتعشتين ، وكأنه يمس أقدس المقدسات ، فإذا سوار فضى دقيق الصنع ، مرصع بالمرجان فقالت زوجة عمه :

— انه هدية من جدك اليها ، وهو فرد من زوج .. وقد احتفظت بالآخر في يدها لدوائر الزمن ، كما قالت لى .. ولا أعتقد أنها فرطت فيه حتى آخر أيامها .. فهي تعرف أنه ملك للعائلة ، انحدر اليها هي من عدد من الاجداد ، وكانت تحتفظ به لك .

.. وأجهش ميمون ، وهو ينظر الى السوار ، ووضعته على وجهه ، وانخرط في بكاء مر ، حتى بدأ جسمه يهتز بكامله ..

.. وأحاطته زوجة عمه ، الطيبة الحنون ، بذراعيها ، وأدخلته غرفته ، وجاءته بكأس ماء ، وهي تحاول كتم آلامها المبرحة .. فهي تعتبر ميمون ابنها .. ابنها بكل القوانين السماوية والارضية .. فهي التي أنشأته ، وربته ، وسهرت عليه في مرضه ، وكافحت معه أيام دراسته ومراهقته .. وها هو الآن ينسى كل ذلك ، ويندفع في فورة عاطفية نحو المجهول ..

« وانحلت عقدة نفسها ، وزالت الغصة الحامية من حلقها حين هداً روعه ، وعاد الى هدوئه ، فأمسك بيديها ، وقبلهما قائلاً :

— أمى .. لا تظنى أن هذا عقوقاً منى ، أو نكرانا لجميلك .. فليس لى أم سواك ، ولم أعرف غيرك .. ولكنك تفهمين .. لا بد للولد أن يبحث عن والديه ..

« فضمت رأسه الى صدرها قائلة :

— هكذا يكون الابناء البررة والمرضيون .. والا كنت قصرت فى تربيتك .

ثم أبعدت رأسه عن صدرها ، ونظرت الى وجهه وتنهت :

— ولكنى أخشى عليك من خيبة الامل .. أو مما هو أقسى !

« فنظر الى عينيها تسائلاً ، فقالت :

— لا أدري ، يا ولدي .. فقد تجد أو تسمع ما لا يعجبك .. فتلک الايام كانت غريبة .. لا أرجعها الله .. بيوت كريمه ، وعائلات عريقة تشتتت ، وهامت على وجوها فى أطراف الارض منهم من ساق حملانه العجاف ، وصغاره الضعاف .. وما أن وصلوا الى حقل ممرع معشب ، حتى تساقطت القطعان ميتة من

الامتلاء المفاجيء ، بعد الجوع الطويل ، ولم يكن حظ الناس
بأحسن من حظ أغنامهم ..

« وقاطعها ميمون قائلا :

— حدثيني عن أمى وأبى .. كيف كانا ؟

فسهمت المرأة الطيبة وكأنها رحلت بروحها ، وجوارحها الى
عالم آخر .. وبعد لحظة نطقت :

— أبوك كان نسخة طبق الاصل من عمك .. فهو توأم له .. ربعة
القد ، نحيف .. أما أمك ، فكانت جميلة الصورة ، ممتلئة قليلا ،
ومن بيت نعمة .

« ثم حركت رأسها آسفة ، وقالت :

— لا أذكر أكثر يا ولدي .. فكلنا بالاجماع حاول جاهدا نسيان
ذلك العهد .. لا رده الله فليس فيه ما يذكر ..

« ثم توجهت اليه متوسلة :

— ألا تحاول أن تنسى .. فلو كان والداك على قيد الحياة لعادا
الينا ، والى بلدهما .. لقد مرت الآن أزيد من عشرين سنة ..

« فوقف ميمون ، وخرج ، وقد تصلب وجهه ، وبان عليه
الاصرار .

» وهكذا ، حمل حقييته وجاء الى هنا .

» ورغم أنه لم يعثر على أثر ما في أسبوعه الاول ، فقد جمع عددا هائلا من المعلومات عن تلك الفترة ، مدعيا أنه يكتب بحثا اجتماعيا .. وقدم نفسه لقسم الشرطة فأفسحنا له المجال للبحث في ما تبقى من ملفات تلك الفترة بخزانة القسم . وكان كله بالاسبانية ، ولحسن حظه أنه كان يلم بتلك اللغة ، فلم يجد صعوبة كبيرة .

»ومن تلك الملفات استطاع تكوين فكرة جيدة عن الحالة في تلك الفترة ، وعرف أسماء رجال الامن ، الاسبان ، والمغاربة ، الذين كانوا يمارسون مهمة الامن حينئذ . ومنهم عبد الصمد ، والقويدري .. والاثنان متقاعدان الآن .

» واجتمع بهما ، وتحدث معهما طويلا .. ولكن تبين ، في النهاية ، أنهما لا يذكران من تفاصيل تلك المرحلة ما يشفى غليله .. وأدرك ، من تعابيرهما العارضة ، أن الموت كان حدثا لا يهز أي مشاعر .. الحرب في أوروبا ، والناس هناك يموتون بالملايين ، والجرائد تتنافس في نشر صور الدمار ، والحرائق ، وانجشت المتفحمة مبعثرة في شوارع المدن ، والقرى وعلى الطرقات .. ووهنا ، في هذه المنطقة ، كان الناس يموتون جوعا ، ويدفنون في قبور جماعية كل صباح ، مكفنين في أسماهم البالية ، كالمجاهدين ..

وطاف ميمون بجميع بساتين الضواحي يسأل الناس دون
أن يجد رأس خيط يهديه الى قصده ..

وذهب الى تطوان يبحث في ملفات ذلك العهد ، ثم عاد بعد
أسبوع كامل ، وقد بدأ اليأس والخيبة يذيان اصراره وآماله ..

وفي آخر يوم من مقامه بالمدينة حدث شيء غريب .. صدفة
كالصدف التي تؤدي الى الاكتشافات والاختراعات العلمية الكبرى
فقد عثر ميمون ، بالصدفة ، وهو يجوب شوارع المدينة
ودروبها ، لآخر مرة ، قبل العودة الى بلده ، على الحلقة المفقودة !
وكانت فعلا حلقة بالمعنى الحرفي للكلمة .. عثر على سوار
فضى مرصع بالمرجان في نافذة أحد الصاغة الصغار .. وتوقف
ينظر اليه ، فارتعدت فرائصه ، وأحس بفراغ في ركبتيه ..
فأغمض عينيه واتكأ على الحائط ، يستمع الى نبض قلبه
السريع ..

« وحين استرجع قواه ، دخل دكان الصائغ العجوز ، وطلب
منه أن يريه قطع حلى أخرى ، أقراط ، وخواتم ، وأحزمة ،
ثم مد يده فتناول السوار محاولا ألا يرتعش ، وسأل ، دون
اهتمام ، عن ثمنه .. وحين أخبره الصائغ استكثره على الحلية
البالية التي لم تعد موضوعة ، وخالفه الصائغ بقوله : « تلك القطعة
لن تبقى هناك حين يمر السواح غدا الاحد . فهي عندهم موضوعة
في أوروبا » .

« وخاف ميمون أن يثير الصائغ فنقده ثمنها ، وسأله وهو يلفها له في قطعة قطن ، وورقة :

— زوجتى ، هى الاخرى ، أجنبية ، فهل تعتقد أنه سيعجبها .

— جدا ، يا ولدي .. انهم يجنون بحلينا القديم ..

— ولكنهم كذلك يريدون معرفة تاريخ القطعة . فماذا يمكنك أن تقول لى عن هذه ، حتى أحكيه لزوجتى ؟

« فعاد الصائغ الى اخراج السوار من قطعة القطن ، ونظر اليه من خلال نظارته السمكية ، وقال :

— هذا سوار من صناعة الريف . وليس من هذه الناحية .. وهو قديم جدا حسب تآكل نقشه العميق من الاستعمال ، وصانعه ماهر للغاية .. هذا كل ما يمكن أن أقول لك عنه .

— قد تريد زوجتى أن تعرف مالكة السابق ..

.. فهذه حلية شخصية ومستعملة ، وأنت تعرف الاجنبيات

« وزم الصائغ شفتيه ، ونظر الى ميمون من فوق نظارته، وقال :

— ليس المفروض أن أقول لك ذلك ، فالذي يبيع حلية يطلب السر .. أنت تفهم .. لا يحبون أن يعرف الناس عن حاجتهم .. ولكنى سأقول لك ، فأنت لست من هنا ، كما أعتقد ..

« فحرك ميمون رأسه مؤكدا فإسالة الصائغ ، نيريسح
ضميره :

— أنا من الرباط .. جئت فقط لقضاء ساعة هنا ، ورؤية المدينة،
ثم الذهاب الى طنجة ..

« فارتاح الصائغ ، وقال :

— هذا الدملاج كان فى ملك شرطى سابق هنا بالمدينة يسمى
القويدري ..

— ألم يقل لك الآخر من أين حصل عليه .. ؟

— لم أسأل .. عيب ..

— ومن أين تعتقد أنه اشتراه .

« فهز العجور كتفه ، وحرك رأسه :

— العلم لله .. ولكن ..

« فأرهب ميمون أذنيه :

— بما أن السوار من صنع الريف ، فلا بد أن الشرطى حصل
عليه أثناء المجاعة الكبرى ، حيث كان النازحون من الشسرقة
يبيعون ممتلكاتهم بأسعار منخفضة للغاية .. هذا كل ما يمكن أن
أقوله لك ..

« ومد له الكومة القطنية قائلاً :

— بالصحة والعافية ..

« وهنا أدخل ميمون يده في جيبه وأخرج السوار الآخر ، وعرضه على الصائغ ، فتناوله هذا مندهشاً من قوة الشبه بينه وبين الاول . ونظر اليه ، وقلبه تحت بلورة نظارته ثم قال :

— هذا أخ توأم للذي بعثك ، فمن أين حصلت عليه ؟

« وأجاب ميمون بسؤال :

— هل أنت متأكد من ذلك ؟

« فمد الرجل يده الى كومة القطن وفتحها ، وأخرج السوار ، وأخذ يقارن بينه وبين الآخر .. وهو يدمدم :

— لا يمكن التمييز بينهما بالمرّة !

« ثم نظر الى الطابع بداخل السوارين والى حافظتهما ، ورفع رأسه متأكدا :

— هذان السواران توأمان .. أين عثرت على هذا ؟

« فتناولهما منه ميمون ، دون جواب ، وشكره وانصرف.

« وفي المقهى التى كان يجلس فيها « القويدي » بعد العصر ، تعدد ميمون الجلوس الى مائدة الشرطى المتقاعد ، ونشر خريطة وأوراقا بيضاء وأخرى مكتوبة ، وانخرط فى الكتابة بجد وانهماك .

« وفي الدقيقة المعينة بالضبط ، وقف « القويدي » على رأسه لحظة مرتبكا لوجود متطفل على مائدته .. وحين لم ينتبه ميمون لوجوده ، سحب الكرسي الثانى متعمدا جره على الارض فرفع ميمون رأسه . وما ان رآه حتى وقف مرحبا به ، ومد يده مصافحا ، وعلى وجهه ابتسامة عريضة ، وقال :

— سامحنى اذا كنت أخذت مكانك من المقهى ، فأنا غريب على البلد ، ولا أعرف العادات ..

« ثم انحنى يجمع أوراقه ، قائلا :

— سأترك لك المكان حالا ..

واندهش الشرطى العجوز لادب هذا الشاب الغريب الذي سبق أن قابله ، وتحدث اليه فى موضوع المجاعة والمهاجرين ، فأمسك بيده مقسما عليه :

— لا والله ما أذت قائم !

— هل أنت متأكد ؟

— أرجوك .. على المائدة متسع لكلينا ..

« فعاد ميمون الى القعود شاكرا وقال :

— وجدتني أسجل المعلومات القيمة التي حصلت عليها منكم حول موضوع النازحين من المجاعة .. وسوف أثبت اسمكم في تقريرى الذي ربما أصدرته « اليونسكو » كتابا بعدة لغات ، هذا ، اذا لم تتروا مانعا من ذلك .

« ففوجئ الشرطى الطويل النحيف بأهمية هذا الشاب ، وبطريقة لاشعورية أخذ يسوي طربوشه ، وصدر سترته ، ويتأكد من وضع ساقبيه بعضهما على بعض ، وقال :

— لا مانع عندي بالمرّة .. ولو كنت أعرف أنك مبعوث من .. من .. تلك المؤسسة التى ذكرت ، لبحثت لك عن معلومات أكثر ..

— معلوماتك كانت قيمة للغاية . وقد أيدها عدد من الذين تحدثت اليهم فى المدينة وخارجها . وسوف أرشحك لشكر خاص من « اليونسكو » لآنك ، حقيقة ، أزلت كثيرا من الغموض على كثير من الحقائق والتفاصيل الدقيقة .

« ففتح الرجل علبة سجائره السوداء ، ومدّها لميمون الذى رفضها شاكرا وقال :

— رب صدفة خير من ألف ميعاد !

هذه فرصة للتأكد من بعض التفاصيل التي كتبت .. فهل
يضايقك اذا سألتك من حين لآخر ؟

— لا ، أبدا .. أرجو فقط أن تسعفنى الذاكرة .

« وهم ميمون بالعودة الى الكتابة ، ولكنه وضع القلم ،
وأدخل يده فى جيبه قائلاً :

— كدت أنسى ! سيهمك أن تعرف اننى عثرت على قطعة أثرية
للفترة التى أدرسها ..

« وأخرج السوار فوضعه أمام « القويدري » الذى تغير
التعبير على ملامحه لرؤيته .. وتعهد ميمون الا يلاحظ ذلك ،
فظل يتكلم :

— اشتريته من صائغ عجوز بالمدينة .. وحين سألته عن مصدره
قال انه لا يذكر .. عجوز ينسى عشاءه !

« وقلب السوار أمام بصر الشرطى المتقاعد قائلاً بلهجة
علمية مجردة :

— أكيد أن هذا السوار جاء من الشمال الشرقى .. وفى نفس
فترة المجاعة . فمن جاء به ؟ وكيف تم تبادله ؟ هذا ما أود أن أثبته
فى كتابى ، اتماما للمعرفة .

« وأخرج « القويدري » نظارته فلبسها بعناية ، وتناول السوار فدرسه من جوانبه ، وابتسم لميمون الذي كان ينتظر رد فعله بابتسامة وشوق :

— أستطيع أن أقول لك الكثير عن هذا السوار ..

— حقا ! ؟ أتعرفه فعلا ؟

— بل كان في ملكي هذه المدة كلها ! وقد اشتريته من سيدة يبدو أنها كانت من عائلة موسرة ، جار عليها الزمان ، غاضطرت هي وزوجها ، للهجرة ..

« وحاول ميمون اخفاء الارتعاشة العصبية بجانب فمه، وعينه في ابتسامة اعجاب ، وقال :

— هل تذكر شيئا عن هذه السيدة ! شكلها ، وسنها ، وملبسها مثلا ، وزوجها ؟

« فحرك الشرطى رأسه بالنفى :

— ليس كثيرا .. كانا زوجين عاديين .. وكنت ترى من أمثالهما العشرات يجوبون الاسواق ، يبحثون عن العمل بالمزارع المجاورة .

— وهل تذكر سبب بيعها للسوار ؟ اعنى هل قالت لك ؟

— السبب واضح ! الحاجة الى الطعام .

— وأين اشتريته منها بالضبط ؟ احك لى القصة كما تذكرها ،
فأنت محدث بارع ، وأحاديثك لا تشبع !

« وهنا وضع القهوجى كأس القهوة الطويل أمام
« القويدري » ، فتناوله ، ورشف منه بشفتين دقيقتين ، وهو
مستمرى كلمات الثناء التى يلقيها هذا الشاب المثقف على
مواهبه المجهولة ، وقال :

— لا أذكر تاريخ ذلك بالضبط ، ولكنى أذكر المكان .. نعم ..
حدث ذلك فى قرية « جلاولة » . وهى تبعد من هنا ببضع كيلو
مترات . ذهبنا نحقق فى موت مفاجئ ، أنا وعبد الصمد ،
زميلى بالقسم .. أرسلنا الرئيس الاسبانى مع أحد سكان القرية
جاء يعلم بموت رجل غريب ، قال انه قدم لهما ، هو وزوجته ،
طعاما .. وبعد ما أكلا ، سقط الرجل ميتا .. وكانت هذه الحوادث
تتكرر دائما حين يمتلىء النازح بعد جوع طويل . ولكن البدوي
كان خائفا من عقوبة القانون ، فحرص على اخبار المسؤولين ،
وهكذا ذهبنا معه الى القرية ، وأجرينا التحقيق فى عين المكان
مع زوجة الميت التى كان يبدو أنها فقدت عالمها بأكمله .. فقد
كانت صغيرة السن ، جميلة ، وغير مجربة .. وحين سألناها هل
لها مال أو شئ تعيش منه ، لم تجب .. كانت فى حالة خدر كامل ..
تعانى من أكبر صدمة فى حياتها . وهنا لاحظت أنا السوار فى

يدها ، فاقترحت عليها بيعه ، والصرف من ثمنه . ولما لم تكن في حالة تسمح لها بالتفكير في التفاصيل، فقد قدرت ثمنه، ووضعت النقود في يدها وأخذت السوار ..

« وكافح ميمون لسحق رغبته في الصراخ .. كان يحترق من الداخل ، ولم يكن قادرا على اطفاء اللهب بدموعه !

« وانحنى برأسه مصطنعا الانهماك في كتابة ما يقوله الشرطى المتقاعد الذي أنهى قصته بقوله :

— وهذه هي قصة السوار .. تماما كما حدثت .. ما زالت أذكرها كما لو حدثت بالأمس .

« فسأل ميمون دون أن يرفع رأسه عن الورق :

— وماذا حدث بعد ذلك ؟

— الاجراءات العادية . كتبنا نحن تقريرنا فبرأنا البدوي الخائف . وطلبنا من السلطة المحلية التكفل بدفن الميت وعدنا لعملنا .

— وماذا حدث للمرأة ؟

— لم نرد ازعاجها بانزالها معنا .. فقد كانت في حالة من الانهيار جعل زوجة البدوي تشفق عليها ، وتطلب منا تركها معها حتى ترجع الى وعيها ..

— لا أعتقد أنك تستطيع تذكر اسم الرجل الطيب الذي أطعم النازحين ؟

« فرشف » القويدري « من قهوته مرة أخرى .. ، وقال :

— لا .. لا أذكر اسمه . ولكنى كنت أراه في السوق مرارا بعد ذلك . فنتبادل التحية . وهو معروف في القرية ، وما يزال سكان « جلاولة » يذكرون ذلك الحادث ..

« وتوقف الشرطى العجوز فجأة ، وكأن غريزة رجل الامن عاودته .. ودب فى حدسه الشك من حقيقة أهداف هذا الشاب .. ولكنه أدرك أن الامر خرج من يده .. وأن الغرور ، وحب الظهور أرجحا كفة الطيش على كفة الحكمة والحذر . فانتقل من الاجابة الى القاء الاسئلة . وجمع ميمون أوراقه ، وفى نفسه ما فيها ، وودعه وانصرف .

« وقبيل الغروب ، وقفت سيارة أجرة بجانب طريق ثانوي مهجور ، ونزل ميمون يحمل فى يده حقيبة قماشية ، فأنقذ السائق أجرته ، وأشار له هذا الى قرية قريبة قائلا :

— تلك هى « جلاولة » .

« وشكره ميمون ، وقصدها راجلا . وأدار السائق سيارته وعاد من حيث جاء .

« ومر بجوار المقبرة بقبورها البالية ، فوقف ، ونظر الى القبور القديمة التي كادت تتساوى مع الارض ، وتساءل : أيها قبر أبيه ؟

« وبعد بضع دقائق وجد ميمون نفسه وسط القرية الصغيرة محاطا بالكلاب تنبح في وجهه بشراسة .

« وخرج شاب فطارد الكلاب ، ووقف مع ميمون يسأله عن حاجته ، وأحاط بهما عدد من أطفال القرية يتأملون الرجل البرانى . كان يبدو على الشاب أنه من أبناء القرية غير المقيمين . كان يلبس بنطلونا أزرق من قماش (الجين) وقميصا مزخرفا ، وقد طال شعره ، فضمن ميمون أنه من عمال الخارج .. وشكره على تدخله لحمايته من الكلاب ، وسأله عن الجامع . فأشار له الشاب الى مبناها ، وسأله هل يبحث عن أحد بالضبط ، فقال ميمون :

— ليس بالضبط . أنا مبعوث من وزارة الثقافة لجمع بعض المعلومات التاريخية وتسجيلها . ويهمنى كل ما يمكن أن أعرفه عن هذه المنطقة من كبارها وشيوخها الذين عاصروا تلك الاحداث .

« فأشرق وجه الشاب ، وقال له :

— اذن عليك بعمى العياشى .. تعال ..

« وقاده الى المسجد وهو يتحدث :

— عمى العياشى أكبر شيوخ القرية سنا .. ويمكن أن يجيبك على جميع أسئلتك . هو الآن فى الجامع ينتظر أذان المغرب .

« وعلى دكة باب الجامع جلس رجل نحيف أبيض الجلاب واللحية . فسلم عليه الشاب بصوت عال يدل على الدعابة ورفع الكلفة ، وقدم له ميمون . فصافحه هذا باحترام كبير ، وأخبره الشاب بمهمته ، فاعتدل الشيخ فى مجلسه شاعرا بأهميته .

« وأخرج ميمون من حقييته قالب سكر وقرطاس شاي ، وسأل الشاب :

— أنا طالب ضيافة الله ، ولكن الشاي على .

« وخرج المؤذن والامام فانضموا للجماعة . وحين رأوا قالب السكر والشاي تهلت وجوههم ، فهذه فرصة طيبة « لتقصيرة معتبرة » .

« وبعد صلاة المغرب ، جلس ميمون وبقية الجماعة حول الشيخ العياشى ، وأحاط بهم عدد من الطلاب الشباب ، وأخذ ميمون يوجه الأسئلة للشيخ بلباقة ، ويسوق الحديث الى أيام المجاعة وأثرها على القرية ، ثم تطرق الى الاحداث والحالات الخاصة ، وكيف أن النازحين المساكين كانوا يموتون بمجرد امتلاء بطونهم بعد جوع طويل ، فلمعت عينا الشيخ ، وقال متذكرا قصة بعينها حدثت بالقرية :

— أذكر ذلك جيدا .. لم يمت عندنا الكثيرون من المهاجرين لاننا تعلمنا ألا نقدم لهم طعاما كثيرا ، منذ أن توفى رجل هنا من كثرة الاكل .. كنا نقدم لهم ما يكفى فقط لسد الرمق ، كالحليب مثلا ، حتى تعتاد بطونهم على الطعام من جديد .

فسأل ميمون مشجعا :

— وكيف كانت قصة ذلك الرجل ؟ وهل جاء القرية وحده ؟

— لا ، جاء هو وزوجته .. كانت امرأة شابة ، ما تزال على وجهها ملامح النبل والجمال ، رغم شحوبها ونحولها من الجوع ، ومشقة السفر ، والسير على الاقدام المسافات الطويلة .. ولا يدري أحد كيف اهتديا الى قريتنا « جلاولة » ، فهي خارجة عن الطريق المطروق ، ولكن يظهر أنهم كانوا ينتشرون الى الاماكن غير المطروقة ابتعادا عن بعضهم البعض ، وبحثا عن العمل . فحيث يكثرون تنذر فرص العمل ، وتقل شفقة الناس عليهم . وبعضهم كانوا أغنياء .

« فسأل ميمون مستغربا :

— أغنياء ؟ ! كنت أظن أن الفقراء وحدهم الذين هاجروا ، فلماذا يهاجر الاغنياء ؟

— كثير منهم وجدت معهم مبالغ مالية كبيرة للغاية .. كانوا يخفونها في أحزمة لا يفارقونها .

— ولكن لماذا ؟

— لا أدري .. قد يكون بعضهم باع أرضه ، وهم أغلبية النازحين .. وهرب من الجفاف على أمل أن يجد أرضا أخرى ، أو يعود الى بلده بعد نهاية القحط ، ويشتري أرضه ..

— غريب جدا !

فرد الشيخ :

— لا تستغرب يا ولدي .. فقد كان الغسالون يكتشفون على جثث عديد من الموتى مبالغ طائلة من البسيطات . وحين علم رجال الشرطة بذلك بدأوا يتسابقون ، هم الآخرون ، الى تفتيش الموتى قبل السماح بغسلهم أو دفنهم . وكان الاسبان يتركون أمر ذلك لرجال شرطتهم المغاربة ، فكان هؤلاء يعيشون فسادا .. وأغلبهم أثرى على حساب هؤلاء المساكين . ومثالا على ذلك ، الرجل الذي مات عندنا هنا في « جلولة » .. قام ضابط الشرطة بتفتيشه ، فوجد في حزامه رزما من الاوراق المالية تعد بالآلاف البسيطات .. وما زلت أذكر كيف فتح الحزام أمامي ، وأخذ يعد الاوراق المالية ، هنا في هذا الجامع ، وفي ذلك الركن بالذات ، الى جانب النافذة .

وابتلع ميمون ريقه بصعوبة ، وسأل :

— مات هنا في الجامع ؟

— نعم .. كانت العادة أن يأتى الناس بأطباق الطعام للجامع اذا حضر ضيف . فأكل المسكين بشهية كبيرة ، وحالا أحس بالالم فى معدته .. ولم ينفع فيه زعتر ، ولا « فليو » ولا غيره من الاعشاب التى نعالج بها مثل هذا المعص . ومات تلك الليلة .

— وزوجته ؟

كانت فى دار الفقيه مع زوجته .

ويبدو أنها لم تأكل كثيرا . فقد وصلها خبر مرض زوجها فكفت عن الاكل وجاءت لتريضه . وكان مرضه انقادا لها من الموت فى الحقيقة .

— هل تتذكر الشرطين الذين قاما بالتحقيق ؟

— نعم .. جيدا .. وهما ما يزالان على قيد الحياة .. ولا أدري كيف لم ينزل الله عليهما صاعقة تحرقهما ! وخصوصا ذلك البرميل الجهنمى ، عبد الصمد ! ولكن الله عز وجل يقول : « وأملئ لهم ، ان كيدي متين » !

وتنهى ، وأضاف :

— كنت أظنه سيسلم الفلوس الى زوجة الرجل الميت . كانت هى هناك قاعدة الى جانب جثة زوجها ، ساهمة ، ممتعة الوجه ، وكأنها ، هى الاخرى ، جثة هامة .. ظلت كذلك حتى

رشها النساء بالماء ، وأخرجوها من صدمتها فبكت ، بعد ذلك ،
بكاء الموت والغربة .

— وماذا فعل عبد الصمد بالفلوس ؟

— قال انه سيأخذها للمخزن !

وحرك الشيخ رأسه :

— المخزن ! بعد شهر واحد ، اشترى عبد الصمد دارا وغرسة؛
ولم يكتفيا بأخذ فلوس الزوج الميت ، بل بلغت الوقاحة
بالشرطى المساعد حينئذ ، وهو « القويدري » ، ما يزال على
قيد الحياة ، أن تقدم من المرأة الارملة المسكينة فاستل من يدها
سوارها الفضى دون أن تشعر ، قائلا انه من حق المخزن ، كذلك !

وغلا الدم في رأس ميمون حتى أحس أن عروقه ستنفجر،
وتصيب العرق على وجهه ، وأحس برغبة عارمة في القتل !

وسمع أحدا يسأل الشيخ :

— وماذا فعل الله بالارملة المسكينة ؟

فقال الشيخ :

— شىء غريب حدث بعد ذلك . يبدو أن المرأة المسكينة لم تكن
تعرف أن زوجها يتحزم بذلك المبلغ الكبير من المال ، حتى

أخبرها النساء بما حدث . فجاءت الى الجامع ، حيث كان النमित ينتظر الصباح ليدفن ، وجاءت بهراوة ، ونزلت فيه ضربا ، وهى تخاطبه باكيه من الحنق والقهر : « يا مجوعى ! ويا معريى ! ويا مبعدي عن أرضى ، وأهلى ، وأحبابى ! يا ملجئى للتسول ، وبيع ماء وجهى ! يا زوج السوء ! يا عديم الكرامة ! يا بخيل ! يا خشبة جهنم » ! وظلت كذلك تضرب وتصرخ : « الله لا يرحمك ! الله لا يرحمك ! » حتى دخل عليها نساء القرية ، ونزعن العصا من يدها ، وأخذن بخاظرها .. ويظهر أن المسكينة أصيبت فى عقلها ، فهامت على وجهها بين المداثر ، حتى عثر عليها ميتة فى أحد الخنادق .

« وقام ميمون من المجلس ، وخرج دون كلمة ، فظن الجماعة أنه ذاهب لقضاء حاجة . وانتظروه فلم يعد .

ولم يدرك هو كيف قطع الطريق بين « جلاولة » والمدينة .. خرج يعدو وتبعته الكلاب ، فلم يعبأ بها وهى تمزق ملابسه بأنيابها ، وتهم بنهش لحمه ! كان يشهق بشدة حتى يكاد قلبه يتوقف ، فيقف لحظة لياخذ أنفاسه ، ثم يستأنف العدو .. حتى دخل المدينة ، وقصد دار « عبد الصمد » ، فطرق الباب .. وخرج هذا فى قميص نومه الواسع ، فارتمى عليه ميمون ، وغرز أسنانه فى حنجرته ، والتصق به كذئب قطبى جائع ، والآخر لا يدري ما أصابه ، ولا يستطيع الصراخ ولا الاستغاثة !

« ولم تقدر زوجته ولا أولاده تخليص أبيهم من قبضة ميمون المتشنجة ، حتى سمع الجيران صياحهم فجاءوا

لمساعدتهم عليه . وجيء بميمون الى قسم الشرطة في حالة من الهوس والهستيريا ، وهو يصيح : « اقتلوني ! اقتلوني ! أريد أن أموت ! »

وتنهذ ضابط الشرطة الشاب ، وأضاف :
— وبصعوبة استطعنا أن نربطه الى أحد الاسرة ، حتى جاء
المرض وحققه بمهدىء .. وهذا الصباح فتحننا معه التحقيق .
فسألته :

— وماذا سيكون مصيره ؟

— يتوقف ذلك على عبد الصمد .. اذا مات ، فسيحاكم ميمون
بجريمة القتل العمد .. واذا عاش فسيخفف ذلك من العقوبة .
وخصوصا اذا لم يتقدم بشكوى ، ولا أظنه فاعلا .. فهو من الذكاء
بحيث لا ينبش قبور الماضى ، ولا يستفز الاثباح !

وعاش عبد الصمد .. وترك المستشفى بعد يومين . وحين
علم بسبب هجوم ميمون عليه من الضابط الشاب ، طلب منه أن
يطلق سراحه ، وينسى الموضوع .

وغادر ميمون المدينة في صباح اليوم التالى ، وقد تقدم به
العمر عشر سنوات ..

الرباط أحمد عبد السلام البقالى

صفحات من تاريخ الصويرة

الصديق ابن العربي

ان تاريخ هذه المدينة يمتد خلال ثلاثة اقطاب تتميز كل منها على الاخرى . فالاولى : تتعلق بتاريخها قبل الاسلام خلال العصرين الفينقيين والروماني وهو تاريخ الجزيرة بالخصوص ، والثانية : تاريخ الاقليم في العصر الاسلامي ، والثالثة : تاريخ هذه المدينة الجديدة التي انشأها المولى محمد ابن عبد الله في العصر الحديث .

ولكى نبدأ من البداية لابد لنا من الرجوع خطوات الى الوراء في مسار الزمن . ان اول دولة بحرية ظهرت في التاريخ القديم هي دولة الفينيقيين التي نشأت واستقرت وازدهرت في شواطئ لبنان ، وبالاخص في مدينتي صور وصيدا ، فكانت قبائلها الاولى من الكنعانيين الساميين الذين اشتغلوا أولا بالصيد (ومن هذه الكلمة اشتق اسم مدينة صيدا عاصمتهم الاولى) ، وادى اشتغالهم بهذه المهنة في الشواطئ القريبة والبعيدة الى تفرسهم ومهارتهم في فنون الملاحة وبناء السفن الى أن أصبحوا مع توالي القرون من اكبر التجار وأمهـر الملاحين .

وكنتيجة لازدهار التجارة ومهارتهم في صنع السفن ، اتسعت مناطق نفوذهم ما يجاورهم من البلاد الشرقية كمصر وقبرص وبلاد الاغريق ، وشيئا فشيئا أخذ نفوذهم يمتد الى سواحل البحر المتوسط وجزره ، فأنشأوا لهم مراكز تجارية في كل مكان تصله سفنهم ، وكثر احتكاكهم نتيجة لذلك بشعوب المناطق الساحلية التي كانوا يتزلون بها ، حاملين بضائعهم من خزف وأخشاب وأبازير وعطور وخمور وغير ذلك من الادوات التي اشتهروا بصناعتها واتقانها . وكانت هذه المراكز التي كانت في أول الامر قليلة العدد تكثر وتعدد على توالى العصور ، كما كانت منطلقا لاكتشاف شواطئ جديدة على ساحلى البحر . وهكذا امتدت هذه المراكز التجارية شرقا وجنوبا فأسسوا أولا بتونس مدينة أوتيكا ، وبعدها مدينة قرطاجنة التي كان لها الذكر المجيد في التاريخ ، ثم تقدموا شمالا حتى وصلوا لقادس بإسبانيا ، ومنها اتجهوا جنوبا نحو شواطئ المغرب ، الى أن وصلت طلائعهم الى جزره بالبحر المتوسط ابتداء من الجزر الجعفرية قرب مليية ، الى جزيرة النكور ، الى جزيرة بادس ، الى جزيرة المعدنوس المقابلة لسبتة ، وأخيرا الى بحر الظلمات أو المحيط الاطلنطى ، حيث مروا بجزيرة فضالة التي كانت منفصلة عن البر ، ثم وصلوا في خاتمة المطاف الى جزيرة الصويرة .

ونظرا لكون هذه المسافات الشاسعة التى تفصل بين صور والصويرة، والى تمتد حوالى 3 آلاف كلم ، فان السفن الفينيقية كانت مضطرة الى الوقوف بهذه المراكز التجارية الممتدة على شواطئ المتوسط للتزود بما يلزمها من مواد ولتجعل منها نقطة انطلاق لرحلات جديدة نحو اكتشاف المجهول .

وتتميز هذه الصورة الرائعة من المغامرات البحرية لهذا الشعب الفينقى النشط نضع امامكم نصا كتبه الرحالة حنون القرطاجنى حيث يقول:

« خرجنا من الاعمدة وسرنا فى البحر مدة يومين وعندها أسسنا أول مركز قرب منبسط كبير من السهول والوهاد وأطلقنا عليه اسم تمياريون وقصدنا على الاثر ناحية الغرب ، فوصلنا الى لسان من الارض اللوبيية تكتنفه الاشجار يدعى بسولايبس .

وهناك أسسنا معبدا لبوزيدون الاله واتجهنا بعدئذ نحو مشرق الشمس ، وبعد انقضاء يوم ، وصلنا الى بحيرة قرب البحر نبت عليها قصب طويل وحولها ترعى قبيلة جسيمة العدد وكمية جمّة من الحيوانات الاخرى .

وغادرنا هذه البحيرة وسرنا يوما ، فأسسنا على جانب البحر عددا من المراكز ، وبعد مغادرتنا لهذه النواحي وصلنا الى مصب نهر اللكسوس العظيم الذي اتخذ بداية مجراه من لوبيا وعلى ضفافه ترعى سائمة أهـل اللكسوس الرحالين ، ولقد توددنا اليهم كثيرا ومكثنا معهم زمنا ، وهناك قوم يدعون الاتوبيون ، يعيشون على مصب هذا النهر . وهم يقطنون أرضا تخترقها جبال شامخة وبها الوحوش الضارية قد اتخذت مساكنها ، وهؤلاء الاقوام شديدا اللؤم ويقال ان نهر اللكسوس ينبع من أرضهم ، وحوالى النهر يسكن صنف من الناس لهم أشكال خاصة يدعون التروكلوديت ويزعمهم اللكسوسيون ان هؤلاء القوم يسبقون الخيل عدوا .

ثم سرنا يومين فى ناحية المشرق فوجدنا خليجا دائرته نحو المليون وفى وسطه جزيرة ليست لها أهمية ثم وصلنا الى بحيرة بها ثلاثة من الجزر وبعد مسيرة يوم وصلنا الى طرف البحيرة » .

هذا ما كتبه الرحالة الفينيقي منذ عدة قرون ، ولقد أكدت الابحاث الجغرافية الحديثة صحة وصفه ، وأجمع الجغرافيون المحدثون على أن الجزيرة المذكورة فى كتابات الرحالة الاقدمين . من هيرودوت وحنـون وسيلاكس وسطرابون وبلين .. لا يمكن أن تكون الا جزيرة الصويرة لان شواطئ المغرب من طنجة الى سوس خالية من الجزر الا هذه الجزيرة المتحدث عنها .

وهناك من الباحثين من يرى أن مدينة الصويرة الحالية تقع فوق جزيرة كانت منفصلة عن القارة ولا تتصل بها الا بواسطة كتبان من الرمال ومجموعة من المستنقعات .

وقبل كل شىء يجب أن نصف هذه الجزيرة وصفا ماديا :

تقع هذه الجزيرة على بعد 1500 م تقريبا من الشاطئ الرملي الواقع عند مصب وادي القصب ، وهى غير مستديرة بل بها إوجاجات ونتوءات وتبلغ مسافة دائرتها نحو 1800 م ، وعلوها يتراوح ما بين 24 الى 29 متر على سطح البحر وقد كانت فى العصور الغابرة عبارة عن جزيرة واحدة طولها نحو الف م وعرضها نحو 600 م ، ولم تنفصل الى جزيرتين الا بعد ذلك بسبب علو الامواج وتلاطمها وبفعل الرياح العاتية وتساقط الصخور . والجزيرة الشمالية هى الصغرى وتسمى جزيرة الحمام ، والاخرى اكبر ، وكانت تسمى بجزيرة فرعون وهى تسمية مغربية أطلقت على اماكن أخرى كتصر فرعون بوليلى وساقية فرعون بناحية الرباط .

اما موقعها وأهميتها الدفاعية فلم تكن لتخفى على الملاحين والبحارة الاقدمين من فينيقيين ورومانيين خصوصا وان المسافة التى تفصلها عن شالة الرومانية وهى نحو 450 كلم لا توجد بها أية جزيرة على الاطلاق وهى بذلك تعد آخر نقطة غربية وصل اليها الاقدمون خلال العصر القديم .

ونبادر الى القول بأن هذه الجزر التى عرفت الفينيقيين وبعدهم الرومان لم تكن مستعمرات دائمة كما يتبادر الى الذهن وانما كانت قبل كل شىء مراكز تجارية مؤقتة ترتادها السفن فى فصول معينة لتبادل البضائع والمنتجات المحلية . فكان الملاحون يرسون بسفنهم المدورة وينصبون خيامهم ويقيمون بها عدة أيام أو أسابيع تتم فيها عمليات البيع والشراء ثم يتلعون بعد ذلك ليعودوا مرة أخرى ولن تطيل الكلام فى الاسم الذى أطلقته الاقدمون على هذه الجزر ، فقد أطلقت عليها اسماء مختلفة خلال التاريخ الى أن سميت أخيرا بالصويرة ويرى أحد الباحثين ان كلمتى سور بالسين وصور بالصاد الساميتين تعنى صخرة أو حصن وعلى ذلك فان اطلاق كلمة الصويرة على الجزر أو المدينة ربما كان قديما جدا .

بيد أن المسألة التى تثير اهتمامنا الان هى كيف توصل الباحثون الى التدليل على صحة المعلومات التاريخية الواردة عن الجزيرة بادلة لا يتطرق اليها الشك ؟

هنا نحيل الكلام على الأركيولوجيين من جغرافيين ومؤرخين واختصاصيين في الموضوع ليجيبوا عن هذا السؤال وعن الأسئلة التي تتردد في الأذهان :

ان البحث الأركيولوجي والتنقيبات والحفريات عن الآثار القديمة في الجزيرة لم يبتدىء الا في أوائل هذا القرن وبالضبط من سنة 1903 الى سنة 1907 على يد الباحثين الفرنسيين .

ثم توقف التنقيب تماما لانتشغال ادارة الحماية الفرنسية آنذاك وانصراف اهتماماتها الى التنقيب عن الآثار الرومانية بالمغرب ، بعد نجاح تنقيباتها عن هذه الآثار في كل من الجزائر وتونس . وهناك أسباب أخرى هو قلة الاختصاصيين عن التنقيب في الآثار الفينيقية ، ثم سهولة البحث عن الآثار الرومانية نظرا لوقوعها على السطح أو على عمق قليل وتعدد مناطقها في المغرب كمناطق ويلي وباناسا وتمودا الخ ...

وانجا اكثريه الباحثين الى هذا الميدان نظرا لتخصصهم فيه، والسبب الأهم جدا هو أن الآثار الفينيقية الواقعة غرب البحر المتوسط ظلت مجهولة تماما نظرا لقلتها وعدم تعدد مواقعها .

وفي سنة 1950 استأنف الباحثون أعمالهم لزيادة التنقيب عن الآثار القديمة فحصلوا على معلومات اضافية شجعتهم على مواصلة العمل فيما بعد ذلك أي بعد حصول المغرب على الاستقلال ، ثم توالى التنقيبات التي أسفرت عن اكتشاف ما خلفه الفينيقيون والرومان من آثار ألقت أضواء جديدة على تاريخ المغرب القديم .

ولكن كيف تمت عمليات التنقيب هذه ؟ وفي أي مكان بالضبط من الجزيرة ؟

أما المكان فهو الواقع في مواجهة شاطئ سيدي مكدول بين المسجد والمرسى والسجن بمحاذاة البرج والمطانية .

ابتدأ المنتقبون أولا بحفر الأرض في أماكن متقاربة لا تبعد عن الشاطئ بمسافة كبرى واتضح لهم بعد الحفر أن الطبقات الأرضية التي بلغ عمقها نحو الثلاثة أمتار ظهرت فيها خمس طبقات الواحدة فوق الأخرى . الأولى طبقة حديثة لا تتجاوز القرن التاسع عشر والثانية تحتها تضم بعض المخلفات الرومانية كالمواقد وأواني فخارية ومسامير وأسلاك من نحاس . والثالثة تحتها طبقة من تراب عقيم يدل على عدم اهتمام بالأرض ، أما الرابعة فهي التي وقع العثور فيها على بقايا المخلفات الفينيقية من قناديل أو سرج بسيطة الصنع وهي عبارة عن صحن خزفي في حافته نتوء مقعرة تستقر فيها الفتيلة وأدوات منزلية فخارية مصبوغة الجوانب ترجع إلى القرن السابع ق.م. وبلغ مجموع القطع التي استخرجت لحد الآن نحو 150 قطعة مختلفة الأشكال والأنواع ومن بينها عدة قطع شبيهة بالقطع التي وقع العثور عليها بلكسوس (العرائش) ، الأمر الذي يدل على استفحال النشاط التجاري والبحري للفينيقيين خلال القرن السابع ق.م. ويؤكد من جديد ما قاله حنون في رحلته التي أشرنا إليها من قبل .

ولم يكن الفينيقيون ملاحين يجوبون البحار على غير هدى ، وإنما كانوا يسلكون طرقا بحرية معينة محددة اكتشفوها بأنفسهم واستخدموها استخداما تجاريا واسعا . أما هذه التجارة البحرية بين فينيقيا ومراكزها التجارية المتعددة فقد كان قوامها عدة مواد : الخشب والحنطة والزيت والخمر والأدوات المعدنية والأقمشة الصوفية والتطنية بعضها مصبوغ باللون الأرجواني . وكانت شعوب حوض البحر الأبيض المتوسط تترقب بلهفة وصول البضائع الفينيقية الثمينة إلى مراسيها .

ولم يكن الفينيقيون يشتغلون بالملاحة فقط ، بل تعاطوا الزراعة والصناعة وظهرت مهارتهم بالأخص في صناعة الزجاج والنسيج والصباغة بالأرجوان . وكانت هذه الصناعة الأخيرة تعتمد على حيوان بحري من نوع الصدفيات شبيه بالمحارة يعرف بالمربق ومنه يستخرج السائل الأرجواني ويوجد بشواطئ البحر المتوسط ، وحرصا على هذا المورد الطبيعي وخوفا عليه من الاضمحلال والتلاشي فإن الفينيقيين اكتشفوا مصادر أخرى لجلب هذه الاصداغ إلى بلادهم ووجدوا في جزيرة الصويرة

مقادير كبيرة منه ، استغلها الفينيقيون كما استغلها الرومان من بعدهم وبالأخص الملك المغربي يوبا الثاني الذي أنشأ بهذه الجزر معامل لاستخراج مواد الصباغة الأرجوانية عند زيارته لها ربما في طريقه الى الجزر الخالدات « كناريا » .

ولم تكن عملية استخراج هذا القليل من مادة الصبغ وتقطيره وتنقيته بالامر اليسير بل كانت عمليات شاقة وبطيئة ، ولذلك ارتفع ثمنه وتنافس في الحصول عليه اباطرة الرومان وكبار الاغنياء . اما كيف كانوا يعالجون هذا الصباغ فيقول بلين :

« ان العملية تبدأ باستخراج السائل الملون من عرق من عروق الحيوان وهو حي ثم يضيفون اليه الملح ثم يغلى غليانا خفيفا في قدور من الرصاص ثم يجفف ثم يغلى ثانية وبعد عمليات متتالية يكون السائل جاهزا للبيع وتتهافت الموانئ على شرائه رغبا عن ثلثه وارتفاع ثمنه » .

هذه اذن نظرة موجزة على تاريخ هذه الجزيرة في العصر الفينيقي، اما ما يتعلق بالمخلفات الرومانية الموجودة بالجزيرة ، فقد عثر المنتقبون على نقود باسم الملك المغربي يوبا الثاني المتقدم الذكر منها قطعة فضية تحمل صورته وتاريخ 23 قبل الميلاد ، وقطع اخرى باسم زوجته كليوباترة سيليني (بنت كليوباترة المصرية التي خلدها امير الشعراء احمد شوقي في روايته مصرع كليوباترة كما خلدها الموسيقار محمد عبد الوهاب في اغنيته كليوباترة » ..

على ان اهم اكتشاف بالجزيرة هو ما وقع سنة 1957 حيث عثر المنتقبون على قصر روماني يضم 18 حجرة به قاعات وافنية وقنوات الماء وصهاريج ودرج الخ .. والبناء في شكله وهندسته وبمقارنته مع بنايات العصر الروماني والتقنيات المستعملة في تشييده ومواد بنائه وعرض الجدران والابواب والاقواس والاحواض يتخذ نفس الشكل الموجود بالقصر الصغير وليكسوس خلال العصر الروماني في القرن الثاني بعد الميلاد .

وزيادة على هذا البناء الضخم فقد عثر الباحثون على عدة مواد ومصنوعات من نفس العصر تتمثل في القطع الخزفية المتنوعة الاشكال والالوان وبعضها يحمل نقوشا وكتابات لاتينية وهى فى مجموعها لا تختلف عن الاوانى الخزفية الفينيقية والرومانية الموجودة فى المراكز الاثرية المشهورة وفى متاحف الفن القديم .

ومن بين المكتشفات قطع الفسيفساء الرومانية التى كانت تزين ارضية القصر وهى فسيفساء تمثل رسوم بعض الحيوانات وبالاخص الطاووس شبيهة بمثلها مما وجد بوليلى وبزغوان بتونس ، هذا زيادة على التنايل والجرار وادوات البرونز ومسامير النحاس ومفاتيح وأقفال وزجاج وكؤوس ومزهريات وابرودبابيس ومشابك واساوير وقطع مختلفة من فضة وريصاص وحديد وعاج وخواتم وحلقات الزينة وقرون الحيوانات واصداف الارجوان وبيض النعام الخ ...

وهنا لا يسعنا الا ابداء كامل الاسف على توقف حركة الحفر والتنقيب فى الظروف الراهنة ولاشك ان استئنافها فى المستقبل من شأنه ان يزيد فى تعرفنا على ماضى الجزيرة وسيلقى الاضواء الكاشفة على حقبة من التاريخ ظلت مجهولة لحد الان .

وهكذا عرفت الجزيرة خلال اثنى عشر قرنا من القرن السابع ق.م. الى نهاية القرن الخامس ب.م. سلسلة من مظاهر الحضارات القديمة التى تركت بصماتها فى هذا الجزء الغربى من القارة الامريقية

واذا كان المغرب النافع فى العصر الرومانى هو ذلك الجزء المتمثل فى ناحية المغرب ومدنه فان المغرب النافع بشواطئه البحرية كانت بالنسبة اليهم يمتد من مصب نهر ملوية الى مصب نهر درعة بأقصى الجنوب .

ومما لاشك فيه أيضا ان جزيرة الصويرة كانت المحور الذى تدور حوله صناعة الصيد والاتجار مع الجنوب كما كانت قاعدة للملاحين ورجال

البحر سواء القادمين منهم من موانئ الشمال أو المتجهين نحو الجزر الخالدات التي كانت خاتمة المطاف .

بيد ان الجغرافيين والمؤرخين الذين جاؤوا بعد بلين الروماني لم يعطوا أهمية لهذه الجزر فيما كتبوه ، ورغمما عن استهزار البحارة والملاحين والتجار من ليكسوس وسلا في العصر الروماني في ارتياد هذه الجزر والتعامل معها فان الملاحين الشرقيين الذين طالما شددوا الرحال اليها من صيدا وصور وقريطش وقرطاجنة لم تعد بالنسبة اليهم فيما بعد ذلك من العصور سوى ذكرى من الذكريات الجميلة .

هذه بعض صفحات موجزة من تاريخ هذه الجزر حاولنا ان نقدم فيها خلاصة ما توصلنا اليه من معلومات مبثوثة في بطون اسفار التاريخ وهى معلومات متفرقة احيانا ويشوبها نقص وبتروثغات في احيان اخرى . ولا ندعى أننا أحطنا بالموضوع من جميع أطرافه ولكن ما لا يدرك كله لا يترك جله .



وبانتهاء العصر الروماني لهذه الجزيرة يسدل الستار عن تاريخها وينسى التاريخ ذكرها خلال الف سنة كاملة ، ولا تظهر مرة أخرى في صفحات التاريخ الا في القرن الخامس عشر ، إبان الاكتشافات الجغرافية التي حولت الانتظار الى المحيط الاطلسي كما سنرى ذلك في فقرة أخرى من هذا الحديث .

وسننتقل الان من الجزيرة الى الاراضى المواجهة لها أو ما يسمى الان بالاطليم لمتابعة هذا المسلسل التاريخي الوجيز :

عند الفتح الاسلامي لهذه البلاد كانت شواطئ المغرب تستقبل الفاتحين المسلمين الاولين وتسير في ركابهم بعد أن اعتنقت الاسلام واخذت تساهم في صنع التاريخ . وكان الصحابي الجليل عقبة بن نافع الفهري

وصحبه الكرام ينشرون مبادئ الدين الجديد في جميع الاماكن التى مروا بها من شواطئ المتوسط الى شواطئ المحيط الاطلسى جنوبا حيث ردد التاريخ كلمته الماثورة ، وذلك فى القرن الهجري الاول ، وما كاد القرن الثانى ينصرم حتى كانت هذه الشواطئ الجنوبية تخضع للاشراف الادارسة فكانت اغمات وما والاها من نصيب الامير عبد الله بن ادريس الذي تابع خطوات ابيه واسلافه لنشر كلمة التوحيد والتبشير بالدين الجديد .

ومن القرن الثانى الى اواسط القرن السادس كانت السواحل المغربية الممتدة من تامسنا الى حاحة تحت نفوذ البرغواطيين الخارجين عن الاسلام ، وكانت الامارات الاسلامية فى عهد الادارسة والمرابطين تخوض من حين لآخر حروبا ضارية للقضاء عليهم ولم تنته هذه الحروب الا فى اوائل العصر الموحدى . فكان من الطبيعى اذن ان تعود هذه القبائل المتساكنة بالشواطئ الى حظيرة الاسلام بعد ان بسطت الدولة الموحدية نفوذها على المغرب بأكمله وعلى سائر بلاد الشمال افريقى والاندلس . وكان من الطبيعى ايضا ان تنشأ حركة جديدة للتبشير بالاسلام ونشر التوعية واعادة الوحدة الى صفوف المسلمين بالشواطئ الاطلسية البعيدين عن مراكز الاشعاع الثقافى فى كل من فاس ومراكش ، وهكذا نشأ اول رباط يعيد لهذه القبائل وحدتها الدينية والعثمانية ، ذلك الرباط هو رباط تيط بناحية الجديدة ، والذي أصبح مركزا لاشعاع دينى وثقافى خلال عدة قرون كما قام بنفس الدور رباط مولاي أبى شعيب بأزمور .

وحدث فى هذا القرن ، وهو القرن السادس الهجري حادث جديد وهو دخول العرب الهلاليين الى المغرب الذين استقدمهم الخلفية يعقوب المنصور الموحدى من افريقيا فقد تدفق هؤلاء الاعراب على السواحل بالشاوية ودكالة فاختلطوا بالسكان ونشروا فى هذه السواحل اللغة العربية والتقاليد والاعراف والعادات وانماط الحياة البدوية واصبحت هذه المناطق تتعرب تدريجيا الى ان تغلبت العربية على بقية اللهجات التى كانت سائدة اذ ذاك .

ثم أخذت معالم هذا الشاطئ الصوري تتضح شيئا فشيئا فيظهر اسم امكحول لأول مرة فى كتابه الجغرافى الاندلسى البكري الذي تكلم عن

مرسى أمكدول في كتابه المسالك والممالك . ثم جاء بعده الجغرافى الاندلسى ابن سعيد فوصف هذه الناحية في القرن السابع بقوله : « ومرسى أكادير في بلاد حاحة ومنه يوسف الملح الى تلك السواحل جنوبا وشمالا . ومن هذا النهر الى مصب نهر أمكدول أربعون ميلا وهو أيضا في بلاد حاحة . وهناك جزيرة صغيرة بينها وبين النهر ميل واحد وهناك مشى للمراكب الخ ...

وقال عن بلاد حاحة :

« وهى مخصوصة بالعسل الابيض والثيران الكبار المـسـلاح .. وفى غربها بلاد رجراجة المخصوصة بشجر أركان الذي يفضل زيتته على ما يعصر من الزيتون ورائحته عطرة وتصنع فيها أكسية في غاية من الرفعة والنعمة بها يلتحف نساء الحضرة . وبها نهر شيشاوة وعليه من الرمان الكبير الطيب وهذه البلاد متصلة بالبحر المحيط .

وهكذا نرى ان اسم أمكدول الذي عرف به هذا المكان ابتداء من القرن السادس يبدد تلك الخرافة القائلة بأن أمكدول تحريف لاسم ماك دول البحار البريطانى الذي حل بهذه الشواطىء في القرن السادس عشر ، مع أن هذا الاسم عرفه الجغرافيون المسلمون قبل أن يكون لبريطانيا ذكر في التاريخ !

بل ان فرقة كاملة تدعى آيت أمكدول من قبائل آيت بوزيد تستقر الى الآن بين حوضى وادي العبيد وأم الربيع بالاطلس المتوسط .

وكما ظهر اسم أمكدول ظهر معه اسم رجراجة حيث عين الموحدون العلامة ابن الزيات قاضيا برجراجة وذكر في كتابه التشوف عددا من صلحاء الناحية من بينهم الشيخ اسماعيل الرجراجى وغيره .

ولا يكاد ينصرم القرن السابع حتى تأسس بهذا الشاطىء رباط جديد هو رباط أبى محمد صالح بأسفى الذي كان مجمعا للعلماء والصلحاء ومركزا دينيا وثقافيا للتربية والتوعية وتشجيع المسلمين على حج بيت الله الحرام، ولقد وصف ابن قنفذ القسطنطينى الذي كان قاضيا بهذه الناحية وتجول بها

وكتب عنها وصفا مهما للجماعات الشعبية التي كانت تقام بها كما وصف اعتناء الحاحين في مدارسهم العلمية بالفقه والفرائض والحساب . بعد هذه الرحلة السريعة عبر القرون أخذنا الان نقرب شيئا فشيئا من عصر جديد هو عصر الاكتشافات الجغرافية التي أدت الى تطور أحوال الدول والشعوب شرقا وغربا ، وتأثر المغرب بها تأثرا بليغا ...

كانت البرتغال ، وهى الدولة البحرية الفتية بأروبا تشق طريقها نحو التفوق والسيادة على البحار بفضل أساطيلها التجارية وملاحيتها الماهرة منافسة بذلك جارتها الاسبانية .

وباحتلال البرتغال لسبتة سنة 1415 ابتدا في المغرب عصر جديد حيث أخذت الموانئ المغربية تتساقط الواحدة تلو الاخرى خلال قرن كامل واصطبغت الشواطئ المغربية من سبتة الى اكادير بلون المقاومة الشعبية للاحتلال البرتغالى الذي أفقر المغرب اقتصاديا وتجاريا كما ساعد على نشر الاضطرابات السياسية في ربوعه وتكثك أواصر الوحدة في البلاد في أواخر العهد المريني وخلال عصر الوطاسيين .

وعرف هذا الساحل الصوري هذه الفارات البرتغالية على شماله وجنوبه فقد احتل البرتغاليون مدينة البريجة وهى الجديدة ثم آسفى ثم اكادير ونزلوا بجزيرة الصويرة وابتنوا بالشاطئ .. الحصن الملكى .. « كاسطيلو ريال » الذي خربه المجاهدون فيما بعد وأخذت سفنهم تجوب البحار وتدوس الشواطئ وتنتشر فيها الرعب والفرع والخراب والدمار وكانت جيوشهم الطاغية تعيث في الارض فسادا فتحرق الغابات وتدمر المزروعات وتطارد السكان وتأخذ الاساري لتبيعهم في اسواق العبيد !

وعند ارتياد البرتغاليين لهذا الشاطئ وصلوا الى مرسى امكدول الذي تكلمنا عنه انفا فحرفوا الاسم الى موكدول واشتهر هذا الاسم المحرف بين ربابة السفن البرتغالية والاسبانية ثم حرف مرة أخرى الى موكادورو وفيما بعد أصبح موكادور وهو الاسم الذي انتشر ذكره بين البحارة الاوربيون .

وبنى البرتغاليون أثناء احتلالهم للشواطئ أسوار الجزيرة ثم فى المكان الذي تقوم عليه المدينة الحالية بنوا به تحصينات تدل عليها آثار الساقية التى كانت موجودة خارج باب مراكش كما بنوا برج الواد الواقع فى طرف ساحل امكدول ، وهو برج مربع حصين خطمه المجاهدون وأعداد السلطان محمد بن عبد الله بناءه من جديد ثم تحطم من جراء الفيضانات المهولة التى اجتاحت الصورة فى أواخر القرن الماضى فلم يبق منه اليوم الا مجموعة صخور فى مواجهة الجزيرة الكبرى .

وكان رد الفعل من طرف المغاربة هو تكتل الشعب المغربى قاطبة بأمرائه وصلحائه وعلماؤه لمقاومة العدو الدخيل فتأسست شبكات المقاومة فى الشواطئ من شفشاون الى العرائش الى المعمورة فأسنى فأكادير وأذكى نار هذه المقاومة العنيفة فى هذه الناحية بالذات الشيخ محمد بن سليمان الجزولى حيث اتخذ من افوغال مركزا لتوعية الجماهير بالخطر المحقق بالبلاد ، وتفانى مريدوه من الامراء السعديين ورجال ركراكة وقبائل حاحة وما جاورها حتى تحررت هذه الناحية من النير البرتغالى فى أوائل عصر السعديين .

وخلال حركة المقاومة وانبعاث الشعور الدينى فى هذه الناحية سطع نجم الركراكيين مرة أخرى كما سطع قبل ذلك خلال حرب البرغواطيين فسقط فى الميدان عدد كبير من الشهداء وترك جهادهم وثقتهم .

فى الدفاع عن حوزة البلاد اثرا لا يمحو فى ذاكرة تلامذتهم ومريديهم وفى نفس الجماهير الشعبية التى كانت تنظر اليهم نظرة اكرام واجلال . ولتجسيم هذا الاحترام اقيمت المواسم التذكارية على عادة المغاربة فى تخليد شهدائهم وعظمائهم لسبعة منهم الهدفونين بجبل الحديد وزاوية اقرمود وما حولهما ابتداء من سيدي واسمين الى سيدي سعيد بن بيقى ، وبقيت ذكرى هؤلاء الرجال السبعة متبعة بركراكة الى اليوم قبل ان تعرف مراكش رجالها السبعة فى القرن الحادى عشر الهجري .

ويجدر بنا هنا ان نذكر ان كلا من رجاجة وحاحة اشتهرتا فى التاريخ بما ظهر فيهما من علماء وزعماء وصلحاء نخص بالذكر منهم :

أبو عثمان سعيد الرجرجى جد الامام عبد الله بن ياسين فقيهه
المرابطين من رجال القرن الخامس ، والشيخ اسماعيل الرجرجى الذي
ذكره صاحب التشوف ، وهو من رجال القرن السادس ، ومنهم الشيخ أبو
الحسن الرجرجى صاحب كتاب مناهل التحصيل في شرح المدونة من رجال
القرن السابع ، ومنهم العالم العلامة صاحب الرحلة الحجازية الشهيرة
أبو البركات العبدري دفين حاحة ، ومنهم أبو العلاء أحمد بن سليمان
الشيظمي أحد كتاب المنصور الذهبي وأحد الشعراء المجيدين ، ومنهم
الشيخ إبراهيم الكراتى الرجرجى القاضى في عهد المنصور ، ومنهم الشيخ
يحيى بن عبد المنعم الحاحى المنانى الداودي الذي استنجد به السلطان
زيدان بن المنصور السعدي وغيرهم كثيرون .

وبعد هذه المساهمة الجماعية لكل من حاحة ورجرجة والجزوليين
والسعديين في حركة تطهير الشواطىء من البرتغاليين الدخلاء ، وتخريب
التحصينات التى بناها البرتغاليون في الصويرة القديمة عند مصب نهر
تنسيفت ، اتجهت همة السعديين الى بناء الصويرة الثانية عند مصب وادي
القصب قرب اربعاء بنى كرض وجعلوا منها مركزا لزراعة قصب السكر .

تلك الزراعة التى انتشرت في عهد السعديين في كل من حاحة
وشيشاوة . ومما لاشك فيه أن هذه الصناعة كانت من أهم أسباب
الازدهار الذي تمتع به المغرب في عهد المنصور ، وأصبح السكر في هذا
العصر في مقدمة المواد التى يصدرها المغرب الى الخارج وذلك الى غاية
أوائل القرن 17 بل أن مداخيل المغرب من هذه المادة كانت تعادل ثلث
ميزانية الدولة ، ولم يكن المغاربة إذ ذاك يعرفون أزمة السكر مثل ما
نعرفها اليوم ! ولكن عندما ازدهرت زراعة قصب السكر بأمريكا وجزر
الانتيل والبرازيل تدهورت هذه الصناعة حتى انقرضت نهائيا في أواخر عهد
السعديين .

وفي هذا العصر بالذات ، وخلال القرن السادس عشر كانت المنافسة
على الاستعمار قد بلغت أشدها بين الدول البحرية الجديدة البرتغال
واسبانيا وانجلترا ، وكان البحارة والملاحون الأوروبيون يذرعون البحار

بحثا عن الاراضى الجديدة لاستعمارها ونهب خيراتها وكانت جزيرة الصويرة من النقط التى كانت هدفا لهؤلاء القراصنة الجدد ، « ففى صبيحة يوم عيد الميلاد من سنة 1577 وصل اليها البحار البريطانى الشهير السير فرنسيس درايك فى اسطول صغير ، يتكون من خمس سفن على متنها مئة وخمسون بحارا وضعوا ثقتهم المطلقة فيه ، فجابوا معه مجاهل البحار دون ان يعلموا شيئا عن الاتجاه الذي يسير بهم فيه ، ولم يكن أحد غيره يعلم شيئا عن المخاطر التى يزج بهم فيها ، وفى 25 ديسمبر من تلك السنة ، وصل الاسطول الصغير الى الصويرة ونزل اليها الكابتن جنرال درايك ، وكان هدفه اكتشاف مناطق المغرب النائية للاستيلاء عليها ولما نجح فى مسعاه لكان من الممكن أن تصبح جزيرة الصويرة من الممتلكات البريطانية ، ولكن هذه الزيارة اقتصرت على أن تصبح على الجزيرة شهرة عالمية ، بعد ان التى فى مياهها مرساته لأول مرة فى أسطوله الصغير الذي نعت فى ذلك الحين بأنه شمس أخرى تطوف حول الكرة الارضية .

وقد كانت اسبانيا عدوة لانجلترا فى تلك الايام ، ولذلك فقد كان هدف درايك أن يضر بها بشدة ، وأن يستولى على خيراتها عبر البحار لمصلحته ، ولمصلحة ملكته التى ودعته عند بداية الرحلة بالزهور والرياحين ، وكان أثاث سفينته فاخرا جدا وأدوات مائدتها من الفضة الخالصة ، وبها فرقة من خبراء عزف الموسيقى ، وكل ما يوجد فى بلاده من روائع الحضارة يثير بها اعجاب الناس كلما رسا فى شواطئ العالم ، كما كان معه فنانون يرسمون له هذه الشواطئ بالوانها الطبيعية .

وعندما رسا درايك فى المياه الواقعة بين المدينة والجزيرة احتفل مع بحارته أسبوعا كاملا بعيد الميلاد ، وكانت الجزيرة خالية من السكان وليس فيها غير الاعشاب والصفور . وكانت تحفل بالحمام والطيور الكاسرة وتحفل مياهها بمختلف أنواع الاسماك ..

وقد أصبحت هذه الجزيرة مشهورة بعد ذلك بين رجال البحرية الانجليز ، وقل أن يمر أسبوع دون أن يرى العلم البريطانى يخفق فوق مياهها ، ولكن أحدا منهم لا يعرف أن درايك سبقه الى زيارة هذه المياه ، فان من حوادث التاريخ الكبرى نفسها ما يتعرض للبلى وللنسيان « .

وقبل مغادرة هذه الجزيرة ، أود أن أنقل هذا الوصف الشعري الذي كتبه رحالة انجليزي آخر زار الجزيرة في أوائل هذا القرن ، أي بعد زميله السابق بثلاثة قرون قال :

« عندما يصعد المرء الى الجزيرة يملكه الشعور بأنه يطأ أرضا في حالة احتضار ، حينما يقع بصره على مئذنة قصيرة ترتفع في السماء الى جانب مسجد مهجور ، وعلى سجن خال يقع تحته ، وتوجد الى جانب ذلك صهاريج وأبيار في حالة اهمال مماثل ، وهناك أيضا المدافع المغلوبة على أمرها لا تزال مصوبة نحو البحر بعد أن خلت أيامها .

على أنه يطيب الاسترخاء فوق أرض الجزيرة في الاغوار الرملية الدافئة المبتوثة بالزهور البنفسجية والصفراء للانحسار عن عالم الشهادة في عالم النسيان .

وتوجد بالجزيرة طيور غريبة تغادر كهوفها حيث يتردد صدى هدير المحيط الاطلسي الذي لا نهاية لفضبه عند شروق الشمس ، لتعود اليها عند الغروب في سحابة من الاجنحة المتلاطمة فهي هنا تولد ، وهنا تتزوج ، وهنا تربي صغارها ، وهنا تموت أو تتردى بجناح كسير بين الامواج الهوجاء التي تستطيع وحدها أن تحمي هذه الطيور من هياج أكثر جنونا هو هياج الانسان !

وتصبح الجزيرة عندما يحل فصل الصيف أكثر اتصالا بالحياة حينما يؤمها الناس من الصويرة ليطوفوا بها حتى اذا ما حل فصل الشتاء خلت من كل أحد .

ويمكن أن يرى كل شيء واضحا في النهار ، ولكن عند الغروب يتحول البحر حول الجزيرة الى شعلة من اللهب المتوهج ، لتنعزل بعد ذلك عن العالم ، وتختفي في الظلام « ونتابع مسيرتنا فنصل الى أوائل القرن

السابع عشر حيث كانت هناك محاولات تبذل للاستحواذ على الجزيرة من طرف الفرنسيين . فقد قدم آنذاك الاميرال الفرنسي رازبي الى الوزير ريشيلو مشروعا لاقامة مركز تجاري وعسكري بها الا أن اشتغال فرنسا بشؤونها الداخلية المضطربة صرفها عن ذلك .

وفي نفس الوقت قدمت سفينة على متنها بعثة دبلوماسية في الظاهر واستعمارية في الواقع لدراسة أهمية الجزيرة من الناحية الدفاعية ، وكان من بين ركابها الرسام الهولاندي الشهير ما طام الذي ترك لنا صورتين من أدق الرسوم اليدوية الاولى للجزيرة والثانية لمدينة مراكش .

ونصل بعد هذه الجولة الى القرن الثامن عشر وهو القرن الذي شاهد ظهور مدينة الصويرة « الثالثة » وهى المدينة الجديدة التى أبرزها الى الوجود الملك المبكري السلطان سيدي محمد بن عبد الله .

فكيف تم هذا الانجاز الضخم على يد هذا الملك الطموح ؟

يجب أن لا ننسى أن المولى محمد بن عبد الله ، أقام مدة بأسفى واطلع على أحوالها التجارية وعلى الفوضى الضاربة أطناها في ميدان التجارة مع الخارج ، ثم استقر بهراكش كخليفة لابيه مدة طويلة اتصرف خلالها الى اعادة تعمير المدينة واصلاح مرافقها وتجديد معالمها ، وكانت تصله أخبار النواحي الجنوبية وبالاخص قضايا التجارة والتهريب بهرسى أكادير والفنن التى تعوق الحركة الاقتصادية ، لذلك فكر عندما تولى الملك أن يولى الجانب الاقتصادي مزيدا من الاهتمام حتى ينعم المغرب بنظام تجاري سليم .

كان المولى محمد بن عبد الله زيادة على علمه وذكائه وخبرته وقطاعاته ، مستثير الفكر متفتحا لقبول الاصلاحات الضرورية لتطوير مملكته والنهوض بها بعد فترة الاضطرابات السائدة في عهد أبيه ، وكان يرى أن علاج الاحوال في مملكته لا يتم الا بازدهار الاقتصاد فاتجه تفكيره الى بناء مرسى جديدة يكون موقعها بين آسفى وأكادير غير بعيدة عن مراكش

عاصمة الجنوب والنواحي المجاورة لها ، وتنحصر فيها حركة الاتجار مع الخارج لتكون خاضعة للمراقبة وفي مأمن من الثورات المحلية ، وتكون في نفس الوقت نقطة الوصول والانطلاق للقوافل الصحراوية المتجهة الى السودان والقادمة من تمبكتو ، وفوق ذلك مركزا لتجميع التجار الاوربيين وممثلى الشركات والقناصل .

وفي هذا السبيل بذل هذا الملك الذكى المتبصر جهوده الكاملة لابرار مكانة المغرب بين الدول المعاصرة له ، فوجه السفارات والبعثات الى الدول الكبرى والى عاصمة الخلافة الاسلامية، وعقد المعاهدات والاتفاقيات وفتح مملكته للتيارات الفكرية وللحركات التجارية المتبادلة مع الدول بدون استثناء .

وكانما أراد المولى محمد بن عبد الله أن يشرك في هذا المجهود جميع الطاقات والكفاءات بالبلاد ، فعهد الى مهندس فرنسى كورنو بوضع تصميم هذه المدينة التى أرادها أن تكون متميزة عن بقية المدن باستقامة شوارعها واتساع طرقها وتقابل أبوابها وتعدد مراقفها من مخازن وأهراء وأسواق ، واشرك فى انجاز كل ذلك طوائف مختلفة من السكان والعمله والصناع وأصحاب الخبرات من أسارى أجانف وعبيد المخزن وأصحاب الحرف من نجارين وبنائين وحدادين وزلاجين وخراطين وجباصين ونقاشين وحجارين وصباغين من فاس ومكناس وتطوان ومراكش وسوس .

وشجع هجرة السكان اليها بما بذله لهم من أراضى وتسهيلات ومنع وأدوات العمل ، حتى اذا اكتملت عمليات البناء والإسكان ، اختار لها من أبناء البلاد من يسير شؤونها ويرعى مصالحها ويتفانى فى المحافظة عليها والدفاع عنها .

وهكذا عين هو ثم خلفاؤه من بعده عمالها وقوادها وقضائهم ومحتسبيها رجالا من خيرة أبناء الاقليم ومن المع رجال الدولة ببقية المدن الأخرى .

فرائنا من عمالها وولاتها وباشاواتها وقضائها :

الحاج العربى الطريس التطوانى ، والحاج على بن عبد الصادق الرجراجى ، وجابر بن سعيد الشباني ، وحמיד بنائى الفاسى ، وابراهيم بن بيهى الحاحى ، ومحمد البرورى الشيطمى ، ومحمد ابن الكاهية الاسفى ، وعبد الرحمان بركاش الرباطى ، ومحمد بن أحمد المراكشى ، ومحمد بن أحمد الورزازى ، ومحمد بن التهامى الوزانى ، وعبد السلام الفشار المكناسى وعلى بن محمد الثنائى ، والحسن المزميزى ، وعبد الله الصابونجى السلاوى ، وعبد الرحمان الرودانى ، والعربى الرحمانى ، وعملال الزمرانى ، وعلى بن محمد الكاديرى ، وسلام السوسى ، والحاج عمر التازى ، ومحمد بن عمر السرغينى الخ .

وهكذا اشترك أبناء المغرب قاطبة فى تحقيق هذه الرغبة الملكية التى اتت بكل خير على هذا الجزء من الوطن العزيز .

وتم للسلطان تنفيذ ما خططه لهذه المدينة ، وحقق بجهوده المتواصلة ما ينشده لها من أعمار واستقرار وازدهار ، خصوصا بعد أن حرر الجديدة من الاحتلال البرتغالى سنة 1769 واعاد بناءها من جديد ، وسماها الجديدة بدلا من اسمائها القديمة : مازغان ، البريجة ، المهودمة .

وبعدما أصدر أوامره بمنع الاتجار مع الخارج بموانئ اكادير وفضالة والعرائش أصبحت الحياة الاقتصادية والتجارية فى هذه المدينة تتقدم وتتطور الى الامام واخذت السفن تؤمها من مختلف الاصقاع ، وبعد مرور 15 سنة انشئت بها 12 من الدور التجارية الاجنبية واستقر بها نحو الالف من التجار الاروبيين من انجليز وفرنسيين وهولانديين واسبانيين وهكذا تمركزت حركة السوق بميناء واحد وقضى بذلك على التهريب واضطراب الائمان وفوضى التوزيع .

ولم يكد ينتهى القرن الثامن عشر حتى كانت الصويرة تستقطب 40 ٪ من الحركة التجارية ، بينما اتت بعدها : الرباط وسلا وتطوان وطنجة والعرائش ، اما انفا الدار البيضاء التى فتحت للتجارة سنة 1782 فكانت تحتل المرتبة الاخيرة بنسبة 10 ٪ فقط . ولا داعى الى القول بأن المنواد

المصدرة كانت المواد الخام من حبوب وصوف وجلود وأبازير وريش النعام والإتار والاعناب وغير ذلك من المواد الأساسية ، بينما كان المغرب يستورد المنتوجات القطنية والحربية والادوات المصنوعة والسلاح والبارود وغير ذلك من الادوات ...

ولنلتفت الان التفاتة أخرى الى الجزيرة لنرى ماذا شاهدت من أحداث خلال العصر الحديث . لقد أدرك المولى محمد بن عبد الله من أول وهلة مركز هذه الجزيرة الدفاعي الذي تمتاز به فوجه عنايته اليها بتحصينها بالأبراج والحصون الدفاعية المشحونة بالمدافع الكبرى والصغرى ثم شيد برجاً صغيراً فوق صخرة بداخل البحر أمام المرسى الجديد بحيث أصبحت السفن المتجهة الى المرسى تحت حماية رمى المدافع من هذا البرج وأبراج الجزيرة .

وشيد بها خلفاؤه من بعده المسجد والصومعة ودار الغنم والسجن ومطاني المياه ومقبرة للمجاهدين ، ووظف بها الحراس من رجال الجيش كما عين مشرفاً عسكرياً على شؤونها الدفاعية . ولعله كان يريد أن يجعلها مركزاً للسفن الجهادية التي كانت ترسو بالعرائش وسلا فعاجلته المنية قبل تحقيق ذلك .

وقد استعمل الملوك من بعده هذه الجزيرة خلال القرن 19 لنفى المتمردين على الدولة وسجنهم بها . وأول من سجن بها محمد بن الغازي الزموري الذي تمرد بزايان على الدولة في أيام المولى سليمان فنفى إليها ومات بها .

وفي عهد المولى الحسن الأول سجن بها المولى أحمد الريسونى ومكث بها مدة حتى تمكن من الفرار والرجوع الى بلاد الريف .

على أن أهم حدث عسكري وقع بها هو هجوم الاسطول الفرنسى عليها بقيادة الاميرال جوانفيل عقب معركة ايسلى الشهيرة بين المغاربة والفرنسيين سنة 1844 وذلك للضغط على المغرب وتحطيم اقتصادياته .

وفى أواخر القرن صور ظهير مخزنى يجعل جزيرة الصويرة محجرا
صحيا للحجاج العائدين من الديار المقدسة حرصا على سلامتهم وسلامة
السكان . وبقيت تقوم بهذا الدور الى أوائل القرن الحالى .



لقد كانت رغبة مؤسس هذه المدينة أن يجعل منها مركزا تجاريا
واقتصاديا يستقطب التجارة والاقتصاد فى هذا الجزء من الوطن . وتحققت
هذه الرغبة بجهوده وجهود خلفائه فأصبحت هذه المدينة ذات اشعاع
اقتصادي وتجاري داخل المغرب وخارجه خلال فترة طويلة من الزمن .

وها نحن اليوم فى عهد الاستقلال نطمح الى مواصلة تحقيق رغبة
مؤسسها الاول فلنعمل فى هذا السبيل ، وفى جميع الميادين ، وعلى ضوء
التخطيطات التى يضعها اولو الامر وبمساعدة العاملين من رجال السلطة
لكى تسترد هذه المدينة مكانتها المرموقة التى بنيت من أجلها منذ اليوم
الاول ، خصوصا وقد حباها الله بثلاث مميزات قلما اجتمعت فى غيرها :

فموقعها الجغرافى والبحري الممتاز ومناخها البليل العليل الذى لا
يتغير طول السنة ، وشواطئها الجميل الهادى ذو الرمال الناعمة تكتنفه
الغابات والاحراج على امتداده ، واتساع شوارعها ، ونظافة مرافقها ، كل
ذلك يجعل منها مدينة سياحية جذيرة بجلب الزوار من سائر الاقاليم .

وقد حباها الله فوق ذلك بثروة سمكية لا يستهان بها هى مصدر رزق
وعمل لطوائف كثيرة من سكانها النشيطين ، وعامل من عوامل تطور ملاحه
الصيد التى ترحف سنة بعد أخرى .

وفوق ذلك فان الابحاث الجارية والتنقيبات المستمرة عن فوسفات
مسكالة سيجعل منها فيما يستقبل من الايام بحول الله ، مصدرا جديدا
للثروة ، ونواة أولى للتصنيع حتى تصبح المدينة مركزا لنشاط اقتصادي
وملاحي كبير يحقق رغبة مؤسسها الاعظم ويلبى حاجات سكانها العاملين

في مختلف حثول العلم والصناعة ؛ ليجعلوا منها ومن النواحي المحيطة بها منطقة ترفل في حلل الرغاية والازدهار .

ومن يدري ؟ فلربما تهيا لهذه المدينة بفضل يقظة أبنائها ، وتبصر عمالها وولاتها وحكمة المشرفين على شؤونها ، ما يساعدها على مناقسة بقية المدن المغربية المتطلعة الى مستقبل أفضل . وسوف نرى بها في المستقبل القريب بحول الله قيام الصناعات المختلفة من معامل للتصبير وأوراش التعليب والتغليف ومحطات التبريد ومراكز الرصد الجوي والبحري ومدارس السباحة ووسائل الصيد الحديث وما يتبع ذلك من صناعات كصناعة المراكب والزوارق والشباك والخياط والحبال والصباغة وأدوات النبلون زيادة على مدارس للتعليم التقنى للبحارة واشغال الكهرياء واللاسلكى والرادار ، وغير ذلك .

وسياكب ذلك تجهيز سياحي وتجاري واقتصادي يجعل من شاطئها البديع محورا للرياضات البحرية المختلفة كالانزلاق على الماء ومسابقة الزوارق ووسائل الصيد تحت الماء . وليس ببعيد أن نرى في يوم من الايام هذه الجزيرة العريقة في القدم وقد جهزت بالطرق والمخيمات والنوادي وتناولتها أعمال الترسيف والتشجير والانارة وجر المياه وغير ذلك من الاشغال التي تجعل من هذه المدينة وجزيرتها بحول الله جوهرة تتلأأ في جيد وطننا العزيز تحت الرعاية السامية لجلالة الحسن الثانى نصره الله .

الصويرة

الصديق ابن العربى

الوضع المالي لولاية مصر من 1517 الى 1798 م وتأثيراته الاقتصادية على الطبقات الشعبية

د. فؤاد صحر الماوي

بعد رحيله عن استانبول يوم الخميس 22 يناير سنة 1517 م بثلاثة شهور ، على رأس جيشه ، في حملته ضد مصر ، استطاع تاسع سلاطين آل عثمان ، السلطان سليم الاول (1512 — 1520) ، المشهور (بياوز) ان يحطم بقية امبراطورية المماليك بمصر ، وهي التي حكمت الشرق العربي أكثر من ثلاثة قرون ، وان يؤسس مكانها سيادة عثمانية اقطاعية من نوع خاص ، ظلت تعيش في مصر حتى الحرب العالمية الاولى (1) . وقد وضع السلطان سليم الهيكل الاساسي لنظام الحكم والادارة لمصر ، ثم جاء من بعده السلطان سليمان الاول (1520 — 1566) الملقب (بالقانوني)

(1) اورد المؤرخ المعاصر لاحداث (الفتح) العثماني ، احمد بن اياس ، تفاصيل وقائعه كاملة في الجزء الخامس من كتابه (بدائع الزهور في وقائع الدهور) فتناول فيه الاحداث من 922 الى 928 هـ — 1516 — 1522 م . ونشره في ليدجز واستانبول محمد مصطفى وباول كاله في سلسلة (Bibliotheca Islamica, Die Chronik 5c) سنة 1932 م . وسجلها احمد بن زئيل كمعاصر لها أيضا في كتابه (تاريخ السلطان سليم خان بن السلطان بايزيد خان مع قاتصوه القوري سلطان مصر واعمالها) وهو مخطوط بالمتحف البريطاني ، 129 ورقة ، رقم (26 A 14559) .

فأكمل اللامسات الأخيرة للنظام (2) . وكان تنظيمهما يهدف الى ابقاء البلاد على ما كانت عليه قبل (الفتح) العثماني (3) . ولهذا اتسمت تلك النظم بالمحافظة ، كما كانت تهدف الى ضمان مورد مالي للخزينة السلطانية باستانبول ، وذلك عن طريق دفع مبلغ سنوي محدد يسمى (ارسال الخزينة) (4) ، ولهذا اطلق على مصر المصطلح العثماني (ساليانة) (5).

(2) راجع مقال :

— Combe, Etienne, L'Egypte Ottomané (Précis de l'histoire d'Egypte par divers historiens et archéologues), Tome III, Cairo, 1933, pp. 58-59.

وراجع أيضا مقال :

— Marcel, J.J., L'Egypte, depuis la Conquête des Arabes jusqu'à la domination française (L'Univers. Histoire et Description de tous les peuples : Egypte, Paris, 1848, pp. 192-5.

(3) راجع جب وبون ، المجمع الاسلامي والغرب ، ترجمة عبد الرحيم مصطفى ومراجعة أحمد عزت عبد الكريم ، ج 2 ، ص 5 ، القاهرة ، 1971 .

وراجع ما أصدره السلطان سليمان من مراسيم خاصة بمصر ، جمعت في قانون نامه مصر لسنة 931 هـ — 1524 — 25 م ، ومنها عدة نسخ مخطوطة في مكتبات متفرقة أندلسها (ق 11 هـ — 17 م) مخطوط بمكتبة طوب قابي سراي ، استانبول ، 80 ورقة ، 17 سطر ، رقم (2063) . ومنها مخطوط مكتبة السليمانية باستانبول ، مجموعة أسد أندي ، 40 ورقة ، 21 سطر ، رقم (1 — 1827) وقد نشره عمر لطفي يركن ، استانبول ، 1943 م فراجع

(XV, XVI inci asirlarda Osmanli Imparatorlugunda Ziraî Ekonominin Hukukî ve malî esasları), İstanbul, 1943, pp. 355-87.

(4) كانت مصادر الدخل من الحبوب تتجمع في (المنبر الشريف) أو (المنبر السلطاني) ، كما كانت مصادر الدخل النقدي تتجمع في الخزينة المصرية (الخزينة العائرة) وكانت أبواب الصرف والاتفاق هي استيفاء الالتزامات السلطانية بمصر ، وبالمدن المقدسة (مكة والمدينة) ، وشراء وشحن المزن والسلع التي تنتج في مصر ويرغب الباب العالي في استخدامها . وكانت محددة بمقادير معينة ، بحيث تسمح بتوفير جبالغ للاسداد السنوي من الدخل الحكومي الذي يرسل الى (الباب العالي) ويسمى (بارسال الخزينة) . وكان الولاة يرسلونها للوفاء بها يستحق عليهم في مقابل ولائهم على مصر . اما الخزينة نفسها ، فهي برج مكون من طباق بناه ابراهيم باشا سنة 931 هـ — 1524 — 25 م في مركز القلعة بالقاهرة . لمزيد من التفاصيل راجع ابن اياس ، سابق ذكره ، ج 4 ، ص 184 ، 186 ، 204 ، 5 — 226 ، 276 ، 396 ، 398 ، 405 ، 461 ، 480 ، 483 ، وراجع الجبرتي ، عجائب الآثار في التراجم والاخبار ، 4 اجزاء ، القاهرة ، 1888 — 1894 ، ج 1 ص 23 — 24 ، 26 ، 35 ، 48 ، 50 ، 54 ، 55 ، 58 ، 60 ، 62 ، 148 ، 153 ، 169 . ج 2 ، ص 79 ، 121 — 123 ، وراجع أيضا :

— Pococke, Richard, Description of the East and some countries, 2 vol., London, 1743 - 5, vol. 1, p. 165.

— Gibb, H.A.R. and Harold Bowen, Islamic Society ant the west, 2 vol., London, 1950-1957, vol. 1, part 1, pp. 201-203.

(5) من الكلمة الفارسية (سال) بمعنى سنة ، وساليانة بمعنى سنوية ، راجع جب وبون ، السابق ، ج 1 ص 209 من الترجمة العربية .

ويرتكز هذا التنظيم لسياسة الحكم في مصر على خلاصه الفلسفة الفارسية والتركية التقليدية ، وهي مبنية على الشك والخوف من موظفي الدولة (6). ومن هنا تشكلت السلطة العثمانية من هيئات متوازية في سلطتها من ناحية ، وتحد كل منها اختصاصات الأخرى من ناحية ثانية ، لكي يخلق فيما بينها نزاعاً مستمراً ، فيضمن ولائها جميعاً في النهاية للباب العالي (7) . وتمتلىء الحوادث المصرية المعاصرة بأحداث النزاعات بين تلك الهيئات التي تشكلت من الولاة الذين كان وجودهم في مصر عابراً (8) ، ومن الممالك وهم العناصر المحلية التي لم يستأصلها النظام لخطه سياسية أثبتت نجاحها حينما كان الولاة أقوياء ، ومن الفرق العسكرية (الأوجاقات) العثمانية الموجودة بمصر وكان عددها سبع فرق (9) .

(6) راجع جب وبوون ، سابق ذكره ، ج 2 ، ص 6 من الترجمة العربية .
(7) مرت المصطلحات التي أطلقت على رئيس الوزراء في الدولة العثمانية بالعديد من الاختلافات التي منها مصطلح (بروانة) وهي كلمة فارسية تعني (القائد) أو (المنتش) أو (براءة أو شهادة ملكية) وأحياناً تضاف لها اللاحقة التركية (جى) وهي إذا أُضيفت للاسم تفيد المهنة . ومصطلح (وكيل مطلق) أي الممثل المطلق للسلطان ، ومصطلح (أولى وزير) أي الوزير الأول ، و (صدر اعظم) و (باشا قابسى) و (باب عالي) . ويرى هابر أنه من الممكن أن يكون اسم (باب عالي) مستعملاً من قبل للإشارة إلى قصر السلطان ، ثم أصبح يستعمل للإشارة إلى مقر الصدر الأعظم ، بالإضافة إلى السلطة الفعلية . لمزيد من التفاصيل راجع جب وبوون ، سابق ذكره ، ج 1 ، ص ص 156 - 167 من الترجمة العربية . وراجع أيضاً Encycl. of Islam, art. Wazar.

(8) ربما تلغى كلمات محمد باشا النشجي الذي كان صدراً أعظم ، ثم عين والياً على مصر في 17 رمضان سنة 1133 هـ موقوف الولاة وموقف الصناجق (حكام الولايات) حينما قال للصناجق الذين كانوا في استقباله حين قدومه إلى مصر في التاريخ المذكور ، (انتم أمنا (كذا) السلطان في أرضه والبلاد ، وإما نحن (أي الولاة) فاننا ناس ضيـوف عندكم وبلاد السلطان لا يسأل عنها إلا منكم) . راجع أحمد جليبي عبد الفنى ، مخطوط ، 267 ورقة ، 25 سطر ، محفوظ بمكتبة جامعة بيل بالولايات المتحدة ، رقم (3 landberg) ص 98 ا ، وعنوان المخطوط « أوضح الإشارات فينبى ولى مصر القاهرة من السوزراء والباشات » وقد تمت بشره والتحقيق والتعليق عليه ، بمراجع كتابنا أوضح الإشارات فينبى ولى مصر القاهرة من السوزراء والباشات ، القاهرة ، دار الأنصار ، 1977 ص 355 .
(9) في الواقع أن الفرق العثمانية كانت ست أوجاقات هي : هزبان ، جاويشان ، تفكجيان ، مستحفظان متفرقة ، جميلان ، ثم أضاف إليها السلطان سليمان أوجاق الجراكسة . راجع مقال حسن عثمان ، الجبل في التاريخ المصرى ، القاهرة ، 1942 ، ص 255 - 58 . وراجع مقال :

— Holt, P.M. The pattern of Egyptian political history from 1517-1798 (Political and Social Change In modern Egypt), London, 1968, pp. 80-81
— Shaw, Stanford J., The financial and Administrative Organization and Development of Ottoman Egypt 1517-1798, Princeton, 1962, pp. 191-196.

ويعتبر الولاة الذين تتناول هذه الدراسة أوضاعهم المالية (10) أحد الدعامات الأساسية التي يرتكز عليها النظام ، والممثلين الرئيسيين للسلطان العثماني في مصر . فالوالي هو المشرف على استغلال البلاد لمصلحة الباب العالي ، والمتربع (نظريا) على قمة الجهاز الإداري والمالي ، ومن واجباته أن يشرف على الموظفين ويراقبهم ليؤكد من تنفيذهم لأوامر الباب العالي ، ومن طاعتهم للحكومة (11) . وكان يحمل لقب باشا ويعين من بين مجموعة حاملي لقب وزير (12) التي يحتل أفرادها أعلى المناصب في مختلف أنحاء الإمبراطورية وكانت مدة الوالي تتراوح في العادة بين سنة وثلاث سنوات مع استثناءات قليلة (13) . وكان يصل الى القاهرة عن طريق سورية برا أو عن طريق رشيد حتى بولاق بحرا ، ويستقبله زعماء لامماليك والعلماء ورجال الحامية والاعيان . ويصل الى مقر سلطته بالقلعة في احتفال فخم (14) وحينما كان الوالي يعزل من قبل الباب العالي أو يخلعه

(10) تنقضي الامانة العلمية أن انوه وأعترف بفضل ستانفورد ج . شو (استاذ التاريخ العثماني والتركي بجامعة هارفرد بالولايات المتحدة » الذي استندت بالكثير من المعلومات والارقام المذكورة في مؤلفه البشار اليه ، في كتابه هذا المثال ، وهو يعتبر أول عمل خصص لدراسة احوال مصر المالية (1517 — 1798) بالرجوع لمصادر لم تدرس حتى الآن ، هي وثائق المالية العثمانية المحفوظة بمصر وتركيا : *Shaw, op. cit., pp. 318-340.*

ويحمل كتاب أوضح الاثرات فيمن ولى مصر القاهرة من الوزراء والباشات ، بالمعلومات المالية ، فراجعها في مواضيع متفرقة سيرد ذكرها بالمقال ، وراجع دراستنا للكتاب المذكور ، ص 124 .

(11) راجع *Shaw, op. cit., p. 1* وحسن عثمان ، سابق ، ص 248 . وتنتع الوثائق العثمانية الوالى بمدة القاب أوردها حسن عثمان .

(12) كلمة وزير من (وجير) البهلوية بمعنى قاض . وليست من (وزر) العربية . وتحويرها يرجع الى ما قبل الاسلام ، إذ ان الاصطلاح في القرآن (سورة طه : الآية 30 وبسا بعدها) قد اطلق على هارون : (واجعل لى وزيرا من اهلى ، هارون اخى) . راجع جب وبون ، سابق ، ج 1 ، ص 155 من الترجمة العربية .

(13) راجع على تبديل المثال ، أحمد جليبي ، سابق ، ورقة : 4 ، 15 ، 6 ، 7 ، أب (14) راجع حسن عثمان ، سابق ذكره ، ص 249 ، أحمد ، سابق ذكره ، ورقة 36 ، 38 ، 42 ، 44 ، 213 ، 226 . ويعتقد جب وبون أن الوالى لم يكن

يستطيع مغادرة القاهرة ، وفي الواقع قيدت اقامته في القلعة طبقا لقانون نامة . راجع

Gibb and Bowen, *Op. cit., vol. 1, part 1, p. 202, n° 4* غير أن هولت ناقش

هذا القول فذهب الى أنه بالرغم من أن الحقيقة الجوهرية هي أن الولاة في القرنين السابع عشر والثامن عشر كانت اقامتهم مقيدة في القلعة الا أن ذلك لم يكن قبل ، ولم يكن يأتى حال من الاحوال أمرا اداريا . فغائون نامة دلل فقط على أن تكون القلعة مكانا

للاقامة المعتادة للولاة . راجع Holt, P.M., *The beylicate in Ottoman Egypt during the seventeenth Century, B S O A S, vol. XXIV, part. 2, 1961, p. 217, n° 1.*

الجند والبكوات ، كان الوالى المعزول او المخلوع يحبس في بيت او قصر حتى يدفع كل ما عليه او يفرج عنه بفرمان من الباب العالى (15) . وكانت سلطة الولاة على كل حال من الناحية السياسية مؤقتة بمدة محدودة ، وعابرة بطبيعتها ، وتعتمد على المقدرة الشخصية ، والصفات الفردية لكل والى . اما من الناحية المالية المكرس لدراستها هذا المقال ، فقد استفاد ولاية مصر بنوعين من الربع (16) ، هما الربع الخاص (السلطانى) ، والمصدر الثانى هو ما عينه لهم الديوان والخزينة المصرية . ومصادر الربع الخاص (السلطانى) تأتي من منبعين ، أولهما ضرائب الارض التى خصصت للولاة ، وتسمى (قرى الكشوفية) (17) ، وثانيها يأتى من المبالغ التى يدفعها اشخاص محددين في مقابل تعيينهم في مناصب محدده ايضا ، وتسمى (الكشوفية الصغيرة) .

(15) التاريخ السياسى لمصر منذ 1517 الى 1798 مر بأربع فترات متباينة ، في اولها (1517 — 1525) حدث تفرق مسلح قاده اثنان من الكشاف هما اينال وجانم السيفى ، كما حدث عصيان الوالى أحمد باشا (الخاين) الذى سحقه المماليك . والفترة الثانية (1525 — 1586) اتسمت بالهدوء وبلغت خلالها النظم العثمانية التقليدية الذروة ، فكان السلاطين هم الذين يمزلون الولاة ، أما الفترة الثالثة (1586 — 1711) فتتسم بالمنازعات الداخلية واضمحلال النظم العثمانية ، واخلالها بتقوم القوات المسلحة والبكوات اما بمزل الولاة ، أو باستسلام هؤلاء الولاة لمطالبهم . فعلى سبيل المثال : التمرد ضد أويس باشا (تولى في آخر جهادى الاخرة 994 — مات في جهادى الاخر 999) انتهى بتسليمه لمطالبهم . اما ابراهيم باشا (تولى 14 ذى الحجة 1013 — قتل 13 ربيع آخر 1013) فقد حاصره السباهية خارج القاهرة ناحية شبرا وقتلوه وعلقوا رأسه على باب زويلة . في الفترة الاخيرة (1711 — 1798) برزت فيها القوى المحلية (المماليك) وتجددت محاولات احياء الولاية المملوكية المرتكزة على حكم الجراكسة ، راجع احمد جلبى ، سابق ، ورقة 8 ا ، ب ، 10 ب ، 36 ا ، 43 ب ، راجع قطب الدين النهروالى ، البرق النبائى في الفتح العثمانى ، نشره حمد الجاسر ، الرياض ، 1967 ، ص 98 — 99 ، 105 — 106 ، 117 — 120 ، وراجع :

— Halil İnalcık, Ottoman methods of Conquest, (Studia Islamica), vol. 2, 1954, pp. 103-131.

— Holt, P.M. The pattern of Egyptian... etc. op. cit., pp. 79-90

(16) بالرغم من أن ما كان يحصل عليه الولاة من هذا المصدر كان نقدا ، إلا أنه كان يأتى أصلا من انتاج الأرض ولهذا استخدمت كلمة (ربع) .

(17) من المفيد التفكير بأنه قد يقع خلط بين (قرى كشوفية الولاة) وبين الكشوفيات الأخرى . كشوفية الولاة كانت إيراداتها نقدية كليتا ، وتعطى لهم كأموال خاصة بهم ، في حين أن الكشوفيات الأخرى كانت إيراداتها مينية وتذهب الى الخزينة المصرية . ويجب أيضا ألا يقع خلط بين الأراضى التى أعطيت كالترام للقبائل العربية في معظم الصعيد ، وتسمى (خلال) ويشرف عليها حاكم الاقليم (كاشف) وقراها تسمى (كشوفية) ، ولكن لا علاقة لها هي الأخرى بقرى كشوفية الولاة . راجع : Shaw, op. cit., pp. 58, n° 78.

قرى كشوفية الولاية : تحولت قرى كشوفية الولاية في كل اقليم الى (مقاطعة) في (التزام) يدخل تحت رعاية حكام تلك الاقاليم ، الذين اسندوا بدورهم امر الاشراف على تلك المقاطعات لوكلاء عنهم يتقاضون منهم مرتبات ، ويطلق عليهم (كشاف) . وكان على هؤلاء الحكام ان يدفعوا سنويا للولاية مقدارا محددا من المال يسمى (مال الكشوفية) او ضريبة الكشوفية ، وهى مقدار يساوي المبلغ الذي كان المفروض يدفع (مال خراج) فيما لو استمرت هذه القرى تخضع (لنظام الخزينة) . اما الفائدة التى تعود على حكام الاقاليم فكانت هى (الفائض) بعد التزاماتهم للولاية (18) وهذا النظام يشبه (نظام الامانات) (19) الذي كان يطبق في حكم الاقاليم في القرن العاشر الهجري ، السادس عشر الميلادي ، والذي حصل الولاية في ظله ريع كشوفاتهم بالكامل من المشرفين على تلك الكشوفيات ، وهم الذين كانوا يتقاضون اجورهم من الخزينة . وعندما انتقل حكم الاقاليم من

(18) راجع :

- Pakalin, Mehmed Zeki, Osmanli Tarih Deyimleri ve Terimleri Sözlüğü, 3 vol., İstanbul, 1946-1956, pp. 577-580.
- Uzunçarşılı, İsmail Hakkı, Osmanlı Devletinin Saray Teşkilâtı, (Türk Tarih Kurumu Yayınları), VIII, n° 15, Ankara, 1945, pp. 178, 203, 208.
- (19) يقوم نظام الامانات على أساس أن كل قرية او مجموعة قرى متجاورة تشكل فيما بينها وحدة ادارية ومالية تسمى مقاطعة أو امانة ، مسؤول عنها لدى (الروزنامة) ، وهى (قسم من فروع الخزينة مختص بفرض الضرائب وتسجيل الدخل الى والمصرف من الخزينة) موظف يتقاضى اجرا ، وعليه تقع اعباء مسؤولية الضرائب الرئيسية (مال الميرى) ويسمى عامل لكل مقاطعة (أمين) مسؤول عن تحديد ما على الاراضى القابلة للزراعة من ضرائب ، وعن (تخضير) الارض بمعنى عدم تركها بلا زراعة ونص قانون ثابة سليمان على تحديد ضرائب كل مقاطعة واثبتتها في (نذاكر) موقعة ومختومة بخاتم الوالى ونظائر الاموال ، مبين فيها مقدار رسوم (الشياخة) او الكشوفية ، واموال الرزق والاقواف والاملاك والاموال السلطانية ، ويحتفظ اهالى كل قرية بنذكرة قريتهم حتى لا يدفعون أكثر مما هو مثبت في تذكرة قريتهم . وقد اثبت هذا النظام في التطبيق عدم كفايته ، فادخل عليه مقصود باشا (1052 — 1053 هـ / 1652 — 43 م) تعديلات من أهمها مسؤولية الموظفين (المباشره) أمام ديوان الروزنامة . ورغم هذا لم ينجح هذا التطوير ، فبدأت الدولة منذ 1069 هـ / 1658 م في تطبيق نظام الالتزام . راجع روبرت مونتران ، العلاقات بين القاهرة واستانبول أثناء الحكم العثمانى لمصر من القرن السادس عشر حتى القرن الثامن عشر ، ترجمة زهير الشايب ، مجلة البجلة ، عدد 158 ، فبراير ، 1970 ، عبد الرحيم عبد الرحمن ، الريف المصرى في القرن الثامن عشر رسالة دكتوراه اشراف أحمد عزت عبد الكريم ، القاهرة ، 1974 ، ص ص 71 — 74 ، وراجع
- Hammer J. Histoire de l'Empire Ottoman, Tome 18, Paris, 1837, Tome 10, p. 31.

نظام الامانات الى (نظام الالتزام) أصبح حكام الاقاليم يقومون بالالتزام عن قرى كشوفية الولاية ، وفي هذه الحالة كان عليهم ان يتعهدوا بتسليم مبلغ ثابت من مال الكشوفية للولاية ، وفي مقابل ذلك صار من حقهم الاحتفاظ لانفسهم بالفائض (20). وخلال قرون استمر عدد القرى المخصصة في كل اقليم كشوفية للولاية ثابتا ، الا ان هذا العدد كان يزداد بصورة مؤقتة حينما تضاف اراضي قرى كانت من قبل اراضي (خراج) او اراضي (وقف)،

(20) طبقت الدولة العثمانية نظام الالتزام في مصر حيث اثبتت كفايته في بعض البلاد التي خضعت لها في الاناضول والروملئ وشمال العراق ، وهو لا يخضع لنظام المظالمين التابعين للحكومة ، بل يعتمد اى شخص سواء كان امير او شيخ عرب او ذو منصب عسكري في الاوجاقات (الفرق) او غيرهم ، بالالتزام للحكومة عن طريق ديوان الروزنامة ، بان يحصل ضرائب ما التزم به لاراضي قرية او اقل او اكثر عن مدة معينة ، وذلك بان يدفع مقدما في مزاد علنى للروزنامة ببلغا هو (حلوان) التزامه ، ويمادل ضريبة سنة . وبناءا عليه يعطى سندات هي ورقة (التقسيط) و (الشيكية) وجميعها يسمى (اوراق الالتزام) التي يوقع عليها والى والدفتردار وبها كل البيانات المتعلقة باوصاف وحدود مقاطعة التزامه ، وبموجبها يصبح على الفلاحين والمشايع والجهات الادارية اطاعته فيما يتعلق بشؤون الارض وجميع الاموال المقررة عليها ، باعتبار انه أصبح ممثلا للحكومة . وكان الالتزام في بداية تطبيقه يمنح لمدة سنة او اكثر ، ثم شاع توريثه . في القرن الثامن عشر ، الا في حالات الاخلال بتسديد الالتزامات او المصادرة ، بلما حدث لامراء الممالك حينما صادرت الادارة الفرنسية حصص التزاماتهم وكانت اراض الالتزام نوعين اولهما : ارض الفلاحة وتسمى في الوجه البحرى (ارض اثر الفلاحين) لعدم تأثيرها بالفيفانات ، ولتقلتها في خيازة الفلاحين ما دابوا يؤدون ما عليها من التزامات ، وفي الوجه القبلى سميت (ارض المساحة) لتأثيرها بالفيفانات بما يستوجب مسحها كل عام بعد الفيضان واعادة توزيعها على الفلاحين . وثانيهما : هو (ارض الاوسية) وهي التي خصصتها الحكومة للبلتزم واعفتها من الضرائب ، مقابل صيانتها للمرافق الواقعة في حصة التزامه ، ويزرعها له الفلاحين بلا مقابل (سنخرة) اذا كان مقبلا بناحية التزامه ، اما اذا لم يكن مقبلا بالناحية فيؤجرها ويحصل ريعها لنفسه . وتكون اراضي الالتزام بنوعها ما يعرف بالارض الخراجية او ارض مال الخراج ، راجع جب وببون ، سابق ذكره ، ج 2 ، ص ص 53 ، 90 ، 93 من الترجمة العربية ، يعقوب آرتين ، الاحكام البرمية في شأن الاراضي المصرية ، ترجمة سعيد عبون ، القاهرة ، 1888 ، ص 45 ، هيلين آن ريفلين ، الاقتصاد والادارة في مصر في مستهل القرن التاسع عشر ، ترجمة عبد الرحيم مضطفى ، القاهرة ، 1968 ، ص 41 ، عبد الرحيم مبدالترجمين ، سابق ذكره ، ص 74 — 78 . وتوجد تفصيلات سجلها العلماء الذين رافقوا الحملة الفرنسية على مصر ، ونشرت في كتاب (Description de l'Egypte)

راجع منها

— Lancret, M.A., Mémoire sur le système d'imposition territoriale et sur l'administration des Mamlouks, (Description de l'Egypte, Etat Moderne), Tome I, 1. Paris 1809 p. 471.

وايضا راجع : Shaw, op. cit., pp. 40, 41, 318.

ثم اصابها التخريب والبوار ، فالحقت اما بكشوفيات الولاة او بكشوفيات الالتزام الخاصة بحكام الاقاليم ، وبناءا عليه يصبح على هؤلاء الكشاف الملتزمين ان يدفعوا للخرينة ما كان على هذه القرى من خراج . ومن هنا كانت المكاسب الدائمة من خصوبة القرى كانت تدفع للخرينة وليس للولاة او حكام الاقاليم . وقد ازدادت ضرائب اراضى مال الكشوفية عن طريق المضاف ، بنفس الطريقة الدورية التى ازدادت بها ضرائب (اراضى مال الخراج) (21) ، وان كانت قد خضعت لعدة تنزيلات سببها النقل للاراضى الاكثر خصوبة الى اراضى تدفع مال خراج ، وتغيير

(21) كان توزيع انتاج الارض فى مصر فى العصر العثماني يخضع للمصطلحات التالية (ا) كانت تلك الحصة من الاراضى المثمرة التى لا تعطى لزراعيها وانما تمنح لآخرين فى مقابل تعهدات تلزمهم بدفع المشر من حقهم فى الثمار ، تسمى البال الحر ، اى اراضى الضرائب المحقة . (ب) وذلك القسم من اراضى البال الحر الذى وزع على هؤلاء الذين كانوا متصرفين فى حقوق المقاطعات ، فى كل او فى جزء من انتاجها ، سعى بال خراج الارض — اى ضريبة الاراضى . (ج) وتلك الحصص التى تكون المشاركة فى الاستفادة بثمارها راجعة للاوقاف وللرزق سببت على التوالى بمال خراج الوقف ومال خراج الرزق (د) وكشوفيات القرى التى ينتفع بثمار اراضيها الوالى ، كانت تسمى بمال خراج الكشوفية . (هـ) اما تلك التى كانت تدار لحساب الخزينة المصرية ، فكانت تسمى بمال خراج السلطان . ومحليا كانت تلك الحصص او الانصبه فى مال خراج الاراضى تصرف على التوالى بمال الاوقاف ، ومال الرزق ، ومال الكشوفية ، ومال البيرى . (و) اما ذلك القسم من التمتعلات التى يحتفظ بها محليا وتوزع على السلطات المركزية والمحلية كمندوبات على شكل مصروفات محلية او على شكل مرتبات ، او تكاليف جميع التمتعلات وغيرها من الالتزامات ، كانت تسمى مخرجات او مقنطعات . (ز) واذا حدث ان حصة من تلك المقاطعات التى ثمارها من حقوق التصرف ثم تحولت تلك الحقوق الى ملتزم فى مقابل ان يؤدى هذا الاخير الخدمات الخاصة باستثمار مصدر الثروة وتحصيل ريعها ، وحصة الملتزم فى البال الحر ، تعرف لى تلك الحالة بالفاتس ، راجع الجبرتي ، سابق ذكره ، ج 1 ، ص 26

Shaw, op. cit., p. 84

— Estève, M.R.X. Mémoire sur les finances de l'Egypte, I. 1, p. 54, -

— Lancret, Mémoire, op. cit., p. 468.

اراضى الخراج الاقل خصوبة ، والتي لا تستطيع ان تدفع نفس مقدار الضريبة الى اراضى للولاة ، وخصوصا في اواخر القرن 12 هـ / 18 م ، وهذا النقل الذي تم دون تعويض ، لشدة حاجة الخزينة الى قسم كبير من ريع قرى الكشوفية تضمن ايضا اقليم المنزلة في سنة 1160 هـ / 1747 م. وكنيجة لهذا فانه بالرغم من ان (المضاف) (22) طبق في اصلاحات سنة 1107 هـ / 1695 وفي سنة 1155 هـ / 1742 م ، وفي سنة 1174 هـ / 1760 — 61 م ، فزادت من ريع كشوفية الوالى بمقدار 440 و 861 بارة (23) ، فان مجموع الريع من قرى الكشوفية هبط من 7309ر309 بارة في سنة 1086 هـ / 1675 — 76 م الى 909ر949 بارة من سنة 1212 هـ 1797 — 98 م ، وكان النقص هو مبلغ 7309ر2309 بارة ، اي بنسبة 33 ٪ (24) .

الكشوفية الصغيرة : كان من الشروط الملزمة لبعض موظفى الديوان والخزينة المصرية خلال القرنين 10 هـ / 16 م و 11 هـ / 17 م ان يدفعوا للولاة كشوفية سنوية تسمى (مصروفات) ، في مقابل تعيينهم في مناصبهم ، وتمتعهم بدخل مصدره تلك المناصب . وكان مورد الولاة من هذا الدخل يفوق عشرة ملايين بارة في السنة . ومن اجل حاجة الخزينة السلطانية لمورد جديد للريع ، فقد حول اليها مجمل الريع الآتى من هذا المصدر ،

(22) المضاف هو زيادة في الضرائب على الموارد الموجودة فعلا لتحسين دخل الخزينة ، وتعرض على المقاطعات بصورة مستقلة تباعا عن اى تغيير في خصوبة الارض ومحصولها. وقد فرضها ولاة لهم صلاحيات خاصة للجهل على زيادة ريع الخزينة كمضاف سنة 1107 هـ 1695 م الذى فرضه حشن آنندى الرؤنماجى بناء على بشورة من الديوان العالى لنفطية عجز الخزينة . وكان المضاف يلقى بزوال ظروف فرضه مثل مضاف 1079 هـ / 1668 م ، او تابعا مثل مضاف سنة 155 هـ / 1742 — 43 م ومضاف سنة 1174 هـ 1760 — 61 م راجع أحمد كخدا عزيان ، الدورة المصانة في اخبار الكنانة ، مخطوط في جزئين ، صفحاته 589 ، محفوظ بالمتحف البريطانى ، رقم 1073 or ج 1 ، ص 37 — 38 .

(23) راجع (الملحق) في نهاية هذا المقال حيث خصصت (دراسة للعملة المصرية في العصر الممناسى)

Shaw, op. cit., p. 353.

(24)

طبقا لاصلاحات عام 1082 هـ / 1671 - 72 م ، وسمى بربع (الكشوفية الكبيرة) . ولتمويض الولاة جزئيا ، لما اصابهم من خسارة في دخلهم نتيجة لهذا التحويل ، فقد فرضت ضريبة جديدة لصالحهم تسمى (الكشوفية الصغيرة) على العديد من هؤلاء الموظفين الخاضعين للكشوفية الكبيرة ، ولكن مبالغ تلك الضريبة كانت اقل . وخلال القرن 12 هـ / 18 م كان متوسط ريع الولاة من هذا المصدر يبلغ تقريبا اربعة ملايين بارة في السنة ، أي اقل بما قيمته 30 ٪ من المبالغ التي كانوا يحصلون عليها من تلك الكشوفية في القرون الماضية . وكانت موارد تلك الكشوفية تتجمع من عدة موارد ، اولها ما كان يدفعه الموظفين وغيرهم من ذوي المناصب الهامة عند تعيينهم في مناصبهم ، وهؤلاء هم (كشاف) (25) اقاليم البهنساوية ، والبحيرة ، وقلوب والمنوفية ، والغربية ، بالإضافة الى اماناء المناصب التالية : البحرين (26)

(25) كان مصطلح كاشف يعنى في الادارة المملوكية عدة مهام قضائية وعسكرية وادارية ، واستخدم في العصر العثماني للدلالة على من يديرون أكثر من مقاطعة ريفية في نفس المنطقة ، وعلى الذين عينوا حكاما للأقاليم . وبعد بداية القرن 11 هـ / 17 م حل المتزوجون محل الكشاف في ادارة المقاطعات الخاصة بالملكيات السلطانية ، وفيها بعد استخدم الاصطلاح ليدل على الكشاف الذين تحملوا مسؤولية قرى الكشوفية الخاصة بالولاة وشيوخ العرب ، وفي الربع الاول من القرن 11 هـ / 17 م أصبح من يشغل حكم الاقليم يسمى كاشف أو ملتزم ، وخلال القرنين 11 هـ / 17 م و 12 هـ / 18 م كان حكام الاقاليم على درجتين هما : (حاكم) وتطلق على حكام الاقاليم الهامة مثل جرجا والمنوفية والغربية والشرقية وأحيانا البحيرة ، و (كاشف) وتطلق على حكام المقاطعات الاقل أهمية . وكان (الحاكم) يختار من بين بكوات مصر الإصليين ، وبطريقة التناوب ، أما (الكاشف) فكان يعين من بين جند الممالك الذين ارتقوا لرتبة أمير أو بك . راجع حسن عثمان ، سبق ذكره ، ص 46 - 47 . Shaw, op. cit., pp. 60-63 .

— Lusignan, S. L. A history of the Revolt of Ali Bey against the Ottoman Porte, London, 1783, pp. 2-3, Quatremère, E. tr. histoire des Sultans Mamlouks de l'Egypte, 2 tomes, Paris, 1837-1844, tome 1, p. 179, n° 61.

(26) البحرين هما من دخلتا القاهرة البحرين من ناحية بولاق ومصر القديمة ، وكان القائم على هذين المنعاهين يعرف بأمين البحرين ، وأصبح منذ سنة 972 هـ / 1564 - 65 م يشرف على ضريبة الإبحار في النيل عن طريق (مقاطعة تعريف المراكب) . وفي سنة 997 هـ / 70 م أصبح من حقه الإشراف على نشاط سمسارة شئون بؤور القزطام وغيرها . ومكيال القمح الذي يأتي الى وكالة القمح ببولاق التي كانت مقاطعة تسمى (مقاطعة كيل غلال بولاق) ، ليزيد من التفاصيل راجع الجبرتي ، سابق ذكره ، ج 1 ، ص 54 ، 116 ، 119 ، 135 ، 175 ، ج 2 ، ص 21 ، 92 ، 93 ، ج 3 ، ص 12 ، 165 ، وراجع على مبارك ، الخطط التوفيقية الجديدة لمصر القاهرة ومدنها وبلادها القديمة والشهيرة ، 20 جزء ، القاهرة ، 1306 هـ / 1888 - 89 م ، ج 3 ، ص 111 .

والمشاق (27) والخردة (28) والجوالى (29) والضربخانة (30) والدمفة

(27) أنشئت مقاطعة (المشاق) وأصبحت تابعة لإمارة خلال القرن 10 هـ / 16 م لكن يرسل أمينها الجبال للباب العالي لمد حاجات الاسطول العثماني . وكان من حق أمين المشاق أن يفرض ضرائب على قرى الوجه البحرى كجزء من التزاماتهم (للمخرجات) ، وتبدأ من مشرين بارة الى مائة بارة فى السنة ، وذلك لكى يتكهن من صنع الجبال فى مصنعهم ببولاق ، وللابقاء بالمقدار المطلوب منه للباب العالي . وكان يبلغ حوالى 2000 قنطار من الجبال . وكان يلزم بتسليم أى مبالغ تبقى طرقة من التى جمعها ، بعد صنع الجبال المطلوب ارسالها ، وكذلك تسليم أى فوائد أخرى تعود عليه من بيع الجبال فى السوق الحرة

(28) تأسست مقاطعة (الخردة) فى سنة 935 هـ / 1528 - 29 م كحق فى ادارة وجبج ضرائب كل المناظر والمشاهد فى القاهرة وأقاليم الوجه البحرى . وفى سنوات مختلفة ألحقت بها تنظيمات وطوائف الطبائىن والسكركية وتجار الحديد وتجار الحشيش ومقاطعة السكر الاميرية ، وحقوق جمع الضرائب من الاسواق التى لا تدخل فى اختصاص البحثسب (مقاطعة باقى السوق) ، وكان يتولاها أمين الخردة ولكن تولاها فيها بعد ضابط من فرقة العزبان وفى هذا يكن السر فى امتداد نفوذ هذه الفرقة ليشمل القاهرة والوجه البحرى . وكان لأمين الخردة الحق فى فرض ضرائب على الرافضين من النساء والرجال ، والفردانية ، ونساء الشوارع ، والطبايىن ، والمشعوذين ، والفتوات ، والبهلوانات ، وتجار الحشيش ، والبضحيين ، وعلى أضرحة الاولياء ، وتجار الدخان فى سننود المحلة الكبرى وسوق المواشى ومصانع النشادر والسكر والخل ... الخ ليزيد من التناصيل راجع جيب وبـوون ، سابق ، ج 2 ، ص 114 ، حاشية 2 ، الجبرنى ، سابق ، ج 3 ، ص 229

— Estève, op. cit., I, I, p. 360, Shaw, op. cit., pp. 120-123
(29) فرضت جزية على أهل الذمة بعد الفتح العربى لمصر سميت (الجوالى) ، وفى عصر المماليك عرفت (بمال الجوالى) ، وفى العهد العثمانى أصبحت الجزية بمثابة اقطاع تابع لإمائه يرأسها رجل عقيدة يسمى (بأمين الجوالى) . وكانت تصرف متحصلات هذه الضريبة على الجوالى ، وهم كما حددهم أحمد جلى ، العلماء ، والفقراء ، والايام ، والأراذل . وقد أحدث ابراهيم باشا الشهير بالإسكندري (تولى لمدة سبعة شهور) وجاغا للجوالى ، وحدد قواعد صرف متحصلات هذه الضريبة . وفى القرن 11 هـ / 17 م أصبحت مقاطعة الجوالى التزاما لامراء مصر كمعظم المقاطعات الزيفية والدينية . وفى الواقع أصبح أمين الجوالى ملتزما وإن كان جمع الضريبة فى الريف يقع على حاكم الاقليم نظير مبلغ محدد يدفعه له أمين الجوالى . وفى سنة 1106 هـ / 1694 م أدخل اصلاح نقلت بقتضاه اختصاصات ملتزمى الجزية فى الولايات العثمانية الى ادارة مركزية مختصة فى مدينة ادرنه ، وأصبح أمين الجوالى يتقاضى راتبا سنويا محدد فى مقابل ارساله أكبر قدر من تلك الضريبة الى الادارة المركزية المختصة ، ليزيد من التناصيل راجع أحمد جلى ، سابق ، ص 4 ، ب ، الجبرنى ، سابق ، ج 1 ، ص 146 —

147 ، راجع Shaw, op. cit., pp. 151-165

Gibb and Bowen, op. cit., vol. 1, part 2, pp. 253-4

(30) هى دار ترك العملة الفضية والذهبية ولها ائناء منهم أمين الدمفة ، وهو ضابط يختص بالإشراف على تنقية الفضة ونسب خلطها والشهادة على قيمة كل قطع النقود ، ويرأس الانعاموظف (ناظرى ضربخانة) . وبعد منتصف القرن 11 هـ / 17 م استقرت

وغيرهم . واغوات (31) الفرق العسكرية التالية : الجونليان ، والتفكجيان ، والجراكسة ، ومستحفظان ، وكل من كاتب فرقة العزبان ، وكاتب فرقة المتفرقة ، وسر المتفرقة . ومن افندية (32) الغربية والشرقية والاراضى الجليلة ، علاوة على باشا القافلة ، وشيخ الدالين (33) . ومقدار المبالغ المتجمعة من هؤلاء هي 251 و 998 بارة .

اما المبالغ التي كان يحصل عليها الولاة من موظفين اقل مركزا في مقابل تقلدهم (الباسية) مناصبهم ، فكانت يدفعها حاكم جرجا ، وكشفاف كل من المنوفية والبحيرة والفيوم والبهنساوية وقلبون والمنفلوطية والغربية والشرقية والجيزة والمنصورة ، وبلغ مقدار المتحصل من هؤلاء جميعا مبلغ 1.150.000 بارة (**) في حين ان المبالغ المتحصلة من موظفين اقل مركزا من هؤلاء ، في مقابل تعيينهم ايضا ، وهم اغوات الرسالة (34) لولايات كل من جرجا ، والمنفلوطية ، والاشمونين ، والبهنساوية ، ومن اغوات حوالة

الضريخانة السلطانية بالقاهرة في ثكنات (باب) فرقة الانكشارية واحتفظت الانكشارية بمعظم مناصبها الرئيسية وتلاميذوا في العملة ونسب خطها مما ترتب عليه انخفاض قيمتها . راجع Shaw, op. cit., pp. 107, 128, 140

(31) راجع مادة اغا بدائرة المعارف الاسلامية ، وكذلك مادة الانكشارية ، والاغا هو رئيس الفرقة .

(32) كلمة تركية عثمانية استعملت من الاغريقية البيزنطية الذي استعارتها بدورها من اليونانية القديمة . وكان يطلق هذا اللقب على كتاب الروزنامة . راجع دائرة المعارف مادة افندي .

(33) هو كبير أو رئيس سماسرة أسواق القاهرة .

(34) كانت الضرائب النوعية المفروضة على الاراضى تجمع وتشحن على ظهر مراكب من صعيد مصر الى موانئها لتودع في منبر الخلال (المنبر السلطاني) بصمر القديسية ، وكان الموظف الذى يذهب الى المناطق المختلفة بصعيد مصر يسمى (اغا الرسالة) وبمهمة العمل على جمع تلك الجيوب ، وتوزيعها على المراكب البعدة للشحن ، وكان يتسلم من قائد المركب (تذكرة) أو ايصالا بالكمية المحددة والنوعية البعدة للشحن من الجيوب ، ثم بعد الشحن يطميه ايصالا أو (تذكرة) مبين فيها استلام قائد المركب لهذه الكمية وتلك النوعية ؟ راجع اوليا جلبي ، سياحة نامة ، مخطوط بارشيف طوب قايى سراى ، مكتبة كوتشك بغداد ، استانبول ، 10 مجلدات 1898 - 1938 ، المجلد 10 ، 1938 ، ص 759 ، 783 ، 778 ، 786 ، 797 ، 800 ، 805 . وتوجد بهذا المجلد تفاصيل عن مصر في نهاية القرن 11 هـ / 17 م .

(*) بالاضافة الى تلك المبالغ المحددة كان الوالى يتلقى ايضا مبلغ 50,000 بارة عن تعيين كل امير طبلخانة جديد ، و 100,000 بارة من تعيين كل بك جديد ، في الفترة ما بعد سنة 1765 - 6 م

كل من دمياط ورشيد ، وكذلك من رئيس الجالية اليونانية ، ورئيس طائفة المسيحيين (النصارى) ورئيس طائفة اليهود بمصر ، ورئيس الإقطاط ، كانت تبلغ في مجموعها 545ر250 بارة . وكانت تسمى المبالغ المجموعة من هؤلاء باسم (خالية) . أما ضريبة (كشف الجسور) فكانت تدفع سنويا بعد عام 1155 هـ / 1742 — 43 م من كتشاف البحيرة والغربية والفيوم ، وبلغ مقدار الدخل منها مبلغ 789ر873 بارة (35) . وعلى هذا يكون مجموع المبالغ المتحصلة من تلك المصادر الأربع السابق ذكرها هو 483ر374 بارة ، غير أن هذا المبلغ قد نقص بمقدار 50.000 بارة بعد سنة 1179 هـ / 1765 — 6 بسبب انقاص المبلغ الذي يدفعه حاكم جرجا مقابل (الالباسية) وعلى هذا يصير دخل الولاية منذ ذلك العام (36) وحتى عام 1212 هـ / 1797 — 8 م هو 4283ر374 بارة تأتي من الكشوفية الصغيرة بمنابعها الأربع السابق ذكرها .

هذا بالإضافة الى دار سك النقود (الضربخانة) بالقاهرة التي منحها الباب العالي لولاية مصر كجزء من الربع الخاص بهم . وكانوا يحصلون على مبلغ تقريبي يقدّر بحوالى 135ر000 بارة في السنة ، منها حوالى 300ر000 بارة تأتي من مال الكشوفية ، يدفعها أمين الضربخانة الذي كان يعين لإدارة دار الضرب . (37) .

هذا بالإضافة أيضا الى مبالغ أخرى كانت تدفع لخزينة الوالى الخاصة من شخصيات مسؤولة في الضربخانة ، فمثلا ملتزم مقاطعة (قالخان) (38) وملتزم مقاطعة (منقار) (39) كان يدفع كل منهما للوالى مبلغ 150ر000 بارة في السنة ، أما أمين (مقاطعة الدمغة) (40) فكان يدفع للوالى مبلغ

(35) هذه الأرقام من السجلات الموجودة بالقاهرة ، والتي رجع إليها شو ، راجع Shaw, op. cit., pp. 321-2

(36) راجع أوليا جلى ، سابق ذكره ، ج 10 ص 455 ، 461 ، 461 ، 1025 .

(37) راجع Shaw, p. cit., pp. 322-323

(38) ملتزم هذه المقاطعة هو المسؤول عن عمل صهر المعادن مثل الذهب والفضة والمعادن المخلوطة التي تحضر الى دار سك النقود .

(39) ملتزم هذه المقاطعة هو المسؤول عن جمع برادة وقطع المعادن النقيشة المتبقية بعد عمليات ضرب النقود .

(40) أمين هذه المقاطعة كان من واجبه وضع شهادة رسمية يقرر فيها أن نوعية الخلط والتكوين لكل المواد من الفضة المصنوعة في مصر .

000ر250 بارة في السنة ، في حين ان ملتزم مقاطعة (جبرك سن الفيل) (41) كان يدفع للوالى حوالى 60ر000 بارة في السنة. وكانت باقى النقود المفروض ان يحصل عليها الولاة ، يدفعها لهم أمين الضريبة من مكاسب دار الضرب (*) .

لم يكن هذا (الربيع الخاص) او (خاص الولاة) — كما كان يدعى في المصطلح العثماني — هو فقط كل ما يحصل منه الولاة على دخل ، بل كانت تصلهم مبالغ أخرى تتجمع في اوعية مالية مختلفة ، منها الدخل السنوي من مرتباتهم التى كانت تسمى (ساليانة) ، ومنها المصادر الإضافية من ريع الخزينة (كالمقاطعات) و (حلوان القرى) ، وكانوا ملتزمين في مقابل الحصول على هذه المبالغ بدفع ضرائب ، والقيام بالخدمات التى تلزمهم بها واجبات الوظيفة ، مثلهم في ذلك مثل بقية أصحاب المناصب الذين يتقاضون مرتبات من ريع الخزينة المصرية . فالوالى كان يتلقى (الساليانة) السنوية التى كان متوسطها في السنة خلال القرن 11 هـ / 17 م مبلغ 1ر500ر000 بارة ، لكن هذا المقدار اقتطع منه جزء كبير حتى اصبح اكثر بقليل من الف بارة في السنة ، وذلك في اصلاحات عام 1107 هـ / 1695 — 96 م . وكان مخصص للولاة (جراية) سنوية تبلغ اربعة عشر الف أردب من القمح ، بالإضافة الى (مدفوعات) سنوية من القمح تبلغ عشرون ألف أردب من ريع (وفر كيل غلال الخزينة) (42) ، فيكون مجموع ما يحصل عليه الوالى من القمح

(*) وصلت مبالغ (الربيع الخاص) للولاة قبلها في بداية القرن 12 هـ / 18 م فبلغت (13) مليون بارة في السنة ، ثم هبطت تدريجيا الى (9) مليون بارة في السنة مع نهاية القرن نفسه .

(41) ملتزم تلك المقاطعة مسئول عن جيع جبارك على سن الفيل المصدر لمصر .
(42) وفر كيل الغلال هو الفرق بين الكيل الحقيقي للقمح والكيل المورد فعلا للخرزينة . فكل 12 كيل (أردب) كان فيه كيل واحد (وفر) تذهب للخرزينة ، وارتفعت تلك النسبة لتصبح كيل وفر في كل ثمان كيلات ، وكانت تحصل عليه الخزينة لكي يحل محل القمح الذى يفقد في حالات غرق السفن المحملة بالغلال للعنبر الشريف . وخلال القرن 12/18 م كان ريع وفر الغلال حوالى ستة وثلاثون ألف أردب من القمح في السنة يحصل منها الوالى على مشرون ألف أردب . وقد وفر الكيل في سنة 1200 هـ / 1786 — 7 م حوالى خمسة وأربعون ألف أردب ، نال منها الوالى ما يقرب من عشرون ألف أردب في السنة . راجع نظام ناه مصر ، مخطوط ، 27 ورقة ، 17 سطر ، مكتبة متحف طوبا قابى سراى ، استانبول ، رقم (288) ، ورقة 20 ب ، وراجع

Estéve, op. cit., p. 112

حوالى اربعة وثلاثون الف أردب في السنة . وعلاوة على هذا فقد كانت (الخزينة) تمنح الوالى ما يساوي ثمانية الاف أردب ، تقدر بمبلغ مائتى بارة للاررب ، اي ما يساوي 1.600.000 بارة في السنة (43) هذا بالاضافة الى 5.400.000 بارة كانت تدخل للوالى من بيع القمح المتبقى في الاسواق الحرة ، بعد سد حاجاته هو واتباعه (44) فاذا اضفنا مبلغ 740.541 بارة، وهو المبلغ الذي كان مخصص للوالى واتباعه من الخزينة من أجل العلف والجرايات طبقا لحسابات نهاية القرن الثامن عشر ، فيكون ما يحصل عليه الوالى في السنة وقت وصول الحملة الفرنسية على مصر هو مبلغ 7.741.000 بارة (45)

اما عن مصدر دخل الولاة من المقاطعات غير الزراعية فيأتى من دور الجمارك التى كانت تعطى لولاة مصر كإقطاع يدفعون عنه للخزينة مال الخراج و (مال الكشوفية الكبيرة) (46) ، ويحتفظون لانفسهم بباقي الدخل . غير انه حدث في القرن 12 هـ / 18 م أن أصبحت جميع مقاطعات الجمارك ما عدا مقاطعة السويس التزامات تحت ايدي ضباط فرقة الانكشارية ، الذين التزموا بدفع الضرائب المفروضة على تلك المقاطعات ودفع مبلغ سنوي محدد للولاة ، والاحتفاظ لانفسهم بفائض المتحصل . وقد وصلت المدفوعات بعد عام 1107 هـ / 1695 - 6 م الى مبلغ 2.089.000 بارة في السنة عن مقاطعات جمارك الاسكندرية ورشيد وبمياط والبرلس وبولاقي ومصر القديمة ، هذا بالاضافة الى مبلغ

(43) راجع Shaw, op. cit., p. 324

(44) راجع نظام نابه مصر ، سابق ، ورقة 21 ا

(45) راجع Shaw, op. cit., p. 324

(46) عندما استقرت الادارة العثمانية بمصر في منتصف القرن 10 هـ / 16 م فرضت ضريبة على ارباب المناصب في الديوان المصرى مقابل اكتسابهم للربع الذى يحصلونه ، وللربع الذى يحصلون عليه من ثروة مصر . وكانت تلك الضريبة تسمى الكشوفية الكبيرة وهى خاضعة للزيادة والتزليل . ويجب ألا نخلط بين ربع الكشوفية القديمة والجديدة الخاصين بأتليم حكام الاقاليم ، وبين ربع الكشوفية الصغيرة الخاصة بربع الولاة ، الداخلة فيها ربع قرى الكشوفية ، وبين ربع الكشوفية الكبيرة التى يذهب ريعها للخزينة السلطانية بمصر والتى كانت تجبى من اصحاب المناصب بالديوان في مقابل مراكزهم وما يحصلون عليه

من قهوة مصر . راجع Estéve, op. cit., pp. 59, 60, 65
Lancret, op. cit., pp. 493-494, 73, 77, 80

350.000 بارة تدفع سنويا كفوائد لتلك الجمارك (لشهر حواله) (47) وهو الموظف المسؤول عن حملات الولاة . وقد استخدم الانتشارية (المعلمين) من القبط واليهود لادارة تلك الجمارك ، وكان هؤلاء المعلمين يدفعون للوالى مبالغ ضئيلة ، في مقابل تثبيتهم في تلك الوظائف. وخلال القرن 12 هـ / 18 م ازدادت ارباح الجمارك ، فأصبحت مدفوعات الانتشارية للولاة قليلة بالقياس الى تلك الارباح الطائلة المتزايدة . وقد حاول الباب العالي أن يستفيد من هذه الزيادة باعادة الجمارك الى الولاة ، ولكن دون جدوى ، وفي نفس الوقت عمدت الانتشارية الى زيـادة المخصصات التى تعطى للولاة لكى يحتفظوا لانفسهم بالتزامات الجمارك، وبهذا افشلوا خطة الباب العالي . وقد قدر الباب العالي في سنة 1173 هـ/ 1760 م دخل الولاة من هذا المصدر بمبلغ تراوح ما بين 1.250.000 بارة في السنة 2.500.000 بارة في السنة . وبحلول عام 1200 هـ / 1785 م قدر ما حصل عليه الولاة من نفس المصدر بمبلغ متوسطه ستة مليون بارة في السنة (48) غير انه لاضمحلال الجمارك ، ونتيجة لتزايد طغيان مراد بك وابراهيم بك في العقد التالى ، فقد أصبح ريع الولاة من الجمارك في السنة أكثر بقليل من مليون بارة بحلول عام 1210 هـ / 1795 — 96 م . (49)

(47) كانت ثروة مصر تاتي من مصدرين هما الارض الزراعية والموارد المدنية التى تنقسم الى (ا) التجارة والصناعة ، (ب) التجارة الخارجية ، وكانت المصادر المدنية تعتبر ملكا للسلطان (خاص هيايون) وقد وزعها على خمس جهات تنقسم الى مقاطعات وتنقسم المقاطعات الى امانات أو التزامات ، تفرض عليها اموال تدفع للخزينة عن طريق (قلم شهر) . وكان الوالى يشرف على هذا من خلال عدد من الامراء من حاشيته الشخصية يسمون (شهر حواله) الذى كان عليه ان يحصل للوالى المبالغ المستحقة على الجمارك مقابل مبلغ محدد من البال ويعاونه (اغا الحواله) الذى يعيش في القاهرة ويذهب الى السويتى حين دخول البواخر الى الميناء ، لتقدير الجمارك بمعرنته هو و (قاضى البحار) وهو قاضى بتميم بالسويس ، ويأتيه ريع من مقاطعة (قاضى الانرج) . عن مزيد من التفاصيل راجع الجبرتي ، سابق ذكره ، ج 1 ، ص 309 ، قانون نامة مصر ، سابق ذكره ، ورقة 45 ب ، 46 أ ، نظام نامة مصر ، سابق ذكره ، ورقة 8 ب ، أوليا جليى ، سابق ذكره ، ج 10 ، ص 46 .

(48) راجع Shaw, op. cit., p. 325

(49) راجع محمد يوسف الخلاق ، تاريخى مصر ، مخطوط بالمكتبة القومية ، استانبول ، 169 ورقة ، 17 سطر ، رقم 705) راجع ورقة 108 أ وبالمخطوط تفصيلات عن تاريخ مصر من 1517 — 1716 — راجع سجل دار المحفوظات العمومية بالقاهرة ، رقم (2262)

وبالإضافة الى هذا كان الولاية اثناء معظم سنوات القرن 12 هـ / 18 م قادرين على الاحتفاظ باغنى التزام وهو جمرك السويس ، وذلك قبل أن يفلت في نهاية القرن هو الآخر الى أيدي المماليك الذين أصبحوا حكام مصر الفعلين . غير انه حتى ذلك الوقت كان معظم ما يحصل عليه الولاية من حصص تأتي من هذا المصدر ، فقد وصلت المبالغ التي حصل عليها الولاية في سنة 110 هـ / 1698 — 99 م الى مبلغ قدره هو 4.543.196 بارة (50) واما في سنة 1173 هـ / 1759 — 60 م فقد وصل الى مبلغ 6.500.000 بارة في السنة ، طبقا لتقديرات الوالى (51). غير ان الباب العالى قدر المبلغ السابق ذكره بمقدار 8.750.000 بارة سنويا (52) . وفي سنة 1200 هـ / 1785 — 86 م قدر نظام نامه مصر الربع السنوي من جمرك السويس الذي يحصل عليه الولاية بمبلغ 8 750.000 بارة (53) . وعلى كل حال فقد احتفظ مراد بك وابراهيم بك بمجمل ريع هذا المصدر لانفسهم بعد ما عادا الى السلطة في سنة 1205 هـ 1761 م ، ودفعوا للوالى مقابل سنتى 1209 هـ / 1794 — 95 م وسنة 1210 هـ / 1795 — 96 م مبلغا اجماليا مقداره هو 6.585.000 بارة (54) وفي نهاية القرن 12 هـ / 18 م كان ريع الولاية من مقاطعة الجمارك لا يزيد متوسطه عن 7.500.000 بارة في السنة .

يظل هناك مصدر آخر لدخل الولاية يسمى (حلوان القرى) وهو المدفوعات التي يؤديها للوالى من يرسوا عليه (حق الانتفاع) بالمقاطعات الخالية من اصحابها الذين ماتوا طبيعيا او في المعارك والمنازعات او تعرضوا للمصادرة او استقالوا ، ولم يكن الولاية حتى عام 1082 هـ / 1671 — 72 م ملزمين بدفع اي مبالغ للخرينة المصرية في مقابل تمتعهم بدخل حلوان القرى ، اذ كانوا يعتبرونه جزءا من ريعهم الخاص (55) .

(50) راجع سجل دار المحفوظات المموية بالقاهرة ، رقم (5293)

(51) راجع Shaw, op. cit., p. 326

(52) راجع Shaw, op. cit., p. 326

(53) راجع نظام نامه مصر ، ورقة P 15

(54) راجع سجل دار المحفوظات المموية بالقاهرة ، رقم (2263)

(55) راجع الخلائق ، سابق ذكره ، ورقة 17 ، وراجع Shaw, op. cit., p. 36

لكن منذ العام السابق ذكره خضع ذلك المورد لضريبة تدفع للخزينة ، حيث اعتبر حلوان القرى جزء من اموال الخزينة المحولة للولاية ، أكثر من كونه منحة سلطانية لولاية مصر . وما كان يتبقى للولاية يختلف مقداره من سنة لآخرى ، فمتوسطه خلال القرن 12 هـ / 18 م بلغ حوالى خمسة عشر مليون بارة فى السنة ، وان كان قد ارتفع فى بعض السنوات الى خمسة وعشرين او ثلاثين مليون بارة (56) ، ولكن بعد سنة 1193 هـ/ 1779 م انتزع حلوان القرى من الولاية ، ووقع فى ايدي مراد بك وابراهيم بك كالترام يدفع فى مقابله للولاية مبلغ متوسطه السنوي مليون وخمسمائة ألف بارة (57) ،

ان المراجع المهمة برقع ولاية مصر العثمانيين محدودة للغاية من ناحية ، ومبعثرة فى أرشيفات ودفاتر غير منظمة فى دور المحفوظات التركية والمصرية من ناحية أخرى ، الا أن ما فيها من معلومات يمكن أن يقبل كنوع من التقديرات . وما يصل اليه الدارس لربيع الولاية من كل أوعية الدخل السابق ذكرها ، وفقا لما تمدها به هذه المراجع من معلومات ، يصل فى مجمله الى مبلغ 47.741.000 بارة فى السنة عند بداية القرن 12 هـ / 18 م (58) . ومفردات هذا المبلغ هى 13.000.000 بارة تأتى من الربيع الخاص ، و 7741.000 بارة هى المرتب السنوي (ساليانة) و 12.000.000 بارة مصدرها المقاطعات، و 15.000.000 بارة مصدرها من الحلوان . غير أن هذا المبلغ الاجمالى لربيع الولاية هبط فى اثناء العقد الاخير من القرن 12 هـ / 18 م قبل وصول الحملة الفرنسية بمقدار 45 ٪ فوصل مجمله الى 25.741.00 بارة فى السنة (59) .

(56) راجع سجل المحفوظات العمومية بالقاهرة ، رقم (5293)
(57) راجع سجلات دار المحفوظات العمومية بالقاهرة ارقام (2262) ، (2263) ولم يشتر نظام نامة مصر الى الحلوان كمصدر لربيع الولاية فراجع على سبيل المثال ورقة 115
21 ، وراجع Shaw, op. cit., p. 327 وراجع Girard, P.S.,
Mémotre sur l'Agriculture, l'Industrie et le Commerce de l'Egypte, (Description de l'Egypte), Tome XVII, pp. 379-380.

الطبعة الثانية

(58) فعلى سبيل المثال راجع سجلات دار المحفوظات العمومية بالقاهرة ، ارقام (2262) لسنة 1209 هـ ، ورقم (5935) لسنة 1211 هـ ، ورقم (2263) لسنة 1110 هـ .

(59) راجع Shaw, op. cit., p. 327

يخرج الدارس لوضع الولاية المالية في مصر — كما راينا — بانطباعه هي أن تلك البلاد تعرضت لعملية نهب من قبل العناصر العثمانية المملوكية الممثلة للنظام الإقطاعي العثماني ، بسماته الخاصة ، والمتربع على قمته ، نظريا ، الولاية العثمانيين الذين تعرضوا هم أيضا (كموظفين) لدى (النظام) لعملية استغلالية لهم كما سنرى . فالريع (الرسمى) للولاية فيما عدا مكاسبهم من المصادر (غير الرسمية) كان يخص جزء منه للوفاء بديونهم المطلوبة رسميا (للزينة السلطانية) بمصر ، وعرف هذا الدين في القرن 12 هـ / 18 م بمصطلح (دين الديوان) ، كما كان يخص جزء آخر للوفاء بدينهم للسلطان ، وهو الدين الذي عرف بمصطلح (جائزي همايوني) أو الجائزة السلطانية .

وكان دين الديوان يدفعه الولاية للزينة كخراج يسمى (خراج الوالى) كما كانوا ملزمين بدفع (كشوفية كبيرة) مقابل توليتهم لمناصبهم ، هذا فضلا عن جملة أعباء اضافية يضطرون لتحملها ، كان يتهرب أحد الامراء الحاكمين من القيام بالتزاماته تجاه الخزينة . ومن أعباء دين الديوان ما عرف (بمال الكشوفية ومال الخراج) وهى ضرائب كان الولاية مدينين بها للزينة ، مقابل مقاطعات الجمارك . ففى خلال القرن 12 هـ / 18 م كانت مديونية الولاية عن مقاطعة جمرک السويس قد ارتفعت من 4.063.196 بارة الى مبلغ 6.071.055 بارة فى السنة (60) ومنذ ان انتزع الانكشارية من الوالى مقاطعات الجمارك الاخرى ، فقد تولوا فى المقابل القيام بتسديد الالتزامات الضرائبية عنها للزينة ، وعلى هذا فبعد سنة 1126 هـ / 1714 م اجبر الانكشارية الولاية على أن يدفعوا مديونيات الكشوفية الكبيرة التى ترجع الى مقاطعة جمارك الاسكندرية ورشيد ، وظلت هذه المديونيات تقدر بمبلغ 1.331.249 بارة فى السنة حتى بقية هذا القرن .

وهناك ديون اخرى كان على الولاية دفعها للزينة ، منها ما حدث اثناء القرن 12 هـ / 18 م من اقتطاع حكام الاقاليم لمبلغ سنوي معين من مجموع الضرائب المستحقة للزينة عن اقاليمهم ، واجبر الولاية تحت ضغط

60) راجع Shaw, op. cit., pp. 108-329

61) راجع Estève, op. cit., p. 117 ; Shaw, op. cit., p. 110

هؤلاء الحكام بالموافقة على تنزيل أو طرح هذا المبلغ المقطع المستحق للخرينة ربيع الاقاليم هؤلاء الحكام ، ويقام الولاة انفسهم بدفع مبلغ يساوي ما نزل للخرينة من دخلهم الخاص. ولكن تلك الموافقة كانت ظاهرية، اذ عمد الولاة في حقيقة الامر الى تعويض تلك المبالغ التي دفعوها للخرينة عن طريق مدفوعات (الالباس) و (والكشوفية الصغيرة) وهي مبالغ تدفع للولاة عند تولي حكام الاقاليم لمناصبهم . لكن حكام الاقاليم اعتبروا أن ما يدفع للالباسية والكشوفية يعود مباشرة الى مقدار الضريبة التي تدفع للولاة عن (قرى كشوفيات الولاة) الواقعة داخل اقاليم هؤلاء الحكام . وعلى هذا قام حكام الاقاليم بحجز مقدار آخر من النقود المستحقة للولاة عن قرى كشوفياتهم ، وسمى هذا الاقتطاع الجديد (بتنزيل الكشاف) وهو مبلغ يتساوى مقداره في الواقع مع ما كان يدفعه حكام الاقاليم عن قرى كشوفيات الولاة الواقعة داخل اقاليمهم (62) .

وفي الحقيقة يعنى هذا ان كشاف الاقاليم اصبحوا يحصلون على مال الكشوفية ، وعلى فائض قرى الكشوفية ، وفي نفس الوقت تجنبوا اعادة تلك للقرى للمتفعين بها المستحق عليهم مال الخراج الخرينة . وجوهر القضية هو ان (تنزيل الكشاف) سمح لحكام الاقاليم بأن يتنفعوا بقرى الكشوفية عمليا كاملاك خاصة بهم ، دون أن يدفعوا عنها ضرائب لا للخرينة ولا للولاة ، في حين اصبحت مبالغ تنزيل الكشاف يدفعها الولاة سنوياً للخرينة . وعلى هذا ظلت تلك المبالغ دون تغيير خلال القرن 12 هـ / 18 م وبلغ مقدارها الاجمالي 3.475.000 بارة يدفعها الولاة للخرينة سنوياً (63).

اما ثالث انواع الضرائب التي كان يدفعها الولاة للخرينة كدين للديوان فكانت تعرف (بمال الحلوان) (64) وتدفع مقابل تمتع الولاة بريع الحلوان. وقد ارتفعت تلك الضريبة من مليون بارة في السنة عندما انشئت لأول مرة

(62) راجع Shaw, op. cit., p. 330

(63) راجع Shaw, op. cit., p. 330

(64) (الحلوان) هو ضريبة كان يدفعها الملتزم الجديد للباشا ، وديوان الروزنامة نظير التصديق على نقل الالتزام اليه ، وكانت في بدء الامر تقدر بمقدار ضريبة سنة مئتين الاوال الاميرية المقررة على الحصة ثم اصبحت تقدر بمقدار ثلاث سنوات من مئتين الحصة الذي اصبحت يفوق ، مقدار المال الميري . راجع ميد الرحيم ميد الرحمن ، سابق ذكره ، ص 256 ، 257 .

في سنة 1082 هـ / 1671 - 72 م ، الى مبلغ 2-113.000 بارة في السنة
بعد عام 1174 هـ / 1760 - 61 م (65) .

اما ضريبة تبديل الكشوفية الكبيرة عن (الكتخديان) فكانت ضرائب
يدفعها الوالى عند تغيير وكلاء (كتخديان) فرق الجولبان والتفكجيان
والجراكسة ، وبلغت سنة آلاف بارة ، بواقع ألفى بارة عن كل وكيل فرقة
من الفرق الثلاث المذكورة (66) .

كذلك كان الوالى يدفع ضريبة عن تبديل الكشوفية الكبيرة من اجل
(زعماء) (67) القاهرة وبولاق ومصر القديمة ، كان مجموعها مبلغ
46.392 بارة ، بواقع 15.464 بارة عن كل زعيم من الثلاثة (68) .

كان على الولاة التزامات بمبالغ أخرى تسمى (معتادات) يدفعونها
للكتبة بالخزينة ، مقابل مسؤوليتهم عن العمل المتعلق بحسابات الاموال
المدفوعة لمقاطعات الولى . فكان (أفندي الروزنامة) يتلقى من الولى
مبلغ 39.000 بارة عن حساباته لمقاطعة جمرك السويس ، ومبلغ 20.000
عن حساباته لمقاطعة جمرك الاسكندرية . اما المعتادات التى يتلقاها

(65) Shaw, op. cit., pp. 168, 330

(66) Shaw, op. cit., pp. 201, 330

(67) كان اغا الانكشارية هو المسؤول الرئيسى عن الامن بالقاهرة . وكانت نقاط الامن
متركزة في الاماكن الرئيسية بالقاهرة وضواحيها ، ويعمل بها رجال من الانكشارية .
وقد وزعت اختصاصات بوليس القاهرة وبولاق ومصر القديمة على ثلاث زعماء هم زعيم
القاهرة ويسمى زعيم مصر ، وزعيم بولاق ، وزعيم مصر القديمة . وكان من واجباتهم
تنفيذ احكام الاعدام ، وغرض العقوبات ، وتحصيل الغرامات عن بعض الجرائم المحددة .
كما كان لهم الحق في جباية الضرائب من هؤلاء الذين يستفيدون بخدماتهم . هذا بالإضافة
الى فرضهم ضريبة كانت تسمى (مال الحماية) على الهيئات المدنية والمشرعين على
المقاطعات المدنية (الغير زراعية) الذين يعتمدون على خدماتهم في تأكيد سلطتهم .
وكان أهم هؤلاء الزعماء هو زعيم مصر الذى كان من واجباته أيضا جرف ونظهير جميع
قنوات القاهرة ، واطفاء الحرائق أينما شبت النار . وكان الزعيم في اللغة العامية
البصرية يطلق عليه (والى) ويطلق عليه (زعيم) او (صوباشى) في الوثائق
الرسمية العثمانية . راجع الجبرنى ، سابق ذكره ، ج 1 ، ص 55 ، 57 ، ج 2 ،
ص 10 ، 22 ، 25 ، 14 ، 54 ، 36 ، 73 ، 82 ، 107 . الخ وراجع :
Gibb and Bowen, op. cit., 1 : 1, p. 279

(68) راجع Shaw, op. cit., pp. 148, 331

(أمين الشهر) فكانت مقابل قيامه بحسابات ضرائب مقاطعتي جهرمى
السويس والإسكندرية ، ومجموعها يبلغ 61.528 بارة .. وكان رئيس قلم
المحاسبة بالخزينة (أفندي المحاسبة) يدفع له الولاة سنويا ستة آلاف
بارة ، فيكون مجموع المقتادات التى يلتزم الموالى بدفعها هى مبلغ 126.528
بارة (69) .

وبجانب ما سبق كان على الولاة تعهدات تسمى (خلع القباطين على
عرب الدشايش) ، وهم أولئك الذين يكلعون بمسؤولية توصيل غلال أوقاف
(الدشايش) (70) من القاهرة الى السويس ، لكى يتم شحنها الى المدن
المقدسة (مكة والمدينة) . وكانت تلك (الخلع) تكلف الولاة سنويا مبلغ
19.800 بارة (71) .

هذا بالإضافة الى ضريبة أخرى تسمى (تبديل مقاطعة الاحتساب) ،
ويقوم الولاة بدفعها ، وهى قسم من مال الخراج المدين به (المحتسب)

Estève, op. cit., p. 240

Shaw, op. cit., p. 340 رجوع (69)

(70) كان هناك نوعين من الوقف للدشيشة (أى الحبوب المطحونة) أولها الدشيشة الكبرى،
وهى جميع الاوقاف التى ورثها العثمانيين فى مصر ، والتى كان سلاطين المماليك أوقفوها
لصالح المدن المقدسة (مكة والمدينة) . وقد أضيف لها موارد جديدة سنة 991 هـ /
1583 م بلغ ريعها عشرة آلاف أردب حبوب أرسلت الى المدن المقدسة . وفى هذه
السنة أيضا أضاف السلطان مراد أوقافا قدمت دخلا اضافيا بلغ ست آلاف أردب حبوب،
وريع نقدى لا يستهان به . وبحلول سنة 1105 هـ / 1693 — 94 كان يرسل كل عام
الى المدن المقدسة 17.100 أردب من الحبوب . وخلال القرن 12 هـ / 18 م منحه
امراء مصر وولاتها منحا هائلة ، فاصبح فى فترة مجيء الحملة الفرنسية الى مصر من
الممكن ارسال ثلث 33,333 أردب من الحبوب ، ومبلغ 1.907.765 بارة نقدا الى مكة
والمدينة ، اما الدشيشة الصغرى فقد أضيفت الى الاوقاف المذكورة سنة 991 هـ /
1583 م على يد السلطان مراد الثالث — 1574 — 1595 — ، وكان يسمى بوقف
1583 م على يد السلطان مراد الثالث — 1574 — 1595 — ، وكان يسمى بوقف
المرادية . ويبلغ ريعه النقدى المرسل الى المدن المذكورة مبلغ 125 ألف بارة والفين أردب
من الحبوب . وقد أصبح من المستطاع فى الفترة التى وصلت فيها الحملة الفرنسية
أن يرسل من وقف المرادية (الدشيشة الصغرى) مبلغ 969.857 بارة فى السنة ، علاوة
على 4.840 أردب من الحبوب . راجع أوليا جلى ، سابق ذكره ، ج 10 ، ص 129 .

وراجع Estève, op. cit., p. 106

Shaw, op. cit., p. 269 راجع (71)

المختص بأسواق المأكولات والاطعمة في القاهرة (72) . وقد ارتفعت تلك الضريبة من 36.453 بارة في سنة 1133 هـ / 1720 — 21 م إلى 136.453 بارة في السنة ، خلال العقد الاخير قبل وصول الحملة الفرنسية (73) .

ما زالت هناك مبالغ أخرى يدفعها الولاة ، منها (تعيينات اشراف مكة المكرمة) ومقدارها السنوي هو 200.000 بارة ، ويدفعها ولاة مصر من أجل (المؤن الاضافية) المرسلة الى اشراف مكة مع الخزينة (74) .

ومنها ايضا المبالغ التي كانت تدفع للتغييرات الخاصة بمرتبات رجال حامية العريش ، التي حدثت بعد الفاء اقليم قطيا في سنة 1118 هـ / 1706م وتحويل التزامات حاكم هذا الاقليم الخاصة بمرتبات رجال حامية العريش الى الولاة . فبلغ ما كان يدفعه الولاة لهذا الغرض خلال معظم هذا القرن 38.500 بارة في السنة (75) .

ان ما اسلفنا ذكره هو الجزء المحدد من (دين الديوان) المستحق على الولاة أن يدفعوه الى الخزينة ، وقد بلغ مقداره في بداية القرن 12هـ/ 18 م ما يقرب من تسعة ونصف مليون بارة في السنة ، ووصل الى 12 مليون بارة في السنة عند مجيء الحملة الفرنسية على مصر . لكن هذه الديون (المحددة) على الولاة لم تكن هي كل الدين المستحق عليهم للخزينة، من خلال التزاماتهم بالدين الديواني ، اذ كان عليهم التزامات (غير محددة) مرتبطة بالظروف الاقتصادية للبلاد ، ويدخل الخزينة ، فاذا نقصت اموال الخزينة بسبب عدم وفاء الفيل ، أو لظروف طبيعية أو اجتماعية أو سياسية أخرى ، كان على الولاة أن يضمنوا استمرار صرف المرتبات ،

(72) راجع 110 Esteve, op. cit., p. ويوجد سجلان بالمحكمة الشرعية بالقاهرة (بدون ارتام) بهما تفاصيل كاملة عن البواد الغذائية والمأكولات ، وريـع الحبس ، والثائبين على مقاطعة الاحتساب ، والسجلات بهما مواد تؤرخ من سنة 1155 هـ / 1742 — 43 م لسنة 1174 هـ / 1760 — 61 م . راجع Shaw, op. cit., p. 120

(73) راجع 331 Shaw, op. cit., p.

(74) راجع 269 Shaw, op. cit., p.

(75) راجع 258 Shaw, op. cit., p.

وتغطية النفقات المطلوبة . وكان عليهم ان يتصرفوا كبنوك بأن يوفروا النقود للخرينة لكي تقابل المصاريف الجارية ، على أمل توقع تعويضات من دخل الخزينة المقبل ، وبهذا أصبح دخل الوالى يعنى فى الواقع ضمان مقدرة الخزينة على مواجهة التزاماتها الجارية . ففى السنوات التى يحدث فيها نقص فى مدفوعات (ارسال الخزينة) المستحقة الباب العالى ، فان هذا النقص يصبح جزءا من ديون الولاة فى مصر للباب العالى ، ويظل كذلك حتى بعد رحيلهم عن البلاد ، حيث يجري تعيينهم فى مناصب اخرى ، فى اقاليم يمكنهم ريعهم من مناصبهم فيها أن يستهلكوا مديونيتهم للباب العالى (76) وبهذا الاسلوب كان ريع الولاة فى مصر بمثابة صمام امان لكلا من الخزينة المصرية والباب العالى اذ كان يساعد الخزينة على الوفاء بالتزاماتها ، ، حتى فى الحالات المتعسر فيها جمع الريع المستحق لها ، وفى نفس الوقت كان يمثل ضمان تعويضات للباب العالى من مصادر خارجة عن مدفوعات ارسال الخزينة المصرية . وعلى هذا كان ريع الولاة فى مصر يحل فى الواقع الهزات المالية التى تتعرض لها البلاد على المستوى المحلى ، واحيانا يحل الهزات المالية على مستوى الامبراطورية .

فصلنا الحديث عن دين الديوان وهو — كما رأينا — خاص بالتزامات الولاة للخرينة المصرية ، ويظل للحديث بقية تتعلق بدين آخر عـُـرف بالجائزة السلطانية (جائزي همايون) ويدفعها الولاة كل سنة ، نقدا وعينيا فى مقابل حظوتهم بالتعيين فى منصب الولاية على مصر ، مما يترتب عليه ان يتمتعوا بريع وراتب (ساليانة) وامتيازات المنصب الاخرى . وتقابل الجائزة السلطانية فى طبيعتها ، مدفوعات الكشوفية الكبيرة التى يؤديها للخرينة المصرية ذوي المناصب فى مقابل مراكزهم وما يترتب عليها من دخل (77) . وكانت الجائزة السلطانية تدفع لمناصب محددة عند التعيين فيها ، وكان ذلك تأمينا لريع المنصب مقدما ، ولهذا كان من يختار لشغل منصب الولاية على مصر ، وليس لديه ثروة تكفى لتغطية الإنفاق على تلك الجائزة ، كان عادة يرسل كتخداه (وكيله) الى مصر قبل وصوله ، لكي يقوم بعدة اجراءات من اهمها اعلان تعيينه كوالى ، ثم اقتراض المبلغ

76) راجع اوليا جلى ، سابق ذكره ، ج 10 ، ص 407 .

77) راجع Uzunçarsili, op. cit., pp. 195-210

المطلوب تقديمه كجائزة من التجار والامراء المحليين ، واخيرا تعيين قائم مقام يمثله لحين وصوله الى مصر (78) وكان المبلغ المطلوب دفعه كل سنة كجائزة مبلغا ثابتا ، سواء عين الوالى للمرة الاولى ، او جدد تعيينه اثناء وجوده الفعلى بالمقاهرة بعد انتهاء مدته الاونى . غير ان هذا المبلغ الثابت كانت تضاف اليه احيانا مبالغ اخرى تطلب من الولاة فى السنوات التى تقوم فيها الامبراطورية العثمانية بحروب ، او سفريات سلطانية (79) وكانت تسمى (امدادات السفر) ، كما كانت تطلب فى ايام الاحتفالات والاعياد كهدايا تقدم للسلطان ولاعضاء بلاطه (80) .

وكانت الجائزة توزع على اعضاء البلاط فى (دار السعادة) (81) حيث يوجد السلطان ، ووالدة السلطان ، والامراء ، واغا دار السعادة ، وصراف خزينة السلطان الخاصة ، وغيرهم ، كما كانت توزع على اعضاء بلاط الصدر الاعظم وعلى امين الخزينة السلطانية . ففى بداية القرن 12 هـ 18 م وصلت المبالغ المستحقة على الولاة كجائزة الى مبلغ سبعة مليون وخمسمائة واربعة وخمسون الف بارة فى السنة . وفى سنة 1117 هـ / 1705 — 06 م انخفضت الى 4.390.030 بارة وذلك للتخفيف من ضغط الاعباء التى تتحملها التزامات الولاة على مصر (82) .

اما هدايا الاعياد المطلوبة سنويا للسلطان ، ووالدة السلطان ، والامراء والمصدر الاعظم ، فكان متوسطها فى السنة مائتى الف بارة ،

(78) راجع Uzunçarsili, op. cit., pp. 198-200

(79) راجع Shaw, op. cit., pp. 333-337

(80) هى مراجع حاشية (79) ، وراجع احمد جليلي ، سابق ذكره ، ص 83 ا

(81) كان يطلق هذا الاسم على دار الحكم عند الجراكسة والعثمانيين ، واطلق على مدينة اسلام بول (مدينة الاسلام) باعتبارها العاصمة القديمة للدولة العثمانية فى اوربىا معرنت بدار السعادة لانها مقرا للحكم العثمانى ، وتطلق دار السعادة ايضا على الحكومة التى يقيم بها السلطان ، كما اطلقت على الحرم عند العثمانيين ، وكان اغا دار السعادة او اغا البنات (تيزلر اغاسى) يعتبر الموظف الرئيسى فى القصر السلطانى . وفى منتصف القرن 11 هـ / تكونت جماعة عسكرية تسمى جماعة قاصدى ديوان مهمتها مراقبة الضباط العثمانيين الذين يخدمون فى مصر وغيرها من ولايات الامبراطورية ، وكان يطلق عليهم احيانا اغوات دار السعادة ، وكان جزء من الجزية المفروضة على مصر يذهب الى اغوات دار السعادة . راجع Estéve, op. cit., p. 116

(82) اورد فى قائمة مفصلة المدوعات ، وتوزيعها ، ونصيب كل فرد منها ، وينصبه ، راجع Shaw, op. cit., p. 402

وبلغت (امدادات السفر) التى تدفع فقط للسلطان ورئيس الوزراء فى بعض السنوات التى خرجت فيها التجديدات وحدثت فيها حروب مبالغ 4.455.000 بارة فى سنة 1107 هـ / 1695 — 96 م ، وانخفضت الى ثلاثة ملايين بارة فى سنة 1117 هـ / 1705 — 06 م ، ثم الى 2.460.000 بارة فى سنة 1139 هـ (83) . أما الهدايا العينية التى يرسلها الوالى فتوزع على الرؤساء ، والضباط الاقل مرتبة ، والمستخدمين فى بلاط السلطان ، وديوان الصدر الاعظم ، والخزينة العثمانية ، وكانت محددة بكميات مقدارها 7990 آقه بن ، و 7256 آقه سكر ، و 5735 كيلة ارز (84) هذا بالإضافة الى ارسال الولاة بين وقت وآخر لبضائع من الهند وايران واليمن ، وعبيد من الحبشة والسودان ، كهدايا ورشوة للسلطان ولرؤساء الضباط فى الباب العالى (85) . وفى بعض السنوات التى لا يتمكن فيها الولاة من ارسال الجائزة أو الهدايا العينية كاملة ، كانت فى هذه الحالات تضاف الى دينهم الثابت للباب العالى مبالغ تساوي فى مقدارها العجز فى الجائزة والهدايا .

وفى السنوات التى أعقبت عام 1148 هـ / 1735 — 36 م كان المتبقى من ريع الولاة قد أخذ فى الانكماش ، وتبعاً لذلك خففت قيمة الجائزة السلطانية . وفى سنة 1162 هـ / 1748 — 49 م كان مجموع ما هو مطلوب للجائزة ، وهدايا العيد ، وامدادات السفر (تدفع نقداً) قد انخفض الى اربعة ملايين بارة فى السنة (86) وبعد عام 1183 هـ / 1769 — 70 م كان من الممكن دفع جزء من التزامات الجائزة ، على أمل أن تسديد الباقي كان يمكن أن يتأتى من مكاسب مهام أخرى تضاف للولاة . وقد توقفت قيمة الجائزة وهدايا العيد فى سنة 1201 هـ / 1787 — 88 م عند المستوى الذى كانت عليه فى سنة 1148 هـ / 1735 — 36 م . ولكن بعد رحيل حسن باشا (الحجة 1201 هـ / اكتوبر 1787 م) تمكن الولاة عن طريق مكاسبهم فى مصر من الوفاء بجزء بسيط من التزاماتهم ، حيث ان الجزء الاكبر

(83) راجع Shaw, op. cit., p. 403

(84) راجع اوليا جلى ، سابق ذكره ، ج 10 ، ص 1025 ، وراجع Uzuncarsili, op. cit., pp. 199-203

(85) راجع اوليا جلى ، سابق ذكره ، ج 10 ، ص 417 .

(86) راجع Shaw, op. cit., p. 335

من الربع ذهب لتسديد دين الديوان . واخيرا اعيد التنظيم العام للإدارة العثمانية والمالية في نهاية شعبان 1206 هـ / أبريل 1792 م فاصحح نظام الجائزة السلطانية ، وهدايا العيد ، والرثوة المطلوبة للباب العالي من المصالح الرسمية على مستوى الامبراطورية فخفضت الالتزامات النقدية ، والفيت تماما التزاماتهم العينية (87) ، وظل هذا الالتزام دون تغيير حتى مجيء الحملة الفرنسية على مصر. وبالإضافة الى تكاليف الجائزة السلطانية ، والمدفوعات الأخرى ، كان على الولاة أن يرسلوا مبالغ نقدية سنويا قدرها ثلاثون ألف بارة لرئيس حجرة المؤن الامبراطورية بقصر السلطان ، وأربعون ألف بارة لرئيس النحاسين بالقصر ، وكلاهما من الضباط المعيّنين في الباب العالي ، وعليهما تقع مسؤولية استلام شحنات البواخر المحملة بالالتزامات العينية المرسلة من مصر للباب العالي (88)

وعندما كانت تنتهي مدة الوالى كان (يعمل حسابه) وكلاء عن الباب العالي و (أعضاء الديوان) في مصر ، فإذا كان قد استوفى دفع كل ما عليه من ديون للديوان، ففي هذه الحالة يمكنه الرحيل دون أن يتعرض له أحد من الأمراء في مصر ، وإن كان ما زالت عليه التزامات لم يسدها ، يسجن في أحد القصور أو البيوت ، الى أن تصدر ممتلكاته وتباع لتحصيل ما عليه من دين ، فإذا بيعت كل ممتلكاته ومع هذا ظلت عليه بعض الديون المستحقة (لإرسال الخزينة) او للجائزة ، فلا يمكنه الرحيل الا بعد التوقيع على (حجة شرعية) يعترف فيها بهذه الديون ليقوم بتسديدها من ريعه اللاحق (89) .

(87) راجع Shaw, op. cit., p. 335

Uzunçarşılı, op. cit., p. 460

(88) راجع Shaw, op. cit., p. 335

(89) راجع Fouad M. el-Mawli, The histories of Ottoman in Egypt..., (Athesis presented to the University of St. Andrews in application for the Degree of Doctor of philosophy (Ph. D), June, 1970), pp. 64, 70, 82, 191, 105, 75.

وراجع ابن أبى السرور البكرى ، الروضة الزهية في ولاة مصر والقاهرة البعزية مخطوط بمكتبة الناتيكان رقم (7344) ، ص 90 ، 94 ، 98 ، 99 . وراجع أحمد جلى ، سابق ذكره ، ص 43 ب ، 241 ب ، 242 . وراجع الجبرنى ، سابق ذكره ، ج 1 ، ص 27 ، 48 ، 55 - 56 ، ج 2 ، ص 192

Marcel, op. cit., pp. 201, 210, 216

توضح دراسة الوضع المالى لولاية مصر من خلال الأرقام التسمى
امدنتا بها السجلات المالية ، مصرية كانت أو عثمانية ، أن الدخل الذي كان
يحصل عليه الولاية من كل أنواع الربيع السابق ذكره ، إذا قورنت بأرقام
حساب الفائض بعد تأدية المصروفات الرسمية المطلوبة من الوالى ، من
الصعب أن يكون (العائد المالى) لهذا المنصب مربحا ، مما ترتب عليه
وقوع الولاية — طبقا للأرقام الرسمية — فى الدين للباب العالى خصوصا فى
القرنين السابع عشر والثامن عشر (90) ، فهل هذا يعنى أن المنصب كان
يضىء على شأغله مركزا اجتماعيا مرموقا ، دون أن يدر عليه دخلا يغطى
متطلباته الرسمية ، وأن الولاية كانوا يتطلعون فقط لهذا المركز الاجتماعى
حتى لو كلفهم ما يفوق قدرتهم المالية ؟ . أم أن الولاية كانوا (يكلفون) من
قبل السلاطين لشغل هذا المنصب لفترات ، فلا يستطيعون التملص من
تأدية هذا (الواجب) المفروض عليهم لفترة محددة . ومن يعلم ربما يشك
الدارس فى تلك الأرقام فلا يأخذ ما تقدمه له من دلالة مأخذ الجد ، وبالتالي
يرفض النتائج التى تترتب عليها . هذه افتراضات ثلاث وبقي افتراض أخير
يشير سؤال هو : هل كان هناك دخلا يأتى الولاية من طريق أو مصدر آخر ،
ولا تظهر له أرقام فى السجلات ، لأنه دخلا (غير رسمى) لا يسمح — به
(القانون) ، كما أنه (غير محدد) ، فلا تستطيع السجلات المذكورة أن
(تغطى) مقادير أرقامه فى أوراقها الرسمية .

الحق أن واقع الفرد فى المجتمع العثمانى كانت قيمته تتحدد بمركزه
الاجتماعى ، ودخله المادى ، من خلال انتمائه لفئة أو طبقة أو طائفة . وفى
ظل النظام الإدارى ذو السمات القطاعية العسكرية الخاصة ، ارتبط
المركز الاجتماعى بالدخل المادى ، فكان لكل منصب ريع يأتى عن طريق
(القطاعية) أو أكثر ، أو عن طريق راتب (ساليانه) يدفع سنويا ، لىغطى
تكاليف المنصب والوظيفة ، وفى نفس الوقت يعود جزء من دخله لمنفعة
(الخزينة السلطانية) ، ولمنفعة من لهم صلة مباشرة بتلك الوظيفة أو
المنصب ؟ فالولاية العثمانيون على مصر كان مركزهم الاجتماعى محددا

90) أوريشو (Shaw, op. cit., pp. 336 — 7) بعد دراسته لارشيد القاهرة
واستائبول قائية بديون ولاية مصر للباب العالى عن سنوات مختارة من 1041 هـ /
1631 — 32 م إلى 1208 هـ / 1793 — 94 م ، فراجع الصفحات المذكورة .

سلفا قبل اعتقالهم للولاية ، اذ كانوا من بين فئة الباشات الذين يحملون لقب وزير (91) . ولهذا فالنصب لم يكن يضمن عليهم مركزا اجتماعيا خاصا بين أفراد تلك الفئة ، فيصبح بالتالى افتراض ان ما كان يغريهم بالتربيع (نظريا) على قمة الاجهزة العثمانية لولاية مصر ، كان دافعه لديهم الترفع فى سلم المراكز الاجتماعية ، يصبح افتراضا وتصورا لا يستند الى حقائق تاريخ العثمانيين فى مصر .

فاس (يتبع) د. : فؤاد محمد الماوي

91) لمزيد من التفاصيل راجع دائرة المعارف الاسلامية المواد التالية : (باشا) و (توغ) و (وزير) و (سنجق) و راجع جب وبوون ، ج ، 1 ، ص 163 - 4 ، 208 - 9 ، ج 2 ، ص 5 - 16 من الترجمة العربية .

حول رباط عبد الله بن يس⁽¹⁾

عصمت دندش

دخل عبد الله بن يسن (1) بلاد صنهاجة في صحبة زعيمها الامير يحيى بن ابراهيم الجدالي ، بعد عودة الاخير من رحلته الحج، ليرشد صنهاجة الى تعاليم الاسلام السليمة ، وكان عبد الله بن يسن من الفقهاء النابهين ، المتأثرين بمبادئ فقهاء المالكية . وقد وصفه ابن ابي رزق بانه كان من اهل الفطنة والدين ، والتقى والورع والعفة والادب والسياسة، مشاركاً في العلوم (2) .

كرس عبد الله بن يسن نفسه لهداية الملتزمين الى اصول الاسلام ، وتفقيهم في أمور دينهم ، واخذ يرسم لنفسه التهج الذي يحقق الاهداف التي حالف الامير يحيى بن ابراهيم عليها ، وهي تأليف قلوب الملتزمين ،

(1) هو عبد الله بن يس بن مكول بن علي صاحب دعوة المرابطين - ذكر بعض المؤرخين انه ينسب الى قبيلة جزولة الضاربة في أقصى المغرب قرب جبال درن ، ولد في قرية تياماناوت في طرف صحراء مدينة غانة ، اى في احواز مدينة أودغشت - ويرجع الدكتور حسن محمود نسبته الى قبيلة جدالة التي تضرب قرب منطقة السنغال وتوغل جنوباً حتى منحنى النيجر ، وأن من السهل أن يحرف الرواة اسم الجدالي الى الجدالي أو الجزولي .
البكري : المغرب ص 165 ، القاضي عياض : ترتيب المدارك ج 4 ص 180 ، ابن خلدون : المعبر ج 6 ص 314 ، حسن محمود (د.) قيام دولة المرابطين ص 113 .

(2) ابن ابي رزق : روض القرطاس ص 124 .

وجمع شمل القبائل المتنافرة على أسس من الدين الصحيح ، والخلق الكريم حتى لا يكتب لها أن تتفرق ، واستطاع بفضل معرفته اللهجات البربرية ، ومقدرته الخطابية ، وقدرته على التأثير أن يجتذب اليه الطلبة من كل فج ، فكانوا يشدون الرحال اليه ليستمعوا الى دروسه (3) .

ويبدو أن عبد الله بن يسن أخذ الكثير من افكار معلمه الشيخ وجاج ومدرسته كأساس لتعليمه ، فضلا عن افكاره التي اكتسبها أثناء اقامته القصيرة في الاندلس ، وقد اضطرته ظروف الصحراء وعادات اهلها البدو الى تعديل هذه الاسس لكي تلائم هذا المجتمع (5) . فكان يتدرج بهم من فهم الاسلام من البسيط الى المعقد ، الى أن نزل الى مستوى افهامهم ، ليلقهم بالباديء الصحيحة للدين ، حتى اذا تمكن من نفوسهم ، واقبلوا عليه بعقولهم ، اخذ يفسر لهم القرآن ، ويروي لهم الحديث (6) ، واستطاع بفضل ذكائه وخبرته أن ينفذ الى قلوب العامة ، فاقبلوا عليه ، وحفظوا فتاويه واجوبته ، وهناك احتمال كبير أن هذه الاحكام سواء كانت شفاهية او مكتوبة ، كانت باللغة البربرية وليست بالعربية (7) .

غير عبد الله بن يسن كثيرا من العادات السيئة التي كانت سائدة في المنطقة ، فاحيا الروح الدينية ، واقام حدود الاسلام ، وعمل على نشر لواء المساواة بين الناس . وتعرضت دعوة عبد الله بن يسن للمقاومة من اهل الشر والفساد ، وحمل لواء هذه المقاومة احد الفقهاء ، وهو الجوهر ابن سكم مع رجلين من كبارهم يقال لاحدهم ايار والآخر اينتكوا ، فعزلوه

(3) الحلل الموشية : ص 9

(4) وجاج بن زلار اللطفي فقيه المالكية في السوس الاقصى ، من تلاميذ الشيخ ابو عمران الفاسي شيخ المذهب المالكي في القيروان في ذلك الوقت ، وقد رحل وجاج الى القيروان واخذ العلم عنه ، ثم عاد الى السوس فبنى دارا سماها دار الموابطين لطلبة العلم وقراء القرآن ، وكان المصامدة يزورونه ويتبركون بدعائه .
التادلي : التشوف الى رجال التصوف ص 66

Norris, H.T. Newevidence on the Life of Abdellah B Yassin, P. 263 (5)

(6) الحلل الموشية ص 9

Norris, H.T, op. cit, P. 299 (7)

عن الراي والمشورة ، واستعانوا منه بيت مالهم ، وطردوه وهدموا داره ،
وانتهبوا ما فيها من اثاث (8) .

اختلف المؤرخون في تحديد وقت هذه الفتنة ، فالبعض يرى انها
حدثت ايام الامير يحيى بن ابراهيم الجدالي ، عندما شدد عبد الله بن يسن
على الملتهمين في ترك المنكرات (9)

ويشير ابن الاثير الى ان سبب الثورة لم تكن لشدة عبد الله بن يسن
فقط ، بل لانه افتى بقتل الامير يحيى بن ابراهيم نفسه (10) . بينما اشار
فريق آخر من المؤرخين الى ان هذه الثورة كانت في عهد الامير يحيى بن
عمر اللمتوني ، الذي اختاره عبد الله بن يسن ، خليفة للامير يحيى بن
ابراهيم الجدلي بعد وفاته (11) . ومما يرجح هذا الراي ان عبد الله بن
يسن نزل اول ما نزل في جدالة مع زعيمها ، فهو علاوة على انه رجل الدين
الذي يتبرك به الناس فهو ضيف زعيمهم ، وعادة قبائل الصحراء ان يكون
الضيف في حمى ورعاية المضيف ، وعلى ذلك فانه بالرغم من تذر بعض
الناس من قسوة تعامل عبد الله بن يسن الا انهم كانوا يحسبون حساب
زعامة يحيى بن ابراهيم ، وحمائنه له ، فلما مات يحيى بن ابراهيم ،
اصبح عبد الله بن يسن بلا سند ، وفقد الحماية التي كان يبسطها عليه زعيم
جدالة ، ورئيس الحلف الصنهاجي ، واصبح مكروها خاصة انه اختار يحيى
ابن عمر اللمتوني ، خلفا ليحيى بن ابراهيم الجدالي ، فقد نقل بذلك الزعامة
من جدالة الى لمتونة ، اذ كان عبد الله بن يسن مقتنعا بان المستقبل لدعوته
سيكون مع لمتونة لموقعها الجغرافي الممتاز في موريتانيا ادرار ،
ولشجاعتهم الحربية ، ولخضوع يحيى ابن عمر وعائلته لاوامره
وتعاليمه (12)

-
- (8) البكري : المصدر السابق ص 165 ، 166
(9) ابن ابي زرع : المصدر السابق ص 124 ، جامع تواريخ فاس ص 28 ، الناصري :
الاستقصا ج 2 ص 8 ، حسن محمود « د . المرجع السابق ص 122
(10) ابن الاثير : الكامل ج 8 ص 15 .
(11) البكري : المصدر السابق ص 165 ، ابن عذاري : البيان المغرب ج 4 ص 9 ، ابن
خلدون : المصدر السابق ص 314 ، القلقشندي : صبح الاعشى ج 5 ص 189
Bovill, E. W, The golden Trade of The Moors, P. 71
(12) الحلل الموشية ، ص 10 . Norris, H. T, op. cit, P 261

وتختلف الآراء أيضاً في الاتجاه الذي اتخذهُ عبد الله بن يسن بعد طرده
اذ يرى بعض المؤرخين أنه عاد الى استاذهُ فقيه السوسى وجاج (13)

وقيل أنه كتب اليه ولم يتوجه بنفسه ، فاعلم الشيخ بما جرى في جدالة
وبين له أمرهُ معهم ، فكتب الشيخ وجاج رسالة الى بعض شيوخ جدالة
(« يعاتبهم على ما صدر منهم ، وما بلغه من فعل المشغبين عليه ، وهو
مقيم بينهم ، وعاتبهم عتاباً شديداً ، لكونهم انقادوا اليه ، ثم انتقدوا ما
شيعة عدوه عليه منهم ») (14) . ولما وصل الشيخ وجاج جواب رسالته
هذه من اشيائِ جدالة يعتذرون عن تقصيرهم في حق عبد الله بن يسن ،
أمرهُ بالرجوع الى تلك القبائل الصحراوية ، وكتب الى شيوخهم يعلمهم
ان من خالف عبد الله بن يسن فقد خالف الجماعة ، وان دمه هدر (15) .

رباط عبد الله بن يسن :

راى عبد الله بن يسن ان يرحل الى بلاد السودان، ولكن الامير يحيى
ابن عمر تمسك به ، وأشار عليه بمكان بعيد ، حيث يمكنه اعتزال
المشغبين والتعبد فيه ، فوافقه على ذلك الشيخ الفقيه ، خاصة ان هذا
الراي وجد صدق في نفسه الميل الى حياة الربط وتعوده الحياة فيها (16)،
اذ أنه أخذ العلم وتفقه في الدين في رباط وجاج بن زللو اللطى، وقد لعب
هذا الرباط دوراً هاماً في حياة عبد الله بن يسن ، فرحب بما عرضه عليه
الامير يحيى بن عمر من اتخاذ مكان بعيد للعبادة .

اختلف المؤرخون في تحديد الموضع الذي لجأ اليه ابن يسن واقام فيه
رباطه ، فيرى فريق منهم أنه جزيرة في البحر ، يسهل الخوض في الماء
للوصول اليها اذا كان الجزر ، وتركب اليها الزوارق اذا كان المد ، وبعضهم

(13) البكرى : المصدر السابق ص 166 ، ابن عذارى : المصدر السابق ص 9

(14) ابن عذارى : المصدر السابق ، نفس الصفحة

(15) البكرى : المصدر السابق ، نفس الصفحة ، ابن عذارى : نفس الصفحة .

(16) ابن ابي زرع : المصدر السابق ص 124 ، الناصرى : المرجع السابق ص 8 .

يذكر كلمة البحر الفربى (المحيط الاطلنطى) والبعض الآخر يذكر كلمة « البحر » فقط ، كما يذكرون ان الامير يحيى بن عمر اللمتونى هو الذي اشار على ابن يسن بمكان هذه الجزيرة (17) .

وليس من المعقول ان الامير يحيى بن عمر ، وهو من قبيلة لمتونة يختار جزيرة في البحر المحيط في مضارب قبيلة جدالة التي كانت تشغل المنطقة المطلة على ساحل المحيط ، فضلا عن أنها هي التي قامت بالثورة على ابن يسن وحاولت الفتك به .

ويرى الدكتور حسين مؤنس ان رباط ابن يسن كان على حدود الصحراء فيما يلى تارودانت الى الجنوب (18) . معتمدا على ما ذكره كل من البكرى ، وصاحب الاستبصار ، من انه يوجد على مصب وادي ماسة رباط مشهور ومقصود (19) .

الا اننا نستبعد هذا الرأي ، لانه يتنافى مع ما ذكره المؤرخون من ان عبد الله بن يسن اتجه الى السودان ولم يذهب الى الشمال ، كما ان البكرى وهو معاصر للفترة الاولى من عصر المرابطين لا يمكن ان تقوته الاشارة الى رباط ماسة على انه رباط ابن يسن .

بينما اشار نورس Norris الى ان رباط ابن يسن ربما يكون في ارتنى واقترح مكانا لهذه المدينة بين مدينة تشيت ومدينة والاتا في منخفض حيث يوجد الماء ، وتنمو الادغال، ولكن عاد واستبعد هذا الرأي على اساس ان ارتنى هي المدينة التي انشأها عبد الله بن يسن اول نزوله في ارض جدالة ، وعلى هذا عاد واشار الى انها ربما تكون مكان متحرك في الصحراء، وانفصلت الى جزيرة ساحلية (20).

17 > ابن ابي زرع : المصدر السابق ص 124 ، ابن الخطيب : القسم الثالث من اعمال الاسلام ص 277 ، الناصرى : المصدر السابق ص 8

De La chapel'e, Moors ' Ency of Islam'Vo. 13 P 501

18 > حسين مؤنس (د.) مقدمة رياض النفوس ص 26 م
19 > البكرى : المصدر السابق ، صاحب الاستبصار ص 212

20 > Norris, H. T, op. cit, P.258

وأشار ابن خلدون الى موضع الرباط على ربوة يحيط بها النيل من جهاتها (ضحضاحا في الصيف ، وغمرا في الشتاء ، فتعود جزرا منقطعة) (21) .

ويفسر فريق من المؤرخين ما قصده ابن خلدون من « النيل » انه نهر السنغال ، وأن هذه الربوة او الجزيرة في مصب السنغال الأدنى (22). وعزز الدكتور حسن محمود هذا الرأي على أساس أن الرباط لا يبنى عادة الا في المناطق التي تتعرض للفرز ، ويتطلب حشد القوى للجهاد ، ولذلك لا يوجد ثمة خطر يهددهم من البحر ، بينما ممالك الزوج الواقعة في جنوب السنغال هي التي كانت تهددهم ، فاختر مصب السنغال مكانا لمربطته من أجل الجهاد ونشر الاسلام ، والحيلولة بينهم ، وبين الاغارة على مضارب المسلمين ، كما ان الحياة في الجزيرة الواقعة في المحيط والتي اشار اليها بعض المؤرخين تكاد تكون شاقة لقلة موارد الماء ، وضيق رقعتها فلا يمكنها استيعاب اعداد المربطين التي تضخمت ، وبلغت أكثر من ألف مرابط ، بينما الحياة في الجزر الواقعة في مصب السنغال ميسرة ، لوفرة المياه والنبات ، علاوة على أن الاطراف الجنوبية لدار جدالة كانت تمتد حتى تدرك حوض السنغال ، وبذلك يكون ظهر العصبه الموابطة في حماية هذه القبيلة اذا ما فكر الزوج في مهاجمتها (23).

ولكن عندما خرج عبد الله بن يسن ، واختار موضع رباطه ، لم يزد صاحبه عن تسعة أشخاص ، فكيف له أن يجازف وهو في هذا العدد الصغير وأن يقيم في حوض السنغال الذي كانت تسيطر عليه ممالك السودان ، وقبيلة جدالة النائرة عليه ؟ كما أن عبد الله بن يسن عندما فكر في العزلة ، وأنشاء الرباط لم يكن في ذهنه في ذلك الوقت فكرة الحرب ، أو أن عدد مربيده سوف يتكاثر حتى يبلغ الألف مرابط ، بدليل انه لم يفكر في الخروج

(21) ابن خلدون : المصدر السابق ص 374
G alvin, Lucien, Notre sur le Mot Ribat, P. 95

(22) حسن محمود (د .) المرجع السابق ص 126
De La fossé, M, Senegal, " Ency of Islam " Vol. IV, P. 225
Cornevin, Robert, Histoire de l'Afrique, P. III

(23) حسن محمود (د .) المرجع السابق ص 126

بدعوته من الرباط إلا بعد أن كثر مريدوه وتأكد من طاعتهم له ، وحسن إسلامهم . فكان كل همه في أول الأمر ، هو اختيار مكان يتعبد فيه هو وصحبه ، ويرجع محمد عبد الله عنان أن رباط ابن يسن في جزيرة في منحني نهر النيجر على مقربة من تيبكت (34) .

وأرى أن الآراء التي رجحت أن المقصود بـ « أنيل » ربما يكون السنغال أو نهر النيجر بعيدة عما قصده ابن خلدون ، إذ أنه ذكر أن هذا النيل « ضحضاها في الصيف ، وغمرا في الشتاء » (25) . وهذا لا يتفق مع مائة نهري السنغال والنيجر ، إذ أن هذه الأنهار تفيض في الصيف .

ولذا فانه من الأرجح أن رباط عبد الله بن يسن ، كان في أحد الأودية على حافة الصحراء الجنوبية من مضارب لمتونة ، إذ المعروف أن هذه الأودية تغمرها المياه ثناء ، وينتشر بها الجفاف صيفا ، وهو ما يتفق مع ابن خلدون « ضحضاها في الصيف وغمرا في الشتاء » وأن كان من الصعب تحديد أي هذه الأودية أقيم به رباط بن يسن .

الحياة في رباط ابن يسن

كان المؤسسون للرباط تسعة أشخاص عاشهم عبد الله بن يسن، اثنان من لمتونة هما الأمير يحيى بن عمر ، وأخوه أبو بكر بن عمر (26) ، وسبعة من جدالة (27) . وقد احتذى عبد الله بن يسن حين بنى رباطه حذو ربط المغرب وإفريقية في طريقة بناء الرباط ، وفي نمط الحياة فيه .

وضع عبد الله بن يسن نظاما خاصا للقبول في رباطه ، ووضع قواعد تطبق داخل الرباط ، يسير عليها الجميع ، فكان القبول معلقا على امتحان، وفتره مراقبة للتأكد من استعداد الراغب في الانخراط في سلك الرباط لقبول نظامه ، فإذا توفر له الاستعداد قبل عضوا في الرباط ، فيسلم إسلاما

(24) محمد عبد الله عنان : دول الطوائف منذ قيامها حتى الفتح المراتبي ص 302

(25) ابن خلدون : المصدر السابق ص 274

(26) ابن خلدون : نفس المصدر — نفس الصفحة

(27) ابن أبي زرع : المصدر السابق ص 125 ، ابن الخطيب : المصدر السابق ص 227 .

جديدا ، وتقام عليه حدود الذنوب التي ارتكبها قبل دخول الرباط (28) ،
لتحريره من فكرة الذنب .

واعتمد رجال الرباط على انفسهم في الحصول على كل ما يحتاجونه،
عن طريق صيد ما يحتاجون اليه من البر ، والبحر ، كما كانوا يعدون
طعامهم بانفسهم ، مع الاكتفاء في الطعام بأقل القليل ، وبالأخشن من الثياب،
فقد كانت حياتهم بسيطة متواضعة خشنة ، فهم لا يبتغون غير الدار الآخرة.

اما العبادة فقد كانت مقصورة على صلاة الجماعة في الصلوات
الخمس ، وعلى صلاة القضاء الاجبارية ، لتحرير النفوس من فكرة
التقصير ، وقد وضعت للرباط عقوبات على مخالفة ذلك ، فمن فاتته ركعة
ضرب خمسا ، ومن تخلف ضرب عشرين ، وكان الخشوع الصامت
الزاميا ، فمن رفع صوته في المسجد ضرب على قدر ما يراه الضارب له
صالحا (30) .

وكان عبد الله بن يسن هو الذي « يعلمهم الكتاب والسنة ، والوضوء
والصلاة ، والزكاة ، وما فرض الله عليهم من ذلك (31) .

ويبدو ان عبد الله بن يسن كان يعلمهم ذلك باللغة البربرية (32)، ومن
الطبيعي ان يكون تصريف شؤون الرباط طبقا لاحكام المذهب المالكي الذي
كان يتبعه عبد الله بن يسن .

ولم تمض غير ثلاثة اشهر ، حتى تسامع الناس بأخبار ابن يسن ،
واخبار اهل الرباط ، فتوافدوا عليه ، فأخذ ابن يسن يقرئهم القرآن ،

(28) كان يضرب حد الزاني مائة سوط ، وحد المفتري ثمانين سوطا ، وحد الشارب مثلها ،
وربما زيد على ذلك

البكرى : المصدر السابق ص 169

(29) حسن محمود : المرجع السابق ص 143 ، محمد عبد الهادي شعيرة (د .) المرابطون
تاريخهم السياسي ص 37

(30) البكرى : المصدر السابق ص 169 ، محمد عبد الهادي شعيرة : المرجع السابق-ق
ص 37 ، 38

(31) القاضي عياض : المصدر السابق ص 781 - ابن أبي زرع : المصدر السابق ص 125

Norris, H.T, op. cit, P. 264

(32)

ويفقههم في الدين ، ويرغبهم في ثواب الله تعالى ، حتى تمكن حبه من قلوبهم (33) .

كذلك ارسل عبد الله بن يسن البعوث الى القبائل ، لترغيب الناس في مذهب اهل الرباط ، حتى اجتمع له من تلاميذه ، نحو الف رجل من أشرف صنهاجة (34) .

فلما كثر مريدوه على هذا النحو ، رأى ابن يسن ان يخرج بدعوته الى خارج الرباط ، فبعد ان أعد انصاره ، اعدادا خاصا وتاكيد من استعدادهم لحمل مسؤولية الجهاد ، أمرهم بجهاد من خالفهم من قبائلهم ، ودعوة هذه القبائل للإسلام .

ذهب هؤلاء الدعاة المجاهدين كل الى اهله وعشيرته ، يعظهم وينذرهم ، فلما لم ينتهروا عما هم فيه من ضلال ، خرج عبد الله بن يسن على رأسهم مجاهدا ، وبدأ بقبيلة جدالة عام 434 هـ (1042 م) (35) ففزاهم في ثلاثة آلاف رجل من المجاهدين وهزمهم ، وقتل منهم عددا كبيرا واسلم الباقون اسلاما جديدا ، وأدوا جميع فروض الله عليهم .

كان لهذا النصر صدى كبيرا بين القبائل في الصحراء ، فسارعت بقية لمتونة الى الدخول في الدعوة الجديدة ، كما سارعت قبائل مسوفة ولمطة الى الانضمام للنظام الجديد . فقد تجاوز الامر حدود الشخصية القبلية ، واصبح دعوة دينية ، ونداء الى عوة الحق ، والى نظام سياسى يقوم به الدين على نمط غير الانماط القبلية ، وبذلك انطلقت من هذا الرباط دعوة المرابطين لتكون فيما بعد دولة اسلامية قوية ، توحد ما بين المغرب والاندلس .

فاس

عصمت عبد اللطيف دندشى

(33) ابن ابي زرع ، المصدر السابق 125 .

(34) Trimingham, J. S, A History of Islam in West Africa, P. 23

(35) ذكر ابن ابي زرع (ص 125) انها وقعت عام 434 هـ واتفق معه ترمزها في كتابه

A History of Islam in West Africa, P 24

بينما يذكر ابن الخطيب (ص 228) انها عام 446 هـ (1054 م) .

المصادر والمراجع العربية

1 — ابن الاثير « ابى الحسن على بن أبى الكرم عبد الواحد
القيسيانى ي ت 630—1232 م. الكامل فى التاريخ

ط. بولاق ، مصر 1303 هـ

2 — ابن الخطيب « ابو عبد الله محمد بن سعيد الخطيب » الملقب
بلسان الدين 766 هـ — 1314 م.

اعمال الاعلام فيمن بويغ قبل الاحتلال من ملوك الاسلام

تحقيق حسن حسنى عبد الوهاب ، بالرمو 1910

3 — ابن خلدون « عبد الرحمن بن خلدون المغربى — ت 808 —
1405 م. ».

العبر وديوان المبتدا والخبر — بيروت 1956

4 — ابن أبى زرع « ابو الحسن على بن عبد الله ت 726 — 1325 م.
الانيس المطرب بروض القرطاس فى اخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة
فاس — الرباط 1973

5 — ابن عذارى المراكشى « ابو العباس احمد »
البيان المغرب فى اخبار الاندلس والمغرب ص 4.
نشر الدكتور احسان عباس — بيروت 1967 .

6 — البكرى « ابو عبد الله بن عبد العزيز البكرى ت 487 هـ —
1094 م.

المغرب فى ذكر بلاد افريقية والمغرب

مكتبة المتن — بغداد 1966 .

7 — التادلى « أبو يعقوب يوسف بن عبد الرحمن الزيات — ت
627 هـ — 1229 م »

التشوف الى رجال التصوف
الرباط 1958

8 — القاضي عياض « أبو الفضل عياض بن موسى بن عياض
اليحصبي السبتي ت 544 هـ — 1149 م »

ترتيب المدارك وتقريب المسالك في معرفة اعلام مذهب مالك
تحقيق د. احمد بكير محمود ، بيروت 1967

9 — الطقشندي « أبو العباس أحمد بن علي ت 821 هـ —
1418 م »

صبح الاعشى في صناعة الانشا
القاهرة 1963

10 — المالكي « أبو عبد الله بن أبي عبد الله — القرن الخامس
الهجري — 11 م ».

رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وأفريقية

نشره وعلق عليه الدكتور حسين مؤنس — القاهرة 1951

11 — مجهول (مؤلف مراكشن من كتاب القرن السادس الهجري
12 م ».

الاستبصار في عجائب الامصار

12 — مجهول « انتهى من كتابته في 872 هـ — 1467 م ».
الحل الموشية في ذكر الاخبار المراكشية .
تونس 1913 ،

13 — الناصري « أبو العباس الناصري السلوي ت 1315 هـ —
1897 م »

- الاستقصا لآخبار دول المغرب الأقصى
نشر ولدي المؤلف جعفر ومحمد الناصري — الادار البيضاء 1954
- 14 — حسن احمد محمود (دكتور)
قيام دولة المرابطين — القاهرة 1957
- 15 — محمد عبد الله عغان :
دول الطوائف منذ قيامها حتى الفتح المرابطي
- 16 — محمد عابد الهادي شعيرة (دكتور)
المرابطون ، تاريخهم اتسياسى 430 : 539 هـ — القاهرة 1969
- المراجع الاجنبية

- 1 Bovill, E. W.,
The Golden Trade of the Moors, Oxford Univ. Press,
London, 1960.
- 2 Cornevin, Robert,
Histoire de l'Afrique des Origines à nos jours,
Paris, 1956.
- 3 De La Chapelle, F.,
Moors, « Ency. of Islam », Vol. III, 1970.
- 4 Delafossé, M.
Senegal, « Ency. of Islam », Vol. IV, 1970.
- 5 Solvin, Lucien,
Note sur le Mot Ribat, « Revue de l'Occident Musulman
et de la Méditerranée », Numéro 6, 1er et 2e Semestres,
1969.
- 6 Norris, H. T.,
New evidence on the life of Abdalla b. Yassin and the
Origins of the Almoravid Movement, « The Journal of Afri-
can History, xli, 27 Great Britaine, 1971.
- 7 Trimingham, J. S.,
Islam in West Africa, Oxford Univ. London, 1959.
I.D.

المرايطون بالاندرس

من خلال ديوان الاعى التطيلي

حسن الطريق

تمهيد :

لا شك ان الباحث في فترة حكم المرابطين بالاندرلس ، يشعر بالحيرة والتردد ان هو حاول الاهتداء في استخلاص آرائه واستنتاجاته ، بهذه الآراء والاحكام التى يطلقها بعض المؤرخين القدامى وبعض المستشرقين والدارسين الشرقيين بهذا الشأن ، حيث يذهب الكثير منهم الى رمى المرابطين باتهامات مختلفة تنقص من كمالاتهم الذاتية والموضوعية ، وتصورهم وكأنهم جفاة بداءة لا ينزعون الى الحضارة والفكر ، ولا يستهويهم الشعر والادب ، وترداد الحيرة والتردد عندما تتعدد لديه الاطروحات والنظريات والتوصيفات التى يوغل بعضها فى البعد الزمنى ويقف عند عصر المرابطين بالذات ، او عند عصر خصومهم من موحديين وغيرهم ، مع ما يتمخض عن ذلك من اختلاف وتضاد وتفاوت فى الآراء والاحكام ، وبهذا يستفلق عقل الباحث ويصبح موزع الحضور بينها ، لا يدري الراي الذى ينبغى ان يستأنس به منها ، ويجد نفسه غير قادر على التسليم النهائى بوجاهة راى من الآراء، سواء تلك التى جاء بها «الشقدي» او «المراكشي»

« وابن القطان » ، وابن الكردبوس » ، و « المقرئ » و « ابن بسام » ،
او تلك التى تنافس فى طرحها المستشرقون « (دوزي) » ، (وايميليو غرسيا
غوميس) « (وليفى بروفنسال) » ، « (غفرنسيسكو كوديرا) » و « (خوليان ريفيرا) »
ومن اليهم من مشايعين وغير مشايعين ، من الدارسين الشرقيين .

امام هذه الحالة لا يجد الباحث بدا من التساؤل :

— ما الذي يجب ان نفعله حتى اخرج بنتيجة ايجابية تكون اكثر —
التصاقا بالواقع المرباطى فى كل مظهره وعناصره والوانه ؟ ويتوصل
الى ان اجدى سبيل لديه ، هى ان يعود الى النصوص
الشعرية والنثرية التى ولدت فى ذلك العصر ليفحصها فحصا طويلا
متانيا رصينا يستهدف استقراءها واستنطاقها للكشف عن الخلفيات
النفسية والاجتماعية والسياسية والتاريخية والحضارية لتلك الفترة ،
على اعتبار ان تلك النصوص تجسد بحق ، اكبر شاهد على عصرها
يقع الاهتداء به الى معرفة الحقيقة او الطريق الى معرفتها على
الاقل ، وان النصوص كثيرة واسماء اصحابها كثيرة لم تعد محجة
بين المعميات بعد ان اكتشفت مع آثارها ونصوصها ، ويكفى ان
نفحص ما حققه للتطيلي ، وابن خفاجة ، وابن همديس ، وابن
بقي ، وابن الزقاق ، وابن وهبون ، او ما تناثر من اشعار ابن سوار
وابن غسال ، وابن البنى وابى القاسم بن الجد المعروف بالاحدب ،
او ما عرف من نثر وشعر ابن أبى الخصال ، وابن عبدون وابن
المقصيرة ، وابن صارة الخ ، وبهذا لا ينفلت القيد من اليد ولا يبقى
السطح خاضعا للتخلخل والارتجاج ، مما يؤدي بالتأكيد ، الى تغيرات
جيولوجية من نوع آخر تتأذى بها الحقائق والاصول وتتشوه بها
الملامح الفكرية والحضارية .

الاسلوب العلمى ، يقتضى اعتماد النصوص فى مثل هذه الحالات
قبل غيرها ، لماذا ؟ لان هناك عوامل عديدة كانت قد تداخلت فى موضوع
المرباطين بالاندلس ولونت وجودهم بكثير من الالوان المختلفة ، فكان هناك
عامل الدس والعداء السياسى والدينى ، والجنسى ، والفكرى ، والشخصى

او الاحساس بمخزاة المفاضلة الاعتبارية او الاحساس بالتفوق وبالأستاذية والوصاية ، مما تنتج عنه اجتهادات شخصية مغموزة او خاطئة ، او جاهلة بالتاريخ وبالواقع ، وهذا ما يمكن ادراكه من التوقف لدى بعض الجزئيات التي ركز عليها بعض الدارسين الذين يبتسرون الاحكام ابتسارا عجيبا ومثيرا ، فهذا دارسي شرقي مثلا ، نجده يقبى ، بالتسليم والإقتناع المتحمس ما أثبتته الشقدي في رسالته عن يوسف بن تاشفين والشعراء ، ويضيف الى ذلك ما يضيف ...

فهل يمكن التسليم بانه « لما استولى البربر على الاندلس على عهد ابن تاشفين ، كان لابد للشعر أن ينعكس بصورة او باخرى ، حتى يسهل فهمه على هذا الفريق من العوام » (1) ؟ وهل يمكن التسليم بتلك المفارقة العجيبة التي نجدها في تلك الحكاية التي تقول ان ملك ملوك الشعر المعتمد ابن عباد كان قد دعا الشعراء ليمدحوا يوسف ، فلما انتهوا من الانشاد ، قال المعتمد لابن تاشفين ؟. ايعلم امير المسلمين ما قالوه ؟ قال لا اعلم ، ولكنهم يطلبون الخبز ، ولما انصرف الى حاضرة ملكه ، كتب له المعتمد رسالة تضمنت بيتين من نونية ابن زيدون هما :

بنتم وبنا فما ابتلت جوانحنا
ثوقا اليكم ولا جفت مآقينا
حالت لفقديكمو ايامنا ففدت
سودا وكانت بكم بيضا ليالينا

فلما قرىء البيتان على ابن تاشفين قال للقاريء ، يطلب منا جواري سودا وبيضا ، فاجابه القاريء لا يا مولانا ما اراد الا ان ليله كان بقرب امير المسلمين نهارا ، لان ليالى السرور بيض ، فعاد نهاره ببعده ليلا ، لان ليالى الحزن ليال سود ، فقال : والله جيد ، اكتب له في جوابه : ان دموعنا تجرى عليه ، ورؤوسنا توجعنا من بعده « (2) ؟

كيف يمكن ان نقصور امكانية اقدام المعتمد على استفسار ابن تاشفين بهذه الصيغة الجافة وامام الشعراء ورجال الدولة ؟ ان ابن تاشفين

كان في مركز القوة والهيبة بحيث يمكن أن يقضى حياء من مهابته ، ثم أنه جاء الى الاندلس بعد استجارة واستنجد ، أما المعتمد ، فقد كان في مركز الضعف ، وهذا ما كان يحتم عليه أن يصطنع أسلوبا ليئا يكون في مستوى مركزه ، ثم إن مقتضيات الضيافة تدعو الى التلطف والاحترام . والحكاية السابقة ، خالية تماما من مراعاة أي شيء من هذا ، بالإضافة الى انها تحمل مغارقة وتناقضا ، فـ (يوسف) يقر بأنه لا يعلم الشعر في جوابه يبادر المعتمد بكتابة رسالة اليه متضمنة بيتين رقيقين لابن زيدون .. فكيف اذن يمكن أن نوفق بين الضدين ؟ وهنا لا ينبغي أن يفهم اننا نريد أن نضع يوسف في مكان ثقافي ممتاز ، بل فقط ، نود الكشف عما تنطوي عليه الحكاية من تحامل ولمز ، والا فبالإمكان أن يكون أمير المسلمين على مستوى ثقافي لا يهينه لقهم الشعر وادراكه ، نعم ، كان هناك ضهور قد أصاب الشعر الاندلسي في بداية عصر المرابطين بالاندلس ، وهذا شيء طبيعي ، لان الانتقال من عصر الى عصر آخر ، لابد ان يصاحبه فتور وتقلص ، ومن غير الصواب ان نرد المسؤولية في ذلك على المرابطين وحدهم بل ان المسؤولية الاولى تقع على ملوك الطوائف الذين — وان ظهر ان الشعر قد ازدهر في أيامهم ازدهارا مدهشا — وضعوا اصبع الديناميت تحت الارجل وفجروا الحياة السياسية وتسببوا في تشتيت التمثل وفي احداث هزة في المجتمع الاندلسي كانت ستفضي ، ليس الى اسكات الشعر والشعراء ، فيما بعد ، فحسب ، بل الى القضاء على دولة الاندلس ، فهم الذين اترروا بالوزر الكبير ، ومن سوء حظ المرابطين انهم ظهوروا في الاندلس في الوقت الذي فاضت فيه الكاس ، بل الكؤوس ، فحصل عندئذ ان وقع ربط ظاهرة الضهور بهم وبعصرهم

كان قدوم المرابطين ينذر ببداية عصر جديد في مفاهيمه واتجاهه وسياسته ، وكانت حالة التردّي التي وصلت اليها الاندلس تفرض عليهم التطرف في سلوكهم والصرامة في سياستهم ، فهم مجاهدون جاؤوا لينافحوا عن الاسلام ويردوا الظلمة عن المسلمين ، فلم يكونوا من شاكلة أولئك الملوك الذين يفتالون القيم الدينية والانسانية باينارهم المستمر للمجور والمروق وباغتراقهم التواصل من مهل الذنوب والآثام ليس فيما يتعلق بمسؤوليتهم الدينية ازاء انفسهم ، ولكن فيما يتعلق بمستقبل الاسلام

والمسلمين في هذه العدو الفالية ، لذلك لا نجد اي غرابة او نخرج عندما نسمع الاعمى التطيلي الذي كان يناصب الاتجاه الفقهي بعض العداء يقول :

ايا رحمتا للشعر اقوت ربوعه	على انها للمكرمات مناسك
وللشعراء اليوم ثلت عروشهم	فلا الفكر مختال ولا العز تامك
اذا ابتدر الناس الحظوظ واشرقت	مطالب قوم وهي سود حوالك
رايتهم لو كان عندك مدفع	كما كسدت خلف الرئال التراثك
فيا دولة الضيم اجملى او تجاملى	فقد أصبحت تلك العرى والعرائك
ويا (قام زيد) اعرضى او تعارضى	فقد حال من دون المنى (قال مالك)

نعم ، لقد اقوت ديار الشعر الذي كان يتردد مصورا للنزوات والخطرات وافعمال المواقف والمدايح للكسب من خلالها كسبا مغريا مشجعا على التساق للمدح والتبريك ، وجاء دور آخر ، دور حاسم اعطيت الاسبقية فيه للجهاد ، وللعلوم الدينية والفقهية على اعتبار انها موازية للجهاد ملازمة له ، لانهاعمل تحريض فعال ينفذ الى الدواخل ويؤثر فيها حرارة الايمان ، فيفزع الجميع الى الساحة ، ويصدق عليه قول القائل :

يستعذبون الردى حتى كأنهم—و لا يياسون من الدنيا اذا قتلوا

انهم اذن نهجوا نهجا جديدا كان له مردوده المفيد في صياغة متغيرات اخرى كانت الحاجة الماسة تدعو اليها ، ويمكن اجمال طبيعة هذا العصر ، واستنادا الى ديوان التطيلي ، في عدة خصائص هي :

1 — الجهاد .. وقد أصبح خصيصة متفردة عند المرابطين ، لانهم عملوا على مضاعفة الضغط الاسلامي لمواجهة شراسة المسيحية التى كان يمثل راس حريتها « الانفونش » ملك قشتالة .

2 — سيادة الفقهاء ، وغلبة تيارهم الفقهي الدينى على التيار الشعري والادبى بل وتلقى بعض الفقهاء والقضاة والاسر مثل اسرة (بنى عشرة) (وآل حمدين) ولكن ، هل استرسل عهد المرابطين على هذه الصورة فيما بعد موت ابن تاشفين ؟ نعم ، استرسل عليها ، ولكنه اضاف اليها خصائص أخرى ساعدت على خلق موازنة عادلة بين التيار الفقهي والدينى، وبين التيار الشعري والادبى فحصل أن ازدهر الادب وعادت سوقه رائجة ، وظهرت أغراض شعرية جديدة فى بعدها التعبيري والفكري ، وهكذا ظهرت الموشحات ، والزجل ، وظهر شعر الطبيعة فى صورة تكاد تكون عديمة المثال على يد ابن خفاجة ... ويكفى أن نستعرض أسماء الشعراء والادباء الذين نبهوا فى كنف المرابطين أو يكفى أن نستعرض بعضهم من أمثال الاعمى التطيلي ، وابن خفاجة ، وابن بقى ، وابن قرمان، وابن أبى الخصال ، وابن صارة ، وابن القصيرة ، وابن عبدون ، وابن سوار ، وعبد الجبار ، وابن حمديس ، وابن وهبون ، وابن الجذ المخ .. ومن الأغراض الجديدة التى يمكن اعتبارها ذات تفرد واقتصار على هذا العصر، مكانة المرأة وما كان لها من جلال ما صورته التطيلي فى ديوانه، لانه ديوان دسم ، ثر المعين ، سيساعد على تشخيص الصورة أو جانب من الصورة الحقيقية للعصر فى شتى المظاهر والأشكال .

— 2 —

فمن هو هذا الشاعر ؟ هو أبو جعفر أحمد بن عبد الله بن أبى هريرة ينتسب الى قبيلة قيس ، وأصله من تطيلة ، حاضرة صغيرة تقوم على نهر « كالش » وتقع بجانب وشقة قرب سرقسطة فنشأ هناك ثم انتقل الى اشبيلية حيث اتخذها مسكناً ، وقد ذهب بعض المؤرخين الى أن نسبـه لطليطلة (3) ، وكان اعمى ، فغلب عليه لقب الاعمى ، وكان يستعين فى تنقلاته بشخص يعرف بابى القاسم ويلقب بـ « عصا الضريح » لانه كان مشهوراً بكونه يقوم بأعباء الضرائر المستقلين .. هذا ، ولا يعرف تاريخ ولادته بالضبط ، وقد رجح الدكتور احسان عباس فى تحقيقه لديوانه انه قد يكون قريباً من 485 هـ . والإجماع حاصل على انه مات فى ميعه شبابـه سنة 520 هـ .

فالاعبى التطيلي ، كما نرى ، نشأ في بقعة يرفدها الشعر من كل جانب وكانت تموج بالشعر والشعراء والادباء ، فاشبيلية من عواصم الشعر والادب ، فلا عجب اذا وجدنا شاعرنا يستقى عناصر شاعريته من اصولها ، ولا يهم بعد ذلك ان نرى هذه السوداوية التي تصطبغ بها كثير من قصائده ، لان الالم ، هو المصدر الذي اخذ منه عناصر تكوينه واهله ليمتلك ناصية القريض .

حقيقة انه كان شديد التبرم بنفسه وبالناس وبموطنه وبمسكنه ، وكان لا يفتر عن التظلم والبكاء واجترار شعره بالتمزق والضياح ، حتى كانه مرجل يفلو بالتوتر والشجن ، وان اقل ما تنطوي عليه جوانحه ، يؤدي ثقله الى تصدع جبل (رضوى) :

وبين ضلوعى ما لوان اقله — باكاناف رضوى اوشكت تتصدع

هل كان لعاهته دخل في تكثيف ضباب حياته ؟ وهل كان يعتبرها لعنة تلاحقه وتضغط عليه بقسوة ؟ وهل لها تأثير بالغ في تكوين شخصيته وفي اصباغها بالنقمة والسخط والتشاؤم ؟

يظهر لى انه كان يقاسى من عاهته كثيرا ، وان لم يلمح الى ذلك الا قليلا ، كما في قوله :

ولى مقلة افضت بها لحظاتها — الى عبرات جمة وكرى نزر
وكان حراما ان تجود بدمعة — وقد تركتها الحادثات بلا شفر

الشاعر كان ينطوي على حزن عميق الشجن ، تصطفق اجنحته السوداء بين حنايا صدره باستمرار والى الحد الذي اصبح معه ليس عارفا للحزن فحسب ، وانما مستشعرا وحاملا ، ومن هنا ينبغى ان نفهم الفرق بين معرفة الحزن وبين الاحساس به ، والتطيلي الذي يجمع بين الامرين ، ويستجمع خيوطهما من عاهته ، لم يكن بحاجة ليردد فقدان النظر،

كل مرة ، على نفس النغمة ، بل كان يوحى ، ويلمح ، بما يجسد مأساته وقوة حزنه بهذه الافة ومن جملة ما يصور ما قلته ، هذا البيت :

الهر بمسك ثذاها لا احاول ما وراء ذاك ، ولو حاولت لم اطق

ان ، البيت ، كما نرى ، يحمل معنى بديعا عميق الاسى والحزن ويكاد ييوح بالمعجز ، وهو يذكرنا بقول بشار في معنى آخر يوازي هذا المعنى ، بالنظر الى التوحد في العاهة ، رغم الفرق الذي سنلاحظه بين المعنيين طبعا :

اميمة قد وصفت لنا بحسن فانا لا نراك فالمسينا

وهكذا تكون حالة ضياعه في شعره ، ناشئة عن امر يرتبط بعاهته وبتيكونه الشخصى والسيكولوجى كما سنوضح ذلك فيما بعد .

— 3 —

قلنا ان ادراك الحقيقة التاريخية والاجتماعية والنفسية والحضارية والسياسية للمرابطين في الاندلس ، لا يمكن تشخيصها او تشخيص جانب منها ، الا باستقراء النصوص التى قيلت في اثناء ذلك العصر ، وقلنا ايضا ، اننا سنحاول الكشف عن ذلك من خلال ديوان الاعمى التتيلي ، والان . فما الذى يمكن ان نستخرجه من شعره بهذا الخصوص ؟ وما الذى سنبدأ به ؟ سنستخرج عدة أشياء طبعا ، وسنبدأ ببعض المظاهر الاساسية للمرابطين ، وهذا سليزنا بمراعاة التسلسل المنطقى لهذه المظاهر حتى يتسنى ابراز كل خصيصة على حدة ، من غير ان نتبع تنظيم القصائد وترتيبها فى الديوان ، ما دام اليقين حاصل بان هذا الترتيب لا يخضع ولا يصور اى تسلسل زمنى حقيقى لولادة قصائد الشاعر ، لهذا سنبدأ بالبحث عن الخصيصة الاولى التى هى الجهاد ، والمجادلة فى الدود عن حياض الاندلس ، فكيف كان جهاد هذه الدولة ؟

تهجد وصلاة ، وفي ذات الوقت ، يكون هزالهم هذا ، قائما على أساس
المواجهة المستمرة لاعداء الاسلام والمسلمين : فكيف كان رائدهم ؟ كان هكذا :

شاحب ليس من هزال ولكن بالعدى منه فوق كل هزال

ويسترسل في تعداد المناقب والمزايا ، ويشير الى بعضها الذي يعود
الى الاستقامة في النضال الصابر الفذ ويعود الى اريحيتهم وسخائهم في العطاء
ويقول :

لا يبل الندى وقد تخلف الانـــــــى واء حتى تكون مثل الال
ذاك يعطى قبل السؤال ولا فحـــــــى ر فماذا يعيد للســــؤال
ضاق ذرع المحصى ووسع المسامى ويد المجتدي وبيت المــــال

هم قوم لا يستكينون الى الدعة ، ولا يأخذ بتلابيبهم البخل والتقنير ،
لأنهم جعلوا الدنيا وراء ظهرانهم ، واعرضوا عن مفريات الدهر عملا بقول
القائل :

هل الدهر الا ما عرفنا وادركنا فجائمه تبقى ولذاته تنفى

هم قوم يعيشون آجالهم بدنف وكلف ويصرون على ارساء امــــرة
المسلمين ، وتصير يسيرة المنال لديهم :

امرة المسلمين ايسر شائبيـــــــى ك اذا خطت ثنت عطف والى
ومحل السماك ادنى مكانيـــــــى ك وان كان عاليا كل عالى

لقد عضوا بالنواجذ على الجهاد واصبح هوية لهم اصيلة وصميمة :

وجهاد العدو اولى زمايـــــــى ك بطيب العدو والاصال
اوجسوا منك خيفة ، وتهاب النــــب ل قبل استدادها بالنضال

باهر في اللثام ، والطرف لا ييبس —	سهر حتى يجول ملقى الجلال
يا على العلاء في كل يوم	والمغالى به على كل حال
يا ربيع البلاد يا غيمة العال —	م من بين مؤئل وموال
يا قريع الايام عن كل مجد	يا سليل الازواء والاقبال
لك من تاشفين أو من أبى يعق —	وب ذكرى مكارم وفعال
نسب زاد رفعة وجلال	في مدى كل رفعة وجلال
واضح كالصباح متسق كالنجم —	م ممر كالعارض الهطال

صفات محمودة تزدحم في ثنايا هذه القصيدة الطويلة وتكاد لا تطيق حملها ، وهي حقيقة تؤكد ها تصرفاتهم ولا يزيد التظلي على تسجيلها في شعره وسردها علينا .

وقد يتبادر الى الذهن ان الصفات التي ذكرها الشاعر . لا تخرج عن نطاق ما تعارف عليه الشعراء المداخون من ذكر السباحة والندى والشجاعة والاقدام وما الى هذا ، الا ان احدانا تاريخية بعينها مرت في عصر المرابطين واطهروا فيها هذه الصفات بصدق ومعانقة . فالشجاعة مثلا تاكدت لديهم في عدة مواقف حاسمة وكبيرة ، وللدلالة على هذا ، سننتقل الى قصيدة التظلي التي مدح فيها نفس على بن يوسف بن تاشفين والتي يقول في مطلعها :

طليعة جيشك الروح الامين وظل لوائك الفتح المبين

انها نابضة بالحقيقة التي تنطوي على تواجد في ساحة الجهاد وتسابق اليها فالقصيدة على ما يبدو قيلت بعد جواز على بن تاشفين الاندلس وخوضه لأكبر المعارك (وفي سنة ثلاث وخمسمائة جاء الامير على بن يوسف الى الاندلس برسم الجهاد) (4)، فالجيش المرابطي كان موجودا ، وطليعته المناضلة ، موجودة ايضا ، والانتصار قد تحقق له في اكثر من مرة ، ولهذا،

فان التظلي لم يكن يقول شيئا غير موجود ، بل كان يسرد حاصله ويقـرر موجودا .

ان الغاية التي كان يتوخاها على بن يوسف ويهز رمحـه لاجلها ، هي الظفر والفوز ، فكان مظهره حقا ونصرا مبينا ، وكان رضاه غصارة عيش وحلاوة دنيا ، وايضا ، كان لا يآثر ولا يبـطر ، بل يشكر الله نصرا لدينه وتحقيقا للأمال ، ولاجل هذا ، جلب الخيل المسومة الضامرة ، فانطلقت عناقها كالعقبان وسبحت بمن يمتطيها من فرسان وشجعان في الهـيـرات والغمرات مقتحمة سفى النقع ، ولم يعد احد يدري أهى خيول أم سفن :

وهزة رمحك الظفر المواتى	ورونق سيفك الفتح المبين
وبعض رضاك للأجال دنيا	وشكر نداك للأمال دينا
جلبت الخيل مشرفة الهوادي	تعز على قيادك أو تهـون
كآرام الصريمة أو مهاـها	وليس سوى الرماح لها قرون
سوابج من غمار في حديد	فما تدري أخيل أم سفـين
يلقيها الطعان ولا يبالى	مشيح ما يبـل له طـمين

ان المرابطين لا يعتنقون الجهاد اعتباطا ولا يؤمنون به عن طريق العواطف ، وانما عن طريق الفكرة والعقيدة والسلوك ، وهذا ما جعلهم لا يندفعون اليه في غوغائية وحماسة مرتجلة ، فوطنوا النفوس ، ودبروا الامور وقلبوها من جميع وجوها في ذكاء وخبرة وتوجيه ، ووفق خطة عسكرية دفعتهم الى اقامة الحصون والى وزن كل شىء وقياسه قبل اي تدبير او مبادهة ، فتأتى لهم بذلك دحر الازنفوس (ابن ردمير) وهدم حصونه ومعاقله :

فتى يزن البلاد وما عليها وان كانت خلائقه تريـن

سل الاذفونش أين الحرب منه وربتما أجاب المستعین (5)
اعد لها الحصون مشیدات وما تغنی المعقل والحصون
فلم يستطع احد رد جيوش المرابطين ، لان العزم اذا صدق في النفوس
فان كل شيء يعود حصنا حصينا :

ولا رد الجيوش ولا كفاهـا كسيف لا يحاور او يخـون
اذا صدق الحسام ومنتـضيه فكل قرارة حصن حصين
وما اسد العرين بذی امتناع اذا لم يحمه الا العرين

ويسمى المعقل باسمائها المعروفة بعد سقوطها :

وقارع دونها الحدثان ملك سما عن كل فوق ، فهو دون
تسائل عنه « عزية » اين تسري سراياه فتخبرها « اريـن »

طبعاً لا يبقى الا الانتشاء والفرح ، فالاسلام ذاته ، سيشكر على
ابن تاشفين على حسن صنيعة ومنافحته :

سيشكر سيفك الاسلام عنها وان ابـت الفلاصم والنشؤون
فان يمن الصليب وناصبـوه فان غرار سيفك لا يميـن

وتتكرر لدى التطيلي هذه الاوصاف في قصائد اخرى قلت في غير يوسف
وافي غير على ، ويصير السيف من اكثر ما يتردد في قصائده ، بحيث نجده
عندما يذكره ، يطيل في وصفه وتشخيص حالاته وهذا امر له دلالة . نعم
انه يمدح نماذج اخرى من الناس في عصر المرابطين ، يمدح الامير ابا يحيى
بنونيته التي يظهر انه متأثر فيها كثيرا برائية ابن دراج المشهورة :

الم تعلمي ان التواء هو التوى وان بيوت العاجزين قبـور

والنونية المذكورة تبدأ بقول التطليسي :

نقول وهزتنسى اليك اريحة كما مال غصن او ترنج نشوان

وفيهما يركز على ابراز تعاسته وتعاسة بيته ، ويصف طفله الوحيد الذي ما زال مبغوم الصوت لا يطبق تحركا ، ويسلك هذه الطريقة القديمة لاستثارة ممدوحه وفي هذه القصيدة ، يظهر حسن تعامل المرابطين مع الشعراء وحذبهم عليهم ، وتظهر اريحتهم الى جانب جهادهم ونضالهم .

ولم يكن تعامله الشعري مقتصرًا على الملوك والامراء ، ولكنه كان يتعامل مع غيرهم من رجال الدولة والقضاء ، بل ومن غير هؤلاء ، حيث نجده يمدح بعض العلماء ويمدح النساء ، وهذا ابرز ما يمكن اعتباره طفرة يمتاز بها عصر المرابطين أكثر ما يمتاز بها غيره من العصور .

فابو القاسم بن حمدين قاضي قرطبة يحظى بمدائح التطيلي ، ويجيد الشاعر في ذكر مناقبه وشجاياه ، ففي احدي هذه المدائح يقول التطيلي :

درب بالاحسان مثر من الحسنى اقام العلا على كل سباق
وكفيل بالعدل والجود مشدود الاواخى ممزق الاملاق

— 4 —

ماذا يعنى مدح التطيلي لابن حمدين ولباقى الفقهاء الذين مدحهم ؟ يعنى ذلك ، سيطرة هؤلاء ونباهتهم وقوة تأثيرهم على المحيط العام . لقد كان القضاء حرا بكل معنى الكلمة ، وكان كامل الاستقلال عن السلطة التنفيذية ، وهذا ما ضمن العدل والامن وسما بخطة القضاء سموا لا مزيد من بعده ، حيث اصبحت ترهو الخطة المذكورة بقضائياتها زهو حمام الفصون بالاطواق :

زهيت خطة القضاء به زهو حمام الفصون بالاطواق

واقامت دار الامانة من نعماه	في صوب العارض الغيداق
واستظلت من بره في ظلال	لم يعبها منافق بنفساق
واستجارت من عدله بحبسال	غير منكوثة ولا اخسالاق
واحاطت بالمجرمين غواديس	هـ (احاطات) العقد بالاعناق

كان القاضي بين المرابطين ، يحمل نفسا وكأنها خلقت من مكارم الاخلاق ، ويصون حقوق الناس صيانة عادلة مستقيمة :

لابى القاسم بن حمدين نفس خلقت من مكارم الاخلاق

هذه المروءة تجعل التظلي يتحمس لممدوحه ، فيناديه :

يا ابا قاسم دعاء امرىء وانسا	ك سبقا في اول السبسااق
بك قام القسطاس وانتعش الحد	قى وصينت مذالة الاعناق

فالعدل قائم ، ثابت الاركان ، يتفيا به المسلمون ، ويتظللون تحت ظلاله الوارفة في اطمئنان كامل ، ولعل العدل من المظاهر الكبيرة التي تميز بها عهد المرابطين لانه كان عدلا حقيقيا يقوم على فهم الاسلام فهما واعيا عميق التفاعل والتأثير ، ومعنى هذا ، ان فقهاء المرابطين ، لم يكونوا من تلك الفئة التي تتستر وراء الدين لتعبت وتضل بل كانوا على سعة معرفة ورحابة ثقافة فقهية وفكرية ، وكانوا على سلوك قويم سليم ، فهذا التظلي ايضا يلتفت الى القاضي ابي العباس بن قاسم الذي ينحدر اصله من سلا بالمغرب ، ويمدحه قائلا :

حدود ملض او فراق مواشك لعمرى لقد ضاقت على المسالك

وفي هذه القصيدة نحس بالتظلي وهو يصطخب بانفعالاته اصطخابا متواليا وخاصة عندما يشير الى الشعراء الذين ثلث عروشهم وتواروا

عنه ولم يجد أحدا يصبغ عليه النعم والعطايا، ومهما يكن من سبب فإن غموض تلك الظروف التاريخية يجعل من الصعب تفسير كل الدوافع التي جعلته يفعل الى الحد الذي يقول معه :

فيا دولة الضيم اجملی او تجاهلی فقد اصحبت تلك العری والعرائك
و (يا قام زيد) اعرضى او تعارضى فقد حال من دون المنى (قال مالك)

ان اي تفسير للسبب ، ينبغى ربطه بطبيعة تلك المرحلة وبالحساسيات الخاصة التي ميزتها ، هذا مع ضرورة الغوص في العمق لدراسة الناحية الاجتماعية والتاريخية باستقراء ومقارنة . وان اول ما يبدو واضحا هو ان الحكم المرابطى كان حكما شعبيا يأخذ بالشورى ويعتمدها في التسيير والتبدير ، ومعنى هذا ، ان الشعب الاندلسي كان قد أخذ يحس بوجوده ، على عكس ما كان عليه في عصر الطوائف حيث كان الملوك يعيشون في ابراجهم وقصورهم وكان الشعر يتردد في مجالسهم ويكاد يقتصر على خدمتهم وتصوير نزواتهم وخطراتهم واهدافهم ، سيما اذا عرفنا ان اغلب هؤلاء الملوك ، كان شاعرا يدلى بدلوه في القريض ويبرز غيره ، فالشعر ان كان في منأى عن الحياة العامة وعن الشعب ، وان شعرا هذه طبيعته ، ما كان ليرضى المرابطين في سلوكهم الجديد وفي سياستهم الجديدة. وربما كان التبطيل ما زال يستهويه الجو الشعري السابق ولم يتها بعد — في هذه القصيدة — ليتكيف مع المفهوم الجديد ، فصدرت عنه هذه الابيات في لحظة من لحظات يقظة شعوره وانفعاله ، لذا يجب عدم البناء على هذه الابيات في اتخاذ الاحكام ، لانها تصور حالة عابرة وخاصة ، على اننا — كما قلنا في السابق — لا ننكر ضмор الشعر في بداية عصر المرابطين لكونهم جاؤوا للجهاد اولا ولكون حكمهم كان حكما شعبيا ثانيا ، ولكي يحسن لدينا التصور ينبغى ان نوضح ان التبطيل في هذه القصيدة بالذات ، يحسن التخلص الى مدح القاضي الفقيه ابي العباس برحابة الفكر ، والكفاءة والاقتدار والمكرمات:

سمعت بأبى العباس تلك وهذه الى حيث لا تسمو النجوم السوامك
رحيب مجال الفكر والامر ضيق صليب قناة الصبر ، والامر ناهك
ومشترك الاكفاء في السخط والرضى وليس له في المكرمات مشـارك

ان الشيء الذي ينبغي التأكيد عليه هو ان التطبلى لم يكن يمدح القضاة والفقهاء بدافع الخوف والوجل ، او بدافع المداخاة والرياء والرغبة في الكسب كيفما اتفق ، بل كان يمدحهم عن طواعية وحرية واختيار ، وعن استقلال كامل واعتبار مرموق ، فلم يكن مسلوب الإرادة لا يرفع بنت شفة ، بل كان يعرب عن معارضته وعن تعريضه ببعض القضاة والفقهاء الذين لا يمنحونه مقابلا على مدائحه او الذين ينقصهم الكرم والجود ، وكمثال على ما اوضحته ، اشير الى ما قاله في ابي القاسم ابن منظور قاضى اشبيلية حيث نعته بالبخل وعدم الاستجابة :

من مبلغ عنى الفتيان مالكة	ولست انطق عن افك وعن خل
انى تركت ابن منظور لـوارد	لمع السراب ودعيه ابنة الجبل
فلمست احنو بهراه على صنم	ولا اعرج من مفناه في ظل
ولا الود به ماكن من صلف	يخالل المجد بين الجبن والبخل

انه هنا يتكئ على حسابه وحده ، ويستقطر شعره من تصنيفاته للناس ، وان المقياس الوحيد لديه ، هو المردود الذي يتحقق له من مدائحه فهو اذن انانى ، شديد الحساسية بنفسه ، يصب جام غضبه ونقمة على غيره ، وان في طي هذه الحرية ، كما نراها في الابيات الاخيرة ، لحقيقة تنبئ بحقيقة احترام الفرد واحترام حريته في الافصاح عن افكاره ومواقفه وتقديراته وتصنيفاته للآخرين ...

واذا تصفحنا قصائد اخرى سنجد ممن يمدحهم الطبيب الفقيه والمثقف المعروف ابو العلاء بن زهر الذي كان طبيا مرموقا ، فيصفه بسراج الدين الذي تتحدد بضوئه المسالك والدروب :

اضىء يا سراج الدين وابن سراج

اذا اشتهبت تلك المسالك والسبل

ويسترسل في مدح رجال الدين والدولة ، مركزا على الجود والندى ، محاولا التأثير عليهم ليضاعفوا من عطائهم له ، على نفس الطريقة القديمة ، الامر الذي يدل على اجترار لاذيال خلقة رثة في الاغلب الاعم ..

الا ان شيئا آخر يستوقفنا لدى التطللى ، ونعنى به مدحه لبعض النساء من ذوات النباهة والسلطان ، ويمكن اعتبار هذه المدائح لديه، طفرة تجديدية تدل على استحداث غرض جديد فى الشعر الاندلسى وأن بعض هذه المدائح، يحمل الى جانب ذلك ، توليدات معنوية بعيدة الاثر بحيث لا نجده فى توليدها يسمى الى اجترار المبتذل من الكلم والفكر او الى ابراز الجمال المادى والرشاقة والاناقة بل كان يصوغ صفاتها ومزاياها ونباهة عقلها ونكائها وما الى هذا ، دون اية مبالغة او تهويم فى عالم الشطحات الفكرية والخيالية المضنية والمكثفة بالشقشة اللفظية والتفريب الذي يراد لذاته فقط ، ففى مدحه للحره حواء ، يبدأ قصيدته بالمقدمة التقليدية ، ويحسن التخلص الى ممدوحته التى تكثر من الجود والندى وترتمى عطاياها فى شكل غمرة يتألف عباها من اللجين والعسجد ، فهى مليكة لا يضاهى قدرها ملك آخر ، انها كالشمس تصفر امامها النجوم :

اما رايت ندى حواء كيف دننا	بالفيث اذ كاد ياتى دونه العطب
رد غمرة ترتمى من كل ناحية	عبابها الفضة البيضاء والسحب
مليكة لا يوازي قدرها ملك	كالشمس تصفر عن مقدارها الشهب

انها انثى حقا ، ولكن باسمها يعلو النادي ومن فيه، فكم من ذكر يدعى ويكون اسمه من كثرة لؤمه ، لقبا له ... انها انثى تنتمى الى قوم ثبتوا الدين ووسعوا محجته البيضاء بالانفس والارواح التى صيغ منها الدين والحسب :

هم ثبتوا الدين اذ ضاقت مذاهبه	بانفس صيغ منها الدين والحسب
-------------------------------	-----------------------------

الا نرى فى هذا البيت توليدا معنويا ؟ فرغم انه اخذ من صميم واقع المرابطين ، فانه مولد ويدل على معانقة للواقع والحقيقة .

انها سيادة المرأة التي اصبحت نفوذها يمتد في مسارين يجمعان بين الناحية السياسية والناحية الاجتماعية ، ويفصح ذلك عن دورها في صياغة واقع آخر يعطى للمرأة ، ما يعطيها من جلال ووقار وقيمة ، ولم يظهر هذا الوجه لدى التظلي في مدحه للحرية حواء ، بل وايضا في العديد من مراثيه لمجموعة من النساء كما في قصيدته التي يستهلها بقوله :

اهلى بالبكاء وبالنحيب فقد نزع المحب عن الحبيب

ففي هذه القصيدة يتالق وهج عاطفة الشاعر صادق الامتداد ، متدفق الشعور في تعبير جميل ، بحيث يصور لنا موت مرثيته بانه مأساة تضيق لها الصدور عن القلوب ، لانها اختطفت محصنة مبراة من العيوب ، فهى ربيبة العز الاثيل تقوم مقام الشمس في الاشرار وتخالفها في كونها لا تغرب مثلها :

وقد وسع الحوادث يوم رزء	تضيق له الصدور عن القلوب
وأذنت المكارم والمعالي	بخطب عاث حتى في الخطوب
ايا لهف الغلاء على حصان	مبراة العيون من العيوب
ربيبة عزة قعساء نابست	مناب الشمس الا في الفروب

ويستمر الشاعر في تصعيد ربطه وتفكيره في بناء القصيدة شكلا ومضمونا، فيكشف عن حال زوجها بعد ان تخطفها الموت منه واصبح يحمل وجدانا لا يحيد عن معايشة ذكرها ، انه يحدث نفسه بالغيب عنها :

تخلصها الردى من خدر ليث	تدأريه الاسود عن الوثوب
فدا منها بوجدان بعيد	على عهد بلقيها قريب
يحدث نفسه بالغيب عنها	بظن مخطيء وضنى مصيب

ان هذا المركز المرموق الذي تحتله المرأة في المجتمع الاندلسي غداة حكم المرابطين ، يدل على حقيقة كبيرة جدا ، وهي كفالة حقوق المرأة واحقاق انسانياتها وتمكين حضورها على مستوى رفيع من الاجلال والاكبار ، ومن غير شك ، فان ما يندرج في طي هذا من مظهر حضاري بارز الصورة والملح ، ينم عن خلفية فذة تريد في تدعيم هذا المظهر الحضاري البارز ، وفي اخصابه بما يتوجه الامر .

فلو كان هناك تخلف حضاري وخلق وفكري ، لما تمتعت المرأة الاندلسية بهذه المكانة الممتازة ، ولكانت مجرد حثالة ترمى او مجرد همل يطمع فيه من يراه بشهوانية ممعنة في القسوة والضراوة ، فالمرأة لم تكن، وقتها ، سهلة الاكناف ، بل كانت ركيزة اجتماعية وادسانية تتمثل فيها الشهامة والعراقة والطهر ، يقول التطيلي في احدى نساء المرابطين :

انثى ولكن اذا عدو فضائلها	لا يدعى الفضل من انثى ولا ذكر
تتلو الكتاب ونذو من مآثرها	ايا كأي فلم تظلم ولم تجر
قروامة الليل تتلوه ونقنته	على اختلافه من طول ومن قصر
حتى اذا الصبح جلى ليلها فزعت	الى صيام ، بمرضاة الاله حري

ان هذه الصفات العظيمة التي كانت تتميز بها المرأة المرابطية ، مدعاة للتقبع والدراسة لانها صفات تسمو بها الى اعلى المنازل الخلقية ، وتمصمها من كل ما يمكن ان يصمها او ان ينال من شرعها ووقارها . ولذلك فهي على عكس ما اراد ان يصورها به « الموحدون » الذين هم خصوم سياسيون للمرابطين .

ان المرأة المرابطية كانت تتلو القرآن ، وتتجهد ، وتصوم ، وتصور عفتها من الزلل والسقوط ، فهي مرآة صاغية طاهرة لسلامة السلوك وشرف المنبع والمقصد .

واذا تتبعنا قصائد الديوان ، فسنجد الوانا أخرى تساعدنا على استكمال الصورة العامة لباقي المظاهر الأخرى التي سادت في ذلك العصر ، فهناك الغزل الرقيق الذي لا يحمل إلا الشفوف والعذوبة والصدق ، وهناك الوصف للمطر ، وهو غزير الهتون في الاندلس ، وهناك المراثي المتعددة التي تستغرق أغلب صفحات الديوان ، وهناك بالخصوص رثاء التطيلي لزوجته.

والمراثي عند التطيلي تحتاج الى دراسة خاصة بها ، لان التطيلي كان يجد فيها مبتغاه ، فيفصح عن نغمته وضيقة بهذه الحياة الدنيا ، ويكثر من تصوير حزنه والمه .

وهناك الموشحات التي قالها في مناسبات منفردة ، وهي أيضا ذات قيمة كبيرة وتحتاج الى دراسة خاصة بها ، لانها جاءت لتؤكد ان المرابطين كانوا يؤثرون تشجيع اصحابها ويساعدون على شيوخها لتعمل على تغذية الوجدان الجماعي . ولتحقق انطلاقا جديدا يتأكد به حضور فني آخر للادب الاندلسي ، واذا كانت الموشحات قد ظهرت قبل المرابطين على يد عبادة ابن ما السماء ، وتالفت بصورة مشرقة لدى ابن سهل اليهودي الاشبيلي ، ودخلت الى مجالس الفناء والطرب ، لخصتها وانسجامها مع الاداء الموسيقي المطلوب ، واذا كانت قد اتسمت بايقاعيتها وشبه قواعدها من خرجة وبيت ، وسمط ، ومذهب ، او مطلع ، ودور وقفل ، وغصن ، فان الموشحات ، قبل المرابطين ، بقيت نخبوية الحضور لا تتغلغل في المحيط الاجتماعي تغلغلا فاعلا ومتجاوبا مع الراي العام الادبي الا في حدود معينة .

اما في عهد المرابطين ، فانها اتخذت ملمحا آخر ، فيه جدة وحركة وتأثير ، وفيه تفاعل مع البيئة الاجتماعية ، بحيث لم يعد التوشيح متوقفا على موضوع دون سواه ، بل دخل ليشمل اغراضا متنوعة واوزانا أخرى جديدة من اقرع وتام وما اليهما .

وان شاعرنا قد اشتهر اكثر ، بموشحه الذي يقول فيه :

ضاحك عن جمان سافر عن بدر
ضاق عنه الزمان وهواه صـدر

ان موشحات الاعمى التطيلي تدعو الى دراسة مستقلة ، رغم ان ما جمع منها قليل لا يتجاوز ثلاث وعشرين موشحة ، وان كان الدكتور احسان عباس قد ذهب الى ان المعروف منها هو اثنان وعشرين فقط ، ومع هذه الملة ، نجد التطيلي اشتهر بالموشحات اكثر مما اشتهر بالقصائد الشعرية حتى قيل انه من بين اربعة زادوا في اقامة مناد الموشحات وتقويم سنادها بناء وتعبيرا وتماسكا فنيا ، وهم التطيلي ، وابن بقي ، وابن بلجة ، والابيض لقد فتح هؤلاء ، وضمنهم شاعرنا التطيلي ، الباب للمشروعات كى تحلق في آفاق واسعة مرتبطة بصميم حياة الناس في كل الاغراض ، وهكذا لم تعد الموشحات وحيدة الغرض بل تعددت اغراضها كالمدح والثناء ووصف الطبيعة والتأمل الخفيف الدال على ارهاصات فلسفية بسيطة . وذلك ما جعلها تتحرك وتتفاعل مع البيئة تفاعلا واضحا مستقبلي الرويا .

— 7 —

هذا وان شعر التطيلي يتوفر على خصائص فنية متميزة من حيث قوة التعبير ، ورصانة الاسلوب الشيء الذي يبنى بان الشاعر كان سيال الطبع منقاد القريحة ، يعتمد على ثقافة شعرية واسعة ، مصدرها ، شعراء العربية الكبار من امثال ابي تمام ، والمتنبي ، والمعري ، والشريف الرضي ، ونراه يحاول ، في اكثر من قصيدة ، ان يستغل هذه الثقافة الشعرية استفلالا مسترسلا ولكنه استفلال لا يفقد معه كل موقعه وملامحه ، الا انه لا يطبق بلورة صورته المستقلة معه ، الا في نطاق خافت الضوء ، واحيانا ، في نطاق قوي الجروح والاستقلال ، وبخاصة عندما يعود الى ذاتيته وضياعه في مثل بكاء حظه بحمص وتبرمه الشديد باهلها وفي ما يندرج تحت ذلك .

ان التطيلي في شعره الوصفى لا يخلق بعيدا ، وذلك بحكم عاهته التي كانت تمنعه من استفلال الصور الحسية واخضاعها لرؤياه الفنية اخضاعا

ابداعيا جميلا ، على انه بفحصه الشديد للشعر العربي ، استطاع ان يدرك ماهية كثير من المحسوسات وكثير من التشخيصات ، وهذا ما ساعده على صنع بعض الصور المجازية الموفقة والمعبرة عن الفرض ، وعندى ان هذه النقطة ما زالت تتطلب المزيد من الدراسة المشفوعة بالتحليل النفسى ، حتى يتأتى سبر غور نفس الرجل وادراك سكناتها وتدعيم كل ذلك بما ينطوي عليه شعره من احياءات وارهاسات دالة .

بخصوص قاموسه اللغوي ، فانه — كما قلنا — متأثر ببعض الشعراء الشرقيين ، ومتأثر كذلك بالتركيب التي كانت سائدة في عصره ، ولذلك فان مفردته التي يستعملها ، ليست ذاتية المنبع ، وليست مفصحة عن تفرد وتميز كبيرين ، فهو كاي شاعر اندلسى آخر ، اذا امتاز عن سواء ، فان امتيازه يكون في حسن تجاور الفاظه وحسن ايقاعه وامتداد تعبيره ، والا فاننا نجد لديه شبه استلاب في البعد التعبيري ، واذا تساءل احد عن هذا الاستلاب وتجاه من ؟ نجيبه بانه استلاب تجاه من سبقه من الشعراء — كما قلنا — اي تجاه الماضى ، وايضا تجاه ما يهوج به المحيط الاندلسى في وقته — من معارك ومن استعداد للمعارك ، حتى الفيناہ يدخل لغة الحرب في غزله وتنشيبه كما في هذا البيت :

ولحظك الفنج السحار ام قدّر ام ذو الفقار مضى في يوم صفين؟

ان المعنى جميل ، ولكن ما معنى ان يورد الشاعر على بن ابي طالب، ومعرفة صفين ؟ انه استلاب مزدوج التأثير كما اثرنّا آنفا .

وبعد ، فهذا هو عصر المرابطين كما يظهر من خلال ديوان التطيلي بهذا التحليل الموجز ، وهو عصر لم يكن مفتقرا الى اسس النهضة الادبيّة والفكرية ، بل كان متوفرا عليها بقدر لا يختلف قليلا او كثيرا عن سواء من العصور الزاهية ، ادبا وفكرا وحضارة ، وان الامر ليتطلب المزيد من الدراسة لهم ، من خلال النصوص الشعرية والادبية لشعراء هذا العصر حتى تتكشف الصورة اكثر ، بكل ملامحها وقسماتها ، وذلك ما اعترّم القيام به استقبالا ان شاء الله .

حسن الطريبق

المرائش

هــاومـش

- (1) الدارس الذي نعنيه هو الدكتور مصطفى الشكعة في كتابه « الادب الاندلسي ، موضوعاته وفنونه » (ط. دار العلم للملايين . ص 225)
- (2) نفس الكاتب ، ونفس الكتاب ، حيث نلاحظ أنه في ايراده للقضية يتحمس ويعتبر ما يطرحه الشقندي « نقدا أصيلا وصادقا وممتازا ».
- (2) هناك من ينسبه الى طليطلة ، وقد عرف شاعران ضريان ينتسبان الى طليطلة .
- (4) ديوان الاعمى التطلّى . ط. بيروت ص 11 .
- (5) المستعين أحد الامراء الذين تعاونوا مع الاذفونش وحاولوا الوقوف في وجه المرابطين بتلاعبه .

ح . ط .

الرحمة الشافعية

الثقافة في مجلس النواب (*)

بسم الله الرحمن الرحيم

حضرة السيد الرئيس . حضرات السادة النواب المحترمين .

جرت عادة الوزراء أن يقدموا من هذا المنبر في أعقاب السنة المالية دفاعا عن الاعتمادات المخولة لوزاراتهم بمقتضى مشروع القانون المالى للسنة التالية ، ويناشدوا السادة النواب المحترمين المصادقة على هذه الاعتمادات حتى اذا أقروها تيسر للوزراء أن ينصرفوا الى الانجاز والتحقيق .

ولو كانت الاعتمادات المرصودة لوزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية اعتمادات ضخمة طولا وعرضا لتجشمت الدفاع عنها ما وسعنى الدفاع ولالحت على الحاجة الى بسط المبررات والمسوغات ولحاولت أن تفضى جهودى الى الاقتناع والتسليم ،

(*) العرض القيم الذي القاه السيد الحاج محمد ابا حنيني ، وزير الدولة المكلف بالشؤون الثقافية فى مجلس النواب ، بمناسبة دراسة هذا الاخير لميزانية 1978 .

ولكنها اعتمادات من الضئالة والهزال بحيث لا تفتقر الى دفاع
يلتمس شد أزرها ويهيب بالموافقة عليها دون مس بتعديل او
اضعاف بنقصان ، وما مثلها وهى ما هى عليه من نحافة ونحول
الا كمثل ذلك الشاعر المتيّم العميد الذي يشكو الوهن والضمور
ويصف حاله بقوله :

ولو ان ما أبقيت منى معلق بعود ثمام ما تأود عودها

لقد وقفت — حضرات السادة — لجنة مجلسكم الخاصة
بالشؤون الثقافية على مبلغ الاعتمادات المخولة وتبينت انها هزيلة
واهية لا تسد الخلة ولا تكفى لمواجهة المتطلبات الكثيرة التى
تتولد من طموح مشروع ، وانى لاهتبل الفرصة المتاحة لى من
جديد ، لاسداء الشكر الجزيل الى السادة النواب المحترمين أعضاء
اللجنة الذين أبدوا اهتمامهم الكبير بالثقافة وشؤونها وأفادونى
بالقيم والوجيه من الملاحظات والاقتراحات ، وأغتتم هذه
الفرصة من جهة أخرى للثناء على ما لاحظته اليوم من عناية بما
هو موكول الى من شؤون وللأعراب للسادة النواب الذين
سبقونى الى هذا المنبر عن وافر شكري لهذه العناية ولما يكمن
فى تضاعفها من رغبة صريحة فى ان تضطلع الثقافة فى وطننا
بالدور الفعال الذي تلتقى حوله مشئة السادة نواب الامة ومشئة
حكومة صاحب الجلالة أيده الله ونصره .

وعلى كل ما تتصف به الاعتمادات المالية المرصودة للعمل
الثقافى من نزارة وقلة بالقياس الى ما نريده جميعا ونتوخاه من
مقاصد وغايات فانى ألتمس منكم أن تقرروا اقرارا يبقى على
العزيمة والصريمة ويحث الخطى على ان تتلاحق متسارعة ،

ويمهد للمراحل المرقوبة المطلوبة الطريق لتحقيقها في أحسن الظروف والاحوال .

وبعد فما هو هذا الشأن الذي نسميه ثقافة ونبذل الاموال لنموه وازدهاره كما نبذلها لنمو الاقتصاد وسلامته وازدهاره ؟ وماذا أفدنا من الثقافة منذ سنوات ، وهل هناك أمل في أن نفيد منها شيئا ذا غناء في مستقبل الايام؛ هذه أسئلة قد تتوافد وتتوارد بيد انى لا أرى ان في الاغضاء عليها خيرا لى ولكم بل أظن ان التوضيح والتبيين أقوم السبل الى معرفة ما يتجه اليه القصد وادراك ما يستحث الجهود وتترامى اليه المساعى .

حضرة السيد الرئيس حضرات السادة النواب المحترمين
كثر الحديث في عصرنا هذا عن الثقافة حتى انها أصبحت فصلا من الفصول التى يتولاها التفكير المستمر والكلام المتواصل والتأليف الغزير تعريفا وتحليلا وتاريخا ، ولقد ادى هذا الاهتمام الى وضع عدد كبير من التعاريف تنتسب الى مشارب شتى ومدارس متباينة ، واذا كانت هذه التعاريف لا تتفق على مفهوم واحد للثقافة يجمع عليه العلماء الاثنوغرافيون ، وعلماء الاجتماع ، وغيرهم ممن يعنى بهذا المجال ، عناية عابرة أو غير عابرة ، فان عدد التعاريف التى أحصاها المتخصصون لا يقل عن 161 تعريفا ، الا ان الشقة بين المختلفين أخذت أبعادها منذ حين تتدانى وتتقارب وأصبح المفهوم اللاتينى لا يكاد يبتعد عن المفهوم الانجلوساكسونى ، وليس قصدي أن أضيف تعريفا جديدا الى التعاريف الموضوعة المحددة ولا أن أطيل عليكم بالمقارنة بين اتجاه واتجاه والموازنة بين مفهوم

ومفهوم ، وحسبى أن أخلص الى المنطلق الذي انطلقنا منه
لممارسة العمل الثقافى او للسهر عليه والرعاية لشؤونه ؟
وهذا المنطلق يستمد أصوله من لغتنا كما يستمدّها مما
تواضعت عليه الكثرة الكاثرة من الناس شرقا وغربا فى أيامنا
هذه .

تعلمون ولا شك أيها السادة ان تعريفنا العربى للتثقيف
والثقافة ينطوي على معانى الفطنة والحذاقة وتقويم الاعوجاج
والتهذيب ، مصداق ذلك مثالان اثنان احدهما قول أم حكيم بنت
عبد المطلب :

« انى حصان غما اكلم وثقاف فما اعلم » ؟ والآخر قول
الشاعر :

ألا انما يكفى الفتى عند زيغـه

من الاود البادي ثقاف المقوم
ولئن كان العمل الثقافى استنادا الى هذه المعانى عملا
مشاعا بين جملة من الوزارات فان المجال الخاص بوزارة
الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية مجال رحب يتسع لكثير من
المزاوالت والممارسات ، وقد اوضح هذه الاختصاصات الخطاب
الملكى الذى ألقاه صاحب الجلالة حفظه الله بعيد احداث الوزارة،
وفصلها ظهير شريف صدر منذ عامين ، وأكدها تصريح سيادة
الوزير الاول فى مجلسكم الموقر هذا يوم عرض عليكم برنامج
الحكومة .

فنحن مطالبون اعتمادا على هذا كله فى نطاق وزارة الدولة
المكلفة بالشؤون الثقافية ، بان نحافظ ونرعى ما تقوم عليه

أصالتنا وبأن نسهر بالصيانة على تراثنا ونبحث عن جذور تاريخنا الممتد في بطون الأرض ونشيع القراءة ونبث المتاحف في كل جهة ونبذل للمسرح والموسيقى والرسم وغير ذلك من الفنون ألوانا من المساندة والتشجيع ونتخذ من التنقيب والصيانة والقراءة وممارسة الفنون وسائل لبروز شخصيتنا في كل مجال ، ولاثراء الفرد والجماعات بالمعرفة الواسعة والدراية النافعة ، ونحن مطالبون بأن نحضر بجميع خصائصنا ومواهبنا وملكاتنا في كل مكان يتعين علينا ان يتجلى فيه المغرب بقيمه الفكرية والفنية ، ثم اننا مطالبون الى هذا وذلك بأن تقتعد صلاتنا بأشقائنا وأصدقائنا حيثما كانوا من قارتنا أو غير قارتنا مقعد الصلات القائمة على التعارف والتعاون والخذ والعطاء .

ولبلوغ هذه المطالب ابتدأنا باعداد طائفة من النصوص التشريعية والتنظيمية التي أحسننا بالحاجة الماسة اليها، فقدمناها للحكومة بقصد الموافقة عليها ، فمنها ما صدر ومنها ما هو رهن بالدرس وأملنا وطيد أن يصادق عليها لتتوافر لدينا الاسباب الكفيلة بمنح عملنا الثقافي ذلك العمق وذلك الاتساع اللذين هما مناط الآمال .

الا ان تأخر صدور بعض النصوص وان فت في ساعدنا بعض الشيء فانه لم يقف حاجزا بيننا وبين الانطلاق ، وانطلقنا بالفعل داخل البلاد وخارجها معرفين بالثقافة المغربية أصالتها وطرافتها ، مشاركين في كثير من اللقاءات العربية وغير العربية، مستقبليين لمؤتمرات متنوعة الاهداف والمرامي ، مرحبين بالاسباب الثقافية ومنظمين لاسباب ثقافية في الاقطار الشقيقة

والصديقة ، مشجعين للادباء والكتاب والجمعيات الثقافية ،
مصدرين لمجالات متخصصة وغير متخصصة ، محافظين على
التراث ، منقبين عن الآثار ، مهتمين بالقراءة وترغيب الشباب
ومن تجاوز طور الشباب في المطالعة واقتناء العرفان ، مولين
كل ما يمكن من عناية لمعاهدنا الموسيقية المفتقرة الى المستوى
العالي المطلوب من التلقين والتعليم ، حافزين للرسم والمسرح
والمعارض الفنية ، جادين في اغناء متاحفنا بالاعمال الفنية على
اختلاف اصنافها وأشكالها .

وهكذا عبرنا الاجواء بفنوننا الاصلية وفنوننا الشعبية الى
المانيا والاتحاد السوفييتي والسينغال وتونس وموريتانيا
ونيجيريا وفرنسا وسلطنة عمان فضلا عن رحلات وفودنا
للمشاركة في لقاءات تمت في القاهرة وبغداد وابى ظبي وعمان
وروما ونواكشوط وغيرها من المدن والعواصم .

وهكذا عبرت الاجواء الى بلادنا مجموعات من الاتحاد
السوفييتي وكوريا وتونس وفلسطين والمملكة العربية السعودية
وموريتانيا والصين الشعبية ، قمنا بهذه الجهود وتلقينا هذه
المجموعات على قلة من أطر وضآلة من امكانيات مالية .

ومهما يكن من شيء فقد استطعنا ان نبوء المغرب مقاما
محمودا بين الاصدقاء والاصدقاء ونظهر هؤلاء على ما يتسم به
المغرب من جد وفاعلية وعلى ما تزخر به بلادنا من آثار لمواهب
وعبقريات قديمة وحديثة ، وندلهم على اننا في كثير من الامور
راكبون للنهج القويم طامحون الطموح الشامخ حيثما اتجه
العزم واشرابت المطالب .

وسنظل دائبين على التعريف بثقافتنا والتصدى لاكتناه ثقافة الشعوب التى تشجنا بها وشائج قرابة وصداقة تاريخية كما سنظل راعين لالوان الحضارة المتأصلة وألوان الحضارة المتمثلة فى العمل الفنى المتجدد بتجدد الحقب والتيارات ، شديدي الحرص على أن تتوالى ثقافتنا مترعة ثرية متممة أبدا بالديناميكية والحركة موصوفة ابدا بأنها متاع مشاع لجميع افراد الشعب غير موقوف على طائفة محظوظة او فئة مخصوصة، وسواء تعلق الامر بالابداع ام تعلق بالاستفادة والاستمتاع فان وكدنا سيصل مصروفا الى خلق الظروف الصالحة والفرص الراضية لفائدة كل احساس وكل موهبة وكل ادراك لا فرق بين فنان وفنان ولا ايثار لجمهور على جمهور .

معذرة اليكم سيدي الرئيس ، حضرات السادة النواب المحترمين ، فقد أطلت حتى خشيت الاملال وبلغت من اصغائكم أحسن ما ترومه الآمال ، وأعدكم بأن آخذ بعين الاعتبار الاقتراحات المعبر عنها فى هذا المجلس وذلك بقدر الامكان .
والسلام عليكم ورحمة الله .

محمد ابا حنيني

مجلة " اليمامة " بحري استجواباً مع الأستاذ السيد
الحاج محمد ابا حنيني
وزير الدولة المكلف بالشؤون الثقافية

أجرت مجلة « اليمامة » التي تصدر بالرياض ، استجواباً أدبياً مع

الاستاذ الكبير السيد الحاج محمد ابا حنيني ، وزير الدولة المكلف بالشؤون الثقافية ، صدر بعنوان « ابا حنيني يجدد شكوى ابن بسام فى الذخيرة » فى عددها 452 المؤرخ ب 27 ماي 1977 ، من جملة ما جاء فيه ، حديث معاليه باسهاب من الحالات الموروثة التي جعلت الثقافة فى المشرق أكثر حيوية فى عصر النهضة ، كما اهتم بالحديث عن اختصاصات وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية وتشجيعها للادباء والفنانين ، وتنظيم الوزارة لجائزتي « الحسن الثاني للمخطوطات والوثائق » و « جائزة المغرب » ، بالإضافة الى تزويد الوزارة بعض المكتبات فى الخارج بالكتب لفائدة الجاليات المغربية . كما اشار السيد الوزير فى هذا الاستجواب الى المشاكل التي تعترض المؤلف المغربي والصعوبات التي يواجهها من حيث النشر والتوزيع .

ومن جهة اخرى تحدث الاستاذ الوزير فى هذا الاستجواب عن احتفاظ المغاربة بكيانهم وبروحهم وبيدئهم وبلغتهم وبأصالتهم ، اذ لا حرج فى أن يكون لكل بلد عربي ثقافته الخاصة ولكن لا بد أن يكون الجامع المشترك هو الثقافة العربية الاسلامية .

بلاغ من وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية حول المشاركة فى جائزة المغرب لسنة 1977

ان جائزة المغرب لسنة 1977 ستمنح فى نهاية السنة الحالية . وستعين الوزارة لجنة التحكيم من بين الاساتذة المختصين ، وذلك بناء على محتويات الكتب المرشحة لنيل الجائزة . وسيقل باب الترشيحات فى الساعة الثانية عشرة زوالا من يوم السبت 19 نوفمبر 1977 .

وعلى من يرغب فى الاطلاع على الشروط المطلوبة قانونا أن يعود الى القرار الوزاري رقم 75474 المؤرخ ب 17 شعبان 1394 (5 شتنبر 1974) والصادر بالجريدة الرسمية عدد 3230 ، او أن يتصل بمصلحة الإنتاج الثقافى والمكتبات التابعة لوزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية — شارع غاندي — الرباط .

بلاغ من وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية حول نتيجة جائزة المغرب لسنة 1977

بناء على البلاغ الصادر عن وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية،
حول الاجتماع الأول — لأعضاء اللجنة العامة الموكول اليها اختيار
المستحقين لجائزة المغرب لهذه السنة — الذي انعقد برئاسة السيد الحاج
محمد أبا حنيني ، وزير الدولة المكلف بالشؤون الثقافية ، والذي تم فيه
تصنيف الكتب المرشحة حسب محتوياتها ، وأصناف الجائزة الثلاثة ، كما
تم فيه تكوين اللجن ، وتوزيع الكتب المرشحة على أعضائها حسب
اختصاصاتهم .

بناء على ذلك ، عاد أعضاء اللجنة العامة للاجتماع من جديد بقاعة
وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية ، في مساء يوم الاثنين 8 محرم
1398 — الموافق 19 دجنبر 1977 بعد أن انقسمت الى ثلاثة لجن :

- (1) لجنة العلوم الانسانية والاجتماعية .
- (2) لجنة العلوم والرياضيات ؛
- (3) لجنة الفنون والآداب .

واختلت كل لجنة من هذه اللجن في قاعة خاصة ، وبعد مناقشات
ومداولات استغرقت ثلاث ساعات استقر الرأي على ما يلي :
— تمنح جائزة المغرب للعلوم الانسانية والاجتماعية لهذه السنة
للسيدة فعيمة هراج التوزانسي ، الاستاذة بكلية الآداب بجامعة محمد
الخامس، تقديرا لكتابها « الامناء بالمغرب في عهد السلطان مولاي
الحسن . »

— تمنح جائزة المغرب للعلوم والرياضيات لهذه السنة للدكتور عبد
اللطيف ابن شقرون الاستاذ بكلية الطب بجامعة محمد الخامس ، تقديرا
لكتابها « دور المثانة المكونة من الاعور في حصر البول » .

— تمنح جائزة المغرب للآداب والفنون لهذه السنة للسيد عبد العلي
الودغيري الاستاذ بكلية الآداب بجامعة محمد بن عبد الله ، تقديرا لكتابها
المسمى « ابو علي القالي واثره في الدراسات اللغوية والادبية بالاندلس »

وكانت لجنة التحكيم تتألف في هذه السنة من السادة :
الدكتور عبد اللطيف بربيش ، الدكتور عبد القادر التونسي ،
الدكتور ادريس بن يحيى ، الدكتور محمد ابن شريفة ، الدكتور عباس
الجراري ، الدكتور تمام حسان ، الدكتور عبد الهادي التازي ، الدكتور
عبد الكريم الابيض ، الدكتور محمد ابن شقرون ، الدكتور محمد بنونة ،
الاستاذ محمد القبلى ، الاستاذ محمد المنونى ، الاستاذ محمد ميكو ،
الاستاذ عبد الكريم غلاب ، الاستاذ عبد الرحمن الفاسى ، الاستاذ
محمد ابن تاويت ، الاستاذ الامين الدمناتى ، الاستاذ مراد بن مبارك .

بلاغ من وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية حول جائزة الحسن الثانى للمخطوطات والوثائق لسنة 1978

في اطار التعريف بالتراث التاريخى والحضاري بالمغرب ، وجريا
على العادة المألوفة التى سلكتها وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية ،
في تنظيم جائزة الحسن الثانى للمخطوطات والوثائق ، يسرها أن تعلن
للجمهور المغربى الكريم في هذه السنة عن الجائزة العاشرة للمخطوطات
والوثائق التى خصصت لها مكافآت مالية تتصاعد حسب اهمية المخطوط
او الوثيقة التى توجد في الملكية الخاصة .

ومن المعلوم أن جل ما هو مخطوط يعتبر ذخيرة كان مكتوبا على
الورق، او الرق أو الألواح ولهذا فان الجوائز ستخصص لما يلى :
اولا : للاهم من الكتب المخطوطة ، مؤلفات ، تقايد وكنائشات
علمية ، ومذكرات شخصية وخطوط العلماء ، وكنائش ونسخ الملاحون ،
ومجموعات الفتاوي او الرسائل ودواوين الاشعار والمجموعات الموسيقية
وكل ما هو مخطوط واو كان على ورقة او ورقات معدودة .
ثانيا : للوثائق ايا كان عصرها وموضوعها ، ظواهر ورسائل رسمية
او شخصية ورسوم عدلية ومحاسبات واجازات علمية وشهادات الانساب
وغير ذلك .

هذا وستشرف لجنة برئاسة معالى السيد وزير الدولة المكلف

بالشؤون الثقافية على فحص هذه المخطوطات وتقييمها ، واصدار بلاغات حول نتائج الجائزة ؟

وتؤكد الوزارة انها اتخذت كل الاحتياطات لضمان ارجاع المخطوطات الى اصحابها كاملة غير منقوصة ، بدون ابطاء ولا تاخير ، فور انتهاء المعرض واشغال اللجنة المختصة .

والجدير بالذكر ان قيمة المخطوط او الوثيقة انما تتجلى في مدى ما قد يستفيد منها تاريخ الامة وحضارتها ، وان ضياع وثيقة مهمة نتيجة آفة من الآفات تعد خسارة في ثروتها الفكرية . لهذه الاعتبارات كلها ، قررت وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية ، تصوير المخطوطات والوثائق النفيسة لتحفظ في المكتبة العامة بالرباط ، للاستفادة منها ، وخشية مما قد يعثرها من ضياع ، كما ان تصويرها لا يمكن ان يصيب المخطوط او الوثيقة بأي ضرر ، ولا يفقد ايا منها ما له من قيمة كمستند خطي .

ورغبة من الوزارة في الحصول على مخطوطات جديدة تؤكد للسادة المساهمين في هذه الجائزة ان المخطوطات والوثائق التي سبق عرضها وتقديرها لن تقبل في المسابقة الحالية .

فعلى من يتوفر على شيء من هذه النخائر ان يتقدم بها من الآن وحتى العشرين من شهر فبراير 1978 الى أحد المراكز التالية :

العمالة او الاقليم	اسم المركز وعنوانه
عمالة الرباط وسلا	وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية - مصلحة الانتاج الثقافي والمكتبات ، شارع غاندي - الرباط -
عمالة الدار البيضاء عمالة اقليم سطات عمالة اقليم خريبكة عمالة اقليم الجديدة عمالة اقليم ابن سليمان	النيابة الاقليمية للشؤون الثقافية شارع الزيراوي رقم 133 - الدار البيضاء

اسم المركز وعنوانه	العمالة او الاقليم
خزانة البطحاء « بطحاء الاستقلال » فاس	عمالة اقليم فاس عمالة اقليم تازة عمالة اقليم بولمان
خزانة الجامع الكبير زنقة العدول مكناس	عمالة اقليم مكناس عمالة اقليم خنيفرة عمالة اقليم قصر السوق
خزانة القنيطرة طريق عين السبع القنيطرة	عمالة اقليم القنيطرة عمالة اقليم الخبيسات
خزانة ابن يوسف العمومية مراكش	عمالة اقليم مراكش عمالة اقليم بني ملال عمالة اقليم قلعة السراغنة عمالة اقليم ازيلال عمالة اقليم ورزازات
خزانة المجلس البلدي — اكادير	عمالة اقليم اكادير عمالة اقليم ترنيت عمالة اقليم طرفاية عمالة اقليم طنطان
خزانة الامام على تارودانت	عمالة اقليم اجادير — زاكورة ارفود — تارودانت
خزانة الشريف الادريسي ساحة القصبة — وجدة	عمالة اقليم وجدة عمالة اقليم فكيك عمالة اقليم التاضور
الخزانة العامة للكتب والمخطوطات شارع محمد الخامس — تطوان	عمالة اقليم تطوان عمالة اقليم الشاون عمالة اقليم الحسيمة

العمالة أو الاقليم	اسم المركز وعنوانه
عمالة آفيم تطوان — العرائش — القصر الكبير — عرباوة	خزانة البلدية — القصر الكبير
عمالة اقليم طنجة	الخزانة العامة — شارع الحرية 71 — طنجة
عمالة اقليم آسفى عمالة اقليم الصويرة	خزانة المجلس البلدي — آسفى
الصحراء المغربية	مراكز السلطة المغربية بالصحراء المغربية — العيون — بوجدور — اسمارة

(*) في المناهل العدد التاسع

من هناك ، من المكان البعيد ، ومن المستقر القريب ، من الاطلالة على المحيط ، ومن النبض الصادق لقلب العرب ، من هناك نطل علينا بين الحين والحين تلك « النسمات » التي تتجمع في شكل « باقة » تقول لنا كل شيء عن الاعزاء الذين يسكنون اقصى المغرب العربي ، ويتعاملون مع « اللفة » وفنونها تعامل العشاق .

تأتى « المناهل » ليقول « محمد العربي الخطابي » تحت عنوان :

(*) يسر « المناهل » أن تنقل لقرائها هذه الكلمة الطيبة الصادرة في مجلة « روز اليوسف » (26 دجنبر 1977) عدد 2585 موجهة شكرها الى الاستاذ عبد الفتاح رزق على عواطفه نحو هذه المجلة .

« الاندلس راح ، وقيثارة ، وعواطف » :

« الاندلس فى قلوب الشعراء قصيدة تتألف من كلمات ! عيون سود
تؤلّفها البسمات وتطهرها الدموع ، وحب يذكى الصد والغيرة ، وشموخ
يطبع هامات الرجال ، وملاحة تذوب فى رشاقة النساء » .

ونطالع بحثا للاديب المغربى الكبير « محمد الفاسى » عن اللغة
السواحلية واثر العربية فيها ؟.. كما نقرأ بحثا فريدا للدكتور « عباس
الجراري » عن « المولد النبوي فى الادب المغربى » .. وهو يعتمد فى هذا
البحث على كتاب « الدر المنظم فى مولد النبي المعظم » - لابي العباس
المسبى - ويقول فى البداية : « فى القرن السابع الهجرى نلتقى فى المشرق
- مصر خاصة - مع تيار ادبى متأثر بالفكر الصوفى الذى حملته فى هذه
الفترة ، وقبلها بقليل ، متصوفة مغاربة واندلسيون كمحبى الدين بن
عربى ، وابى الحسن الشاذلى ، وابى العباس المرسى ، واحمد البدوي » .

وفى « المناهل » نلتقى بقصة مترجمة عن الانجليزية بقلم الكاتب
الكبير « عبد المجيد ابن جلون » ، كما نلتقى بمجموعة فريدة من قصائد
الشعراء :

« عمر بهاء الدين » ، و « علي الصقلي » و « حسن الطريق » ، ثم
بالقصة المتميزة التى اختار لها مؤلفها « احمد عبد السلام البقالي » بعنوان :
« الليلة الثانية بعد الالف » : والقصة تنسج على منوال حكايات « الف
ليلة وليلة » ولكنها تستخدم الاسلوب العصري مهما كان من غرابة أسماء
الابطال وغرابة تصرفاتهم ، فمهما يكن فى الامر فان « شهرزاد » ستظل
تنفس الحياة ، ومهما انتهت الليالى فانه لا بد وان يأتى « الصباح
لتسبكت - مؤقتا - عن الكلام المباح ! »

ويثير « محمد اليعقوبى البدراوى » قضية تاريخية هامة : « احراق
كتاب الاحياء فى الغرب الاسلامي » ويقول :

« اذاً اتفق الفقهاء - فى المغرب الاسلامى وفى عهد المرابطين -
على قرار الاحراق ونفذه فى كتاب « الاحياء » فلان الظروف التى ألفت

فيها هذا الكتاب في المشرق لا تتفق والظروف التي كانت تحيط بالمغاربة .
فالدين عند المرابطين دين عمل وجهاد ، أما « أبو حامد الغزالي » فقد ألف
كتابه في مرحلة العزلة من حياته ساخطا على مجتمعه ، وخطط دراسته
الفقهية بالفلسفة والتصوف ، وبهذا جاء مفهومه للفقيه مخالفا للرسالة
التي كان يتحملها الفقيه في الاندلس .

و .. لا نعتقد ان هذه « العجالة » يمكن ان تنفي كل تلك الدراسات
التي تزدهم بها « المناهل » ، ولكن يجب تحية ذلك الجهد الكبير وراء
اصدار هذه المجلة ، ففي الوقت الذي تتفاخر فيه بعض دول المغرب
العربي بحرصها على العروبة لا نجد عندها مجلة جادة .. بينما تقدم
« المغرب » هذه المجلة بانتظام ، وباحتضان لكل الاتجاهات والاشكال
الادبية ، الامر الذي يستدعي ان تتواجد هنا في مصر .

وهذا ما تحرص عليه « المناهل » !

عبد الفتاح رزق

« روز اليوسف »

ذيل وتعليق حول قضية المعتمد بن عباد

وصلنا القسم العاشر من هذا البحث للاستاذ عبد الرحمن الفاسي ،
وهذا العدد تحت الطبع ، فأرجانا نشره الى العدد القادم ان شاء الله .

مشكلة الحماية القنصلية بالمغرب من نشأتها إلى مؤتمر مدريد (1880)

صدر مؤخرا للاستاذ عبد الوهاب ابن منصور كتاب جديد بعنوان
« مشكلة الحماية القنصلية بالمغرب من نشأتها إلى مؤتمر مدريد سنة
1880 » . وسنوافي القراء في العدد القادم بعرض عنه .

المناهل

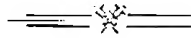
المناهل

تصدرها :

وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية

زنقة غاندي - الرباط - المغرب

التليفون : 318.91 / 92 / 93



AL - MANAHIL

Publication du
MINISTÈRE D'ÉTAT CHARGÉ DES AFFAIRES
CULTURELLES

Rue Ghandi - Rabat (Maroc)

Tél. : 318-91/92/93

مطبعة فضالة - الحميدية (المغرب)